

الملك الناصر

میں نے اسے

بسم الله الرحمن الرحيم

۱۰۳۲

[illegible]

وَأَسْفَرُ الْحَيَاةَ بِرُحْمَةٍ وَبِغَيْرِ كَلْبٍ

تقسیمات و مکاتیب

سید محمد علی

پاکستان کے نام

الأفلاك السنية



الأفكار السنيّة

الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن هاشم
ابن قتيبة الدينوري

المولود سنة ثمان مائة وثلثمائة هـ وتوفي سنة ثمان مائة
وهو المعروف بـ شيخ إجماعنا

تحقيق الدكتور

د. محمد الزبي

الأستاذ بالأزهر

الجزء الأول

الناشر

مؤسسة (العلم) وكرامه للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ، فإن عبد الله بن مسلم بن قتيبة من العلماء للبرزين في كثير من الفنون ، وله تأليف في التفسير والحديث والفقه والنحو والتاريخ ، ومن أشهر كتبه وأكثرها سيرة بين الناس ، وأحبا إلى قلوبهم كتابه الإمامة والسياسة الذي تناول فيه تاريخ حقبة من أحفل حقب الإسلام بالتاريخ المجيد ، والأحداث الجسام التي دله تصرف للسليين فيها على عقل راجح ، وقدم راسخة في السياسة وتديرشئون للملك ، والعمل على جمع الشمل ، وإبعاد الفرقة عن الأمة الإسلامية ، مما جعل قراءة هذا الكتاب واجبا على كل من يريد معرفة تاريخ قومه من السليين الأولين وفيهم جلة الصعابة وخيار التابعين ، وفيهم الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم من ملوك السليين الذين رفعوا رأيتهم ، ووسعوا سراقته ، وعدلوا بين الناس وأصفوا الظالم من المظالم ، وكانوا قدوة للمكالم المادلين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين خير الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صاحب السيرة المطهرة والتاريخ المجيد ، وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه وحملوا الأمانة من بعده فقاموا عليها خير قيام وأضاءوا طرق الحياة لساكنيها بالعدل والحكمة والاستقامة ، ورفضوا شأن دينهم ومعتقدهم ، ودفنوا إلى الجسد والزهرة أتباع رسولهم وبعثه ، وكان منهم النجوم الذين يستضاء بها في ظلمات الحوالة ، وللولك الذين يمشي في أكنافهم ويستظل بظلهم ، والبياد الذين عرفوا للساجد جنوبيهم وظهورهم ، وبواطن أقدامهم ، والزهاد الذين كانت الدنيا لا تساوي عندهم غدوة أو روعة في سبيل الله .

وبعد ، فإن كتاب « الإمامة والسياسة » لعالم الفاضل للزورج العظيم عبد الله بن مسلم بن عتيبة الدينوري ، من أشهر الكتب تدلّ على بين فراء العربية ، لما حواه من تاريخ حبة عزّة على نفس كل مسلم حبيبة إلى قلبه جديرة بالذكر على لسانه ، فيها عرف المسلمون العزة ، ونصروا بالسعادة ، وألهوا صروح العدالة ، وقوضوا قوائم الظلم ، وطمسوا معالم الكفر ، وأوقدوا مشاعل الإيمان بهمة يتنافس عن دركها الزمن ، وعزّة لا ينال منها الوهن ، وقد وكلّ إلى تحقيق هذا الكتاب ، ليخرج في ثوب قشيب يحسن عند الرائي منظره ، ويطيب عند قارئه خبره ، ويحبب النافذة في تاريخهم ، ويقربهم من المأم أجدادهم ، حتى يستشعروا عظمة أمّتهم ، وينهضوا في حياتهم تهجم ، وينبوا كما نبوا ، ويصاهدوا كما صاهدوا ولا يناموا عن إحياء تراثهم ، واسترجاع ميراثهم الذي تكاثرت عليه ذئاب الأمم من الكفار ، ومن الأمم من الذين لا يهمهم سوى الدنيا ، ولا يرون إلا العاجلة ، ولا ينظرون إلى الآجلة ، والله من وراءهم محيط .

وقد لبت الدعوة وقت جهد في هذا الكتاب اعتبره قليلاً ، ولكنه مفيد ، فجلت لبعض الموضوعات عناوين جديدة توحيها وشرحت بعض الجمل ليان ضوابطها ، وعلقت تعليقات مختصرة على بعض الأحداث التاريخية تحريها من القاري وقرب القاري منها ، وترجمت للؤلؤ حتى يعرف الناس الرجل الذي يقرءون كتابه من هو ويلبوا بلبنة من تاريخه .

وأسال الله أن يجعل الكتاب مثمراً نافعاً لكل من يقرؤه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

في الزمان

ترجمة ابن قتيبة

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد من أئمة الأدب والتاريخ والنحو وغيرهما من العلوم وهو من الصنفين للكثيرين ، وله بغداد وسكن الكوفة ، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها ، وتوفي ببغداد ٢٧٦ هـ سنة ٨٨٩ م وكان ميلاده سنة ٢١٣ هـ سنة ٨٢٨ م .

ومن كتبه : تأويل مخطف الحديث ، وأدب الكاتب ، والمعارف ، وكتابي للعالمين ، أخبار ، والشعر والشعراء ، والإمامة والسياسة ، ويعرف بتاريخ الخلفاء وكتاب الشربة ، والرد على الشيعة ، وفضل العرب على العجم ، ومشكل القرآن ، والاعتقادي اقرب القرآن والمسائل والأجوبة ، وغير ذلك فهو من علماء العرب الذين يشار إليهم بالبنان الذين أعادوا اللغة العربية وأهلها أيما فأمة ، رحمه الله وجزاه خير الجزاء على ما قدمت له من خير وما حوى جنتاه من علم ، إنه صميع اللهام .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى :

نفتح كلامنا بحمد الله تعالى، وتقدس ربنا بذكره والثناء عليه، لا إله إلا هو لا شريك له ،
الذي أخذ الحمد لنفسه ذكراً ، ورضى به من عباده شكراً وصلى الله على سيدنا محمد الذي أرسله
بالهدى ، وختم به رسول الله السدا ، صلاة زاكية ، وسلم تسلياً كثيراً أبدا .

فصل في بكرة عمر رضي الله تعالى عنهما

حدثنا ابن أبي مريم ، قال حدثنا أسد بن موسى ، قال حدثنا وكيع ، عن يونس بن أبي
إسحاق ، عن الشعبي ، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال : كنت جالساً عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال عليه الصلاة والسلام :
هذان سيدا كهول^(١) أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام
ولا يخبرهما باهل .

حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني رضي الله عنه ، حدثنا أحمد بن حواش الحنفي ، قال حدثنا
ابن المبارك ، عن عمر بن سعيد ، عن أبي مليكة ، قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول :
وضع عمر رضي الله عنه على سريره فتكلمه^(٢) الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع^(٣) ،
فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي^(٤) من ورائي ، فالتفت فإذا علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه يترحم على عمر رضي الله عنه ، وقال : والله ما خلقت أحداً أحب إلي أن

(١) الكهول جمع كهول ، وهو من ظهر الشيب برأسه وكان له مهابة في الناس ،
وقيل من جاوز الثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة .

(٢) أحاطوا به .

(٣) أي قبل أن يحمل ليذهب به إلى القبر .

(٤) للتكلم الكشف .

إني الله تعالى بثل عمله منك يا عمر ، وأيم الله بر كنت لأرجو أن يمضك الله مع صاحبك^(١) ،
ونذك أني كنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ،
وكنت أنا وأبو بكر وعمر ، وإن كنت لأظن^(٢) أن يمضك الله تعالى معهما . وأخبرنا
ابن أبي شيبة ، قال : حدثنا يزيد بن الحباب ، عن موسى بن عبيد ، قال : أخبرني أبو معاذ
وأبو الخطاب ، عن علي بن رضى الله عنه ، قال : بينما أنا جالس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذاقبل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقال يا علي هذان سيدا كهول أهل الجنة ، إلا
ماكان من الأنبياء عليهم السلام ، ولا تحبهما .

حدثنا الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن عبد الصلى عن القاسم بن أبي عبد الرحمن
رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقد سمعت أن أبش إلى الأمم رجلا
يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين ، فأبش أبي بن كعب ، وسألا مولى أبي حذيفة
ومعاذ بن جبل ، كما فعل عيسى بن مريم عليهما السلام^(٣) ، فقالوا : يا رسول الله أفلا تبش
أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هما لا بدلي منهما ، هما مني بمنزلة
السمك والبصر .

سؤال عمر بن عبد العزيز عن استغلاب الرسول لأبي بكر

وحدثنا ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، قال : أخبرنا محمد بن الزبير ، قال : أرسلني عمر بن
عبد العزيز إلى الحسن البصري ، رحمهما الله تعالى ، أسأله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
استغلف أبا بكر رضى الله عنه ، فأبش فاستوى جالسا ، وقال : إني والله لا إله إلا هو ،
استغلفه ، وهو كان أعلم بالله تعالى ، وأتقى لله تعالى ، من أن يتوب^(٤) عليهم لو لم يأمره .

استغلاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه

عن ابن أبي مريم ، قال : حدثنا الرباعي ، عن أبي عون بن عمرو بن تميم الأنصاري
رضى الله عنه ، وحدثنا سعيد بن كثير ، عن عفير بن عبد الرحمن قال : حدثنا قصة استغلاب

(١) يريد مصاحبه أبا بكر رضى الله عنه .

(٢) الظن هنا معناه الرجحان أى الأرجح .

(٣) أى على عيسى وأمه مريم السلام ، ومعنى كما فعل عيسى بن مريم أى كما جعل له
حواريين يسلون الناس الله بن .

(٤) يتوب عليهم أى يأخذ الخلافة بالرغم منهم ودون موافقتهم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ، وشأن السقيفة ، وما جرى فيها من القول ، والتنازع بين المهاجرين والأنصار ، ويضهم يزيد على بعض في الكلام ، فحتمت ذلك والله على معنى حديثهم ، وعجاز لفتحهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في مرضه الذي قبض فيه ، متوكئاً على الفضل بن العباس رضى عنهما ، وغلام يقال له نوبان رضى الله عنه ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم فدخل منزله ، وقال لثلامه اجلس على الباب ولا تحجب أحداً من الأنصار رضى الله عنهم ، فأخذوا بالباب ، وقالوا للثلام المذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : حنّده نساؤه رضى الله تعالى عنهم ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاهم ، فقال من هؤلاء ؟ قيل له الأنصار رضى الله عنهم سيكون ، فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على علي والعباس رضى الله عنهما فدخل للمسجد واجتمع الناس إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة وإن تركتي فيكم الأنصار رضى الله عنهم ، ومكرشي^(١) التي آوى إليها ، أو صيكم بتقوى الله تعالى ، والإحسان إليهم ، فقد علمتم أنهم شاطروكم^(٢) وواسوكم في السر واليسر نصروكم في النشاط والكسل ، فاعرفوا لهم حقهم ، واقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن سيئهم .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله وهو مصوب الرأس شديد الوجع ، فلما كانت الصلاة آتت بلال للؤذن رضى الله عنه يدعو إلى الصلاة ، ففتح صلى الله عليه وسلم عليه ، وقال للنساء : ادعوني لي حبيبي ، ففرفت عائشة رضى الله عنها أنه يريد أبا بكر ، فقالت : أرسل إلى عمر ، فإن أبا بكر رجل رقيق ، وإن قام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم اتضح من البكاء ، وعمر أقوى منه ، فأرسلت إلى عمر رضى الله عنه ، فأتى فسلم ، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، فرد السلام ، ثم أطرق عنه ، ففرف عمر أنه لم يرده ، فلما خرج أقبل صلى الله عليه وسلم عليين وقال : ادعوني لي حبيبي فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، أمرت عمر يصلي بالناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنكن صواحبات يوسف عليه السلام ، ادعوني لي حبيبي إنما أفعل ما أؤمر فندعى أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

(١) الكرش هنا : الجاعة : أي هم جماعتي التي آوى وأسكن إليها .

(٢) شاطروكم . تقاسوا معكم أموالهم .

اختلاف أبي بكر رضي الله عنه في الصلاة بالناس

فلما جاء قال له : اذهب مع للؤذن ، فصل بالناس ، فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس حتى كان اليوم الذي مات فيه رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين .

اختلاف الصحابة على موضع دفنه صلى الله عليه وسلم

فأنعموا فقال قائل يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يصلي في مقامه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه . معاذ الله أن نجسه وثنا نبده ! وقال قائل : تدفنه صلى الله عليه وسلم في البقيع ، حيث دفن إخوانه من المهاجرين والأنصار . فقال أبو بكر : إنا نكره أن يخرج قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا إلى البقيع ، قالوا : فما ترى يا أبا بكر ؟ قال : سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : ما قبض نبي قط إلا دفن جسده حيث قبض روحه . قالوا : فأنت والله رضا ومتنع^(١) .

وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قد لقي علياً كرم الله وجهه ، فقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قبض ، فأسأله إن كان الأمر لنا يبتغي أن كان لتبرنا أوصى بنا خيراً ،

محاولة العباس مبايعة الإمام علي

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أبسط يدك أبايكم ، فيقال : هم رسول الله بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيايكم أهل بيتك ، فإن هذا الأمر إذا كان لم يزل^(٢) ، فقال له علي كرم الله وجهه : ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟ وقد كان العباس رضي الله عنه لقي أبا بكر فقال : هل أوصاك رسول الله بشيء ؟ قال : لا . ولقي العباس أيضاً عمر ، فقال له مثل ذلك . فقال عمر : لا . فقال العباس لعلي رضي الله عنه : أبسط يدك أبايكم وبيايكم أهل بيتك .

ذكر السقيفة وما جرى فيها من القول

وحدثنا ، قال : حدثنا ابن عفير عن أبي عون عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري رضي الله عنه . أن النبي عليه الصلاة والسلام لما قبض ، اجتمعت الأنصار رضي الله عنهم إلى سعد بن عباد ، فقالوا له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض . فقال سعد لانه قيس رضي الله عنهما : إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلاماً لمرضى ، ولكن طلق مني قولي فأسمعهم ، فكان سعد يشكهم ، ويحفظ ابنه رضي الله عنهما قوله ، فرفع صوته ، لكي يسمع قومه ، فكان مما قال رضي الله عنه ، بعد أن سمع الله تعالى وأثنى عليه : يا معشر الأنصار إن لكم ساجدة في

(١) أي أنت ترضى بحكمك وتختص بكلامك .

(٢) أي إذا بوجع بالخلافة لأحد لا يقال منها .

الدين وقضية في الإسلام ليست قتيبة من العرب ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في قومه بضع عشرة سنة ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان ، فلما آمن به من قومه إلا قليل ؛ والله ما كانوا يقدرون أن ينصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرفوا دينه ، ولا يدعوا عن أنفسهم ، حتى أراد الله تعالى لكم القضية ، وساق إليكم الكرامة ، وخسكم بالنعمة ، ووزقكم الإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وألغى له ولأصحابه والإعزاز لدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأقبله على عدوكم من غيركم ، حتى استفاموا لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد للقادة^(١) صاعراً داحراً حتى أئمن الله تعالى لديه بكم الأرض^(٢) ، وذاتت بأسافكم له الحرب ، وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم قير العين ، فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فلنكم أحق الناس وأولاهم به

فأجابوه جميعاً : أن قد وقعت في الرأي ، وأصبحت في القول ، ولبن ندو ما رأيت توليتك هذا الأمر ، فأنت مقنع وصالح المؤمنين رضا . قال فأتى الجبر إلى أبي بكر رضي الله عنه ، ففزع أشد الفزع ، وقام معه عمر رضي الله عنهما ، غريباً مسرعين إلى سقيفة بني ساعدة ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فانطلقوا رضي الله عنهم جميعاً ، حتى دخلوا سقيفة بني ساعدة ، وفيها رجال من الأشراف ، معهم سعد بن عبادة رضي الله عنه ، فأراد عمر رضي الله عنه أن يبدأ بالكلام ، وقال : خشيت أن يقصر أبو بكر رضي الله عنه عن بسن الكلام . فلما تيسر عمر للكلام ، تجهز أبو بكر رضي الله عنه وقال له : على رسلك ، فسكني الكلام ، فشهد أبو بكر رضي الله عنه ، وانتصب له الناس ، فقال : إن الله جل ثناؤه بثّ محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله تعالى بنواصينا^(٣) وقلوبنا إلى ما دعا إليه ، فكننا معشر للمهاجرين أول الناس إسلاماً ، والناس لنا فيه تبع ، ونحن عشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقرئيش فيها ولادة . وأنت أيضاً والله الذين آووا ونصروا ، وأنتم وزرأونا في الدين ، ووزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى وشركاؤنا في دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراد وضراء ، والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه ، فأنتم أحب الناس إلينا ، وأكرمهم علينا ، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى ، وللتسليم لأمر الله

(١) أعطى القادة : خضع لحكم المسلمين وتباعدت لهم .

(٢) أئمن بكم الأرض : غلب بكم أهل الأرض .

(٣) النواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس والراد جذب الله عقولنا وقلوبنا إلى ما دعا إليه .

عز وجل ولا ساق لكم وإخوانكم للمهاجرين رضى الله عنهم ، وهم أحق الناس فلا تحسدوهم ، وأتمم للزورون على أنفسهم حين الخصاصة ، والله ما زلتم مؤثرين إخوانكم من المهاجرين ، وأتمم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم ، وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم ، وإنما أدمعكم إلى أبي عبيدة أو عمر ، وكلاهما قد رضى لكم ولهذا الأمر ، وكلاهما له أهل . فقال عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما : ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب القارئتين اثنتين ، وأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فأنت أحق الناس بهذا الأمر . فقال الأنصار : والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم ، وإنما لسكنا وصفت يا أبا بكر والحمد لله ، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا منكم ، ولا أرضى عندنا ولا أبغى . ولسكنا نشفق مما بعد اليوم ، ونحذر أن يبلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم ، فلو جئتم اليوم رجلاً منا ورجلاً منكم بإينا ورضينا ، على أنه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار فإذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة ، كان ذلك أجدر أن يعدل في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن يكون بضنا يتبع بعضاً ، فيشفق القرشي أن يزغ فيقبض عليه الأنصارى ، وشفق الأنصارى أن يزغ فيقبض عليه القرشي . قام أبو بكر ، حمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : إن الله تعالى بث هذا صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى خلقه ، وشهداً على أمته ليعبدوا الله ويوحده . وهم إذ ذاك يعبدون آلهة شتى ، يزعمون أنها لهم شافعة ، وعليهم بالغة نافعة ، وإنما كانت حجارة منحوتة ، وخشباً منجورة^(١) ، فآفروا إن علمتم « إنكم وما يعبدون من دون الله » ، « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ، وقالوا « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، خفف الله تعالى للمهاجرين الأولين رضى الله عنهم بصديقه ، والإيمان به ، وللإسالة له والصبر معه على الشدة من قومهم ، وإذلالهم وكذبهم لإهم وكل الناس خالف عليهم ، زان^(٢) لهم ، فلم يستوحشوا لقله عديم وإزراء الناس بهم واجتماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض ، وأول من آمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم أولواؤه وعشيرته ، وأحق الناس بالأمر من بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم ، وأتم ما يحسر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم في الإسلام ، رضى الله تعالى أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم مهاجرة

(١) منجورة : أى صنمها النجار .

(٢) زان : طالب عليهم محتر لهم .

طيس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلكم ، فمنع الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تقتات (١) دونكم عشوة ، ولا تقضى دونكم الأمور .

قام الحباب بن النضر بن زيد بن حرام رضى الله عنه ، فقال : يا معشر الأنصار : امسكوا عليكم أيديكم ، فإنا الناس في فيكم (٢) وظلالكم ، ولن يجر جبر (٣) على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل المزاورة وأولو المدد والنجدة ، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تخطفوا ، فليسد عليكم رأيكم ، وتقطع أموركم . أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، ولكم في السابقين الأولين مثل ما لم ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم ، والله ما عبدا لله علانية إلا في بلادكم ، ولا جمعت الصلاة إلا في مساجدكم ، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيا فكم ، فأنتم أعظم الناس نصياً في هذا الأمر ، وإن أبي القوم ، فإنا أمير ومنهم أمير . فقام عمر رضى الله عنه ، قال : هيات لا يجتمع سيفان في غمد واحد ، إنه والله لا يرضى العرب أن تؤمركم ونهيا من غيركم ، ولكن العرب لا يبنين أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم ، وأولو الأمر منهم ، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة ، والسultan البين ، من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل ياطل ، أو متجانف (٤) لإثم ، أو متورط في هلكة . قام الحباب بن النضر رضى الله عنه ، فقال : يا معشر الأنصار :

امسكوا على أيديكم ، ولا تسموا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بصيكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتهم فأجلوهم عن بلادكم ، وتولوا هذا الأمر عليهم ، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم ، فإنه دان لهذا الأمر ما لم يكن يدين له بأسيا فانا ، أما والله إن شئتم لصيدتها جذعة (٥) ، والله لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أفعه بالسيف . قال عمر بن الخطاب : فلما كان الحباب هو الذي يجيئني ، لم يكن لي معه كلام ، لأنه كان يبنى وبينه منازعة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهى عنه ، فقلت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً . ثم قام أبو عبيدة ، فقال : يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل وينير .

(١) افتات عليه : طفى على حقه واستأثر به .

(٢) النى : القتل .

(٣) أجاز فلان على فلان ، أى قضى حكمه وخالفه .

(٤) متجانف : مائل ومركب للآثم .

(٥) نيدتها جذعة : نيد الحرب بيننا وبينكم قوية .

مخالفة بشير بن سعد ، ونضه لسعد

قال : وإن بشيراً لما رأى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن عبادَةَ ، فامَ حِداً لسعد ، وكان بشير من سادات الخزرج ، فقال : يا مشر الأنصار ، أما والله لئن كنا أولى القضية في جهاد المشركين ، والسابقة في الدين ، ما أردنا أن شاء الله غير رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والمكرم لأئمتنا ، وما ينبغي أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغي به عوضاً من الدنيا فإن الله تعالى ولي النعمة والمنة علينا بذلك . ثم إن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من قريش ، وقومه أحق بعيرائه ، وتولى سلطانه ، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فأتوا الله ولا تنازعوهم ولا تخافوهم .

بيعة أبي بكر الصديق رضى الله عنه

قال : ثم إن أبا بكر قام على الأنصار ، حمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ثم دعاهم إلى الجماعة ، ونهاهم عن الفرقة ، وقال : إني ناصح لكم في أحد هذين الرجلين : أبي عبدة بن الجراح ، أو عمر فبايعوا من ختم منهما ، فقال عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا ، أنت أحقنا بهذا الأمر ، وأقدمنا حجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل منا في المال ، وأنت أفضل للمهاجرين وثاني اثنين ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل أركان دين الإسلام ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك ، ويتولى هذا الأمر عليك ؟ أبسط يدك أباي بك . فلما ذهبوا بياباته سبهما إليه بشير الأنصاري فبايعه ، فداده الحباب بن النضر : يا بشير بن سعد ، عَقَقْ ^(١) عَقَقُ ما اضطررك إلى ما صنعت ؟ حدثت ابن عمك على الإمارة ؟ قال لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم . فلما رأت الأوس ما صنع قيس ^(٢) بن سعد وهو من سادات الخزرج ، ومادعوا إليه المهاجرين من قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادَةَ ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير رضى الله عنه : لئن وليتموها سمداً عليكم مرة واحدة ، لا زالت لهم بذلك عليكم القضية ، ولا جالوا لكم نصيباً فيها أبداً ، قوموا فبايعوا أبا بكر رضى الله عنه ، فقاموا إليه فبايعوه ؟ فقام الحباب بن النضر إلى سيفه فأخذه ، فبادروا إليه فأخذوا سيفه

(١) عَقَقَ : عفا لك لنا ، عَقَقَ : مر لأن العَقَق هو للر .

(٢) ورد الاسم هنا قيس بن سعد وقبل ذلك بشير بن سعد ، والصحيح الأول .

منه ، فجعل يضرب ثوبه وجوههم ، حتى فرغوا من الية ، فقال فلتوتوها يا مشر الأنصار ، أما والله لكأنى بأنائكم على أبواب أنبائهم ، قد وقفو يسألونهم بأكفهم ولا يقولون لا . قال أبو بكر : أنا تخاف يا حباب ؟ قال : ليس منك أخاف ، ولكن بمن يجيء بك . قال أبو بكر : فلماذا كان ذلك كذلك ، فالأمر إليك وإلى أصحابك ، ليس لنا عليكم طاعة ، قال الحبيب : هيا يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت ، جاءنا بك من يسومنا الضيم .

تخلف سعد بن عبادة رضى الله عنه عن البيعة

قال سعد بن عبادة : أما والله لو أن لى ما أقدر به على التبرؤ ، لسمعت منى فى أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك ، ولأخفك قوم كنت فهم تاباً غير متبوع ، خاملاً غير عزز ، فبابه الناس جميعاً ، حتى كانوا يثبون سعداً . فقال سعد : تقتلوني . قيل : اتلوه فله الله فقال سعد : أحلوني من هذا للسكان ، حملوه فأدخلوه داره وترك أهلها ، ثم بث إليه أبو بكر رضى الله عنه : أن أقبل فياج ، قد باع الناس ، وباع قومك ، فقال : أما والله حتى أرميك بكل سهم فى كتافى من نبل ، وأخضب^(١) منكم سناني ودمى ، وأضربكم بسنن ما ملكه يدى ، وأقاتلكم بمن ملى من أهل وعشيرتى ، ولا والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما يأتىكم حتى أعرض على ربى ، وأعلم حسابى . فلما أتى بذلك أبو بكر من قوله ، قال عمر : لا تدعه حتى يأتىك ، فقال لم بشر بن سعد : إنه قد أبى ولج ، وليس يأتىك حتى يقتل ، وليس يقتل حتى يقتل ولده معه ، وأهل بيته وعشيرته ، ولن تقتلوا حتى تقتل الخزرج ، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس ، فلا تدسوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم ، فاركوه فليس تركه يضركم ، وإنما هو رجل واحد ، فاركوه وقبلوا مشورة بشر بن سعد ، واستصحوه^(٢) ، لا بد لكم منه . فكان سعد لا يصل بسلامته ، ولا يجتمع^(٣) جمعهم ، ولا يقبض^(٤) ، ولا يقتلهم ، ولو يجد عليهم أعواناً لصال بهم ، ولو باباه أحد على قتلم لقاتلهم ، فلم يزل كذلك حتى توفى أبو بكر رضى الله عنه ، وولى عمر بن الخطاب ، فخرج إلى الشام ، فثابت بها ، ولم يأت أحد ، رحمه الله . وإن بنى هاشم اجتمعت عند بيعة الأنصار إلى

(١) أخضب : الخضب الحناء . والمراد حتى أسبل دمكم على سناني ودمى .

(٢) استصحوه : وجدوه ناصحاً لم يعملوا لحيرم .

(٣) أى لا يصل الجماعة معهم .

(٤) أى لا يقتل معهم فى الحج .

على ابن أبي طالب ، ومعهم الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وكانت أمه صفية بنت عبد المطلب ، وإنما كان يمد نفسه من بني هاشم ، وكان على كرم الله وجهه يقول : ما زال الزبير منا حتى نشأ بنوه ، فصرفوه عنا ، واجتمعت بنو أمية إلى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، فكاتوا في المسجد الشريف عجمين ، فلما أقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة وقد بايع الناس أبا بكر قال لهم عمر : مالي أراكم عجمين حلقا شي^(١) ، قومه فبايعوا أبا بكر ، فقد بايعته وبايعه الأنصار ، قام عثمان بن عفان ومن معه من بني أمية فبايعوه ، وقام سعد وعبد الرحمن بن عوف ومن معهما من بني زهرة فبايعوا . وأما علي والناس بن عبد المطلب ومن معهما من بني هاشم فأنصرفوا إلى رحلهم ومعهم الزبير بن العوام ، فذهب إليهم عمر في عصابة فبهم أسيد بن حضير وسلة بن أسلم ، فقالوا : انطلقوا فبايعوا أبا بكر ، فأبوا ، فخرج الزبير بن العوام رضي الله عنه بالسيف ، فقال عمر رضي الله عنه : عليكم بالرجل خلفوه فوثب عليه سلة بن أسلم ، فأخذ السيف من يده ، ففرض به الجدار ، وانطلقوا به فبايع وفذهب بنو هاشم أيضاً فبايعوا .

إيابة على كرم الله وجهه بيعة أبي بكر رضي الله عنهما

ثم إن علياً كرم الله وجهه أتى به إلى أبي بكر وهو يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، قتل له بايع أبا بكر ، فقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتجبتهم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت خصباً ؟ ألسن زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأصطوكم للقتادة ، وسلبوا إليكم الإمارة ، وأنا احتج عليكم بتل ما احتجبتهم به على الأنصار نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فأصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تطعون . فقال له عمر : إنك لست متروكا حتى تباج ، فقال له علي : احب حبائك شطره^(٢) ، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً . ثم قال : والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعة . فقال له أبو بكر : فإن لم تباج فلا أكرهك ، فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلي كرم الله وجهه : يا ابن عمك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ، ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأهد احتيالا واضطلاما

(١) حلق : جمع حلقة وهو القوم المجتمعون المستديرون في اجتماعهم كالحلقة

(٢) أي أفضل فلا يكون لك منه نصيب فانت تباهيه اليوم لياييك غداً .

به ، فلم يأبى بكر هذا الأمر ، فذلك إن صلى ويصل بك جاء ، فأنت هذا الأمر خليف وبه حقيق ، في فضلك ودينك ، وعلك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصورك . قال على كرم الله وجهه : الله الله يا مشرك للهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقصر بيته ، إلى دوركم وقصور بيوتكم ، ولا تدفروا أهله عن مقامه في الناس وحده ، فوالله يا مشرك للهاجرين ، لمن أحق الناس به . لأننا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، للضطلع بأمر الرعية ، للدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفيما . فلا تجعوا الموى فضلوها عن سبيل الله ، فتزدادوا من الحق بعدا . فقال بشير بن سعد الأضارى : لو كان هذا السلام حصته الأضار منك يا على قبل يمتها لأبى بكر ، ما اختلف عليك اثنان . قال : وخرج على كرم الله وجهه يعمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة ليل إلى مجالس الأضار تسألم النصرة ، فكانوا يقولون : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به ، فيقول على كرم الله وجهه أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته لم أدعته ، وأخرج أئانزع الناس سلطانه ؟ قالت فاطمة : ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له ، وقد صنوا ما له حبيبه وطالبهم .

كيف كانت بيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه

قال . وإن أبى بكر رضى الله عنه تفقد قوما تخلفوا عن بيته عند على كرم الله وجهه ، فيمت إليهم عمر ، فجاء فناداهم وهم في دار على ، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال : والذي نفس عمر بيده . لتخرجن أو لأحرقنكم من فيها ، قبل له يا أبا حمص . إن فيها فاطمة ؟ فقال وإن ، غر جوا فبايسوا إلا عليا فإنه زعم أنه قال : خلعت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتق حتى أجمع القرآن ، فرفضت فاطمة رضى الله عنها على بابها ، وقالت : لأعبدى بقوم حضروا أسوأ محضر منكم ، تركتم رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة بين أيدينا ، وقطعتم أمركم بينكم ، لم تستأمرونا ، ولم تردوا لنا حقا . فأتى عمر أبى بكر ، فقال له : ألا تأخذ هذا لتتخلف عنك بالبيعة ؟ فقال أبو بكر لتفند وهو مولى له : اذهب فادع لى عليا ، قال فذهب إلى على فقال له : ما حاجتك ؟ فقال يدعوك خليفة رسول الله ، فقال على : لسبح ما كذبتم على رسول الله . فرجع فأبلغ الرسالة ، قال : فيكى أبو بكر طويلا . فقال عمر الثانية : لا تمهل هذا لتتخلف عنك بالبيعة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه لتفند : عد إليه ، قل له : خليفة رسول الله يدعوك لتبايع ، فجاءه تفند ، فأدى ما أمر به ، فرجع على صوته فقال سبحانه الله ؟ لقد ادعى

ما لبس له ، فرجع قنعد ، فأبلغ الرسالة ، فبكى أبو بكر طويلا ، ثم قام عمر ، فلقى معه جماعة ، حتى أتوا باب فاطمة ، ففتحوا الباب ، فلما سمعت أصواتهم نادى بأعلى صوتها : يا أبا عبد الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة ، فلما سمع القوم صوتها وبكائها ، انصرفوا باكين ، وكادت قلوبهم تنصدع ، وأكادهم تنفطر ، وبقي عمر ومعه قوم ، فأخرجوا عليا ، فجلسوا به إلى أبي بكر ، فقالوا له : يا أبا بكر ، قال : إن أنا لم أقبل له ؟ قالوا : إيذا والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك ، قال : إذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله ، قلل عمر : أما عبد الله فنعمة وأما أخو رسوله فلا ، وأبو بكر ساكت لا يحكم ، فقال له عمر : ألا تأمر فيه بأمرك ؟ قال : لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه ، فلقى على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح ويكي ، وينادى : يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى . فقال عمر لأبي بكر ، رضى الله عنهما : انطلق بنا إلى فاطمة ، فإننا قد أغضبناها ، فانطلقا جميعا ، فاستأذنا على فاطمة ، فلم تأذن لهما ، فأبيا عليا فكلماه ، فأدخلهما عليا ، فلما قعدا عندهما ، حولت وجهها إلى الحائط ، فسلسا عليهما ، فلم ترد عليهما السلام ، فحكم أبو بكر قال : يا حبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتي ، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبو بكر أنى مت ، ولا أبقي بعده ، أقراني أمر فك وأعرف فضلك وشرفك . وأبى عنك حقا وميراثك من رسول الله إلا أنى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة ، قالت : أرايتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر فانه وهملان به ؟ قال : نعم . قالت : نشدتكما الله ألم نسمع رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة إيقى فقد أحبنى ، ومن أرمى فاطمة فقد أرمى رضى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ قال : نعم معناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتاني وما أرضيتاني ، ولئن لقيت النبي لأهكونكما إليه . فقال أبو بكر أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك وفاطمة ؟ ثم انتصب أبو بكر يسكى ، حتى كادت نفسه أن تهوى ، وهى تقول : والله لأدعون الله عليك فى كل صلاة أصليها ، ثم خرج باكيا فاجتمع إليه الناس ، فقال لهم : بيت كل رجل منكم سائحا طيلته ، مسرورا بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لى فى يشكم ، أقبولنى يحن . قالوا : يا خليفة رسول الله ، إن هذا الأمر لا يستقيم ، وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يبق دين ، قال : والله لولا ذلك وما أخافه من رشاوة هذه الروة مايت ليلة ولى فى عنق مسلم يمة ، بد ما سمعت ورايت من فاطمة . قال : فلم يابح على كرم الله وجهه حتى ماتت فاطمة رضى الله عنهما ، ولم تمكث بعد أبيها إلا خسا وسبعين ليلة . قال : فلما توفيت أرسل على إلى أبي بكر : أن أقبل إلينا ، فأقبله

أبو بكر حتى دخل على علي وعنده بنو هاشم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أبا بكر ؛ فإنه لم يمتنا أن نبأسك إنك نفضيتك ، ولا نخافك عليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً ، فاستبدت علينا ، ثم ذكر على قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر . فقال أبو بكر رضى الله عنه : لقرابة رسول الله أحب إلى من قرابتي ، وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعت إن شاء الله تعالى . فقال على : موعذك غداً في المسجد الجامع لبيعة إن شاء الله . ثم خرج فأبى النيرة بن شعبة ، فقال : لراى يا أبا بكر إن تلقوا العباس ، فتمهلوا له في هذه الإمرة نصيباً ؛ يكون له ولقبه ، وتكون لسك الحجة على علي وبني هاشم ، إذا كان العباس ممكماً . قال : فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والنيرة حتى دخلوا على العباس رضى الله عنه . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله بث محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً وللمؤمنين ولياً ، فمن الله تعالى بمقامه بين أظهرنا ، حتى أختار له الله ما عنده ، غلب على الناس أمرهم ، ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم ، متفقين غير مختلفين ، فاخاروني عليهم والياً ، ولأمورهم راعياً ، وما أخلف برون الله وهنا ولا حيرة ولا جبناً ، وما توفيقى إلا بالله التلى العظيم ، عليه توكلت وإليه أنيب . وما أزال أبلغ عن طاعن يطن بخلاف ما اجتمعت عليه عامة المسلمين ، ويتخذكم لجاً فتكرنون حسنة النبع ، فلما دخلتم فيها دخل فيه العامة ، أو دفنتموهما مالوا إليه ، وقد جشاك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ، يكون لك ولقبك من بعدك ، إذ كنت عم رسول الله ، وإن كان الناس قد رأوا مكانك ومكان أصعابك ، فعدلوا الأمر عنكم وعلى رسلكم بنى عبد المطلب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا ومنكم ، ثم قال عمر : إى والله ، وأخرى أنا لم نأتكم حاجة منا إليكم ، ولكننا كرهنا أن يكون الطعن منكم فيا اجتمع عليه العامة ، فيعلق الحطب بكم وبهم ، فانظروا لأنفسكم ولما منكم . فحكلم العباس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله بث محمداً كما زعمت نبياً ، وللمؤمنين ولياً ، فمن الله بمقامه بين أظهرنا حتى أختار له ما عنده ، غلب على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم ، مصيين للحق ، لاملين عنه بزج الحموى ، فإن كنت برسول الله طلبت حقناً أخفت ، وإن كنت بالمؤمنين طلبت قسطن منهم متقدمون فيهم ، وإن كان هذا الأمر إنما يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين ، فأما ما بذلت لنا فلن يكن حقاً لك فلا حاجة لنا فيه وإن يكن حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم عليهم وإن كان حقناً لم نرض عنك فيه يبيض دون بشى . وأما قولك إن رسول الله منا ومنكم ، فإنه قد كان من شعيرة نحن أعضائها ، وأتم جيرانها . قال : ثم خرج أبو بكر إلى المسجد الشريف ، فأقبل على الناس ، فصدر علياً بمثل ما اجتذر عنه ، ثم قام على فطعن حق أبى بكر ، وذكر فضيلة

وسابته ، ثم مضى فبايحه ، فأقبل الناس على علي ، فقالوا : أصبت يا أبا الحسن وأحسنت . قال : فلما تمت البيعة لأبي بكر أقام ثلاثة أيام يقبل الناس ويستقبلهم ، يقول قد أقتنكم في يوم ، هل من كاره ؟ هل من مبغض ؟ فيقوم على أول الناس فيقول : والله لا تفيلك ولا تستفيلك أبداً ، قد قممك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوحيد ديننا ، من ذا الذي يؤخرك لتوجيه دينانا ؟ .

خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

قال : ثم إن أبا بكر قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله جلجل الكريم العظيم الحكيم الرحيم الخليم ، بث عهداً بخلق ، وأتمم مشعر الرب كما قد علمتم ، من الضلالة والفرقة ، ألف بين قلوبكم ونصركم به وأيدكم ، ومكن لكم دينكم ، وأورثكم سيرته الراشدة للهدى ، فليكن بحسن الهدى وتوهم الطاعة ، وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم ، ويقيم به كلمتكم ، فأعينوني على ذلك بخير ، ولم أكن لأبسطيداً ولا لساناً على من لم يستحل ذلك إن شاء الله ، وإيم الله ما حرصت عليها ليلاً ولا نهاراً ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية ، وقد قلدت أمراً عظيماً ، مالي به طاعة ولا بد ، ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني ، فأطيعوني ما أطعت الله ، فلذا عصيت فلا طاعة لي عليكم ، ثم بكى وقال : اعلموا أيها الناس أني لم أجل لهذا للكان أن أكون خيركم ، ولوددت أن يصنم كفانيه ، ولئن أخذتموني بما كان الله يقيم به رسوله من الوحي ما كان ذلك هتدي ، وما أنا إلا كأحدكم ، فلذا رأيتموني قد استعنت فأتبعوني ، وإن زغت قوموني ، واهدوا أنلي هيطاناً يعتريني أحياناً ، فلذا رأيتموني غضبت فاجتلبوني ، لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم ، ثم نزل . ثم دعا عمر الأوجاه^(١) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما ترون لي من هذا اللال ؟ فقال عمر : أنا والله أخبرك مالك منه . أما ما كان لك من ولد قد بان عنك وملك أمره ، فسمه كرجل من المسلمين ، وأما ما كان من عيال لك وضعة أهلك ، ففوت منه بالعروفه وقوت أهلك . فقال : يا عمر إني لأخشى ألا يحل لي أن أطعم عيالي من فقه المسلمين . فقال عمر : يا خليفة رسول الله ، إنك قد هملت بهذا الأمر عن أن تكسب لبيالك . قال : ولما تمت البيعة لأبي بكر ، واستقام له الأمر ، إشرب الاتفاق بالدينة ، وارتدت العرب ، فنصب لها أبو بكر للحرب ، وأراد قتالهم ، فقالوا : نصل ولا تؤذي الزكاة . فقال الناس : اقبل منهم يا خليفة رسول الله ، فإن الهد حديث ، والعرب كثير ، ونحن شرمة قليلون ، لا طاقة لنا بالعرب ، مع أنه

(١) الأوجاه جمع وجه وهو ذو الفضل والكرامة .

قد سمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .
 فلذا قالوا عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فقال أبو بكر : هذا
 من حقها ، لا بد من القتال . فقال الناس لعمر . اخل به فكلمه لعله يرجع عن رأيه هذا ،
 فيقبل منهم الصلاة ، ويصليهم من الزكاة ؛ فخلا به عمر نهاره أجمع ، فقال : والله لو منوني
 عقلا^(١) كان يؤذونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي ،
 حتى يحكم الله بيني وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 « أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة »
 فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصر دونهن ، فضرب منهم من أذرب بمن أقبل ، حتى دخل الناس
 في الإسلام طوعاً وكرهاً . وحمدوا رأيه ، وعرفوا فضله .

قال أبو رجاء المطاردى : رأيت الناس مجتمعين وعمر يقتل رأس أبي بكر ويقولون :
 أنا فداؤك ، لو لا أنت لهلكنا . فحمد له رأيه في قتال أهل الردة .

مرض أبي بكر واستخفافه عمر رضي الله عنهما

قال : ثم إن أبا بكر عمل سنتين وشهوراً ، ثم مرض مرضه الذي مات فيه ، فدخل عليه
 أناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فيهم عبد الرحمن ابن عوف ، فقال له : كيف
 أصبحت يا خليفة رسول الله ، فإني أرجو أن تكون بارئاً ؟ قال : آرمي ذلك ؟ قال : نعم
 قال أبو بكر : والله إني لشديد الوجع ، ولما آتني منك يا مبشر المهاجرين أخذ على من وجعي ،
 إني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم ودم أعنه^(٢) بإرادة أن يكون هذا الأمر له . وذلك
 لما رأيت الدنيا قد أقبلت . أما والله لتتخذن خلفاً^(٣) للدياج ، وستور الحرر ، ولتأمن النوم
 على الصلوف الأذنب^(٤) ، كما يأمن أحدكم النوم على حراك السعدان^(٥) ، والله لأن يقدم أحدكم

(١) العقاب : زكاة طم من الإبل والتمش ، وفي رواية عناقا بدل عقاب ، والتماق أنش للمز
 والراد بهذه الرواية لو منوني هيلاً قليلاً لقاتلتهم .

(٢) ودم أعنه : غضب .

(٣) نضالده : جمع فضيلة وهي الوسادة والدياج : للثقوش الزين .

(٤) الأذنب : نسبة إلى أذربجان من بلاد الصين ، وصوفها مشهور بمجودته ونموته .

(٥) حراك السعدان : الحسك نبات له ورق كورق الرجل له شوك سلب ذو ثلاث
 شعب ملتصق بيضه ، والسعدان مكان ، والسعدان نبات له شوك تشبه الواحدة منه حفة
 الكلى ، والراد كما تألمون النوم على الشوك الصلب .

فصرب عنقه في غير حدث خبر له من أن يخوض عمرات الدنيا، فقال له عبد الرحمن بن عوف : خضض عليك من هذا رحمك الله ، فإن هذا يرضك^(١) على ما بك ، وإتعا الناس رجلاً : رجل رضى ما صنعت ، فرأيه كرايك ، ورجل كره ما صنعت ، فأشار عليك برأيه ، ما رأينا من صاحبك^(٢) الذي وليت إلا خيراً ، وما زلت صالحاً مصلحاً ، ولا أراك تأمى على شيء من الدنيا فافك . قال : أجل ، والله ما آسى إلا على ثلاث فلتين ، ليتي كنت تركتهن ، وثلاث تركتهن ليتي فلتين ، وثلاث ليتي سألت رسول الله عنهن ، فأما اللاتي فلتين وليتي لم أفلهن ، فليتني تركت بيتي على وإن كان أعلن على الحرب ، وليتي يوم سقفة بني ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين أبي عبيدة أو عمر فكان هو الأمير وكنت أنا الوزير ، وليتي حين أتيت بني النجاة السلي أسيراً أتى قتله ذبيحاً أو أطلتته نجيحاً ، ولم أكن أحرقة بالنار . وأما اللاتي تركتهن وليتي كنت فلتين ، ليتني حين أتيت بالأعمش بن قيس أسيراً أتى قتله ولم أستعبه ، فإني سمعت منه ، وأراه لا يرى غياً ولا شراً إلا أعان عليه ، وليتي حين بنت خالد بن الوليد إلى الشام ، أتى كنت بعثت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فأكون قد بسطت يدي جميعاً في سبيل الله : وأما اللاتي كنت أود أتى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن ، فليتني سألته لن هذا الأمر من بعده ؟ فلا ينازعه فيه أحد ، وليتي كنت سألته : هل للأصار فيها من حق ؟ وليتي كنت سألته عن ميراث بنت الأعمش والعممة ، فإن في نفسي من ذلك شيئاً .

ثم دخل عليه أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا خليفة رسول الله ، ألا ندعوك طبيباً ينظر إليك ؟ فقال : قد نظر إلى^(٣) . قالوا : فإذا قال ؟ قال : إني فقال لا أريد . ثم قال لهم : انظروا ماذا أتت من بيت المال ، فنظروا فإذا هو ثمانية آلاف درهم ، فأوصى أهله أن يؤدوها إلى الخليفة بعده . ثم دعا عثمان بن عفان فقال : اكتب عهدي ، فكتب عثمان وأملى عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في الدنيا نازحاً عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلها فيها : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن تروه عدل فيكم ، فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن بدل وغير ظنير أردته ولا أعلم التيب ، وسيلم الدين ظلموا أي منقلب يتقلبون . ثم ختم الكتاب ودفعه ، فدخل عليه المهاجرون والأنصار حين

(١) يرضك : يرضك .

(٢) يريد عمر رضى الله عنه .

(٣) يريد أن الله هو الطبيب وقد نظر إليه .

بلنهم أنه استخلف عمر ، فقالوا : نراك استخلفت علينا عمر ، وقد عرفته ، وعلت بواخه
 فينا وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل فاستألك ، لما أنت تاتل ؟
 فقال أبو بكر : لئن سألتني الله لأقولن : استخلفت عليهم خيرم في نفسي . قال : ثم أمر
 أن يجتمع له الناس ، فاجتمعوا ، فقال : أيها الناس قد حضرني من قضاء الله ما ترون ، وإنه
 لا بد لكم من رجل يلي أمركم ، ويصلي بكم ، ويقاتل عدوكم ، فأمركم ، فإن شئتم اجتهدت لكم
 رأيي ، والله الذي لا إله إلا هو لا آلوكم في نفسي خيرا ، قال : فيكي وبكى الناس ، ولالوا :
 يا خليفة رسول الله . أنت خيرنا وأعلنا ، فاختارنا ، قال : سأجهد لكم رأيي ، واختار لكم
 خيركم إن شاء الله : قال : فخرجوا من عنده ، ثم أرسل إلي عمر فقال : يا عمر ، أحبك حب ،
 وأبغضك مبغض ، وقد نأى عجب الشر ، وبغض الخير . قال عمر : لا حاجة لي بها ، فقال أبو بكر :
 لكن بها إليك حاجة ، والله ما حيرتك بها ، ولكن حيرتها بك . ثم قال : خذ هذا الكتاب
 واخرج به إلى الناس ، واخبرهم أنه عهدي ، وسلمهم عن سمعهم وطاعتهم . فخرج عمر بالكتاب
 وأعلمهم ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فقال له رجل : ما في الكتاب يا أبا حفص ؟ قال : لا أدري ،
 ولكني أول من سمع وأطاع . قال : لكني والله أدري ما فيه : أمرته عام أول ، وأمرته العام .

ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال : ولما توفي أبو بكر وولي عمر وقد في المسجد مقعد الخلافة ، أتاه رجل ، فقال : يا أمير
 المؤمنين ، أدتو منك فلان لي حاجة ؟ قال عمر : لا . قال . الرجل : إذا أذهب فينبني الله عنك ،
 فولي ذاهباً ، فأتبعه عمر يصره ، ثم قام فأخذه بثوبه ، فقال له : ما حاجتك ؟ فقال الرجل :
 بنضك الناس ، وكرهك الناس ، قال عمر : ولم يحبك ؟ قال الرجل : لسانك وعصاك ،
 قال : فرفع عمر يديه ، فقال : اللهم جيبهم إلى وجيبي إليهم . قال الرجل : فما وضع يديه
 حتى ما على الأرض أحب إلى منه .

وكان أهل الشام قد بلنهم مرض أبي بكر ، واستبطوا الخبر ، فقالوا : إننا لنخاف أن يكون خليفة
 رسول الله قد مات وولي بعده عمر ، فإن كان عمر هو الوالي فليس لنا صاحب ، وإن أرى
 خلمه . قال بعضهم : فابشوا رجلاً ترضون عنه ، قال : فانتخبوا لذلك رجلاً ، فقدم على عمر ،
 وقد كان عمر استبطاً خبر أهل الشام ، ففأما قال له : كيف الناس ؟ قال : سالون صالحون ،
 وهم كارهون لولايتك ، ومن شرك مشفقون^(١) ، فأرسلوني أنظر : أحو أنت أم مر ؟ قال :
 فرفع عمر يديه إلى السماء وقال : اللهم جيبني إلى الناس ، وجيبهم إلى .

(١) مشفقون : خائفون .

قال : فمضى عمر عشر سنين بعد أبي بكر ، فوالله ما فارق الدنيا حتى أحب ولايته من كراهيها . لقد كانت إمارته قسماً ، وإسلامه هزاً ونصراً ، اتبع في عمله سنة صاحبه وآثارها ، كما يتبع الفصيل أثر أمه ، ثم اختار الله له ما عنده .

قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال عمرو بن ميمون : شهدت عمر بن الخطاب يوم طعن ، لما منعي أن أكون في الصف الأول إلا هيئته ، فكنت في الصف الذي يليه ، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف للتقدم بوجهه ، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ضربه بالهرة ، فذلك الذي منعي من التقدم . قال : فأقبل لصلاة الصبح ، وكان ينلس بها (١) ، ففرض له أبو لؤلؤة غلام للغيرة ابن شعبة ، فطعنه ثلاث طعنات ، فسمعت عمر وهو يقول : دونكم الكلب ، فإنه قد قتلني ، ومالج الناس ، بلرح ثلاثة عشر رجلاً ، وصلح بعضهم يمض : دونكم الكلب ، فقد عليه رجل من خلفه ، فاحضنه ، ومالج الناس ، فقال قائل : الصلاة عباد الله ، طلعت الشمس . فدفعت عبد الرحمن بن عوف ، ففصل بأقصر سورتين في القرآن ، واحتمل عمر ، ومات من الدين جرحوا ستة أو سبعة ، وجرى الناس إلى عمر ، فقال : يا ابن عباس ، اخرج فناد في الناس أمن ما أودى منكم كان هذا ؟ فخرج فنادى : فقالوا : معاذ الله ، ما علمنا ولا اطمنا ؛ قال : فأتاه الطيب فقال : أي الشراب أحب إليك ؟ قال : النبيذ فسقوه نبيذاً ، فخرج من بعض طعناته . فقال الناس : صديده ، اسقوه لبناً ، فخرج الابن فقال الطيب : لا أرى أن تسمى ، فما كنت طاعلاً فاقبل ، فقال لابنه عبد الله : ناولني الكنف (٢) ، فلو أراد الله أن يمضي ما فيه أمضاء فمحاها بيده ، وكان فيها فريضة الجلد . ثم دخل عليه كعب الأحبار ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الحق من ربك فلا تكون من للمترين ، قد كنت أنبأتك أنك شهيد ، قال : ومن أين لي بالشهادة وأنا مجزومة العرب ؟ ثم جعل الناس يشنون عليه ، ويذكرون فضله . فقال : إن من غردتموه لمترود ، إني والله وددت أن أخرج منها كفافاً (٣) كما دخلت فيها ، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لأنتدبت به من حول للطلع ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لا بأس عليك ، قال : إن

(١) ينلس بها : يصلبها مبكراً وفي وقت النلس وهو آخر ظلة الليل .

(٢) الكنف : عظم الكف وكانوا يكتبون على العظام والجريد .

(٣) الكفاف : بفتح الكاف للثل : أي أن أخرج منها كفافاً كما دخلت فيها لأعزل ولا لي .

يمكن القتل بأساً ، قد تلقى أبو لؤلؤة ، قالوا : فلن يكن ذلك جزاءك الله عنا خيراً . فقال : لا أراكم تخطونني بها ، فوالله نسي عمر يده ما أحدى علام أهدم^(١) ، ولوددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا لى ، فيكون خيرها بشرها ، ويسلم لي ما كان قبلها من الخير . ودخل على بن أبي طالب فقال : يا على ، أعن ملائمتكم ورضى كان هذا ؟ فقال على : ما كان عن ملائمتنا ولا رضى ، ولوددت أن الله زاد من أعمالنا في عمرك . قال : وكان رأسه في حجر ابنه عبد الله ، فقال له : ضع خدي بالأرض ، فلم يفعل ؛ فلعظه وقال : ضع خدي بالأرض لا أم لك ، فوضع خده بالأرض ، فقال : الويل لمرء ولأم عمر إن لم ينفر الله لمرء ؛ ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ودينه ويسمع منه ، فقال له : يا ابن عباس ، إني لأظن أن لي ذنباً ، ولكن أحب أن تعلم لي أعن ملائمتهم ورضى كان هذا ؟ فخرج ابن عباس ، فجعل لا يرى ملائمتهم إلا وهم يكون ، كأنا قدقوا اليوم أنصارهم ، فرجع إليه فأخبره بما رأى . قال : فمن تلقى ؟ قال : أبو لؤلؤة اليهودي غلام النخعة بن شبة . قال عبد الله : فرأيت البشر في وجهه ، فقال : الحمد لله الذى لم يقتل رجلاً يحاجي بلا إله إلا الله يوم القيامة . ثم قال : يا عبد الله ، ألا لو أن لي ما طلت عليه الشمس وما غربت لأتدببت به من حول للطلع ، وما ذلك والحمد لله أن أكون رأيت إلا خيراً ، فقال له ابن عباس : فلن يك ذلك يا أمير المؤمنين ، جزاءك الله عنا خيراً ، أليس قد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرض الله بك الدين واللسون عيسون بك ؟ فلما أسلمت كان إسلامك عزاً أعز الله به الإسلام ، وظهر التي وأصحابه ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فكانت هجرتك فصحاء ، ثم لم تب عن مشهد شهده رسول الله من قتال المشركين ، وقال فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا وكذا ، ثم قبض رسول الله وهو عنك راض ، ثم ارتد الناس بعد رسول الله عن الإسلام ، فوازرت الخليفة على منهاج رسول الله ، وضربتم من أديب من أقبل ، حتى دخل الناس في الإسلام طوعاً وكرهاً ، ثم قبض الخليفة وهو عنك راض ، ثم وليت بخير على ما يلى أحد من الناس . مصر الله بك الأمصار ، وجبى بك الأموال ، ونفى بك العدو ، وأدخل الله على أهل كل بيت من المسلمين توسعة في دينهم ، وتوسعة في أرزاقهم ، ثم ختم الله لك بالشهادة ، فهنيئاً لك ، فصب الله الثناء عليك صباً ، فقال : أقصد لي بهذا يا عبد الله عند الله يوم القيامة ؟ قال نعم ، فقال عمر : اللهم لك الحمد .

(١) أى علام أنا مقبل عليه من الآخرة .

تولية عمر بن الخطاب السنة الثوري وعهده إليهم

قال : ثم إن المهاجرين دخلوا على عمر رضى الله عنه وهو في البيت من جراحه تلك ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، استخلف علينا ، قال : والله لا أحللكم حيا وميتاً ، ثم قال : إن استخلفت فقد استخلفت من هو خير مني ، يعني أبا بكر ؟ وإن أدع فقد ودع من هو خير مني يعني النبي عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، فقال : ما شاء الله رافعياً ، وددت أن أجزمها لا لي ولا على .

فلما أحس بالموت قال لآلته : اذهب إلى عائشة ، وأقرئها مني السلام ، واستأذنها أن أقبر في بيتنا مع رسول الله ومع أبي بكر ، فأتتها عبد الله بن عمر ، فأعلمها ، فقالت : نعم وكرامة ثم قالت : يا بني أبلغ عمر سلامي ، وقل له : لا تبع أمة محمد بلارواح ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملاً ، فإني أخشى عليهم الفتنة ؟ فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرني أن استخلف ؟ لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته ، فلذا قدمت على ربي فسألني وقال لي : من وليت على أمة محمد ؟ قلت إني ربي ، سمعت عبدك ونييك يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته ، فلذا قدمت على ربي فسألني : من وليت على أمة محمد ؟ قلت : إني ربي ، سمعت عبدك ونييك يقول : إن معاذ ابن جبل يأتي بين يدي الملاء يوم القيامة . ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته ، فلذا قدمت على ربي فسألني : من وليت على أمة محمد ؟ قلت إني ربي ، سمعت عبدك ونييك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سه على الكافرين ، ولكنني سأستخلف النضر الذي توفي رسول الله وهو عنهم راض ، فأرسل إليهم لجسمهم ، وهم على بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف رضوان الله عليهم وكان طلحة غائباً ، فقال : يا مشر المهاجرين الأولين ، إني نظرت في أمر الناس ، فلم أجد فيهم حقائقاً ولا غفلاً ، فلن يكن بسدي حقائق وتوافق فهو فيكم ، تشاوروا ثلاثة أيام . فلن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فاعزم عليكم بالله أن لا تفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم ، فلن أسترهم بها إلى طلحة ، فهو لها أهل ، وليلص بكم صيب هذه الثلاثة الأيام التي تشاورون فيها ، فإنه رجل من اللوالى لا ينازعكم أمركم ، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شيء ، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس ، فلن لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة في حضورهما ، وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً ، وليس له من الأمر شيء . قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه الخلافة موشماً فاستخلفه ، فلما راوضون به

قَالَ : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ، ليس له من الأمر شيء . ثم قال : يا عبد الله إنما ثم إليك لا تلبس بها ، ثم قال : إن استقام أمر خسة منك وخائف واحد فاضربوا عنقه ، وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما ، وإن استمر ثلاثة واختلف ثلاثة فاحكموا إلى ابني عبد الله ، فلقى الثلاثة قضي الخليفة منهم وفيهم ثلث إلى الثلاثة الآخرون ذلك فاضربوا أعناقهم ؟ فقالوا : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك وتشدى به . فقال : والله ما يمتنى أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك ، مع أنك رجل حرب . وما يمتنى منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة . وما يمتنى منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا ، كافر الغضب . وما يمتنى من طلحة إلا نخوته وكبره ، ولو وليها وصع خاتمه في إصبع امرأته . وما يمتنى منك يا عثان إلا عصيتك وحبك قومك وأهلك ، وما يمتنى منك يا علي إلا حرصك عليها ، وإنك أخرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق البيت . والصراط المستقيم . أوصي الخليفة منكم بقوى الله العظيم ، وأحذره مثل مضجعي هذا ، وأخوفه يوما تبيض فيه وجهه وتسود وجوه ، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية ، ثم غشى عليه حتى ظنوا أنه قد قضى فجاءوا ينادونه ولا يلبق من إثمائه ، فقال قائل : إن كان شيء ينيه فالصلاة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين الصلاة ، ففتح عليه فقال : الصلاة هأنذا ، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، فصلى وجرحه يشب دما (١) ، ثم التفت إليهم وقال : قد قومت لكم الطريق فلا تتوجوه ، ثم التفت إلى علي بن أبي طالب ، فقال : لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقدك وشرفك وقرابتك من رسول الله ، وما آتاك الله من العلم والنفق والدين فيستخلفوك ، فإن وليت هذا الأمر فائق الله يا علي فيه ، ولا تحمل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس ، ثم التفت إلى عثان فقال يا عثان ، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك فيستخلفوك ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحداً من بني أمية على رقاب الناس . ثم دعا صهيبي فقال : يا صهيب ، صل بالناس ثلاثة أيام ، واجتمع هؤلاء التتر ويتشاورون بينهم : اخرجوا عني ، اللهم ألهمهم واجهم على الحق ، ولا تردم على أعقابهم ، وول أمر أمة محمد خيرم . فخرجوا من عنده ، وتوفي رحمه الله تعالى من يومه ذلك ، ودفن وصلى عليه صهيب .

(١) يشب دما : يتغير دما .

ذكر الشورى وبيعة عُمَان بن عفان رضى الله عنه

ثم إنه بعد موت عمر اجتمع القوم غفرا في بيت أحدكم ، وأحضروا عبد الله بن عباس ، والحسن بن علي ، وعبد الله بن عمر ، فشاؤروا ثلاثة أيام ، فلم يرموا قتيلا ، فلما كان في اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف . أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم عزم عليكم صاحبكم أن لا تفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحداكم ، قالوا : أجل . قال : فلأن عارض عليكم أمرا ، قالوا : وما نمرض ؟ قال : أن تولوني أمركم ، وأهب لكم نصيبي فيها ، وأختار لكم من أعينكم ، قالوا : قد أعطيتك القدي سألت ، فلما سلم القوم قال لهم عبد الرحمن اجعلوا أمركم لى ثلاثة منكم ، فقبل الزبير أمره لى على ، وجعل طلحة أمره لى عُمَان ، وجعل سعد أمره لى عبد الرحمن بن عوف .

قال السُّور بن غزمية : قال لهم عبد الرحمن : كونوا مكانكم حتى آتيكم . وخرج يلقي الناس في أعقاب المدينة متلبا لا يعرفه أحد ، فلما ترك أحدا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضفاء الناس ورعايهم إلا سألهم واستشارهم . أما أهل الرأي فأناهم مستشيرا ، وقلتي غيرهم سائلا ، يقول : من ترى الخليفة بعد عمر ؟ فلم يلق أحدا يستشير ولا يسأله إلا ويقول عُمَان ، فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عُمَان . قال السور : جاءنى رضى الله عنه عشاء ، فوجدنى نائما فخرجت إليه فقال : ألا أراك نائما ، فوالله ما اكتنطت عيني بنوم منذ هذه الثلاثة ، ادع لى فلانا وفلاناً (نفرأ من المهاجرين) فدعوتهم له ، فناجىهم فى المسجد طويلا ، ثم قاموا من عنده ، فخرجوا ، ثم دعا علياً فناجاه طويلا ثم قام من عنده على طمع ، ثم قال : ادع لى عُمَان ، فدعوتى ، فناجاه طويلا حتى فرق بينهما أن آتت صلاة الصبح ، فلما صلوا جميعهم ، فأخذ على كل واحد منهم العهد واليثاق : لئن بايئتكم لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبكم من قبلك ، فأعطاه كل واحد منهم العهد واليثاق على ذلك ، وأيضاً لئن بايئت غيرك لترضين ولتسلمن ، وليكونن سيفك معى على من أبى فأعطوه ذلك من عهودهم ومواثيقهم ، فلما تم ذلك أخذ يد عُمَان ، فقال له عليك عهد الله وميثاقه لئن بايئتكم لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبكم ، وشرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس ، فقال عُمَان : نعم . ثم أخذ يد على ، فقال له : أيايكم على شرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس ، فقال على عند ذلك : مالك ولهذا إذا قطعنا فى عتقى ؟ فلن على الاجتهاد لأمة محمد حيث علت القوة والأمانة لستمتن بها ، كان فى بنى هاشم أو غيرهم ؟ قال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطينى هذا الشرط ، قال على : والله لا أعطيك أبداً ، فركه ،

فقاموا من عنده ، فخرج عبد الرحمن إلى المسجد ، فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إني نظرت في أمر الناس ، فلم أرى مخلصاً يخلصهم ، فلا تجعلوا علي سبيلاً إلى نفسك ، فإنه السيف لا خير . ثم أخذ يدعيتان فباجه وباج الناس جميعاً ؛ قال ' فكان عثمان رضى الله عنه ست سنين في ولايته ، وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان عمر رجلاً شديداً قد ضيق على قريش أعاسها ، لم يزل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاماً له وإجلالاً ، وأساسياً به والقتداء ، فقاما ولهم عثمان ولى رجل لين .

قال الحسن البصري : شهدت عثمان وهو يغضب وأنا ييمض قد راهقت الحلم ، فمارأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجهها ولا أحسن نظرة منه . فسمته يقول : أيها الناس . اغدوا على أعطياتكم فأخونوها وإفية ، أيها الناس اغدوا على كسوتكم ، فيغدون فيجاء بالحلل تقسم بينهم ، حق والله سمعت أذنائى : يامشر للسلين اغدوا على السمن والصل فيغدون فيقسم بينهم السمن والصل ، ثم يقول : يامشر للسلين اغدوا على الطيب ، فيغدون فيقسم بينهم الطيب من السلك والعنبر وغيره ، والدوان والله منقى والأعطيات دائرة والحير كثير ، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً ، من لقي في أى البهائم فهو أخوه وأئله ، وناصره ومؤدبه فلم يزل المال متوفراً ، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً ، وبيع البرس بشرة آلاف دينار وسبع البحر بألف ، والنخلة الواحدة بألف . ثم أنكر الناس على عثمان أشياء أشرا وبطراً . قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

ذكر الإنكار على عثمان رضى الله عنه

قال عبد الله بن مسلم : حدثنا ابن أبي مريم وابن عفير قالا : حدثنا ابن عون ، قال : أخبرنا الحول بن إبراهيم وأبو حمزة الثمالى وبشهم يزيد على بعض والذى واحد ، فجمعت وألفته على قولهم ، ومعنى ما أرادوا عن علي بن الحسين ، قال : لا أنكر الناس على عثمان بن عفان صد للبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن لكل شيء آفة ، ولكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه اللة ، قوم عابون طمانون ، يرونكم ما تحبون ، ويسرون ما تنكروهن . أما والله يا مشر للهاجرين والأنصار ، لقد عيبت على أحياء وقسمت أموراً قد أقررتهم لابن الخطاب مثلها ، ولكنه وقك^(١) وقسمك^(٢) ، ولم يجزئ أحد يعلأ بصره منه

(١) وقك : قهرك ، وقسمك : ونحكك عند حدودك .

ولا يشتر بطرفة إليه . أما والله لآنا أكثر من ابن الخطاب عدداً ، وأقرب ناصراً وأجدر إلى أن قال لهم : أنتقدون من حوصكم شيئاً ؟ فإلى لا أفضل في الفضل ما أريد ، ولم كنت إماماً إذا ؛ أما والله ما عاب على من عاب منكم أسرارهم ، ولا أثبت الذي أثبت إلا وأنا أصره .

قال : وقدم معاوية بن أبي سفيان على أثر ذلك من الشام ، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم : يا مشر الصعابة ، أوصيكم بشيخي هذا خيراً ، فوالله فئن قتل بين أظهركم لأملأ منها عليكم خيلاً ورجلاً ، ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال : يا عمار ، إن بالشام مئة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء ، مع ثلهم من أبنائهم وعبيدهم ، لا يرفون علياً ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا مهاجرة ، ولا طلحة ولا جبرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سمداً ولا دعوته ، فإياك يا عمار أن تمد غداً في فتنة تتجلى : فيقال : هذا قاتل عثمان ، وهذا قاتل علي . ثم أقبل على ابن عباس فقال : يا ابن عباس ، إننا كنا وإياكم في زمان لا نرجو فيه ثواباً ، ولا نخاف عقاباً ، وكنا أكثر منكم ، فوالله ما ظنناكم ولا قهرناكم ولا أخرناكم عن مقام خدمتنا ، حتى بعث الله رسوله منكم ، فسبق إليه صاحبكم ، فوالله ما زال يكره شركنا ويتفاضل به عنا حتى ولى الأمر عليه وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسه ، ثم غير فطلق ونطق على لسانه ، فقد أ و قد تم نارا لا تطفأ بالهاء ، فقال ابن عباس . كنا كما ذكرت حتى بعث رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسه ، ولها هو أفضل من سته ، فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانباً ، وصيرتمونا بين أن أئنا متهمين أو نزعنا متهمين^(١) وصاحبنا من قد علمتم ، والله لا يهوجج مهجج إلا ركة^(٢) ، ولا يرد حوصاً إلا أفرطه^(٣) . وقد أصيبت أحب منكم ما أحببت : وأكره ما كرهت ؛ ولعل لا أفتك إلا في خير .

(١) ملومين .

(٢) أى لا يصيح صائح مستكراً إلا أخذ على يده .

(٣) أفرطه : ملاء حتى سال لاء منه وقاض .

ذكر القول والمجادلة لثمان ومعاوية رضى الله عنهما

قال : وذكروا أن ابن عباس قال : خرجت إلى المسجد فإني لجالس فيه مع علي حين صليت العصر ، إذ جاء رسول عثمان يدعو عليا ، فقال علي ثم : فلما أن ولى الرسول أنبل حل فقال : لم تراه دعاني ؟ قلت له : دعائك ليحكمك ؟ فقال انطلق معي ، فأقبلت فإذا طلحة والزبير وسعد وأناس من المهاجرين ، فجلسنا فإذا عثمان عليه ثوبان أبيضان ، فسكت القوم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، فحمد الله عثمان ، ثم قال : أما بعد ، فإني ابن عمي معاوية هذا قد كان غالباً عنكم وعما نتم مني ، وما عاتبنيكم عليه وعاتبتموني ، وقد سألتني أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد ؟ فقال سعد بن أبي وقاص : وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت أو قيل لك ؟ فقال علي ذلكم تكلم يا معاوية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا مشر للهاجرين وبشيرة الثوري فلما كنتم أعزى ولما كنتم أريد ، فمن أجاوبني بشيء فنسك واحد ، فإني لم أرد غيركم ، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجع الناس أحد المهاجرين اللثة ، ثم دفنوا نبيهم ، فأصجوا سالماً أمرهم ، كأن نبيهم بين أظهرهم ؟ فلما أمس الرجل من نفسه بايع رجلا من بعده أحد المهاجرين ؟ فلما احتضر ذلك الرجل شك في واحد أن يختاره ، فجعلها في ستة نفر بشيرة المهاجرين ، فأخذوا رجلا منهم لا يألون عن الخير فيه ، فبايعوه وهم ينظرون إلى الذي هو كأن من بعده ، لا يتكلم ولا يتقرون ، مهلاً مهلاً مشر للهاجرين ، فلما وراءهم من إن دغتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن قلتم الذي أنتم فاعلوه دفنكم بأشد من ركنكم وأعد من حكمكم ، ثم استن عليكم يستنكم ، ورأى أن دم الباق ليس بممتع بعد دم الماضي ، فسددوا وارتدوا ، لا يخليكم على أمركم من حذرتكم ، فقال علي بن أبي طالب : كأنك تريد نفسك يا ابن الضناء لست هناك ، فقال معاوية : مهلاً عن شتم بلت عمك ، فلها ليست بشر نساك . يا مشر للهاجرين ، وولاة هذا الأمر ، ولاكم الله إياه فأتم أهله ، وهذان البلدان مكة والقدية مأوى الحق ومتهواه ، إنما ينظر التابعون إلى السابقين والبلدان إلى البلدين فلما استقاموا استقاموا ، وأيم الله الذي لا إله إلا هو لئن صفقت إحدى الدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ، ولا البلدان للبدنين ، وليسبلن أمركم ولينقلن للكم من بين أظهركم ، وما أتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض فإني رأيتمكم نشبتم في الطمن على خيلكم ، وظهرتم مبيشتمكم وسفتم أحلامكم ، وما كل نصيحة مقبولة ، والمصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله .

قال : ثم خرج القوم وأمسك عثمان ابن عباس ، فقال له عثمان : يا ابن عمي وإني خالتي ، فإني لم يلقني عنك في أمري شيء أحبه ولا أكرهه على ولا لي ، وقد علمت أنك رأيت بعض

ما رأى الناس ، فمنك عقلك وحكمتك من أن تظهر ما أظهرنا ، وقد أحبت أن تملأ رأيك فيما بيني وبينك فأعند : قال ابن عباس : قتلت يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليت بعد العافية ، وأدخلتني في الضيق بعد السعة ، والله إن رأيي لك أن يجعل سرك ، ويرف قدرك ، وسأقتك ، والله لوددت أنك لم تمل ما فعلت بما ترك الخليلتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركه لا رأياً أنه ليس لها علمت أنه ليس لك كما لم يكن لها ، وإن كان ذلك لها فزكاه خيفة أن أن ينال منها مثل الذي نيل منك تركته لا تركاه له ، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك ؟ قال : فإني لك أن تشير على بهذا قبل أن أقبل ما فعلت ؟ قال : وما على أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ قال : فهب لي صمتاً حتى ترى رأيي . قال : فخرج ابن عباس ، فقال عثمان لمعاوية : ما ترى ، فإن هؤلاء المهاجرين قد استجبوا القدر ، ولا بد لهم مما في أنفسهم ، فقال معاوية : أراي أن تأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم . قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير ، قال عثمان : سبحان الله ! اتل أصحاب رسول الله بلاحث أحدوه ، ولا ذنب ركبه ؟ قال معاوية : فإن لم تعظم فإنهم سيقولونك . قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء . قال معاوية : فاختر مني إحدى ثلاث خصال ؟ قال عثمان : وما هي ؟ قال معاوية : أرب لك هنا أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام ، يكونون لك ردةً وبين يديك بدأ قال عثمان : أرزقهم من أين ؟ قال : من بيت المال ، قال عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين طرزدى ؟ لا فعلت هذا . قال : فثانية ، قال : وما هي ؟ قال : فرقهم عنك فلا يجمع منهم اثنان في مصر واحد ، واضرب عليهم البعوث والتدب ، حتى يكون دور يبر أحدكم أم عليه من صلاته ؟ قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله ، وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ؟ لا أقبل هذا . قال معاوية فثالثة : قال : وما هي ؟ قال : اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت ، قال عثمان . نعم هذه لك إن قتلت فلا يطل دمي .

قال : ثم خرج عثمان فصد للبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس ، إن نصيحتي كذبتي ، ونفسي متني ، وقد سمعت رسول الله يقول : لا تهادوا في الباطل فإن الباطل يزدد من الله بدأ ، من أساء قليب ، ومن أخطأ قليب ، وأنا أول من انعطه والله لن ردني الحق عبداً لأتسعين لب البيد ، ولا كونن كالرقوق الذي إن ملك صبر ، وإن أعتق شكر ، ثم نزل ، فدخل على زوجته نائفة بنت النرافضة ، ودخل معه مروان بن الحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنكم أو أسكت ؟ فقالت له نائفة : بل أسكت فوالله لن تكلمت لثرتنه وتزوجته . فالتفت إليها عثمان مضطرباً ، فقال : اسكتي ، تكلم بإمروان ، قال مروان : يا أمير المؤمنين إنك والله لو قلت

الذى قلت وأنت في عز ومنة لنا بئتك ، ولكنك قلت الذى قلت وقد بلغ السيل الزبى^(١) ،
وجاوز الحزام الطيبين ، فاقضى التوبة ولا تتر بالخطيئة .

ما أنكر الناس على عثمان رحمه الله

قال : وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فكتبوا كتاباً
ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبه ، وما كان من هبته
خمس أفرقية مروان وفيه حق لله ورسوله ، ومنهم خوو القربي واليتامى والساكين ،
وما كان من تطاوله في البيان ، حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : داراً ثالثة ، وداراً ثالثة ،
وغيرها من أهله وبنايه ، وبيان مروان التصور بنى خشب^(٢) ، وعمارة الأموال بها من
الحبس الواجب لله ورسوله ، وما كان من إنشائه العمل والولايات في أهله وبنى عمه من بنى
أمية أحداث وغلة لاهبة لم من الرسول ولا تجربة لم بالأمور ، وما كان من الوليد بن عقبة
بالكوفة إذ صل بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أزيدكم
صلاة زدكم ، وتعطيله إقامة الحد عليه ، وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والأنصار
لا يستملهم على شيء ولا يستشيرهم ، ولستنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذى حمى
حول المدينة ، وما كان من إدارته القواطع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم
حبة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم لا يثرون ولا يذبون^(٣) ، وما كان من مجاوزته
الحيزان إلى الوسط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما كان ضرب الخليفتين
قبله بالعدة والحيزان .

ثم تعاهد القوم يدفن الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حصر الكتاب عمار بن ياسر
والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ؛ فلما خرجوا بالكتاب ليدفوه إلى عثمان والكتاب في يدهما ،
جسوا يتسللون عن عمار حتى يقي وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان ، فاستأذن عليه ، فأذن له في يوم
شأت ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهلهم بنأمية ، فدفع إليه الكتاب فقرأه ، فقال له :
أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : ومن كان معك ؟ قال كان منى نفر تفرقوا فرقاً

(١) الزبي جمع ذبية وهى المكان فى أعلى الجبل ، والطيبان ثنية طي وهى عدى العداة وإذا
جاوز حزام البرزعة الطي قد حان سقوطها ، والمعنى أن الأمر بلغ منتهاه وكاد يجلت زمامه
من يملك .

(٢) ذو خشب بضم الخاء والشين موضع بالمدينة .

(٣) لا يذبون : لا ينافسون عن الإسلام .

(٤) فرقا : ففتح الفاء والراء : معنى خوفاً منك .

ملك ، قال : من هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعنى عماراً) قد جرأ عليك الناس ، وإنك إن قتلتك نسكت به من وراءه ، قال عثمان : أضربوه ، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فقتوا بطله ، فنشى عليه ، فجروه حتى طرحوه على باب الدار ، فأمرت به أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام ، فأدخل منزلها ، وغضب فيه خو للنيرة وكان حليفهم ، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر ، عرض له هشام بن الوليد بن النيرة ، فقال : أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لأقتلن به رجلاً عظيماً من بني أمية ، فقال عثمان : لست هناك .

قال : ثم خرج عثمان إلى المسجد ، فإذا هو بجلى وهو شاك مصحوب الراس ، فقال له عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى : أشتى موتك أم أشتى حياتك ؟ فوالله لئن مات ما أحب أن أبقي بعدك لنيرك ، لأنى لا أجد منك خلفاً ، ولئن بقيت لا أعدم طالباً يتخلفك سلباً وعذله ويسدك كهماً وملجأ ، لا يخشى منه إلا مكانه منك ، ومكانك منه ، فأنا منك كلابن العاق من أئمه : إن مات فجسه ، وإن عاش عقه . فلما سلم فسلم ، ولما حرب فحارب ، فلا تحصى بين السماء والأرض ، فانك والله إن قتلتني لأجد منى خلفاً ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ، ولن يلى أمر هذه الأمة بديء فتنة . فقال على : إن فيها تكلمت به لجواباً ، ولكنى عن جوابك مشغول يوجسى . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (صغير جميل ، والله المستعان على ما تصفون) . قال مروان : إنا والله إذا تكسرت رماحنا ، ولتقطعت سيوفنا ، ولا يكون فى هذا الأمر خير لمن يبدنا . فقال له عثمان : اسكت ، ما أنت وهذا ؟ فقام إليه رجل من المهاجرين ، فقال له : يا عثمان ، أرايت ما حيت من الحمى (آفة أذن لكم أم على الله تفترون) فقال عثمان : إنه قد حمى الحمى قبل عمر لإبل الصدقة ، وإنما زادت ، فزيت ، فقام عمرو بن الماس فقال : يا عثمان ، إنك ركبت بالناس نهاير^(١) من الأمر ، فنب إلى الله يتوبوا ، فرفع عثمان يديه وقال : توبوا إلى الله من كل ذنب ، اللهم إني أول تائب إليك . ثم قام رجل من الأصغر : فقال : يا عثمان ، ما بال هؤلاء النفر من أهل المدينة يأخذون المطايا ولا يغزون فى سبيل الله . وإنما هذا المال لمن غزا فيه وقتل عليه ، إلا من كان من هذه الشيوخ من أصحاب عند عليه الصلاة والسلام ، فقال عثمان : فاستغفر الله واتوب إليه . ثم قال : يا أهل المدينة ، من كان له منكم ضرع قليل يضرعه ومن كان له زرع قليل يزرعه فلنا والله لا نعطى مال الله إلا لمن غزا و سبيله : إلا من كان من هذه الشيوخ من الصحابة . قال : فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم

عليه الحد ؟ (يعني الوليد بن عتبة) ، قال عثمان لمي : دونك ابن عمك فأقم عليه الحد . فقال علي للحسن : قم فأجلده . قال الحسن ما أنت وذلك ؟ هذا لتترك ، قال علي : لا ، ولكنك عجزت وفشلت ، يا عبد الله بن جعفر ، قم فأجلده . قام فضربه وعلى يده ، فلما بلغ أربعين أمسك وقال : جد رسول الله أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وكلها عمر ثمانين : وكل سنة .

حصار عثمان رضي الله عنه

قال وذكروا أنه لما اشتد الطعن على عثمان : استأذنه علي في بعض يواده يتحى إليها ! فأذن له ؟ واشتد الطعن على عثمان بعد خروج علي : ورجا الزير وطلحة أن يعلا إليهما قلوب الناس ، وينبأ عليهم ، واختبا غيبة علي ، فكتب عثمان إلى علي إذا اشتد الطعن عليه . أما بعد فقد بلغ السيل الزوي ! وجاوز الحزام الطيين^(١) . وارتمع أمر الناس في شأني فوق قدره ! وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي . وطمع في من لا يدفع عن نفسه^(٢) .

وإنك لم يضر عليك كلفاخر ضيف ولم ينالك مثل مطلب^(٣)

وقد كان يقال : أكل السبع خير من افترس الثعلب : فأقبل على أولى.

فإن كنت مأكولا فكأن خير آكل ولا فأدركني ولما أمرني

قال حبيب بن عبد المزي : أرسل إلى عثمان حين اشتد حصاره ، فقال : قد بدا لي أن أنهم نسي هؤلاء ، فأث عليا وطلحة والزير ، قتل لهم : هذا أمركم قولوه ، واصنعوا فيه ما شئتم فخرجت حتى جثت عليا ، فوجدت علي بابة مثل الجبال من الناس ، والباب منلق ، لا يدخل عليه أحد ، ثم انصرفت ، فأثيت الزير ، فوجدته في منزله ليس يابه أحد ، فأخبرته بما أرسلني به عثمان ، فقال : قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين ، هل جثت عليا ؟ قلت : نعم ، فلم أخلص إليه ، فقمنا جميعا ، فأثينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد ، فقصصنا عليه ما قال عثمان ، فقال : قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين ، هل جثتم عليا ؟ قلنا نعم ، فلم نخلص إليه . فأرسل طلحة إلى الأخت ، فأثاه فقال لي : أخبره ، فأخبرته بما قال عثمان ، فقال طلحة وقد دسمت عيناه : قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين ، فقام الأخت فقال : تبشرون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم ، وما هو ذا ، فأخرج كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من المهاجرين الأولين وبيعة النوري ، إلى من بمصر من الصحابة والتابعين ، أما بعد ، أن تعالوا إلينا

(١) سبق بيان معنى هذا الكلام ص ٣٥ .

(٢) يريد طمع في الضملاء .

(٣) الذي ظلمه الناس كثيرا .

وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها ، فإن كتاب الله قد بدل ، وسنة رسوله قد غيرت ، وأحكام الخليفتين قد بدلت ، فنشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان ، إلا أقبل إلينا ، وأخذ الحق لنا ، وأعطانا ، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحق على التهاج الواضح الذي طرقت عليه نبيكم ، وطارفكم عليه الخلفاء ، غلبنا على حقنا واستولى على فيثنا ، وحيل بيننا وبين أمرنا . وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة ، وهي اليوم ملك عضوض^(١) . من غلب على شيء أكله . أليس هذا كتابكم إلينا ؟ فبسيك طلحة ، فقال الأشر : لما حضرنا أقبلكم تصرون أعينكم ، والله لا تقارقه حتى تقتله ، وانصرف . قال : ثم كتب عثمان كتابا بته مع نافع بن طريف إلى أهل مكة ومن حضر للوسم يستشيهم فوافى به نافع يوم عرفة بمكة ، وابن عباس يحطب ، وهو يومئذ على الناس كان قد استعمله عثمان على اللوسم ، فقام نافع ففتح الكتاب ، فقرأه ، فلذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عثمان أمير المؤمنين ، إلى من حضر الحج من المسلمين ، أما بعد : فإني كتبت إليكم كتابي هذا وأنا محصور ، أشرب من بحر القصر ، ولا آكل من الطعام ما يكفيني ، خيفة أن تندد خيرتي . فأموت جوعا أنا ومن معي ، لا أدعى إلى توبة أقبلها ، ولا تسمع مني حجة أقولها ، فأشد الله رجلا من المسلمين بلنه كتابي إلا قدم على ، فأخذ الحق في ، ومنعني من الظلم والباطل . قال : ثم قام ابن عباس ، فأتم خطبته ، ولم يمرض لشيء من شأنه . وكتب إلى أهل الشام عامة ، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة : أما بعد فإني في قوم طال فيهم مقام ، واستعملوا القدر في ، وقد خيروني بين أن يحملوني على شارب^(٢) من الإبل إلى دخل^(٣) . وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كسائي^(٤) . وبين أن أقدم^(٥) بمن تلت . ومن كان على سلطان يخطي ويصيب ، فياغوثاه يا غوثاه ، ولا أمير عليكم دوني ، فالسبل السبل يا معاوية ، وأدرلكم أدرك ، وما أراك تدرك .

(١) ملك عضوض ، لاحق بأصعابه يصعب خلعهم منه ، أو شديد قوى على الناس .

(٢) الشارف من الإبل : اللبن المجوز .

(٣) دخل بضم الدال وسكون الحاء جزيرة بين اليمن وبلاد البصرة ، للراد خيروه بين النبي وبين الاستقالة من الخلافة .

(٤) رداء الله هو الخلافة .

(٥) أسلم لهم عسى ليأخذوا القود مني فيقتلوني قصاصاً بمن قتل من المسلمين .

تولية محمد بن أبي بكر على مصر

شكوى أهل مصر من ابن أبي سرح

قال : وذكروا أن أهل مصر جاؤوا يشكون ابن أبي سرح عليهم ، فكتب إليه عثمان كتابا يتهدد فيه ، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان وضرب بعض من أتاه به من قبل عثمان من أهل مصر حتى قتله ، فخرج من أهل مصر سبع مئة رجل فنزلوا للمسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع بهم ابن أبي سرح ، فقام طلحة فحكم بكلام هديب وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوكم عزل هذا الرجل ، فأبيت إلا واحدة ، فهذا قد قتل منهم رجلا فأضغفهم من مالهك . ودخل عليه على وكان متكلم القوم فقال له : إننا يسألونك رجلا مكان رجل ، وقد ادعوا قبلك دما ، فأعزله عنهم وافض بينهم فلئن وجب لهم عليه حق ، فاضغفهم منه ، فقتل اختاروا رجلا أوليه عليهم .

تولية محمد بن أبي بكر

فقالوا : استعمل محمد بن أبي بكر ، فكتب عهده وولاه ، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ، ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر ، فخرج محمد ومن معه حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة : إذا هم ببلاد أسود على بئر يخطب البئر ، كأنه رجل يطلب أو يُطلب ، فقال له أصحاب محمد : ما قصتك وما شأنك ؟ كأنك طالب أو هارب فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهي إلى عامل مصر ، فقال له رجل : هذا عامل مصر معنا ، قال : ليس هذا أريد ، فأخبر محمد بأمره فبعث في طلبه رجلا ، جاء به إليه ، فقال له ، غلام من أنت ؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام مروان ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين ، حتى عرفه رجل ، به لثمان : فقال له محمد : إلى من أرسلتك ؟ قال : إلى عامل مصر ؟ قال : بماذا ؟ قال : برسالة . قال أما معك كتاب ، قال : لا ، فقلشوه فلم يجدوا معه كتابا ، قال وكانت معه إداوة (١) قد بيست : فيها شيء يشغل ، فحركه ليخرج فلم يخرج فشقوا إداوته ، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح ، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار ، ثم فاك الكتاب بمحض منهم ، فقرأه ، فإذا فيه : إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقطعهم ، وأبطل كتابهم ، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي . فلما رأوا الكتاب فزعوا منه ، ورجعوا إلى المدينة .

(١) الإداوة سقاء من جلد يوضع فيه الماء ويسمى الطهرة لأن صاحبها يشطر بها فيها من الماء ومعنى قد بيست : قد جعلت لخدم وضع الماء فيها مدة طويلة .

رجوع محمد بن أبي بكر إلى المدينة

وتم محمد الكتاب بخواتم التفرقين كانوا معه، ودفنه إلى رجل منهم، ثم قدموا المدينة، فجمعوا طلعة والزير وعليا وسعدا، ومن كان من أصحاب رسول الله، ثم فكوا الكتاب بمضرم منهم، وأخبرهم بقصة التلام: وأقرأهم الكتاب، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق^(١) على عثمان. وقام أصحاب النبي فلقحوا بمنازلم: وحضر الناس عثمان، وأحاطوا به، ومنعوه الماء والخروج، ومن كان معه، وأجلب^(٢) عليه محمد بن أبي بكر.

حصار أهل مصر والكوفة عثمان رحمه الله

قال: وذكروا أن أهل مصر أقبلوا إلى علي، فقالوا: ألم تر عدوا الله^(٣) ماذا كتب فينا؟ قم معنا إليه، فقد أحل الله دمه، فقال علي، لا والله: لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال علي: لا والله ما كتبت إليكم كتاباً قط: فنظر بعضهم إلى بعض. ثم أقبل الأشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل: وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل، فأقام أهل الكوفة وأهل مصر يباب عثمان ليلاً ونهاراً، وطلحة بمرض الرقيق جميعاً على عثمان: ثم إن طلحة قال لهم: إن عثمان لا يزال محاصره؟ وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوه لئلا أن يدخل عليه.

غاطبة عثمان من أهل القصر طلعة وأهل الكوفة وغيرهم

قال: وذكروا أن عثمان لما منع الماء صد على القصر، واستوى في أعلاه ثم نادى: أين طلعة؟ فأتاه، فقال: يا طلعة، أما تعلم أن بشر رومة كانت لفلان اليهودي، لا يسق أحداً من الناس منها قطرة إلا جفن، فاشتريتها بأربعين ألفاً، فجعلت رخاؤى^(٤) فيها كرشاء رجل من السدنين، استأثر عليهم؟ قال: نعم. قال: فهل تعلم أن أحداً يمنع أن يشرب منها اليوم خيري؟ لم ذلك؟ قال: لأنك بدلت وغيرت. قال: فهل تعلم أن رسول الله قال: من اشترى هذا البيت

(١) حنق: حقد وضغِب.

(٢) أجلب عليه: جمع عليه الناس يتشددون عمله ويردونه عن طريقه الذي يرويه غير مستقيم.

(٣) يريدون مروان بن الحكم.

(٤) الرشاء: الحبل الذي يربط به الدلو عند إخراج الماء من البئر، وللرء حلت نفس كأحدكم في سقى الماء مع أنها ملكي.

وزاده في المسجد فله به الجنة ، فاشترته بشرين ألفا ، وأدخلته في المسجد ؛ قال طلحة : نعم . قال : فهل تعلم اليوم أحداً يمنع فيه من الصلاة غيري ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك غيرت وبدلت . ثم انصرف عثان وبث إلى علي بنجره أنه منع من الماء ، ويستتيب به ، فبث إليه علي ثلاث قرب مملوءة ماء ، لما كادت تصل إليه ، فقال طلحة : ما أنت وهذا ؟ وكان بينهما في ذلك كلام شديد ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت فقال لهم : إن معاوية قد بث من الشام يزيد بن أسيد مدداً لعثان ، في أربعة آلاف من خيل الشام ، فاصنعوا ما أتم صانعون ، وإلا فانصرفوا وكان معه في الدار مئة رجل ينصرونه منهم عبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحسك ، والحسن بن علي ، وعبد الله بن سلام ، وأبو هريرة ، فلما سمع القوم إقبال أهل الشام ، قاموا فأمسوا النار ياب عثان ، فلما نظر أهل الدار إلى النار ، فصبوا للقتال ونهبوا ، ففكره ذلك عثان قال : لا أريد أن يهراق في مصيبة^(١) دم ، وقال بلجج من في الدار : أتم في حل من يعنى ، لا أحب أن يقتل في أحد ، وكان فيهم عبد الله بن عمر ، قال : يا أمير المؤمنين : مع من تأمرني أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك ؟ قال : عليك بلزوم الجماعة . قلت : فلئن كانت الجماعة هي التي تطلب عليك ؟ قال عليك بلزوم الجماعة حيث كانت . قال : ثم دخل عليه الحسن بن علي ، فقال مرني بما شئت ، فإني طوع يدك . فقال له عثان : ارجع يا بني أخى ، اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره . ثم دخل عليه أبو هريرة متفلاً سيفه ، فقال : طاب الضراب بأمر المؤمنين ، قد قتلوا منا رجلاً ، وقد أهبوا النار ، فقال عثان : عزمت عليك يا أبا هريرة إلا ألقيت سيك ، قال أبو هريرة : فألقته فلا أدرى من أخذه . قال : ودخل المنيرة بن شعبة ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء قد اجتمعوا عليك ، فلئن أحببت فالحق بك ، وإن أحببت أن تحرق لك باباً من الدار فطحق بالشام ففها معاوية وأنصارك من أهل الشام ، وإن أبيت فأخرج ونخرج ، ونحاكم القوم إلى الله تعالى . قال عثان : أما ما ذكرت من الخروج إلى مكة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يلحد بك الرجل إن شاء قرين ، عليه نصف عذاب هذه الأمة من الإنس والجن ، فلن أكون ذلك الرجل إن شاء الله ، وأما ما ذكرت من الخروج إلى الشام ، فلئن المدينة دار هيرتي ، وجوار قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، فلا حاجة لي في الخروج من دار هيرتي ، وأما ما ذكرت من عاكمة هؤلاء القوم إلى الله ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته يهراق الدم .

(١) المصيبة : آفة يؤخذ بها الدم من الرض تشبه الحفنة عندنا الآن ، والمراد : دم قليل .

رؤية عثمان أبا بكر وعمر في المنام

ثم قال : إني رأيت أبا بكر وعمر أيّام الأية قتالاً لي : سمّ قُتِلَكَ ففطر عندنا الأية ، وإني أصبحت صائماً ، وإني أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إلا أخرج من الدار سالماً . فقالوا : إنا إن خرجنا لم نأمن على أنفسنا منهم ، فأذن لنا فنكون في موضع من الدار فلما رأى ذلك على بث إلى طلحة والزبير وسد وعمار وعمر من أصحاب محمد ، كلهم بدرى ، ثم دخلوا على عثمان ومعهم الكتاب والقلام والبعر ، فقال على : اتلنا غلامك ، والبعر ببرك ؟ فقال : نعم . قال : فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله ما كتبت ، ولا أمرت ، ولا علمت . فقال له : فالحاتم خاتمك ؟ قال : نعم . قال : فكيف يخرج غلامك ببرك وكتاب عليه خاتمك لا تعلم به ؟ حلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا وجهت ، ولا أمرت . فشك القوم في أمر عثمان ، وعلموا أنه لا يحلف بإطلا . فقال قوم منهم : لا يرا عثمان عن قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان ، حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله ، وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتبه عزله ، وإن كان مروان كتبه نظرنا في أمره ، وما يكون في أمر مروان ، فاضرب القوم عنه ، ولزموا بيوتهم ، وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان ، وخصى عليه القتل . فبلغ حلياً أن عثمان يرد قتله ، قال : إنا أردنا مروان ، فأما قتل عثمان فلا ، ثم قال الحسن والحسين : اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان ، ولاندا أحداً يصل إليه ، ويثبت الزيرابته على كره ، ويثبت طلحة ابنه كذلك ، ويث عدة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبناءهم ، بمنون الناس أن يدخلوا على عثمان . ويسألوه أن يخرج مروان ، فأشرف عليهم عثمان من أعلى القصر ، فقال : يا مشر للسلين ، أذكركم الله ، ألتهم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب دار بني فلان ، ليوسع بها للمسلمين في مسجدكم . فاشتريتها من خالص مالي . وأنتم اليوم تمنوني أن أصل فيه . أذكركم الله يا مشر للسلين . ألتهم تعلمون أن بشر رومة كانت تباع القرية منها بدينار . فاشتريتها من خالص مالي ، فجلت رهاى كرشاً واحداً من للسلين ، وأنتم تمنوني أن أشرب من مائها ، وأنا اشتريتها ، حتى إني ما أقطر إلا على ماء البحر ؟ ألتهم تعلمون أنكم هتمتم على أحياء ، فاستخفرت الله ووثبت إليه منها ، ونزعمون أني غيرت وبلت ، فابشوا على شاهدين مسلمين ، وإلا فأحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا أعلمت عليه ، يا قوم (لا يجرمنكم صفائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) يا قوم لا تقتلوني فإنكم إن تقتلوني كنتم هكذا ، وشبك بين أصابعه ، يا قوم إن الله رضى لكم السمع والطاعة ، وحذركم العصية والنفرقة ، فاقبلوا ببيعة الله ، واحذروا عقابه ، فإنكم إن فعلتم الذي أتم فاعلون ، لا تقوم الصلاة جيماً ،

ويسلط عليكم عدوكم ، وإنى أخبركم أن قوماً أظهروا الناس أنهم إنما يدعوننى إلى كتاب الله تعالى والحق ؛ فلما عرض عليهم الحق رغبوا عنه وتركوه ، وطال عليهم عمرى ، واستجلبوا القدرى ، وقد كانوا كتبوا إليكم ، أنهم قد رضوا بالذى أعطيتهم ، ولا أعلم أنى تركت من القدى عاهدتهم عليه شيئاً ، وكانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود ، وترك للظالم ، وردعا إلى أهلها ، فرضيت بذلك ، وقالوا : يؤمر حمرو بن المص ، وعبد الله بن قيس ، ومثلهما من ذوى القوة والأمانة ، وكل ذلك ضلت ، فلم يرضوا ، وحالوا بينى وبين المسجد ، فابتزوا ما قدروا عليه بالدينة وهم يخبرونى بين إحدى ثلاث : إما أن يقيدوني بكل رجل أصبت خطأ أو محمداً ، وإما أن أعزل عن الأمر ، فيؤمروا أحداً ، وإما أن يرسلوا إلى من أطاعهم من الجنود وأهل الأمصار ، فأرسلوا إليكم فأتيتم لتبزنوني من القدى جبل الله لى عليكم من السمع والطاعة ، فسمعت منهم ، وأطعتموهم والطاعة لى عليكم دونهم ، فقلت لهم : أما إقلدة من عسى فقد كان قبل خلفاء ، ومن يتول السلطان يخطئ ويصيب ، فلم يستقد من أحد منهم ، وقد علمت أنهم يريدون بذلك نكس ، وأما أن أتبرا من الأمر ، فإن يصلبوني أحب إلى من أن أتبرا من جنة الله تعالى وخلافته حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى : يا عتبان ، إن الله تعالى سيقصك قصياً بدي ، فإن أرادك للناقوس على خلمه فلا تخلمه حتى تلقانى ، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة ، ولكن أنوها طالعين ، يبتنون بذلك مرضاة الله ، وصلاح الأمة ، ومن يكن منهم يبتنى الدنيا فلن ينال منها إلا ما كتب له ، فاتفقوا الله ، فأنى لا أرضى لكم أن تنكثوا عهد الله ، وإنى أئندكم الله والإسلام ألا تأخذوا الحق ولا تعطوه منى (وما أبرئ عسى إن النفس لأمانة بالسوء ، إلا ما رحم ربي) وإنى عاقبت أقواماً ، وما أبغضى بذلك إلا الخير ، وإنى أتوب إلى الله من كل عمل حملته ، وأستغفره ، أما والله لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحمل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث : الردة عن الإسلام ، والزنا بعد الإحصان ، ولا والله ما كان ذلك منى فى جاهلية ولا إسلام ، أو رجل قتل رجلاً فيقاده . فقال بعضهم : إنه ليقول مقالاً . وقال آخر : لئن سمعته منه لصرفتكم ، فأبوا ، ورموه بالسام ، واستقبلوه بما لا يستقبل به مثله ، ثم أشراف عليهم عبد الله بن سلام ، وكان من أهل الدار ، قال : يا معشر من حاصر دار عتبان من المهاجرين والأنصار ، ممن أنتم الله عليهم بالإسلام ، لا تقتلوا عتبان . فوالله إن حقه على كل مؤمن لحق الوالاه على والده ، ووالله إن على حوائط المدينة اثني عشر ألف ملك منذ أن أمد الله بهم نبيك صلى الله عليه وسلم ، ووالله لئن قتلتموه ليسخنن عليكم ربكم ، ولتفرقن ملائكتكم عنكم ولتقتلن بنته أتواها هم فى الأصلاب وما خلقوا فى الأحارم وإنى لأجده فى الثورات أتاني أنزل الله على موسى عليه السلام ، وكتب يده عز وجل إليكم بالبرانى وبالبرى . خليفكم المظالم الشهيد والذى نكس يده لئن قتلتموه لا تؤدى بدمه طاعة إلا عن حفاة ولا توصل رحم

بلاعن مكافأة^(١) وليقتل به الرجال ومن في اصحاب. فقالوا له: يا يهودى، أشجع بطنك، وكساظهرك
والله لا يتطرح فيه شاتان، ولا يتنافر فيه ديكان، فقال: أما الشاتان والديكان فسدتم، ولكن
التيسان^(٢) إلا كبران يتناطحان فيه فحصبوه ورموه حتى شجوه. فالتفت إلى عثمان، فقال له:
زعموا أنك أشبهت بطنى وكسوت ظهرى، فاصبر يا أمير المؤمنين، فواللذى نفسى بيده إنى
أجذك في كتاب الله تعالى للزّل: الخليفة المظلوم الشهيد، فرميت بالساهم من كل جانب، وكان
الحسن بن علي حاضراً، فأصابه سهم، فضربه بالسهم، وأصاب مروان سهم، وهو في الدار،
وحضب محمد بن طلحة، وشجق قبر مولى على فضي محمد بن أبي بكر أن يضرب بنو هاشم للحسن
فيثيروها فتنة.

قتل عثمان رضى الله عنه وكيف كان

قال: وذكروا أن محمد بن أبي بكر لما خرج الحسن بن علي أخذ يدرجلين، فقال لهما:
إن جاءت بنو هاشم، فأروا اللهاء على وجه الحسن، كففوا الناس عن عثمان، وبطل ما يريدون
ولكن قوموا حتى تسمروا عليه، فقتله من غير أن يعلم أحد، ففسدوا هو وصاحبه من دار رجل
من الأنصار، حتى دخلوا على عثمان، وما يعلم أحد بمن كان معه، لأن كل من معه كان فوق
البيت، ولم يكن معه إلا امرأته، فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه، وقصد على صدره، وأخذ
بلمحيته، وقال: يا نائل^(٣) ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عاص وابن أبي سرح.
فقال له عثمان، لو رأي أبوك رضى الله عنه لكان، ولساهم مكانك منى، فتراحت يده عنه،
فقام عنه وخرج فدعا عثمان بوضوء فوضأ، وأخذ مصحفاً، فوضه في حبره، ليحرم^(٤)
به ويدخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص^(٥) في يده، فوجأ به^(٦) منكبه بما على الرقوة، فأدماه
ونضح الدم على ذلك المصحف، وجاء آخر فضر به برجه، وجاء آخر فوجأ بقائم سيفه، فضفى
عليه، ومحمد بن أبي بكر لم يدخل مع هؤلاء، فصاح نساؤه، ووش للاء على وجهه فأفاق،
فدخل محمد بن أبي بكر وقد أفاق فقال له: أي نائل، غيرت وبدلت وفطنت. ثم دخل رجل
من أهل مصر، فأخذ بلمحيته، فقتل منها خصله، وسل سيفه، وقال: افرجوا لى، فقلده
بالسيف، فقلده عثمان يده: فقطعها، فقال عثمان أما والله إنها أول يد خطت للنصل، وكثبت

- (١) يريد أن الإيمان ينزع من القلوب ويحل محلها الخوف والحرس على الدنيا فالذى يصل رحمه يرجو منهم جزاء على صلته لم أى لا يصلها ابتغاء وجه الله وإنما لترض الدنيا
- (٢) يريد عليا ومعاوية، والعرب تشبه الرجل الشجاع بالتييس، وهو ذكر المزم.
- (٣) النائل: الشيخ الأحمق، ورجل ذليلة كان يشبه به عثمان رضى الله عنه.
- (٤) يحرم به: يصير به كأنه في حرم لا يجوز أحد على قتله.
- (٥) المشقص: نصل عرض أو طويل أو سهم فيه نصل عرض أو طويل.
- (٦) وجأ به: ضرب به أو طعن به.

القرآن ، ثم دخل رجل أزرق قصير مجدر ، ومعه جرز^(١) من حديد ، فمشى إليه فقال : على أي ملة أنت يا فضل ، فقال : لست بنذل ، ولكني عثمان بن عفان ، وأنا على ملة إبراهيم حينما وما أنا من المشركين . قال : كذبت ، وضربه بالجرز على صدغه الأيسر ففسده الدم ، وخر على وجهه ، وحالت نائلة بنت الفرافصة زوجة بينه وبينه ، وكانت جسيمة ، وألقت بنت شيبه نفسها عليه ، ودخل عليه رجل من أهل مصر ، ومعه سيف مصمت ، فقال : والله لأقطعن أذنك ، فبالغ امرأته عنه ، فكشف عنها درعها . فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومكتبها ، فضربت على السيف ، فقطع أناملها ، فقالت : ياربنا ، غلام لثمان أسود ومعه سيف ، أعن عني هذا ، فضربه الأسود فقتله ، ثم دخل آخر معه سيف فقال : افرجوا لي ، فوضع ذهاب السيف في بطن عثمان ، فأمسكت نائلة زوجة السيف ، فحز أصابعها ، ومضى السيف في بطن عثمان فقتله ، فخرجت امرأته وهي تصيح ، وخرج القوم هارين من حيث دخلوا ، فلم يسمع صوت نائلة ، لما كان في الدار من الجلبة ، فصعدت امرأته إلى الناس ، فقالت إن أمير المؤمنين قد قتل . فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما ، فوجدوا عثمان مقتولا قد مثل به فأكبوا عليه يكون وخرجوا فدخل الناس فوجدوه مقتولا فبلغ علياً الخبر وطلعة والزيير وسعدا ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم ، فدخلوا عليه واسترجعوا ، وأكبوا عليه يكون ويُمسرون حتى غشى على عليٍّ ثم أفاق ، فقال لأبيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأتانا على الباب ؟ فرفع يده فضرب الحسن والحسين ، وهشم محمد بن طلحة ، ولعن عبدالله بن الزبير ، وخرج على وقد سلب عقله ، لا يدري ما يستقبل من أمره ، فقال طلحة : مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين ؟ فقال : يا طلحة ، يقتل أمير المؤمنين ولم تم عليه بينة ولا حجة ، قال طلحة : لو دفع مروان لم يقتل . قال علي : لو دفع مروان قتل قبل أن تقوم عليه حكومة . فخرج علي فأتى منزله ، وأغلق الباب ، وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان ، وأخذه الصحف ليترجم به ، وما صنع محمد بن أبي بكر وأرسلت بقميص عثمان مضرجاً بالدم ممزقا ، وبالحصاة التي تنهال الرجل المصري من لحية ، فطقت الشعر في زر القميص ، ثم دعت النعمان ابن بشير الأنصاري ، فبنته إلى معاوية ومضى بالقميص حتى أتى على يزيد بن أسيد مددا لثمان بنه معاوية في أربعة آلاف ، فأخيرهم يقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام . قال : ثم دخل أهل مصر الدار ، فلما رأوا عثمان مقتولا ندموا واستحيوا وكرهوا أكثرهم ذلك ، وثار أهل الدار في وجوههم ، فأخرجوهم منها . ثم اقتلوا عند الباب ، فضرب مروان بالسيف فصرخ^(٢) .

(١) الجرز يضم الجيم وسكون الراء : حمود من حديد .

(٢) صرخ : طرح على الأرض .

دفن عثمان بن عفان رضى الله عنه

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن أزهر ، قال : لم أكن دخلت في شيء من أمر عثمان ، لا عليه ولا له ، فإني لجالس ببناء دارى ليلا بعدما قتل عثمان بليدة إذ جاءني المنذر بن الزبير ، فقال : إن أخى يدعوك فقم إليه ، فقال لى : إنا أردنا أن ندفن عثمان ، فهل لك ؟ قلت : والله ما دخلت في شيء من شأنه ، وما أريد ذلك ، فانصرفت عنه ، ثم اتبته ، فإذا هو في نفر فيهم جبير بن مطعم ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وللسور بن غرمة ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، فاحتلوه على باب وإن رأسه ليقول : طلق طلق ، فوضوه في موضع الجنائز ، فقام إليهم رجال من الأنصار ، فقالوا لهم : لا والله لا تصلون عليه . فقال أبو الجهم : ألا تدعوننا نصلى عليه ، فقد صلى الله تعالى عليه وملائكته . فقال له رجل منهم : إن كنت فأدخلك الله مدخله ، فقال له : حشرنى الله معه . فقال له : إن الله حاشرك مع الشياطين ، والله إن تركناكم به لسيز منا . فقال القوم لأبى الجهم اسكت عنهم وكف ، فسكت ، فاحتلوه ، ثم انطلقوا مسرعين كأنى أسمع وقع رأسه على اللوح ، حتى وضوه في أدنى البقيع فأتاهم بجثة بن عمر الساعدى من الأنصار ، فقال : لا والله لا تدفونه في بقيع رسول الله ، ولا تركبكم تصلون عليه ، فقال أبو الجهم : انطلقوا بنا ، إن لم تصل عليه فقد صلى الله عليه ، فخرجوا ومهمهم عائشة بنت عثمان ، معها مصباح في حق ، حتى إذا أتوا بهي كوكب^(١) حطروا له حفرة ، ثم قاموا يصلون عليه ، وأهم جبير بن مطعم ، ثم دلوه في حفرة ، فلما رآته ابنته صاحت ، فقال ابن الزبير : والله لئن لم تسكن لأضربن الذى فيه عينيك ، فدفنوه ، ولم يلحدوه بلين^(٢) ، وحشا عليه التراب حشا .

بيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكيف كانت

قال : وذكروا أنه لما كان في السباح اجتمع الناس في المسجد ، وكثر التمس والتأسف على عثمان رحمه الله ، وسقط في أيديهم ، وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموا بقتل عثمان ، فقال الناس لهما : أيها الرجلان ، قد وقتنا في أمر عثمان ، فغلبا هن أنسكنا ؛ فقام طلحة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنا والله ما حول اليوم إلا ما قلناه أمس ، إن عثمان خطب الدين بالتوبة ، حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن قتله وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه العيب ، وأمره إلى الله ، ثم قام الزبير فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال أيها الناس إن الله قد رضى لكم الشورى ، فأذهب بها المعوى ، وقد تشاورنا فرمينا علياً فبايوه ، وأما قتل عثمان فإنا

(١) حش كوكب : بسم الحاء موضع المدينة .

(٢) اللين بكسر الهمزة : الطوب غير المروق .

يقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثاً والله وليه نيا كان ، فقام الناس ، فأثروا علياً دارة ، فقالوا : نيايك ، قد بدلك ، لا بد من أمير ، فأنت أحق بها ، فقال : ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر ، فمن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة ، فجتمع ونظر في هذا الأمر فأبى أن يبايعهم ، فأنصرفوا عنه ، وكلم بعضهم بعضاً فقالوا : بعض قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ، ولا يسمعون أنه يبيع لأحد بعده ، فيثور كل رجل منهم في ناحية ، فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد طارجوا إلى علي ، فلا تركوه حتى يبايع ، فيسير مع قتل عثمان يبعه علي ، فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا إلى علي ، وترددوا إلى الأثر النخس ، فقال لعل : أبسط يدك نيايك ، أو لتصرن عليك عليها ثالثة ، ولم يزل به يكلمه ، ومخوفه الفتنة ، وبذكر له أنه ليس أحد يشبهه ، فبد به ، فبايعه الأثر ومن معه ، ثم أتوا طلحة ، فقالوا له : أخرج فبايع ، قال : من ؟ قالوا : علي . قال : تجتمع الشورى وتنتظر ، فقالوا : أخرج فبايع ، فاستمع عليهم - فجاؤا به ليبيته ، فبايعه بلسانه ومنع يده ، فقال أبو ثور ، كنت فيمن حاصر عثمان فكنت أخذت سلاحى وأضمه ، وعلى ينظر إلى لا يأمرنى ولا ينهاى ، فلما كانت الليلة له ، خرجت في أثره ، والناس حوله يبايعونه ، فدخل حاططاً من حيطان بنى مازن ، فألقوه إلى نخلة ، وحالوا بينى وبينه ، فظنرت إليهم وقد أخذت أيدى الناس ذراعه ، فمخلف أيدىهم على يده ثم أقبل إلى المسجد الشريف ، وكان أول من صعد للبر طلحة فبايع يده ، وكانت أصابعه شلاء ، فطير منها على ، فقال : ما أخلفها أن تكنت ، ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً ، ثم نزل فدعا الناس ، وأمر مروان ، فهرب منه ، وطلب نقرأ من بنى أمية وابن أبي ميط فهربوا ، وخرجت عائشة بإكية تقول قتل عثمان رحمه الله ، فقال لها عمار : بالأمس نحرضين عليه الناس ، واليوم تبكينه ، ثم جاء على إلى امرأة عثمان فقال لها : من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدرى ، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم ، وكان معهم محمد بن أبي بكر ، فدعا على عهداً ، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ، فقال محمد : صدقت ، قد والله دخلت عليه ، فذكر لى أبى ، فقامت عنه ، وأنا تأتب إلى الله تعالى ، والله ما قتله ، ولا أسكته ، فقالت : صدق ، ولكن هو أدخلهم . قال : ثم خرج طلحة ، فلقى عائشة ، فقالت له : ما صنع الناس ؟ قال : قتلوا عثمان . قالت : ثم ما صنعوا ؟ قال : بايسوا علياً ، ثم أتوني فأكرهوني وليوني حتى بايست . قالت : وما لعل يستولى على رقابنا ، لا أدخل المدينة ولعل فيها سلطان ، فرجست . وكان الزبير خلوياً لم يهتد قتل عثمان ، وكان عمرو بن العاص يظلمين يوم قتل عثمان ، فطلع عليه ركب من الحجاز ، فقال له : ما وراك ؟ قال تركت عثمان محسوراً ، قال عمرو : قد يضطر المير ولكنك أوقى النار^(١)

(١) هذا مثل عربى : معناه أن عثمان لا يتفقه شئ .

ثم لبث أياماً ، فطلع عليه واكب آخر ، فقال له عمرو : ما الخبر ؟ قال : قتل عثمان . قال :
لما قتل الناس ؟ فقال : بايسوا علياً . قال : لما فعل طي في قتله عثمان ؟ قال : دخل عليه الوليد
ابن عتبة فسأله عن قتله ، فقال : ما أمرت ولا نيت ، ولا سرتي ولا ماضي . قال : لما فعل
بقتله عثمان ؟ قال : آوى ولم يرى ، وقد قال له مروان : إن لا تكن أمرت فقد توليت
الأمر ، وإلا تكن قتلت فقد أوتيت القاتلين ، قال عمرو بن العاص : خطب والله أبو الحسن ،
قال : ثم كتب عمرو بن العاص إلى سعد بن أبي وقاص يسأله عن قتل عثمان : ومن قتله ؟
ومن تولى كبره ؟ فكتب إليه سعد : إنك سألتني من قتل عثمان ؟ وإني أخبرك أنه قتل بسيفه
سليته عائشة ، ومعه طلحة ، وصحه ابن أبي طالب ، وسكت الزبير وأشار يده ، وأمسكنا نحن ،
ولو شئتأ فحضرنا ، ولكن عثمان غير وقير ، وأحسن وأساء ، فلئن كنا أحسنأ فقد أحسنأ ،
وإن كنا أسوأ ففسطخر الله ، وأخبرك أن الزبير مغلوب بطلبة أهله ويطلبه بذنبه ، وطلحة
لو يجد أن يشق بطنه من حب الإمارة لشقه . قال : وكان ابن عباس غائباً بمكة للشفرة :
فأقبل إلى المدينة وقد بايع الناس علياً . قال ابن عباس : فوجدت حنيفة للغيرة بن حبة ،
جلست حتى خرج ، ثم دخلت عليه ، فسألتني وسأته : ثم قلت له : ما قال لك الخوارج
من عندك آتفاً ؟ قال : قال لي قبل هذه الموقعة ، أرسل إلى عبد الله بن عامر بهده طي البصرة ،
وإلى معاوية بهده طي الشام ، فإنيك تهدي عليك البلاد ، وتمكن عليك الناس . ثم أتاني
الآن ، فقال لي : إني كنت أشرت عليك برأى لم أتقيه ، فلم أر ذلك رأياً ، وإني أرى أن
تنبذ إليهما العداوة ، فقد كفلك الله عثمان ، وهما أحرون مودة منه . فقال له ابن عباس :
أما المرة الأولى فقد نصحك فيها ، وأما الثانية فقد غشك فيها ؟ قال : فإني قد ولتلك الشام
فسر إليها ؟ قال : قلت : ليس هذا برأى ، أرى معاوية وهو ابن عم عثمان علياً بيني وبين
عمه ، ولست آمن أن يظفر بي أن يقتلني عثمان ، وأدنى ما هو صانع أن يحبسني ويحكم طي ،
ولكن اكتب إلى معاوية ، فله وعده ، فلن استقام لك الأمر فابشئ : قال : ثم أرسل بالبيعة
إلى الأفاق ، وإلى جميع الأمصار الجاهة البيعة من كل مكان إلا الشام ، فإته لم يأت منها بيعة .
فأرسل إلى النخيرة بن حبة ، فقال له : سر إلى الشام فقد وليتكمها . قال : يمشي إلى معاوية
وقد قتل ابن عمه ، ثم آتيه والياً ، فيظن أني من قتله ابن عمه ؟ ولكن إن شئت أبشث إليه
بهمده ، فإته بالحري إذا بشت له بهده أن يسمع ويطيع . فكتب طي إلى معاوية : أما بعد
قد وليتكم ما قبلكم من الأمر وللال : فبايع من قبلك : ثم أقدم إلى في ألب رجل من أهل
الشام . فلما آتى معاوية كتب طي دعا بطولمرفس فكتب فيه :

من معاوية إلى طي ، أما بعد ، فإته :

ليس يبقى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب
فما أنى علياً الكتاب ، ورأى ما فيه ، وما هو مشتعل عليه ، وكره ذلك ، وقام قائم
منزله فدخل عليه الحسن ابنه ، فقال له : أما والله كنت أمرتك فصيتي ، فقال له طي :
وما أمرني به فصيتك فيه ؟ قال : أمرتك أن تركب رواحك ، فتلحق بمكة للشفرة ،
فلا تنهم به ، ولا تجل شيئاً من أمره فصيتي ، وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط
يدك إلا على بيعة جماعة ، فصيتي ، وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير أن لا تكرههما
على البيعة ، وتخل بينهما وبين وجههما ، وتجمع الناس يشاورون عاماً كاملاً ، فوالله
لو تشاوروا عاماً ما زويت عنك ، ولا جدوا منك بداً ، وأنا أمرك اليوم أن تظليهما يحتهما ،
وترد إلى الناس أمرهم ، فإن رفضوك ورفضهم ، وإن قبولك قبلهم ، فإني والله قد رأيت القدر
في رؤسهم ، وفي وجوههم التكت والكراهية . فقال له طي ، أنا إذا مثلك ، لا والله
يا بني ، ولكن أقاتل بن أطاعني من عاصي ، وإيم الله يا بني ما زلت مبنياً على مذهبك
جديك ، فقال له الحسن : وإيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية ، لأن الله تعالى قال (ومن
قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً) فقال طي يا بني ، وما علينا من ظله ، والله ما ظلمناه ،
ولا أمرنا ولا نصرنا عليه ، ولا كتبته فيه إلى أحد سواها في ياض ، وإنك تعلم أن أباك
أبرأ الناس من دمه ومن أمره . فقال له الحسن : دع عنك هذا ، والله لا لأظن ، بل
لا أشك أن ما بالبيعة عاتق^(١) ولا عناء ولا صبي إلا وعليه كفل من دمه . فقال : يا بني
إنك تعلم أن أبك قد رد الناس عنه مراراً أهل الكوفة وغيرهم ، وقد أرسلتكم جميعاً
بسيبك لتنصروا وتموتوا دونه ، فها كما عن القتال ، ونهى أهل الشام أجمعين . وإيم الله
لو أمرني بالقتال لقاتلت دونه ، أو أموت بين يديه . قال الحسن ، دع عنك هذا ، حق يحكم
الله بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

قال : ثم دخل للنيرة بن شعبة ، فقال له طي : هل لك يا منيرة في الله ؟ قال : فأين هو
يا أمير المؤمنين ؟ قال : تأخذ سيفك ، فتدخل منّا في هذا الأمر ، فتدرك من سبقك ، وتسبق
من ملك ، فإني أرى أموراً لا بد للسيوف أن تصعد لها ، وتخطف الرحوس بها ، فقال للنيرة :
إني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت عثمان مصيياً ، ولا قتله سواي ، وإنيما لظلمة تناولها ظلمات ،
فأريد يا أمير المؤمنين — إن أذنت لي — أن أضع سيفي وأنام في بيتي حتى تنجلي الظلمة
ويطلع فرها ، ففسري مبشرين ، قتلوا آثار الهتدين ، وتبقى سبيل الجائرين . قال طي :

(١) الماتق : للراة في منتصف عمرها ، والعنءاء البكر التي لم تزوج .

قد أذنت لك ، فكن من أمرك على ما بدا لك . تمام حمار فقال : معاذ الله يا منيرة تصد أعمى
بعد أن كنت بصيرا . ينلك من غيبته ، ويسبقك من سبقتك ، انظر ما ترى وما تفعل ،
فأما أنا فلا أكون إلا في الرجيل الأول . فقال له للقيرة ، يا أبا القطنان . إياك أن تكون
كقاطع السلسلة : فر من الضل^(١) فوقع في الرمضاء^(٢) . فقال على لهر : دعه ، فإنه لن
يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ، أما والله يا منيرة إنها للثوبة للؤدية ، تؤدي من قام
فيها إلى الجنة ، ولا اختار بعدها ، فإذا غشيتك قم في بيتك . فقال للقيرة : أنت والله
يا أمير المؤمنين أعلم مني ، ولئن لم أقاتل بك لا أعين عليك ، فإن يكن ما فعلت صواباً
فليأمر أردت ، وإن يكن خطأ فله نجوت ، ولي ذنوب مكثيرة ، لا قبل لي بها
إلا الاستغفار منها .

خطبة على بن أبي طالب كرم الله وجهه

قال : وذكروا أن البيعة لما تمت بالمدينة ، خرج على إلى المسجد الشريف ، فصعد المنبر ،
حمد الله تعالى وأثنى عليه ، ووعد الناس من نفسه خيراً ، وتألهم جهده ، ثم قال : لا يستغنى
الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشرته ، ودفعهم عنه بأيديهم وألسنتهم . هم أعظم الناس
حيلة من ورائه ، وإليه سعيه وأعظمهم عليه إن أمأته مصيبة ، أو نزل به بفس مكاره
الأمر ، ومن يقبض يده عن عشرته فإنه يقبض عنهم يداً واحدة ، وقبض عنه أيد كثيرة ،
ومن بسط يده بالمروف ابتداء وجه الله تعالى ، يغلف الله له ما اعتق في دنياه ، ويضاعف له
في آخرته ، واعلموا أن لسان صدق يحمله الله للره في الناس ، خير له من المال ، فلا يزادن
أحدكم كبرياء ، ولا عظمة في نفسه ، ولا يغل أحدكم عن القرابة أن يصلها ، بالذي
لا يزيد إن أمسك ، ولا ينقص إن أهلك . واعلموا أن الدنيا قد أدبرت ، والآخرة قد
أقبلت ، ألا وإن للضلال^(٣) اليوم ، والسبق^(٤) غداً . ألا وإن السبقة^(٥) الجنة . والنهاية
النار ، ألا إن الأدل هي القلب ، ويكتب الوعد ، ويأتي بلفة ، ويورث حسرة فهو غرور ،
وصاحبه في غناء ، فافزعوا إلى قوام دينكم ، وإتمام صلاتكم ، وإداء زكواتكم ، والنصيحة
لإيمانكم ، وتعلموا كتاب الله ، وصدقوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوفوا

(١) الضل : الماء القليل .

(٢) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة .

(٣) للضار : مكان السباق .

(٤) سبق : السباق .

(٥) السبقة : بضم السين وسكون الباء : ما يتسابق عليه .

بالمهد إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانات إذا اتسمتم ، وبرغوا في ثواب الله ، وارهبوا عذابه ، واعمهوا الخير تجزوا خيراً يوم يوزن بالخير من قدم الخير .

اختلاف الزبير وطلحة على عليّ كرم الله وجهه

قال : وذكروا أن الزبير وطلحة أتيا علياً بعد فراغ الليلة ، فقالا : هل تدري على ما بابناك يا أمير المؤمنين ؟ قال عليّ : نعم ، على السمع والطاعة ، وعلى ما يأمركم عليه أبابكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكننا بابناك على أننا شريكك في الأمر ، قال عليّ : لا ، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والوفاء على العيز والأولاد ، قال : وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق ، وطلحة في اليمن ، فلما استبان لهما أن علياً غير مولهما شيئاً ، أظهر الشكّة (١) ، فحكّم الزبير في ملا من قريش ، فقال : هذا جزاؤنا من علي ، ففنا له في أمر عثمان ، حتى أثبتنا عليه القنب ، وسببنا له القتل ، وهو جالس في بيته وكفى الأمر . فلما نال بنا ما أراد ، جلّ دوننا غيرنا ، فقال طلحة : ما للوم إلا أنا كنّا ثلاثة من أهل الشورى ، كرهه أحدنا وبابناه ، وأعطيناه ما في أيدينا ، ومعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . قال : فأتته قوليها إلى علي فدعا عبد الله بن عباس وكان استوزره ، فقال له : بئس قول هذين الرجلين ؟ قال : نعم ، بلنّي قولها . قال : فما ترى ؟ قال : أرى أنهما أحبا الولاية . فوال بصرة الزبير ، ووال طلحة الكوفة ، فليهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان ، فضحك علي ، ثم قال : ويحك ، إن العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى نلّك رقاب الناس يستميلوا بالسيف والطمع ، ويضربوا الضيف بالبلاء ، وضربوا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعلاً لأحد أضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية ، لكان في نفسي رأي . قال : ثم أتى طلحة والزبير إلى علي ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، أئذن لنا في العمرة ، فإن قم إلى إحصائها رجنا إليك ، وإن لم تتيك . فنظر إليهما علي ، وقال : نعم ، والله ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان أن نحيا إلى شأنكما ، فلبيا .

خلاف عائشة رضي الله عنها على عليّ

قال : وذكروا أن عائشة لما أتتها أنه يبيع لبي . وكانت خروجة من المدينة : قيل لها : قتل عثمان . ويايع الناس علياً . فقالت : ما كنت أبالي أن تضع السماء على الأرض ، قتل والله مظلوماً ، وأنا طالبة بدمه ، فقال لها عبيد : إن أول من طعن عليه وأطعم الناس فيه لأنت ، ولقد قلت : اختارنا نقتل قد جف ، فقالت عائشة : قد والله قلت وقال الناس ، وآخر قولي خير من أوله ، فقال عبيد : عذر والله ضيف يا أم المؤمنين . ثم قال :

(١) الشكّة : التكموى والوجع .

منك البداء ومنك التير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد بخر
فهبنا أطمناك في قتله وقاتله عندنا من أمر

قال : فلما آتى عائشة خبر أهل الشام أنهم ردوا يعة على ، وأبو أن يبايعوه ، أمرت
فعمل لها هودج من حديد ، وجعل فيه موضع عليها ، ثم خرجت ومعهما الزير وطلعة
وعبد الله بن الزير ومحمد بن طلحة .

اعتزال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة

عن مشاهدة علي وحروبه

قال : وذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى علي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انشد لي آية
عبد الله بن عمر فأكله ، لله يحض منا في هذا الأمر ، فقال علي : نعم ، فأنا ، فقال له :
يا أبا عبد الرحمن ، إنه قد بايع علياً المهاجرون والأنصار ، ومن إن فضله عليك لم يسخطك ،
وإن فضلك عليه لم يرضك ، وقد أنكرت السيف في أهل الصلاة ، وقد علمت أن علي القاتل
القتل ، وعلى الحسن الرجم ، وهذا يقتل بالسيف ، وهذا يقتل بالحجارة ، وأن علياً لم يقتل أحداً
من أهل الصلاة ، فيأمره حكم القاتل . قال ابن عمر : يا أبا القبطان ، إن أبي جمع أهل
الشورى ، الذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فكان أحقهم بها علي ،
خير أنه جاء أمر فيه السيف ولا أمره ، ولكن والله ما أحب أن لي الدنيا وما عليها وآتي
أظهرت أو أضمرت عداوة علي ؟ قال : فانصرف عنه ، فأخبر علياً بقوله ، فقال علي : لو أنيت
محمد بن مسلمة الأنصاري ، فأنا عمار ، فقال له محمد : مرحباً بك يا أبا القبطان على فرقة ما يفي
وبينك ، والله لو لا ما في يدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لبأيت علياً ، ولو أن الناس
كلهم عليه لكننت معه ، ولكنه يا عمار كان من النبي أمر ذهب فيه الرأي ، فقال عمار : كيف ؟
قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيت المسلمين يقتلون أو إذا رأيت أهل الصلاة . فقال
عمار : فإن كان قال لك : إذا رأيت المسلمين فوالله لا ترى مسلمين يقتلون بغيرهما أبداً ،
إن كان قال لك : أهل الصلاة ، فمن مع هذا منك ، إنما أنت أحد الشاهدين ، فترد من
رسول الله قولاً بعد قوله يوم حجة الوداع : دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلا بالحدث ، فتقول :
يا محمد ، لا قاتل المحدثين . قال : حسبك يا أبا القبطان . قال : ثم آتى سعد بن أبي وقاص
فكلمه ، فأظهر الكلام التيسيع ، فانصرف عمار إلى علي ، فقال له علي : دع هؤلاء ارحط ،

أما ابن عمر فضيف ، وأما سعد فحسود ، وذنبى إلى محمد بن مسلمة أنى قتلت أخاه يوم خير :
مرحب اليهودى .

هروب مروان بن الحكم من المدينة المنورة

قال : وذكروا أن مروان بن الحكم لما يوجع على حرب من المدينة ، فلقق بمائثة بمكة .
فقال له عائشة : ما وراءك ؟ فقال مروان : غلبنا على أنفسنا : فقال له رجل من أهل مكة :
لمالك وعلياً فقد طلبك ، فصر من بين يديه . فقال مروان : لم ؟ فوالله ما يجد إلى سبيلا . أما
هو فقد علمت أنه لا يأخذى بظن ، ولا ينصب إلا على اليقين ، وإبى الله ما أبلى إذا قصر على
سيفه ما طال على من لسانه . فقال الرجل : إذا أطال الله عليك لسانه طال سيفه . قال مروان
كلا إن اللسان أدب ، والسيف حكم .

خروج حل من المدينة

قال : وذكروا أن علياً تردد بالمدينة أربعة أشهر : ينتظر جواب معاوية ، وقد كان كتب
إليه كتاباً بعد كتاب يئنه وسده أولاً ، ثم كتاباً يخبره ويؤاعده فحبس معاوية جواب كتابه
ثلاثة أشهر ، ثم أتاه جوابه على غير ما يجب ، فأتاه ذلك شخص من المدينة في تسعة ركب
من وجوه الهاجرين والأنصار من أهل السوابق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعهم
بشر كثير من أخطاط الناس ، واستخلف على المدينة قثم بن عباس ، وكان له فضل وعقل ،
وأمره أن يتنص إلى من أحب الشخصوس ، ولا يحمل أحداً على ما يكره ، فنفخ الناس إلى
على بسده ، ومضى منه من ولده الحسن والحسين ومحمد ، فلما كان في بعض الطريق ، أتاه كتاب
أخيه عقيل بن أبى طالب ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد يا أخى ، كذلك الله ، والله
جائرك من كل سوء ، وعالمك من كل مكروه على كل حال ، وإنى خرجت مستعراً ، فليقت
عائشة معها طلعة والزير وذووها ، وم متوجهون إلى البصرة ، قد أظهروا الخلاف ، ونكثوا
البيعة ، وركبوا عليك قتل عثمان ، ويتمهم على ذلك كثير من الناس ، من طاعتهم وأوياهم ،
ثم مر عبد الله بن أبى سرح ، فى نحو من أربعين ركباً ، من أبناء الطلقاء^(١) بمن بنى أمية ،
قتلت ، ولم وعرفت للنسكر فى وجوههم : أيعاوية تلمتون ؟ عداوة الله إتها منكم ظاهرة غير
مستسكرة ، تربون بها إطفاء نور الله ، وتبخر أمر الله . فأسمى القوم واسمهم ثم قدمت
مكة ، فسمعت أهلها يمدنون أن الضحاك بن قيس أغر على الحيلة والعمالة ، فأصاب ما شاء

(١) الطلقاء : أهل مكة الذين أطلقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم يوم فتح مكة .

من أموالها، ثم انكفأ راجعاً إلى الشام، فأف لحية في زهو جراً عليك الضحك، وما الضحك إلا دفع بقرقره^(١) فظننت حين بلنتي ذلك أن أضارك خذلوك، فأكتب إلى يابن أبي براك وأمرلك، فإن كنت للوث تريد، تحملت إليك بيني أخيك، وولد أهلك، فمشتا ما عشت ومشتا معك إذا مت، فوالله ما أحب أن أبقي بسدك، فوالله الأعز الأجل إن عيشاً أعيشت بسدك في الدنيا لغير هنة، ولا مريء، ولا نحيج^(٢)، والسلام. فكتب إليه على كرم الله وجهه: أما بسد وأخيه، فبكل ذلك الله كرامة من يخشاه، إنه حميد مجيد. قدم على عبد الرحمن الأزدي بكتائبك، تذكرك فيه أنك قيت ابن أبي سرح، في أربعين من أبناء الطلقاء من بني أمية، متوجهين إلى المغرب، وابن أبي سرح وأخيه طال ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحسد عن كتابه وسنته ويثاها عوسجاً، فدفع ابن أبي سرح وقريناه وتركاهن^(٣) في الضلال، فلن قريناه قد اجتمعت على حرب أخيك، اجتمعوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم، وجهلوا حقى، وجعلوا فضلى، ونصروا لي الحرب، وجعلوا في إطفاء نور الله، اللهم فاجز قريناه عن بلادها، فقد قطعت رحى، وظهرت على، وسلبت سلطان ابن حمى، وسلبت ذلك لن ليس في قرابينى، وحقى في الإسلام، وسابقى التي لا يضى مثلها مدعى، إلا أن يدعى ما لا أعرف، ولا أذن الله يعرفه، والحمد لله على ذلك كثيراً. وأما ما ذكرت من فارة الضحك على الحيرة والجملة، فهو أذل والألم من أن يكون مر بها، فضلاً عن التارة، ولكن جاء في خيل جريدة^(٤) فسرحت إليه جنداً من المسلمين، فلما بلنه ذلك ولّى هارباً، فاتبموه فلحقوه ببعض الطريق، حين همت الشمس للإياب، فاقبلوا، وقتل من أصعابه بضعة عشر رجلاً، ونجا هارباً، بعد أن أخذ منه بالهتقى^(٥)، فلو لا الليل ما نجا. وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه برأى، فلن رأيي جهاد المؤمنين حتى ألقى الله، لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة، ولا تهرقهم عنى وحشة لأنى حق، والله مع الحق، وما أكره للوث على الحق لأن الخير كله بسد للوث لمن عقل ودعه إلى الحق. وأما ما عرضت به من مسيرك إلى بينك وبين أهلك، فلا حاجة لى فى ذلك، فذرهم راشداً مهدياً، فوالله ما أحب أن تهلكوا معى إن هلكت، وأنا كما قال أخو بنى سليم:

- (١) الفقع: يفتح الفاء وكسرهما وسكون القاف نبات طرى أبيض، والقرقرة: بفتح القافين الأرض الواسطة ولنى أن أمره حين كذا النبات الذى يسهل نيه ولا يصعب جنبه، ويقال للذليل هو أذل من تقع بقرقرة أو هو تقع بقرقرة على التشبيه بهذا النبات.
- (٢) الطعام التيسع الذى يهنا آكله.
- (٣) التركاض: الإسراع.
- (٤) جريدة: الخيل الجريدة التى لا رجالة فيها يريد أنها لا خطر منها.
- (٥) أخذ منه بالهتقى: شقيق عليه.

فلن تسألني كيف صبري فإني صبور على ريب الزمان صليب
عزير على أن أرى بكاءة فيضمت وائس أو يساء حبيب

كتاب أم سلمة إلى عائشة

قال : وذكروا أنه لما تحدث الناس بالمدينة بمسير عائشة مع طلحة والزبير ، ونصيبهم الحرب
لئى ، وتألههم الناس كتبت أم سلمة إلى عائشة أما بعد : فإنك سدة بين رسول الله وبين أمته ،
وحبايبك مضروب على حرمة ، قد جمع القرآن الكريم ذيلك ، فلا تتدعيه ^(١) ، وسعكن
حقيرتك ^(٢) ، فلا تصحريها ، الله من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك ، لو أراد
أن يهد إليك ، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يربأ بهن إن انصدع ،
حاديات ^(٣) النساء غش الأبصار وضم الديول ، ما كنت قالة لرسول الله صلى الله عليه وسلم
لو عارضك بأطراف الجبال والقفلات ، على قعود من الإبل ، من منهل إلى منهل ، إن بين الله
مهاوك ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ترددين ، وقد هتكت حجابك الذى ضرب الله
عليك ، وتركت عهده ^(٤) . ولو أتيت الذى ترددين ، ثم قيل لى ادخل الجنة لا ستحييت
أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضربه على ، فاجلى حجابك الذى ضرب عليك حسنك ، فأبشه
منزلاً لك حق تلقه ، فإن أطوع ما تكونين إذا ما زمته ، وأضع ما تكونين إذا ما قصت
فيه ، ولو ذكرتك كلاماً لله رسول الله صلى الله عليه وسلم لهشتى نهش الحية ، والسلام .
فكتبت إليها عائشة : ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصك ، وليس مسيرى على ما تظنين ،
ولم للطلع مطلع فرغت فيه إلى فختان متاجرتان ، فإن أقدرنى غير حرج ، وإن أخرج مالى
ملا غنى فى عن الازدياد منه ، والسلام .

استنفاذ عدى بن حاتم قومه لنعصرة على رضى الله عنه

قال : وذكروا أن ابن حاتم قام إلى طى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو خدمت إلى قومي
أخبرهم بمسيرك واستغفرهم ، فإن لك من طيء مثل الذى منك . فقال على : نعم ، فاضل ،
فتقدم عدى إلى قومه ، فاجتمعت إليه رؤساء طيء ، فقال لهم : يا معشر طيء ، إنكم أمسكنم

(١) لا تتدعيه : لا تؤسبه بخروجك إلى البصرة .

(٢) حقيرة : الصوت ، وتصحريها رخصها .

(٣) حاديات : جمع حادى أى محامد النساء .

(٤) عهده : بضم العين وتشديد الهاء مفتوحة وسكون الياء : العهد .

عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشرك ، ونصرتم الله ورسوله في الإسلام على الردة ، وعلى قادم عليكم ، وقد ضمنت له مثل عدة من معه منكم ، فخذوا معه ، وقد كنتم تقاتلون في الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا في الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فقد الله مقامكم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء ، وبهيت بكم الناس ، فأجيبوا قولي ، فإنكم أعز العرب داراً ، لكم فضل مما حكم وخيلكم ، فاجعلوا أفضل للماش للرجال وفضل الخيل للبهائم ، وقد أظلمكم على الناس معه ، من المهاجرين والبدريين والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل السعي في الثمن والسرو ، ولقتيل في الحياة والرزق ، فصاحت طيء : نعم نعم ، حق كاد أن يصم من صياحهم . فلما قدم على طيء أقبل شيخ من طيء قد هزم من الكبر ، فرفع له من حاجبيه ، فظهر إلى علي ، فقال له أنت ابن أبي طالب ؟ قال نعم . قال : مرجأ بك وأهلاً ، قد جعلناك بيننا وبين الله ، وعدنا بيننا وبينك ، ونحن بينه وبين الناس ، لو أتبنا خير مما بين لك لنصرناك ، قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيامك الصالحة ، وإن كان ما يقال فيك من الخير حقاً إن في أمرك وأمر قريش لصيباً ، إذ أجركوك وقمعوا غيرك . سر ، فوالله لا يخلط عنك من طيء إلا عبد أو دعي إلا يذلك . فخصص منه من طيء ثلاثة عشر ألف راكب .

استنصار زفر بن زيد قومه لنصرة علي

قال : وذكروا أن زفر بن زيد بن حذيفة الأسدي ، وكان من سادة بني أسد قام إلى علي فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طيئاً إخواننا وجيراننا قد أجابوا عدياً . ولي في قومي طاعة ، فأذن لي فأتهم . قال : نعم ، فأناهم فجمعهم وقال : يا بني أسد ، إن عدي بن حاتم ضيق على قومه فأجابوه ، وقضوا عنه ذمامه ، فلم يحتل الثمن بالثمن ، ولا الفقير بالفقر ، وواسي بعضهم بضاً ، حتى كأنهم المهاجرون في الهجرة ، والأنصار في الأنصرة ؛ وهم جيرانكم في الديار ، وخطاؤكم في الأموال ، فأشدكم الله لا يقول الناس غداً : نصرت طيء وخذلت بني أسد ، وإن الجار يقاس بالجار ، كالمثل بالمثل ، فإن خفتم فوسعوا في بلادهم ، وانضموا إلى جيلهم ، وهذه دعوة لها ثواب من الله في الدنيا والآخرة . فقام إليه رجل منهم ، فقال له : يا زفر ، إنك نست كسدي ، ولا أسد كطييء ، فارتدت العرب ، تثبت طيء على الإسلام ، وجاء عدي بالصدقة ، وقايل بقومه قومك ، فوالله لو نمرت طيء بأجمعها لامتدعاؤها دارها ، ولو أن منا أعضائنا لحقنا على دارنا ، فإن كان لا يرزق منا إلا ما أرضى عدياً من طيء ، فليس ذلك عندنا ، وإن كان يرزقك قدر ما يرد عنا غداً الخذلان ، وإنهم للصيبة ، فكذلك منا .

فسار معه من أسد جماعة ليست كجماعة طيء ، حتى قدم بها على علي .

توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة

قال : وذكروا أنه لما اجتمع طلحة والزبير وخوذهما مع عائشة ، واجمعا على السير من مكة ، وأتاهم عبد الله بن عامر ، فدعاهم إلى البصرة ، ووعدهم الرجال والأموال ، فقال سعيد بن العاصي لطلحة والزبير : إن عبد الله بن عامر كلمه إلى البصرة ، وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق ، وهم في طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم عليا ، وهم في طاعة علي ، وخرج من عندهم أميراً ، ويسود إليهم طريداً ، وقد وعدكم الرجال والأموال ، فأما الأموال فعنده ، وأما الرجال فلا رجل . قال مروان بن الحكم . أيا الشيطان ، ما بمنكما أن تدعوا الناس إلى يمة مثل يمة علي ، فإن أبا بوبكا عارضناه بيعة كيئته ، وإن لم يحموكا عرفنا مالكما في أنفس الناس . فقال طلحة : بمنئان الناس بايعوا علياً يمة عامة ، فم تنقضها ؟ وقال الزبير : ومنعنا أيضاً من ذلك تناقلنا عن نصره عثمان ، وخفتنا إلى يمة علي . قال الوليد بن عقبة : إن كنتم أسأتم قد أحسننا ، وإن كنتم أخطأتم قد أصبنا^(١) ، وأنتا اليوم خير منكما أمس . قال مروان : أما أنا فمواي الشام ، وهو كما البصرة ، وأنامكم وإن كانت المهلكة . قال سعيد بن العاصي : أما أنا فراجع إلى منزلي . فلما استقام أمرهم ، واجتمعت كلمتهم على السير ، قال طلحة للزبير : إنه ليس شيء أمتع ولا أبلغ في استئالة أهواء الناس من أن نخضع لبعد الله بن عمر ، فأنياء قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، إن أسأنا فاشقت لهذا الأمر ، رجاء الإصلاح بين الناس ، فافضض معنا ، فإن لك بها أسوة ، فلين بايعنا الناس فأنت أحق بها . قال ابن عمر : أيا الشيطان ، لا تريدان أن تخرجانى من بيتي ، ثم تقباني بين غالب ابن أبي طالب ؟ إن الناس إنما يمتدحون بالدينار والدرهم . وإن قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أنا لما . فانصرفا عنه . وقدم علي بن حنبله عليهم من اليمن ، وكان حاملاً لبنيان ، فأخرج أربع مئة بغير ، ودعا إلى الحملان ، فقال الزبير : دعنا من إبط هذه ، وأقرضنا من هذا المال ، فأقرض الزبير ستين ألفاً ، وأقرض طلحة أربعين ألفاً ، ثم سار القوم ، فقال الزبير : الشام بها الرجال والأموال ، وعليها معاوية ، وهو ابن عم الرجل ، ومتى تجتمع يولنا عليه ، وقال عبد الله بن عامر : البصرة ، فإن غلبتم عليا فلكم الشام ، وإن غلبكم عليا فلكم معاوية لكم جنة^(٢) ، وهذه كتب أهل البصرة إلى . قال علي بن منبه ، وكان داعياً : أيا الشيطان ، قد رأيت أن ترحلوا أن معاوية قد سبقكم

(١) يريد إن كان حدث منكم إساءة وخطأ ، قد حدث بعدها إحسان وإصاحة .

(٢) جنة : بضم الجيم : وقاية وحماية .

إلى الشام وفيها الجماعة ، وأتم تقدمون عليه غدا في فرقة وهو ابن عم عثمان هونكم ، أرايتهم
 إن دفعكم عن الشام ، أو قال : أجهلها هوري ، ما أتم سانون ؟ أقاتلونه أم يحملونها
 شوري فتخرجنا منها ؟ وأصبح من ذلك أن أتيا رجلا في يديه أمر قد سبقكما إليه ، وتريدا
 أن يخرجاه منه ، فقال القوم : فلي أين ؟ قال : إلى البصرة ، فقال الزبير لعبد الله بن عامر :
 من رجال البصرة ؟ قال ثلاثة ، كلهم سيد مطاع ، كعب بن سور^(١) في اليمن ، وللنذر بن
 ربيعة في ربيعة ، والأحنف بن قيس في مضر . فكتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور :
 أما بعد ، فإنك قاضى عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنت
 غضبت لثمان من الأذى ، فغضب له من القتل ، والسلام . وكتب إلى الأحنف بن قيس :
 أما بعد ، فإنك قائد عمر وسيد مضر ، وحليم أهل العراق ، وقد بلغك مصاب عثمان ، ونحن
 قادمون عليك ، والبيان أشقى لك من الخبر ، والسلام ، وكتب إلى للنذر : أما بعد ، فإن أباك كان رئيسا
 في الجاهلية ، وسيدا في الإسلام ، وإنك من أهلك بمنزلة للصل^(٢) من السابق . يقال : كاد
 أو لحق ، وقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك ، والسلام . فلما
 وصلت كتبهما إلى القوم ، قام زيد بن مضر ، والثنان بن شوال ، وغزوان ، فقالوا : مالنا
 ولهذا الحى من قريش ؟ يريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه ؟ ويدخلونا
 في الشرك بعد ما خرجنا منه ؟ تناولوا عثمان ، وأبوا عليا ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم .
 وكتب كعب بن سور إلى طلحة والزبير : أما بعد ، فإننا غضبنا لثمان من الأذى والظلم بالبيان ،
 فجاء أمر الزبير فيه بالسيف ، فإن يك عثمان قتل ظلما ، فما لكما وله ؟ وإن كان قتل مظلوما
 فخير كما أولى به ، وإن كان أمره أهمل على من شهده ، فهو على من غاب عنه أشكل . وكتب
 الأحنف إليهما : أما بعد ، فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان ، وأتم قادمون
 علينا ، فإن يكن في البيان فضل ، نظرنا فيه ونظرتم ، وإلا يكن فيه فضل فليس في أيدينا
 ولا في أيديكم ثقة ، والسلام . وكتب للنذر : أما بعد ، فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون
 خيرا من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حق أمس ، وقد كان بين أظهركم غفلة ،
 فحق استنبطكم هذا الظلم ، وبدا لكم هذا الرأي ؟ فما قرأ كتب القوم ساء ما ذلك وغضبا .
 ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير ، فقال لهما : تاودا ابن عمر ، فإنه يلبى ، فآوداه . فحسبكم

(١) كعب بن سور : بضم السين وسكون الواو قاضى البصرة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٢) للصل هو التالي للأول ، والسابق هو الأول .

طلحة ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لرب حق ضيناه وتركناه ؛ فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالحظ ، إن عليا يرى إثمناذ يمينه ، وإن معاوية لا يرى أن يبيع له ، وإننا نرى أن نردحها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين سلمت الأمور ، وإلا فهي الهلكة . فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقا ففضلا ضيت ، وإن يكن باطلا فضر منه نجهوت ، واعلم أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأتيا المدينة خير لكما من البصرة ، والقل خير لكما من السيف ، ولئن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه ، وأما الصورى فقد والله كانت ، قدم وأخرتنا ، ولئن يردحها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفينا أنفسكما ، فاضرفا . فقال مروان : استينا عليه حفصة ، فأيا حفصة ؟ قالت : لو أطاعني أطاع عائشة ، دعاه ، فأنكره وتوجهنا إلى البصرة . وأتاهما عبد الله بن خلف ، فقال لهما : إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه في عثمان شيء إلا وقد بلغ أهل العراق ، وقد كان منكبا في عثمان من التحليل والتأليب ما لا يذمه جعود ، ولا ينفعكما فيه عذر ، وأحسن الناس فيكما قولنا من أزال عنكما القتل والزمكما الحذل ، وقد بايع الناس عليا ببيعة عامة ، والناس لا قوتكما غداة لما تقولون ؟ فقال طلحة : شكر القتل ، ونقر الحذل ، ولا ينفع الإقرار بالدين إلا مع التدم عليه ، ولقد نعمنا على ما كان منا . وقال الزبير : باينا عليا والسيف على أعناقنا ، حيث تواب الناس بالبيعة إليه دون مشورتنا ، ولم نصب لعنان خطأ نصيب عليا البية ، ولا عمدا فيجب عليا القصاص . فقال عبد الله بن خلف : عذركما أهد من ذنبكما ، قال : قهيا القوم . للسير ، فقال طلحة والزبير : أسرعوا السير ، لئلا نسبق عليا من خلاف طريقه إلى البصرة . قال : وكتب قثم بن عباس إلى علي يخبره أن طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا من مكة ، يريدون البصرة ، وقد استقروا الناس ، فلم يخف معهم إلا من لا يستد بسيره ، ومن خلفت بدك فلي ما تحب . فلما قدم على علي كتابه غم ذلك ، وأعظمه الناس ، وسقط في أيديهم ، فقام قيس بن سعد بن عباد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه والله ما غمنا بهذين الرجلين كغمنا جائئة ، لأن هذين الرجلين حللا اللهم عندنا ، ليهتما ونسكتهما ، ولأن عائشة من علت مقامها في الإسلام ، ومكانها من رسول الله ، مع نضلها ودينها وأمومتها منا ومنك ، ولكهما يقمان البصرة ، وليس كل أهلها لهما ، ونظم السكونة ، وكل أهلها لك ، وتسير بحقتك إلى باطلهم ، ولقد كنا نخاف أن يسيرا إلى الشام ، فيقال : صاحب رسول الله وأم المؤمنين ، فيشتد البلاء ، ونظم الفتة ، فأما إذا أتيا البصرة وقد سبقت إلى طاعتك ، وسبقوا إلى يمينك ، وحكم عليهم عاملك ، ولا والله ما صهبا مثل ما معك ، ولا يقدمان على مثل ما تعلم عليه ، فسر فإن الله معك ، وتناجت الأنصار فقالوا وأحسنوا . قال : ولما نزل طلحة والزبير

وعائشة بأوطاس ، من أرض خير ، أقبل عليهم سعيد بن العاصي على نجيب له ، فأشرف على الناس ، ومعه الليرة بن شعبة ، فزل وتوكتا على قوس له سوداء ، فأتى عائشة ، فقال لها : أين تريدان يا أم المؤمنين ؟ قالت : أريد البصرة ، قال : وما تصنعين بالبصرة ؟ قالت : أطلب بدم عثمان . قال : فهؤلاء قتلة عثمان معك . ثم أقبل على مروان فقال له : وأنت أين تريد أيضا ؟ قال : البصرة . قال : وما تصنع بها ؟ قال : أطلب قتلة عثمان ، قال : فهؤلاء قتلة عثمان معك ، إن هذين الرجلين قتل عثمان « طلحة والزبير » ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه قالا : تسلم الله بالهم ، والحوبة^(١) بالوبة . ثم قال الليرة بن شعبة : أيها الناس ، إن كنتم إنما خرجتم معكم ، فارجعوا بها خيرا لكم ، وإن كنتم غضبتم لثمان ، فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم شتمتم على - شيئا ، فبينوا ما شتمتم عليه ، أنشدكم الله فتلتين في عام واحدا ، فأبوا إلا أن يحضوا بالناس ، فطعن سعيد ابن العاصي باليمن ، ولحق الليرة بالطائف ، فلم يهدد شيئا من حروب الجبل ولا سفين ، فلما انتهوا إلى ماء الحوالب^(٢) في بعض الطريق ومعهم عائشة ، نبها كلاب الحوالب ، فقالت لحمد بن طلحة ، أي ماء هذا ؟ قال : هذا ماء الحوالب ، فقالت : ما أراي إلا راجية ، قال : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للسائه : كافي بإحدا كن قد نبها كلاب الحوالب ، وإياك أن تكون أنت يا حميراء . فقال لها محمد بن طلحة : تخدمى رحلك الله ، ودمى هذا القول . وأتى عبد الله بن الزبير ، حلف لها بالله لقد خلطته أول الليل ، وأتاها بيته زور من الأعراب ، فشهدوا ذلك ، فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الإسلام ، فلما انتهى إقبالهم على أهل البصرة ، ودنوا منها ، قام عثمان بن حنيف عامل البصرة للى بن أبي طالب فقال : يا أيها الناس ، إنما يأمركم الله (يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فلنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) والله لو علم على أن أحدا أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لباع من باعوا ، وأطلع من ولوا ، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، ولقد شاركهم في محاسنهم ، وما شاركوه في محاسنه ، ولقد بايعه هذان الرجلان . وما يريدان الله ، فاستسبلا الطعام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحل ، وطلبوا ثواب الله من الباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين . فإن كانا استكرهها قبل بيعتهما كانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولوا ولا يأمرنا ، إلا وإن الهدى ما كانت

(١) الحوبة : الإثم والدنب .

(٢) الحوالب : الوادى الواسع ، وللراد هنا موضع معروف بالبصرة .

عليه العامة ، والعاملة على قيمة على ، لما ترون أيها الناس ؟ فقام حكيم بن جبل العبدى ، فقال : نرى إن دخلا علينا قاتلتناهما ، وإن وقفا تلقيناها والله ما أبالي أن أقاتلها وحدى ، وإن كنت أحب الحياة ، وما أخشى في طريق الحق وحشة ، ولا خيرة ولا غشا ولا سوء منقلب إلى بئس ، وإنها لمعوية قبلها شهيد ، وحيها طائر ، والتسجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا ، وهذه ربيعة معك .

نزول طلعة والزبير وعائشة البصرة

قال : وذكروا أن طلعة والزبير لما نزلا البصرة ، قال عثمان بن حنيف : نذرت إليهما برجلين^(١) ، فهدأ عمران بن الحصين صاحب رسول الله ، وأبا الأسود الدؤلى ، فأرسلهما إلى طلعة والزبير ، فهدأ إليهما فتاديا : يا طلعة فأجابهما ، فتكلم أبو الأسود الدؤلى ، فقال : يا أبا محمد ، إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا في قتله ، وبايتم علياً غير مؤامرين في بيعته ، فلم تضرب لثمان إذ قتل ، ولم تضرب للى إذ بيع ، ثم بدا لكم ، فأردتم خلق على ، ونحن على الأمر الأول ، فطعنا المخرج مما دخلتم فيه . ثم تكلم عمران ، فقال : يا طلعة ، إنكم قتلتم عثمان ولم تضرب له إذ لم تضربوا ، ثم بايتم علياً وبايتمنا من بايتم ، فإني كان قتل عثمان سواباً لمسيركم لماذا ؟ وإن كان خطأ فخطأكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأولى . فقال طلعة : يا هذان إن صاحبكم لا يرى أن ممة في هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايضاء ، وإيم الله ليسكن دمه . فقال أبو الأسود : يا عمران ، أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك . ثم أتيا الزبير فقالا : يا أبا عبد الله ، إنا أتينا طلعة ، قال الزبير : إن طلعة وإيها كروح في جسدتين ، وإياه والله يا هذان ، قد كانت منا في عثمان قتلان ، احببنا فيها إلى الماذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه ، ثم أتيا فدخلوا على عائشة فقالا : يا أم المؤمنين ، ما هذا للسيرة أم لك من رسول الله ؟ عهدا قالت : قتل عثمان مظلوماً ، غضبنا لكم من السوط والمسا ، ولا تضرب لثمان من القتل فقال أبو الأسود : وما أنت من صنانا وسينا وسوطنا ؟ قالت : يا أبا الأسود ، يلغى أن عثمان بن حنيف يريد قتلى . فقال أبو الأسود : نعم والله قتلا أهونه تدر منه المروءة ، وأقبل غلام من جينة إلى محمد بن طلعة ، فقال له : حدثني عن قتله عثمان ، قال : نعم ، ثم عثمان على ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبته المودج^(٢) ،

(١) نذرت إليهما : قطع عذرهما بإرسال رجلين إليهما ليكفاهما يردان .

(٢) صاحبته المودج : عائشة رضي الله عنها .

وثلت على صاحب الجبل الأحمر^(١) ، وثلت على علي بن أبي طالب . فضحك الجبني ، وعلق جلي بن أبي طالب ، وبلغ طلحة قول ابنه محمد ، وكان محمد من عباد الناس ، فقال له : يا محمد ، أنزع مننا قولك إني قاتل عثمان ، كذلك تشهد على أهلك ؟ كن كعبد الله بن الزبير ، فوالله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه ، كفت عن قولك ، وإلا فارجع فإن نصرتك نصرة رجل واحد ، وفسادك فساد عامة . قال محمد : ما قلت إلا حقاً ، ولني أعود .

نزول علي بن أبي طالب الكوفة

قال : وذكروا أن علياً لما نزل قريباً من الكوفة بث عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر إلى أبي موسى الأشعري ، وكان أبو موسى عاملاً لبنيان على الكوفة ، فبهما على إليه وإلى أهل الكوفة يستنهم ، فلما قدما عليه قام عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر ، فدعوا الناس إلى النصرة لهم ، فلما أمسوا دخل رجال من أهل الكوفة على أبي موسى ، فقالوا : ما نرى ؟ أخرج مع هذين الرجلين إلى صاحبهما ، أم لا ؟ فقال أبو موسى : أما سبيل الآخرة ففي أن تلموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فالخروج مع من أتاكم ، فأطاعوه ، فتباطأ الناس على علي ، وبلغ عماراً ومحمداً ما أشار به أبو موسى على أولئك الرهط ، فأتياه فأغلظا له في القول ، قال أبو موسى : إن ريمة عثمان في عنقي وحق صاحبكم ، ولئن أردنا القتال مالنا إلى قتال أحد من سبيل ، حق ندرغ من قتلة عثمان .

خطبة أبي موسى الأشعري

ثم خرج أبو موسى فصعد للبر ، ثم قال : أيها الناس : إن أصحاب رسول الله الذين محبوبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصبه ، وإن لكم حقاً على أؤديه إليكم ، إن هذه الفتنة التأم فيها خير من القنطان ، والقاعد خير من القائم ، واهائم فيها خير من الساعي ، والساعي خير من الراكب ، فأغمدوا سيوفكم حتى تنجلي هذه الفتنة .

خطبة عمار بن ياسر

قام عمار بن ياسر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن أبا موسى ينهاكم عن الشخصوس إلى هاتين الجماعتين ، ولعمري ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عاذه بما ذكر . قال عز وجل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها فأصلحوها ، فإن استجارا فإياهما » .

(١) صاحب الجبل الأحمر : طلحة

على الأخرى قاتلوا حتى تبقى حتى تفي إلى أمر الله ، فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسلوا » وقال : « وقاتلوم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا في بيوتهم ويغلوا بين الناس ، فيفسد بينهم دماء بعض ، فسبوا منا إلى هاتين الجماعتين واسموا من حببهم ، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبوه ، فإن أصلح الله أمرهم وجسم مأجورين وقد قضيت حق الله ، وإن بنى بعضهم على بعض نظرتهم إلى الفتنة الباغية ، فقاتلتموها حتى تفي إلى أمر الله ، كما أمركم الله ، وافترض عليكم ثم قد ظفنا انصرفنا على من عند أبي موسى واختاره بما قال أبو موسى ، بث إليه الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، وكتب معهم إلى أهل الكوفة :

كتاب علي إلى أهل الكوفة

أما بعد ، فإنني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه كمن طائنه ، إن الناس طعنوا على عثمان ، فسكنت رجلا من المهاجرين أقل عيه وأكثر استناب^(١) ، وكان هذان الرجلان طلحة والزبير أهون سيرة ما فيه الهبة^(٢) والوجيف ، وكان من قائمة فيه قول علي غضب ، فأتى في قوم قتلوه ، وابتغى الناس غير مستكرهين ، وهما أول من دس على ما يوجب عليه من كان قبل ، ثم استأذنا إلى العمرة ، فأذنت لهما ، ففرضا العهد ، ونسبا الحرب ، وأخرجنا أم المؤمنين من بيتها ، ليتخذها خة ، وقد سارا إلى البصرة ، اختياراً لأهلها ، ولمصرى ما لى بجييون ، ما يجييون إلا الله . وقد بثت ابني الحسن ، وابن عمي عبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، فكونوا عند ظننا بكم ، وإذ الستان .

فسار الحسن ومن معه ، حتى قدموا الكوفة على أبي موسى ، فنتاه إلى نصرة علي ، فبايعهم ، ثم صد أبو موسى للنبر ، وقام الحسن أسفل منه ، فدعاهم إلى نصرة علي ، وأخبرهم بقرابته من رسول الله ، وسابقت ، ويمة طلحة والزبير إياه ، ونسكتها عهده ، وأقرام كتاب علي ، فقام شريح بن هانئ . قال :

خطاب شريح بن هانئ

لقد اردنا أن نركب إلى المدينة ، حتى نعلم قتل عثمان ، فعدا اتانا الله به في بيوتنا ، فلا

(١) الاستناب : إزالة سبب عتبه ومحاولة إرضائه.

(٢) الهبة : اللسان ، والإغراء والوجيف : الاضطراب ، ونوع من سير الخيل والإبل ، والمراد أهون سيرة ما فيه الهبة ، والفرار الإغراء به والإسراع في التل منه .

مخالفوا عن دعوته ، والله لو لم يستنصر بنا لصرفنا سما وطاعة ، ثم قام الحسن بن علي ، فقال : أيها الناس ، إنه قد كان من مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم ، وقد أنيناكم مستغفرين ، لأنكم جهة الأنصار ، وروى العرب ، وقد كان من نقض طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بائنة ما بلغكم ، وتعلمون أن وهن النساء وضعف رأيهن إلى التلاشي ، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء ، وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل منه من المهاجرين والأنصار كناية ، فأنصروا الله ينصركم . ثم قام عمار بن ياسر فقال : يا أهل الكوفة ، إن كان غلب عنكم أنباؤنا فقد انتهت إليكم أمورنا ، إن قتل عثمان لا يتحدرون من قتله إلى الناس ، ولا ينكرون ذلك ، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين هاجبهم ، فيه أحيا الله من أحيا ، وأمات من أمات . وإن طلحة والزبير كانا أول من طعن ، وآخر من أمر ، وكانا أول من بايع عليا ، فلما أخطأهما ما أملاه نكتنا بيعتهما ، من غير حدث . وهذا ابن بنت رسول الله الحسن قد عرفتموه . وقد جاء يستنصركم ، وقد أظلمكم على في المهاجرين والبدريين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان . فأنصروا الله ينصركم .

ثم قام قيس بن سعد ، فقال : أيها الناس ، إن الأمر لو استقبل به أهل الشورى كان على أحق بها ، وكان قتال من أبي ذلك حلالا ، فكيف والحجة على طلحة والزبير ، وقد بايها رغبة ، ونافها حسدا ، وقد جاءكم المهاجرون والأنصار .

دخول طلحة والزبير وعائشة البصرة

قال : وذكروا أنه لما نزل طلحة والزبير وعائشة البصرة ، اصطف لها الناس في الطريق ، يقولون : يا أم المؤمنين ، ما الذي أخرجك من بيتك ؟ فلما أكثروا عليها تكلمت بلسان طلق ، وكانت من أبلغ الناس ، فحمدت الله ، وأثنت عليه ، ثم قالت :

خطبة عائشة رضي الله عنها

أيها الناس ، والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه ، ولقد قتل مظلوما ، غضبا لكم من السوط والعصا ، ولا تنضب لثمان من القتل ، وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتله عثمان ، فيقتلوا به ، ثم يرد هذا الأمر شورى ، على ما جعله عمر بن الخطاب .

فمن قال يقول : صدقت ، وآخر يقول كذبت ، فلم يرح الناس يقولون ذلك حتى ضرب بعضهم وجهه بفس ، فبينما هم كذلك أتاهم رجل من أشراف البصرة بكتاب كان كتبه طلحة

في الغالب على قتل عثمان ، فقال طلحة : هل تعرف هذا الكتاب ؟ قال : نعم . قال : فإردك على ما كنت عليه ؟ وكنت أمس تكتب إلينا تؤلنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ، وقد زعمنا أن عليا دعاك إلى أن تكون الية لسكا قبله ، إذ كننا أسن منه ، فأيتنا إلا أن تقدمناه لقرائته وسأجته ، فإيتناه ، فكيف تكتان بيتكما بعد الذي عرض عليكما ؟ قال طلحة : دعانا إلى الية بعد أن اغتصبها وبأيه الناس ، فلما حين عرض علينا أنه غير فاعل ، ولو فعل أي ذلك المهاجرون والأنصار ، وخفنا أن ترد بيته نفقتل ، فإيتناه كلهم . قال لما بدا لسكا في عثمان ؟ قال : ذكرنا ما كان من طمنا عليه ، وخذلنا إياه ، فلم نجد من ذلك مخرجاً إلا الطلب بدمه . قال : ما تأمراني به ؟ قال : ياينا على قتله على ، ونقض بيته ، قال : أرايتا إن أمانا بدكما من يدعونا إلى ما تدعونا إليه ، ما نضع ؟ قال : لا تباهيه . قال : ما أضعتا ، تأمراني أن أقاتل عليا وأقض بيته وهي في أعناقكما ، وتبني عن يمة من لاية له عليكما ؟ أما إنا قد باينا عليا ، فإن شئت باينا كما يسار أيدينا . قال : ثم تفرق الناس ، فصارت فرقة مع عثمان بن حنيف ، وفرقة مع طلحة والزبير ثم جاء جارية بن قدامة ، فقال : يا أم المؤمنين ، قتل عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون ، إنه كانت لك من الله تعالى حرمة وستر فهتكت سرك ، وأبحت حرمتك إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ، فإن كنت يا أم المؤمنين أيتنا طامة فارجعي إلى منزلك ، وإن كنت أيتنا مستكرهة فاستحي الله .

قتل أصحاب عثمان بن حنيف حامل على البصرة

قال : وذكروا أنه لما اختلف القوم اسطلموا على أن لثمان بن حنيف دار الإمارة ومسجدها وبيت المال ، وأن ينزل أصحابه حيث شاءوا من البصرة ، وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا حتى يقدم على ، فإن اجتمعوا دخلوا فيها دخل فيه الناس ، وإن يتفرقوا يلحق كل قوم بأهوائهم ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، وخدمة نبيه وأصحابه شهودا من الثريين جميعا . فانصرف عثمان ، فدخل دار الإمارة ، وأمر أصحابه أن يلصقوا بنازلهم ، وضربوا سلاحهم واقترب الناس ، وكنتموا ما في أعينهم ، غير بن عبد القيس ، فأنهم أظهروا نصرة على ، وكان حكيم بن جبيل رئيسهم ، فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا مشر عبد القيس . إن عثمان بن حنيف دمه مضمون ، وأمانته مؤداه ، وإيم الله لو لم يكن على أميرائنا ، إمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف وله ولاية والجوار ، فاشخصوا بأبصاركم ، وجاهدوا العدو ، فلما أن تحوتوا كرهنا ولما أن تميشوا أحرارا . فسكت عثمان بن حنيف في الدار أياما ،

(م = — الإمامة والبيعة)

ثم إن طلحة والزبير ومروان بن الحُكم أتوه نصف الليل في جماعة معهم ، في ليلة مظلمة سوداء مطيرة وعُثان نائم ، قتلوا أربعين رجلا من الحرس ، فخرج عُثان بن حنيفة ، فشد عليه مروان فأسره ، وقتل أصحابه ، فأخذ مروان ، فتنفح لحيته ورأسه وحاجبيه ، فنظر عُثان بن حنيفة إلى مروان فقال : أما إنك إن قُتيت بها في الدنيا ، لم تقُت بها في الآخرة .

تعبئة القشتين للقتال

وذكروا أنه لما تعبأ القوم للقتال ، فكانت الحرب للزبير وعلى الخيل طلحة ، وعلى الرجال عبد الله بن الزبير ، وعلى القلب محمد بن طلحة ، وعلى المقدمة مروان ، وعلى رجال الليعة عبد الرحمن بن عباد ، وعلى الليرة هلال ابن وكيع ، فلما فرغ الزبير من التعبئة قال : أيها الناس ، وطنوا أنفسكم على الصبر ، فإنه يلقاكم غدا وجل لا مثل له في الحرب ولا شبهه ، ومعه شحسان الناس . فلما بلغ عليا تعبئة القوم عبأ الناس للقتال ، فاستعمل على المقدمة عبد الله بن عباس ، وعلى الساقة هذا المرادي ، وعلى جميع الخيل عمار بن ياسر ، وعلى جميع الرجال محمد بن أبي بكر .

ثم كتب إلى طلحة والزبير : أما بعد ، فقد علمنا أني لم أرد الناس حتى أرادوني ، ولم أأبهم حتى أبغوني ، وإنكما لمن أراد وباع ، وإن العامة لم تبغيني لسلطان خاص ، فإن كنتما بآبئائي كارهين ، فقد جعلتني عليكما السبيل ، باظهاركما الطاعة ، وإسراركما العصية ، وإن كنتما بآبئائي طامعين ، فارجعا إلى الله من قريب . إنك يا زبير تمارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواشي ، وإنك يا طلحة لشيع للهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخل فيه ، كان أوسع عليكما من خروجكما منه إقراركما به ، وقد زعمت أني قتلت عُثان فبيني وبينكما فيه بعض من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة ، وزعمت أني آويت قتلة عُثان ، فهو لاء بنو عُثان ، فليدخلوا في طاعتى ، ثم يختصموا إلى قتلة أبيهم ، وما أتت عُثان إن كان قتل علما أو مظلوما ؟ وقد بآبئائي وأتت بيني خصلتين قبيحتين نكث بينكما ، وإخراجكما أمكا .

كتاب على إلى عائشة

وكتب إلى عائشة : أما بعد ، فإنك خرجت غاضبة لله ولرسوله ، تطالبين أمرا كان عنك موضوعا ، مبال النساء والحرب والإصلاح بين الناس ؟ تطالبين بدم عُثان ، ولمرى لئن عرستك

البلاء، وحملك على اللصية، أعظم إليك ذنباً من قتل عاتٍ وما غضبت حتى اغضبت، وما هبت حتى هبت، فأتى الله، وأرجى إلى بيتك.

فأجاب طلحة والزبير: إنك سرت مسيراً ما جده، ولست أراجما وفي نفسك منه حاجة، فامض لأمرك، أما أنت فليست راضياً دون دخولنا في طاعتك، ولنا بداخلين فيها أبداً، فامض ما أنت قاض.

وكتبت عائشة: جل الأمر عن المتاب، والسلام.

قال: ورجعت رسولاً على من البصرة. فتم من أجابه وأتاه، ومنهم من لحق بعائشة وطلحة والزبير، وبسبب الأحف بن قيس إلى علي: إن غفقت أبيتك فما أتى رجل من أهليتي، وإن غفقت كفت عنك أربعة آلاف سيف، فأرسل إليه علي: بل كف عن أربعة آلاف سيف، وكفى بذلك ناصراً. فجمع الأحف بن قيس، فقال: يا معشر بني تميم، إن ظهر أهل البصرة فهم إخوانكم وإن ظهر على ظن بيبكم، وكنتم قد سلمتم. فكف بنو تميم، ولم يخرجوا إلى أحد الفريقين. قال: ولما كتب علي إلى طلحة والزبير أتى زمة بن الأسود إلى طلحة والزبير. فقال لهما: إن علياً قد أكثر إليكما الرسل، كأنه طمع فيكما، وأطمعناه في أنفسكما، فأتيا الله إن كننا بإيمانه طامعين، وأتيا الله علينا وعلى أنفسكما، فإن اللين في الضرع، ومق يحب لا يرجع، وإن كننا بإيمانه مكرهين فآخرنا هذا الوطء^(١)، وإذننا هذا الدين، لما أغنانا عن هذه الكتب والرسل. قال: فخرج طلحة والزبير وعائشة، وهى على جمل عليه هودج، قد ضرب عليه صفائح الحديد، فبرزوا حتى خرجوا من الدور ومن أبنية البصرة، فلما توقفوا للقتال، أمر علي منادياً ينادى من أصحابه لا يرمين أحد سهما ولا حبراً، ولا يطمئن برمح حتى أهدر إلى القوم، فأتخذ عليهم الحسجة. قال: فسلم علي طلحة والزبير قبل القتال، فقال لهما: استطلقا عائشة بحق الله وبحق رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها: هل تعلم رجلاً من قريش أولى مني بالله ورسوله، وإسلامي قبل كافة الناس أجمعين وكفايتي رسول الله كمدار العرب بسيفي ورمحي، وعلى يراثة من دم عاتٍ، وعلى أني لم أسكره أحداً على أني لم أكن أحسن قولاً في عاتٍ منكم. فأجاب طلحة جواً غليظاً، وروى له الزبير، ثم رجع علي إلى أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين، بم كلمت

(١) الوطء سقاء اللبن، وهو القرية.

الرجلين ؟ فقال على : إن شأنهما مختلف أما الزبير فعاده العجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحة فسأله عن الحق فأجابني بالباطل ، وبقية باليقين ، ولتيني بالشك ، فوالله ما نفعه حق ، ولا ضرر بباطله ، وهو مقتول غدا في الرعي الأول . قال : ثم خرج على علي بنه رسول الله الشهيد بين الصدين ، وهو حاسر ، فقال : ابن الزبير ؟ فخرج إليه ، حتى إذا كانا بين الصدين اعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكيا ، ثم قال علي : يا عبد الله ما جاء بك هاهنا ؟ قال : جئت أطلب دم عثمان . قال علي : تطلب دم عثمان ، قتل الله من قتل عثمان ، أنشدك الله يا زبير ، هل تعلم أنك مررت بجيوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متكى على يدك فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك إلي ؟ ثم التفت إليك ، فقال لك : يا زبير ، إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم ، قال : اللهم نعم . قال علي : فعلام تقاتلني ؟ قال الزبير : نسيتهما والله ، ولو ذكرت ما خرجت إليك ، ولا قاتلك فأنصرف علي إلى أصحابه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين مررت إلى رجل في سلاحه وأنت حاسر ، قال علي أتدرون من الرجل ؟ قالوا : لا . قال : ذلك الزبير ابن صفيه حمير رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما إنه قد أعطى الله عهداً أنه لا يقاتلكم ، إنى ذكرت له حديثاً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لو ذكرت ما أبيتك . فقالوا : الحمد لله يا أمير المؤمنين ، ما كنا نخشى في هذا الحرب غيره . ولا تنق سواه . إنه لعارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب ، فإذا قد كفانا الله فلا نعد من سواه إلا صرعى حول المودج .

رجوع الزبير عن الحرب

قال : وذكروا أن الزبير دخل على عائشة ، فقال : يا أمه ، ما شهدت موطناً قط في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه رأى وصيرة غير هذا الوطن فإنه لا رأى لي فيه ، ولا جيرة ، وإن لمي بأمال . قالت عائشة : يا أبا عبد الله ، خف سيف بني عبد المطلب ، فقال : أما والله إن سيف بني عبد المطلب طوال حداد ، يحملها قية أجداد . ثم قال لابنه عبد الله : عليك بحزبك ، أما أنا فرأى إلى يقي . فقال له ابنه عبد الله : الآن حين التفت حلقنا البطان^(١) ، واجتمعت الفتان ؟ والله لا لتسل رموسنا منها ، فقال الزبير لابنه ، لا تمد هذا مني جيئاً ، فوالله

(١) البطان : حزام البرذعة وإذا التفت حلقناه فقد استوت البرذعة على ظهر الدابة وأصبحت مائلة تركوبها ، وللراد : الآن حين انتهى الأمر وأصبح لا مفر من الحرب .

ما فارت أحدآ في جلعلة ولا إسلام ، قال : لما يردك ؟ قال : يردني ما إن علته كسرك . فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير .

قتل الزبير بن العوام

قال : وذكروا أن الزبير لما انصرف راجعاً إلى المدينة أتاه ابن جرموز ، فقبل به ، فقال : يا أبا عبد الله ، أحييت حرباً ظالماً أو مظلوماً ثم تنصرف ؟ أتألب أنت أم عاجز ؟ فسكت عنه ، ثم عادوه فقال له : يا أبا عبد الله ، حدثني عن خصال خمس أسألك عنها . قال : هات . قال : خذك عثان ، ويحك علياً ، وإخراجك أم المؤمنين . وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك عن الحرب . فقال الزبير : نعم أخبرك ، أما خذني بعتان فأمر قدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة . وأما يبقى علياً فوالله ما وجدت من ذلك بداً ، حيث بايع المهاجرون والأنصار وخشيت القتلى ، وأما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمر وأراد الله غيره ، وأما صلاتي خلف ابني فلما قدمت عائشة أم المؤمنين ولم يكن لي دون صاحبي أمر ، وأما رجوعي عن هذا الحرب ^(١) فظن بي ما هكت غير الجبن . فقال ابن جرموز : والهفاء طر ابن صدي ، أضرمنا ناراً ثم أراد أن يلقى بأهلها ، قتلى الله إن لم يقتله ، ثم أتاه فقال له : يا أبا عبد الله كاستصحب له ، إن دون أهلك فياني ، خلف نجيبى هذا ، وخل فرسك ودرعك ، فإنهما شاهدتان عليك بما تكروه . فقال الزبير : أنظر في ذلك ليلتي ، ثم ألق عليه في فرسه ودرعه فلم يزل حتى أخذها منه ، وإنما أراد ابن جرموز أن يلقاه سائراً ، لما علم بأسه ، ثم أتى ابن جرموز الأحنف بن قيس ، فساره بمكان الزبير عنده وبقوله فقال له الأحنف : اقتله قتله الله خادعاً ، وآتى الزبير رجل من كلب ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أنت لى صبر ، وابن جرموز لم يمتزل هذا الحرب عاقبة الله ، ولكته كره أن يخالف الأحنف ، وقد نسم الأحنف طي خذله علياً ، ولله أن يتقرب بك إليه ، وقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك ، فبت عندى الليلة ثم أخرج بعد نومه ، فإلتك إن قهم لم يظلموك . فتأون بقله ، ثم بدا له فقال له : لما ترى يا أخاك ؟ قال : أرى أن ترجع لى فرسك ودرعك فتأخذها ، فإن أحدآ من الناس لا يقدم عليك وأنت فارس أبداً ، فأصبح الزبير فادياً ، وسار معه ابن جرموز وقد كثر ^(٢) على الدرع فلما انتهى إلى وادي السباع استشفه فطعنه ، ثم رجع

(١) الحرب تذكر وتؤث .

(٢) الدرع : هو قيس من حلق الحديد يلبس توقيا للسهام والسيوف ، والسكر الستر ومعنى كثر طى الدرع لابس عليه ثوباً فستره به .

برأسه وسلبه إلى قومه ، فقال له رجل من قومه : يا ابن جرموز ، فضحت والله العجين بأسرها ، قتلت الزبير رأس المهاجرين ، ورأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجواربه ، وابن عمته ، والله لو قتله في حرب لمر ذلك علينا ، ولسنا عارك ، فكيف في جوارك وذمتك ؟ والله ليزيدنك على أن ييشرك بالنار . غضب ابن جرموز وقال والله ما قتله إلا له ، والله ما أخاف ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرهياً ، وإن قتله على الحين .

مخاطبة على لطلحة بين السفين

قال : وذكروا أن علياً نادى طلحة بعد انصراف الزبير ، فقال له : يا أبا محمد ما جاء بك ؟ قال : أطلب حم عثمان . قال على : قتل الله من قتله ، قال طلحة : غفل بيننا وبين من قتل عثمان ، أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما يحمل دم المؤمن في أربع خصال ، زان فيرجم ، أو عارب لله ، أو مرتد عن الإسلام ، أو مؤمن يقتل مؤمناً عمداً . فهل تعلم أن عثمان آوى عيثاً من ذلك ؟ فقال على : لا . قال طلحة : فأنت أمرت بقتله . قال على : اللهم لا . قال طلحة : فاعتزل هذا الأمر ، ونجسه هورى بين المسلمين ، فلن رضوا بك دخلت فيما دخل به الناس ، وإن رضوا غيرك كنت رجلاً من المسلمين . قال على : أو لم يبايئ يا أبا محمد طامعاً غير مكره ؟ فما كنت لأترك يعق . قال طلحة : بايعتك والسيف على عقي . قال : ألم تعلم أنى ما أكرهت أحداً على البيعة ، ولو كنت مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد ابن مسلمة ، وأبوا البيعة ، واعتزلوا ، وتركهم . قال طلحة : كنا في الشورى ستة ، فمات اثنان وقد كرهناك ، ونحن ثلاثة ، قال على : إنما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضى وقبل البيعة . وأما الآن فليس لكما غير ما رضىتما به ، إلا أن نخرجكما بما بيعت عليه بحدوث ، فلن كنت أحدث حدثاً فسموه لى . وأخرجتم أمكم عائشة ، وتركتم نساءكم ، فهذا أعظم الحدث منكم أرضى هذا لرسول الله أن تبتكوا ستراً ضربه عليها ، ونخرجوها منه ؟ فقال طلحة : إنما جاءت للإصلاح . قال على : هي لمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج ، أيها الشيخ أتقبل النصح وأرضى بالتوبة مع البار . قبل أن يكون البار والنار .

التعاطف للحرب

قال : وذكروا أنه بينا الناس وقوف إذ رمى رجل من أصحاب على ، فجى به إلى على ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، هذا أخونا قد قتل ، فقال على : أعفوا إلى القوم . فقال عبد الرحمن

ابن أبي بكر : إلى متى ؟ قد والله أعذرتنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار ، والله تأذنين لما في لقاء القوم أو لنصرفن إلى متى تستهدف نحورنا للقتال والسلاح ، يقتلوننا رجلاً رجلاً ؟ فقال علي : قد والله أرانا أعذرتنا . ابن محمد ابني ؟ فقال : هأنذا . فقال : أي بني ، خذ الراية ، فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها ، فأخرهما عنها ، وكان علي يؤخرهما شفقة عليهما ، فأخذ محمد الراية ، ثم قام علي ، فركب بقية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دنا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلبسها ، ثم قال : احزموني ، فحزم بجماعة أسفل من ستره ، ثم خرج وكان عظيم البطن ، فقال لابنه : تقدم وتضع^(١) الناس حين سمعوا به قد تحرك ، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً ، فقال علي : ما هذا ؟ فقيل عائشة تلحن قبة عثمان . فقال علي ورفع يصره إلى السماء : لمن الله قبة عثمان في السهل والجبل ، وقد كان علي عباً الناس أثلاثاً ، فجعل مصر قلب المسكر ، والجن مبيته ، وريمة ميسره ، وعباً أهل البصرة مثل ذلك ، فاقفل القوم قتالا شديداً ، فهزمت عين البصرة عين علي ، وهزمت ريمة البصرة ريمة علي ، قال حية بن جهين : نظرت إلى علي وهو يحقق نماساً فقلت له : تالله ما رأيت كاليرم قط ، إن إلزائنا مائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمتك وميسرتك ، وأنت تحقق نماساً ، فانتبه ورفع يديه ، وقال : اللهم إنك تعلم أي ما كتبت في عثمان سواداً في ياض ، وإن الزير وطلحة أبا وأجلبا على الناس ، اللهم أولانا بدم عثمان فضحه اليوم . ثم تقدم علي فنظر إلى أصحابه يهزمون ويقتلون فلما نظر إلى ذلك صاح بابنه محمد ومعه الراية ، أن اتحم ، فأبطأ وثبت ، فأنى علي من خلعه ، فضربه بين كتفيه ، وأخذ الراية من يده ، ثم حمل ، فدخل عسكرهم وإن اليميتين والميسرين تضطربان ، في أحدهما حمار ، وفي الأخرى عبد الله بن عباس ، ومحمد بن أبي بكر ، قال : فسحق علي في عسكر القوم بطعن وقتل ، ثم خرج وهو يقول : للاء للاء ، فأتاه رجل يداوئ نياما على فقال له : يا أمير المؤمنين ، أما للاء فإنه لا يصلح لك في هذا القيام ، ولكن أدوئك هذا المسل فقال : هات ، فصاعته حوسة ، ثم قال : إن عسلك الطائفي^(٢) ، قال الرجل : لسيما منك والله يا أمير المؤمنين ، لم يرتك الطائفي من غيره في هذا اليوم ، وقد بلغت القلوب الحناجر فقال له علي : إنه والله يابن أخى ماملاً سدر عمك شيء قط ، ولا هابه شيء ، ثم أعطى الراية لابنه ، وقال : هكذا فاصنع ، تقدم محمد بالراية ومعه الأنصار حتى انتهى إلى الجبل والمهودج وهزم ما يليه ، فاقفل الناس ذلك اليوم قتالا شديداً حتى كانت الواقعة والضرب على الركب

(١) تضع الناس : خضعوا وذلوا.

(٢) طائفي : نسبة إلى الطائف وهي بلاد تقيف بالحجاز .

وحمل الأخت النخعي وهو يريد عائشة ، فلقبه عبد الله بن الزبير ، فضربه ، واعتقه عبد الله
 فصرعه ، وقصد على صدره ، ثم نادى عبد الله : اتقواي ومالكاً^(١) . فلم يدر الناس من مالك
 فأتت الأخت منه ، فلما رأى كعب بن سور المزعجة ، أخذ عنظام البعير ، ونادى : أيها
 الناس ، الله الله . فقاتل وقاتل الناس معه ، وعطفت الأزدي على المودج ، وأقبل على وعمار
 والأخت والأصهار معهم يريدون الجبل فأتقتل القوم حوله ، حتى حال بينهم الليل ، وكانوا
 كذلك يروحون ويندون على القتال سبعة أيام ، وإن علياً خرج إليهم بسبعة أيام فهزمهم ،
 فلما رأى طلحة ذلك رفع يديه إلى السماء . وقال : اللهم إن كنا قد دأبنا في أمر عثمان وظلناه
 خلفه اليوم منا حتى ترضى ، قال لها مضي كلامه حتى ضربه مروان ضربة آتت منها على نفسه ،
 غر وثبتت عائشة ، وحماها مروان في حصاة من قيس ومن كنانة وبني أسد ، فأحدق بهم
 على بن أبي طالب ، ومال الناس إلى علي ، وكلا وب رجل يريد الجبل ضربه مروان بالسيف ،
 وقطع يده ، حتى قطع نحو عشرين يداً من أهل المدينة والحجاز والكوفة ، حتى إن مروان
 من خلفه ، فضرب ضربة فوقه ، وعرقب الجبل الذي عليه عائشة . ولتجزم الناس ، وأسرت
 عائشة ، وأسروا مروان بن الحكم وعمر بن عثمان ، وموسى بن طلحة ، وعمر بن سعيد بن
 العاص ، فقال جهمار لبي : يا أمير المؤمنين ، أقتل هؤلاء الأسرى . فقال علي : لا أقتل أسير
 أهل القبلة إذا رجع ونزع . فمضى على موسى بن طلحة ، فقال الناس : هذا أول قتيل يقتل ،
 فلما أتى به على قال : تباج وتدخل فبدا دخل فيه الناس ؟ قال : نعم . فباج وباج الجميع وخنى
 سيبلهم ، وسأل الناس علياً ما كان عرض عليهم قبل ذلك فأعطاه ، ثم أمر للنادى فنادى :
 لا يقتل مدبر ، ولا يجهز على جريح ، ولكم ما في عسكرهم وعلى نساءهم العدة ، وما كان لهم
 من مال في أهلهم فهو ميراث على فرائض الله . فقام رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، كيف تحمل
 لنا أموالهم ، ولا تحمل لنا نساؤهم ولا أبناؤهم ؟ فقال : لا يحمل ذلك لكم . فلما أكثروا عليه في
 ذلك : قال اتقروا ، هاؤوا بسهاكم ثم قال : أيكم يأخذ أمكم عائشة في سهمه ؟ فقالوا نستغفر الله .
 فقال : وأنا استغفر الله . قاله : ثم إن علياً مر بالقتلى ، فنظر إلى محمد بن طلحة وهو صريع
 في القتلى ، وكان يدعى السجاء ، لما بين عليه من أثر السجود . فقال : رحمتك الله يا محمد ،
 لقد كنت في العبادة جهنماً أثناء الليل قولما ، وفي الحروب صولما ، ثم ألتفت إلى من حوله
 فقال : هذا رجل قتله برأيه فاختطفوا في طلحة وابنه محمد أيهما قتل قبل ؟ فشهدت عائشة

(١) يريد عبد الله بن الزبير مالك : الأخت ، وهو بذلك يشير إلى قول الشاعر :
 اتقواي ومالك : واتقوا مالكاً معي .

لحمد أنها رآته بعد قتل أبيه ، فورثوا ولده في مال طلحة . قال : وأنى محمد بن أبي بكر ، ندخل على أخته عائشة رضى الله عنها ، قال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : على مع الحق ، والحق مع على ؟ ثم خرجت فأتته بنعم عيان ، ثم دخل عليهما حتى فسلم وقال : يا صاحبة المودع ، قد أمرك الله أن تقعدى في بيتك ، ثم خرجت فأتته . أرتحلين ؟ قالت أرتحل . فبحث معها على رضى الله عنه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العباء ، ويضعن السيوف ، وأن يكن من الذين يلبن ، ولا تطلع على أيهن نساء ، فجعلت عائشة تقول في الطريق : قبل الله على ابن أبي طالب وفعل ، بث معى الرجال ، فلما قدمن للدبة وضعن العباء والسيوف ، ودخلن عليها . فقالت : جزى الله ابن أبي طالب الجنة . قال : ودفن طلحة في ساحة البصرة ، فأنى عائشة في المنام . فقال : حولين من مكاني ، فإن البرد قد آذاني ، فخلته . وقال عبد الله ابن الزبير ، أسسيت يوم الجبل وفي بضع وثلاثون بين ضربة وطلحة ، وما رأيت مثل يوم الجبل قط ، ما يهزم منا أحد ولا يأخذ أحد منا بخنظام الجبل إلا قتل أو قطعت يده ، حتى ضاع الخنظام من يدي ضية ، فمقر الجبل . قال : دخل موسى بن طلحة على علي ، فقال له علي : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك بمن قال الله فيهم « ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأسسى على بالبصرة ذلك اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال ابن الكواء : أسسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كان عندى ابن أخيك . قال : ومن هو ؟ قال : موسى ابن طلحة . فقال ابن الكواء ، لقد شقينا إن كان ابن أخيك . فقال علي : وبمك ، إن الله قد أطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما هتممتم قد غفرت لكم . ثم قال ابن الكواء : يا أمير المؤمنين ، من أخبرك بمسيرك هذا الذى سرت فيه ، تضرب الناس بعضهم بعض ، وتستولى بأمر عليهم ؟ أو أى رأيت حين تفرقت الأمة ، واختلفت الدعوة ، فرأيت أنك أحق بهذا الأمر منهم قهر أهلك ؟ فإن كان رأيت أجنالك فيه ، وإن كان عهداً عهد إليك رسول الله فانت للوثوق به ، للمؤمن على رسول الله فإيا حدث عنه . فقال علي : أنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه . أما أن يكون عندى عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا والله ، ولكن لما قتل الناس عشرين نظرت في أمرى ، فإذا الحليتان اللذان أخذاهما من رسول الله قد هلكا ولا عهد لهما ، وإذا الخليفة الذى أخذها بمشورة للسليق قد قتل ، وخرجت ربة من عتيق ، لأنه قتل ولا عهد له ، قال ابن الكواء ، صدقت وبررت ، ولكن ما بال طلحة والزبير ؟ ولم استحلقت قتلها وقد شاركك في الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الثورى مع عمرو بن الخطاب ؟ قال علي : يا بيان بالحجاز ، ثم خالفاني بالمرائق ، فقاتلتهما على خلافهما ، ولو ضل ذلك مع أبي بكر وعمرو لقاتلتهما .

مباينة أهل الشام معاوية بالخلافة

قال : وذكر وأن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان ، تذكر فيه دخول القوم عليه ، وما صنع محمد بن أبي بكر من سفاحيته ، في كتاب قد رقت فيه وأبقت ، حتى إذا سمع السامع بكى حتى يتصلح قلبه ، ويقميص عثمان غضبا بالدم عرقا ، وعقدت شعر لحيته في زر القميص . قال : فصد للبر معاوية بالشام ، وجمع الناس ، وأخبر عليهم القميص ، وذكر ما صنعوا بشان ، فبكى الناس وشقوا ، حتى كادت نفوسهم أن تهرق ، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه ، فقام إليه أهل الشام ، فقالوا : هو ابن عمك ، وأنت وليه ، ونحن الطالبون منك بدمه ، فبأسوه أميرا عليهم ، وكتب وبث الرسل إلى كور^(١) الشام ، وكتب إلى شرحبيل بن السمط الكندي وهو بمحمص ، يأمره أن يبائع له بمحمص كما يبائع أهل الشام ، فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناسا من أشرف أهل حمص ، فقال لهم : ليس من قتل عثمان بأعظم جرما ممن يبائع لمعاوية أميرا ، وهذه سقطه ، ولكننا نبائع له بالخلافة ، ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة . فبائع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص ، ثم كتب إلى معاوية : أما بعد : فإني أخشأت خطأ عتليا ، حين كتبت إلى أن أبائع لك بالإمرة ، وأنت تريد أن تطالب بدم الخليفة للظلم وأنت غير خليفة ، وقد بايت ومن قبلى لك بالخلافة . فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ، ودعا الناس ، وصعد للبر ، وأخبرهم بما قال شرحبيل ، ودعاهم إلى بيعته بالخلافة ، فأجابوه ، ولم يختلف منهم أحد ، فلما يبائع القوم له بالخلافة ، واستقام له الأمر ، كتب إلى علي :

كتاب معاوية إلى علي

سلام الله على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنا كنا نحن وإياكم يدا جامعة ، وألفة ألفة ، حتى طمعت يا بني أبي طالب فضيرت ، وأصبحت تمد نفسك قويا على من عاداك . بطعام أهل الحجاز ، وأوباش أهل العراق وحمقى القسطل^(٢) وضغاء السواد وإيم الله لينبلين عنك سمعها ، ولينفخن عنك غوغاؤها اشتغال السحاب عن السماء . قتلت عثمان بن عفان ، ووقيت سدا أطمك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك . وطلت الزير وطلمة ، وشردت بأملك عائشة ، وتزلت بين الصريين^(٣) فثيت وتثيت ، وخيل لك أن الله ينادي قد سخرت لك بحيلها وأرجلها

(١) كور الشام : جميع كورة وهي المدينة والتاجية .

(٢) يريد أهل مصر .

(٣) البصرة والكوفة .

وإنما تعرف أمينتك لو قد زرتك في المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام ، فيحيون بك من وراءك ، ثم غضى الله علمه فيك ، والسلام على أولياء الله .

رد الإمام على معاوية

فأجابه على : أما بعد ، فقد الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون جند ، ولا يشتغل بالهزل . من قوله ، فلمرى لئن كانت قوتي بأهل العراق ، أوثق عندي من قوتي بالله ومعه في فليس عنده بالله تعالى يقين من كان على هذا ، فلج نفسك مناجاة من يستغنى بالجود دون الهزل ، فإن في القول سمة ، ولن ينز مثلك فيا طمع إليه الرجال . وأما ما ذكرت من أنا كنا ولإياكم يدا جامعة فكنا كما ذكرت ، ففرق بيننا وبينكم أن الله بث رسوله مناه فأمننا به وكفرتم ، ثم زعمت أني قتلت طلعة والوزير ، فذلك أمر غيب عنه ولم تحضره ، ولو حضرته لعلمته ، فلا عليك ، ولا الصدر فيه إليك ، وزعمت أنك زائري في المهاجرين ، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك ، فإن بك فيك سمجول فاسترقه^(١) وإن أزدك فنجبر أن يكون الله ينشئ عليك للثمة منك ، والسلام .

قدوم عقيل بن أبي طالب على معاوية

قال : وذكروا أن عقيل بن أبي طالب قدم على أخيه على بالكوفة ، فقال له على : مرحباً بك . وأهلاً . ما أقدمك يا أخى : قال : تأخر السطاء عنا : وغلاء السعر يلهنا ، وركبى دين عظيم ، فبحث لصان . فقال على : والله مالى مما ترى شيئاً إلا عطائى ، فإذا خرج فهو لك . فقال عقيل : وإنما شخوصى من الحجاز إليك من أجل عطائك ؟ وماذا يبلغ منى عطائك ؟ وما يدفع من حاجتى ؟ فقال على : له ! هل تعلمنى مالا غيره ؟ أم تريد أن يحرقنى الله في نار جهنم فيهلك بأموال المسلمين ؟ فقال عقيل : والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لى منك : « يريد معاوية » ، فقال له على : راشدأ مهدياً . فخرج عقيل ! حتى أتى معاوية . فلما قدم عليه ، قال له معاوية : مرحباً وأهلاً بك يا ابن أبي طالب . ما أقدمك على ؟ فقال : قدمت عليك لدين عظيم وركبى ، فخرجت إلى أخى لصانى ، فزعم أنه ليس له مما يلى إلا عطائوه ، فلم يقع ذلك منى موثقاً ، ولم يسد منى مسداً ، فأخبرته أنى سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لى ، فيبتك . فلزاد معاوية فيه رغبة ، وقال : يا أهل الشام هذا سيد قريش ، وابن سيدها ، عرف النبى فيه أخوه من القواية والفضالة ، فأجاب إلى أهل الدعاء إلى

(١) السجل : الاستعجال ، واسترقه : تأن واسترح .

الحق ، ولكنى أزعم أن جميع ما كنت بدى لى ، لما أعطيت قربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح على فيه فأغضب كلامه عقيلاً لما صممه ينتقم أخاه ، فقال صدقت خرجت من عند أخفى على هذا القول : وقد عرفت من فى عسكره ، لم أقعد والله رجلاً من المهاجرين والأنصار ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . فقال معاوية عند ذلك : يا أهل الشام ، أعظم الناس من قرىش عليكم حقاً ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . وسيد قرىش : وما هو ذا تبرأ إلى الله بما عمل به أخوه . قال : وأمر له معاوية بثلاث مئة ألف دينار ، قال له : هذه مئة ألف تنضى بها ديونك ، ومئة ألف تصل بها رحلك ، ومئة ألف توسع بها على نفسك .

نمى عثمان بن عفان إلى معاوية

قال عبد الله بن مسلم : وذكر ابن عثير ، عن عون بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى ، قال : قدم الحجاج بن خزيمة الشام بكتاب معاوية : بد قتل عثمان بأوامر ، فقال له : أمترفى ؟ قال : نعم . أنت الحجاج بن خزيمة . لما وراءك ؟ فقال الحجاج : أنا الذئب المرابى . أنسى إليك أمير المؤمنين عثمان . ثم قال : إني كنت بمن خرج مبيتاً لثمان مع يزيد بن أسد ، فقصمت إلى الريدة فلقينا بها رجلاً حدثنا عن قتل عثمان ، وزعم أنه من قتلته . فقتلناه . وإني أخبرك يا معاوية أنك تقوى على بدون ما يقوى به عليك ، لأن من مكك لا يقولون إذا قلت . ولا يسألون إذا أمرت ، ولأن من مع على يقولون إذا قال : ويسألون إذا أمر ، قليل بمن مكك خير من كثير بمن معه . واعلم أن علياً لا يرضيه إلا الرضى ، وإن رضاء يسخطك ، ولست وعلى بالسواء ، لا يرضى على بالمرأى دون الشام ، ورساؤك بالشام دون العراق .

قال : وذكروا أنه لما فرغ من وقعة الجمل باج له القوم جميعاً ، وياج له أهل العراق ، واستقام له الأمر بها فكتب إلى معاوية : أما بعد ، فإن القضاء السابق ، والقدر النافذ ، ينزل من السماء كقطر المطر ، فتمضى أحكامه عز وجل ، وتنفذ مشيئته بشير لمحباب المخلوقين ، ولأرضاء الآدميين ، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله ، وبيعة الناس عامة لى ، ومصارع الناكثين لى فلدخل فيها دخل الناس فيه ، وإلا فأنا الذى عرفت ، وحولى من تصله ، والسلام .

فما قدم على معاوية كتاب على مع الحجاج بن عدى الأنصارى ، أنهاء وهو يخطب الناس بدمشق ، فلما قرأه اغتم بذلك ، وأسره عن أهل الشام ، ثم قام الحجاج بن عدى خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل الشام ، إن أمر عثمان أشكل على من حضره ، المنبر عنه كالأعمى ،

والسميح كالأعمى ، عابه قوم فقتلوه ، وغدده قوم فلم ينصروه ، فكذبوا القائب واتهموا الشاهد . وقد بايع الناس عليا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة عامة ، من رغب عنها رد إليها سائرا أذعرا ، فانظروا في ثلاث وثلاثين ، ثم انقضوا على أنفك : أين الشام من الحجاز ؟ وأين معاوية من علي ؟ وأين أتم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بالإحسان ؟ قال : فضرب معاوية قوله وقال : يا حجاج ، أنت صاحب زيد بن ثابت يوم الدار ؟ قال نعم ، فإن كان بك ذلك وإلا أحدئك ، قال : هات . قال : أشرف علينا زيد بن ثابت ، وكان مع عثمان في الدار ، وقال : يامسر الأنصار ، انصروا الله (مرتين) ، قلت : يا زيد ، إنا نكره أن نلقى الله فنقول كما قال القوم : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » ، فقال معاوية : انصرف إلى علي ، وأعلمه أن رسولى على إثرك .

ثم إن معاوية انتخب رجلا من عبس ، وكان له لسان ، فكتب معاوية إلى علي كتابا عنوانه : « من معاوية إلى علي ، وداخله : بسم الله الرحمن الرحيم لأخبر . » فلما قدم الرسول دفع الكتاب إلى علي ، فصرف على ما فيه ، وأن معاوية محارب له ، وأنه لا يعبه إلى شيء مما يريد ، وقام رسول معاوية خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هل هاهنا أحد من أبناء قيس عيلان ، وبن عبس وذبيان ؟ قالوا : نعم ، هم حولك . قال : فاسموا ما أقول لكم ، يامسر قيس ؟ إن أحلف بالله لقد خلت بالشام حسين ألف شيخ ، خاضعين لحام من دموع أعينهم تحت قيس عثمان ، راضيه على الملح محضوبا بدعائه ، قد أعطوا الله عهدا أن لا يمدوا سيوفهم ، ولا يعضوا جفونهم ؛ حق يقتلوا قتلة عثمان ، يوصى به الميت الحى ، ورثة الحى من الميت ، حق والله نشأ عليه الصبي ، وهاجر عليه الأعرابي ، وترك القوم تمس الشيطان ، وقالوا : تصا لقتلة عثمان ، وأحلف بالله ليأتينكم من خضر^(١) الخيل اثنا عشر ألفا ، فانظروا كم الشهب^(٢) وغيرها ؟ فقال له على : ما يريدون بذلك ؟ قال : يريدون بذلك والله خيط رقتك . فقال علي : تربت يدك ، وكذب فوك ، أما والله لو أن رسولا قتل لقتلتك . فقام الصلت بن زفر فقال : بش والله أهل الشام أنت ورائد أهل العراق ، ونم البدون ليل ، وبش البدون لمعاوية ، يا أخا عبس أنمخوف المهاجرين والأنصار بخضر الخيل ، وغضب الرجال ؟ أما والله ما تخاف غضب رجالك ، ولا خضر خيلك ، فأما بكاء أهل الشام على غميس عثمان ، فوالله ما هو غميس يوسف ولا بمنز يقرب ، ولئن بكوا عليه بالشام ، قد خذلوهم بالحجاز ، وأما تكلمهم عليا ، فإن الله

(١) خضر الخيل : الخيل الخضراء : خيل في لونها خيرة مع سواد .

(٢) الشهب : البيض .

يصنع في ذلك ما أحب . قال : وإن العيسى أقام بالعراق عند علي ، حتى اتجه معاوية ، ولبىه المهاجرون والأنصار فأشربوه حب علي ؛ وحدثوه عن فضائله ، حتى شك في أمره .

قلوب ابن عم علي بن حاتم الشام

قال : وذكروا أن عدى بن حاتم قدم إلى علي بالكوفة ، قبل أن يسير إلى البصرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لسا نخاف أحدا إلا معاوية ؛ وعندى رجل من قوى يريد أن يزور ابن عم له بالشام ، يقال له حابس بن سدد ، فلو أمرناه أن يلقى معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام ؟ فقال له علي : أصل ، فأغروه بذلك ، فلما قدم على ابن عمه ، وكان سيد طيء بالشام ، سأله فأخبره أنه شهد قتل عثمان بالمدينة النورية ، وسار مع علي إلى الكوفة ، وكان له لسان وهبة ، فعداه حابس إلى معاوية ، فقال : هذا ابن عمي ، قدم من الكوفة ، وكان مع علي ، وشهد قتل عثمان بالمدينة ، وهو ثقة ، فقال له معاوية : حدثنا عن أمر عثمان ، قال : نعم . ولبه محمد بن أبي بكر ، وعصام بن ياسر ، وتجرد في أمره ثلاثة نفر ، عدى بن حاتم ، والأشتر النخعي ، وعمر بن الحسين . ودب في أمره رجلان : طلحة والزبير . وأرأى الناس منه علي بن أبي طالب ، ثم تهاوت الناس على علي بالبيعة تهاوت الفرائس ، حتى ضلت النمل^(١) ، وسقط الرءاء ، ووطئ^(٢) الشيخ . ولم يذكر عثمان ، ولم يذكره ، ثم تهايا السمر ، خف معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : عبد الله بن عمر ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستكره أحدا ، واستغنى عن خف عمن قتل ، ثم سار حتى انتهى إلى جبل طيء^(٣) ، فأثاء منهم جماعة عظيمة ، حتى إذا كان في بعض الطريق أتاها مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فشرح رسله إلى الكوفة ، فأجابوا دعوته ، ثم قدمها، فحملوا إليه العيسى ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس ، فرحوا به وسرورا وشوقا إليه ، ثم سار إلى البصرة ، فبرز إليه القوم : طلحة والزبير وأصحابهما ، فلم يلبثوا إلا يسيرا ، حتى صرهم الله ، وأبرزهم إلى مضاجعهم ، ثم صارت البصرة وما حولها في كفة ، قال : وتركتهم وليس له هم إلا أنت والشام . فانتكسر معاوية لقوله ، وقال : والله ما أظنه إلا عينا لعل ، أخرجه لايأسد أهل الشام . ثم قال معاوية : وكيف لا يضيع عثمان ويقتل وقد خذله أهل قناته ، وأجهدا عليه ؟ أما والله لئن بقينا لهم لنندسهم^(٤) درس الجبال هشيم الييس .

(١) ضلت النمل : ضاع الحذاء من الزحام .

(٢) ووطئهم : نقتلهم ، وهشيم الييس : يابس النبات المحي .

استعمال على عبد الله بن عباس على البصرة

قال : وذكروا أن علياً لما صار من البصرة بعد فراغه من أصحاب الجبل ، استعمل عليها عبد الله بن عباس ، وقال له : أوصيك بتقوى الله عز وجل ، والعمل على من ولاك الله أمره ، اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك ، ولهاك والإحسان^(١) ، فإني تيت القلب والحق ؛ واعلم أن ما قربك من الله بسلك من النار ، وما قربك من النار بسلك من الله . اذكر الله كثيراً ولا تكن من الخافلين .

فلما لبث على حين قدم الكوفة ، وأراد للسير إلى الشام ، أن انضم إليه ابن عباس ، واستعمل على البصرة زياد بن أبي سفيان .

ما أشار به الأحنف بن قيس على

قال : وذكروا أن الأحنف بن قيس قام إلى على فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه إن يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجبل ، فلن ينصروا عليك غيرك ، وقد عيبوا عن نصرتك يومئذ ، وعيبوا اليوم عن خذك ، لأنهم شكوا في طلحة والزبير ، ولم يشكوا في عمرو ومعاوية ، وإن عشرينا بالبصرة فلو بشنا إليهم فقدموا علينا ، فقاتلنا بهم العدو ، واتصنا بهم من الناس ، وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس ، وهذا جمع قد حشره الله عليك بالقوى ، لم نتركه شاخصاً ، ولم نتخس فيه مقبياً ، ومن كان معك نافعك ، ورب مقيم خير من شاخص . وإنما نشوب الرجاء بالهافة ، ووالله لوددنا أن أمواتنا رجعوا إلينا ، فاستمنا بهم على عدونا ، وليس لك إلا من كان معك ، ولنا من قورنا عدد ، ولا تلقى بهم عدواً أعدى من معاوية ، ولا نسد بهم ثغراً أشد من الشام .

كتاب الأحنف إلى قومه يدعوهم به إلى نصرته على

قال : وذكروا أن علياً قال للأحنف بن قيس : اكتب إلى قومك . قال : نعم . فكتب الأحنف إلى بني سعد ، أما بعد ، فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا وقد حققوا برأى سيدهم غيركم ، وعصمكم الله برأى ، حتى تلتهم ما رجوتهم ، وأمتهم بما ختمتم ، وأصبتم متقطعين من أهل البلاد ، لاحتقن بأهل المافية ، وإنى أخبركم أنا قدمنا على تميم بالكوفة ، فأخذوا علينا بفصلهم مرتين :

مسيرهم إلينا مع حل ، وتبيهم للسير إلى الشام ، ثم أعشرونا معهم ، فصرنا كأننا لا نعرف إلا بهم .
فأقبلوا إلينا ، ولا تتكلموا علينا ، فإن لم أصدقنا من رؤسائهم فلا يبعثوا عنا ، فإن من تأخير
المطاء حرمانا ، ومن تأخير النصر خذلانا . ففرمان المطاء الثقة ، وخذلان النصر الإبطاء
ولا تقضى الحقوق إلا بالرضا وقد يرضى للشرط بدون الأمل .
فلما انتهى كتاب الأخف إلى بنى سعد ، سلخوا بجماعتهم ، حتى نزلوا الكوفة .

كتاب أهل العراق إلى مصقلة (١)

قال : وذكروا أنه قام إلى حل جندنا صرافه من البصرة إلى الكوفة ، وجوه بكر بن وائل .
فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن نميا أخاصمقة يستحي منك ، لا صنع مصقلة ، وقد آتانا اليقين أنه لا يمنع
مصقلة من الرجوع إليك إلا الحياء ، ولم يسط منذ فارقنا لسانه ولا يده ، فلو كتبنا إليه كتابا ،
وجئنا من قبلنا رسولا ، فإننا نستحي أن يكون فرقنا مثل مصقلة من أهل العراق إلى معاوية .
فقال حل : أكتبوا . فكتبوا : أما بعد ، فقد علمنا أنك لم تلتحق بمعاوية رضا بدنه ، ولا رغبة
في دنياه ، ولم يسطك عن حل طعن فيه ، ولا رغبة عنه ، ولكنك توسطت أمرا فتويت فيه
الظن ، وأضمت فيه الرجاء ، فكان أولاها عندك أن قلت : أفوز بلال ، وألحق بمعاوية .
ولم نرنا ما استبدلت الشام بالعراق ، ولا السكسك (٢) بربة ، ولا معاوية بعل ، ولا أصبت
دنياهنا بها ، ولا حقا محمد عليه ، وإن أقرب ما تكون مع الله ، أبعد ما تكون مع معاوية ،
فارجع إلى مصرك ، فقد اخترت أمير المؤمنين الدن ، واحتمل الثقل ، وأعلم أن رجعتك اليوم
خير منها غدا ، وكانت أمس خيرا منها اليوم ، وإن كان عليك حياء من أبي الحسن ، فما أنت
فيه أعظم ، فصح الله أمرا ليس فيه دنيا ولا آخرة . فلما انتهى كتابهم إلى مصقلة ، وكان الرسول
عقل ولسان ، قال الرسول : يا مصقلة ، انظر فيما خرجت منه ، وفيما صرت إليه ، وانظر من
أخذت ، ومن تركت ، وانظر من جاورت ، ومن زابت ، ثم انقش بقلبك دون هؤلاء . قال :
وإن مصقلة مضى إلى معاوية بالكتاب ، فأقرأه إياه ، فقال معاوية : يا مصقلة إنك عندى خير
ظنين ، فإذا أتاك شيء فاستره عني ، فانصرف مصقلة إلى منزله ، فخط الرسول فقال : يا أخا بكر ،
إنما هربت بنسى من حل ، ولا والله ما يطول لسانى بشيئة ، ولا قلت فيه قط حرفا بسوء ،
انذهب بكتاى هذا إلى قومي .

(١) مصقلة : هو مصقلة بن هيرة ، ترك عليا رضى الله عنه إلى معاوية طمعا في الدنيا .

(٢) السكسك : حبي من اليمن جدم سكسك بن أشرس .

جواب مصقة إلى قومه

قال: وذكروا أن مصقة كتب إلى قومه: أما بعد ، فقد جادى كتابكم ، وإنى أخبركم أنه من لم ينله القليل لم ينله الكثير ، وقد علمت الأمر الذى قطنى من طي ، وأسألتنى إلى معاوية ، وقد علمت أنى لو رجعت إلى طي وإليكم لكان ذنبى مغفورا ، ولكنى أذنبت إلى طي ، وصحبت معاوية ، فلو رجعت إلى طي أحدثت عيأ ، وأحييت طرا ، وكنت بين لائمين ، أولهما خيانة ، وآخرهما غدر ، ولكنى أقيم بالشام ، فإن غلب معاوية فدارى العراق ، وإن غلب طي فدارى أرض الروم . فأما الحموى فإليكم طائر ، وكانت فرقتى عليا طي بعض العذر أحب إلى من فرقتى معاوية ولا عندى . ثم قال للرسول : يا بن أخى ، استعرض الناس عن قولى فى طي . فقال : قد سألت ، فقالوا خيرا . قال : فإنى والله عليه حق أموت . فرجع الرسول بالكتاب ، فأقرأه عليا ، فقال : كفوا عن صاحبكم ، فليس برابع حتى يموت . فقال حسين : أما والله ما به إلا الهباد .

لحق عهد الله بن عامر بالشام

قال : وذكروا أن عبد الله بن عامر لحق بالشام ، ولم يأت معاوية ، وخاف يوما كيوم الجمل ، فبعث إليه معاوية أن يأتيه ، وألح عليه . فكتب ابن عامر : أما بعد ، فإنى أخبرك أنى أقصت طلعة والثرير إلى البصرة ، وأنا أقول إذا رأى الناس أم للؤمنين مالوا إليها ، وإن فر الناس لم يفر الثرير ، وإن غدر الناس لم يندر مروان ، قضيت عائشة ، ورجع الثرير ، وقتل مروان طلعة ، وذهب مالى بما فيه ، والناس أشباه ، واليوم كأس ، فإن أبقيت هواى ، وإلا أرحل عنك والسلام . فكتب معاوية إليه : أما بعد ، فإنك قهت أمر دينك ثقة عثمان ، وأنفقت مالك لعبد الله بن الثرير ، وآثرت العراق طي الشام ، فأخرجك الله من الحرب صفر الدين ، ليس لك حظ الحق ، ولا ثار القتل . فلما انتهى كتابه إلى ابن عامر أتاه ، فتمس يده منه ، وبأبيه ، فطافه معاوية ، وعرف له قرابته من عثمان .

ما أشار به عمار بن ياسر على علي

قال : وذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى طي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما يا بنيك ولا نرى أحدا يقاقلك ، قاتلك من بابك ، وأعطاك الله فيهم ما وعد فى قوله جل وعز : « ثم بُنى عليه ليصرنه الله » ، وقوله : « يا أيها الناس إنما بينكم طي أعسكم » ، وقوله : « فمن نكث فإنا ينكث طي عس » ، وقد كانت الكوفة لنا ، والبصرة علينا ، فأصبنا طي ما تحب ، بين ماض مأجور ، وراجع مغفور ، وإن بالشام الداء الضال : رجلا لا يسلمها أبدا إلا مقتولا أو مغنوبا ، فهاجبه قبل أن يهاجلك ، وإنذ إليه قبل الحرب .

ما أشاره الأشر على عليّ

قال : وذكروا أن الأشر التخصي قام إلى عليّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما أنا أن تقول قبل أن تقول ، فإذا عزمتم فلم تقل ، فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الحدّ والحدّ ، لم يقولك بئله ، فإن القلوب اليوم سليمة ، والأبصار صحيحة ، فبادر بالقلوب القسوة ، وبالأبصار العمى .

كتاب عليّ إلى جرير بن عبد الله

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى جرير بن عبد الله ، وكان على فخر همدان ، كان استعمله عليه عثمان ، فسكتب عليّ إليه مع زفر بن قيس : أما بعد ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وعلمهم من دونه من وال . ثم إنى أخبرك عنا وعن سرنا إليهم ، من جمع طلحة والزبير ، عند نكتهما ببيعتهما ، وما صنعا باملى عثمان ابن حنيف : إنى هيئت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنت ببعض الطريق ، بشت إلى الكوفة الحسن ابنى ، وعبد الله بن العباس ابن عمى ، وعثمان بن ياسر . وقيس بن سعد بن عباد ، فاستفرتهم بحق الله ورسوله فأجابوا ، وسرت بهم . حتى زلت بظهر البصرة ، فأعذرت فى السماء ، وأقلت فى الشجرة ، وبأخذتهم عقد يدهم ، فأبوا إلا قتالى ، فاستعنت الله عليهم ، فقتل من قتل ، وولوا مدبرين إلى مصرهم ، فسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت المأية ، ورفضت عنهم السيف ، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس ، وبشت إليك زفر ابن قيس ، فأسأله عنا وعنهم .

خطبة زفر بن قيس

قال : وذكروا أنه لما قدم زفر على جرير بكتاب عليّ ، وقرأه جرير ، قام زفر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن علياً كتب إليكم بكتاب لا يقول بعده إلا رجياً من القول ، إن الناس بايعوا علياً بالمدنية غير محابة ببيعتهم ، ولله بكتاب الله ، ويرى الحق فيه ، وإن طلحة والزبير تقضي يعة عليّ على غير حدث ، ثم لم يرضيا حتى نصباه للحرب ، وألأا عليه الناس . وأخرجنا أم المؤمنين عائشة من حجاب ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، ففقههما فأعذر فى السماء ، وخشى البنى ، وحمل الناس على ما يعرفون ، فهذا عيان ما طلب عنكم . وإن سألتكم زيادة زدناكم .

خطبة جرير بن عبد الله البجليّ

قال : وذكروا أن جرير بن عبد الله قام خطيباً . فحمد الله . فقال : أيها الناس . هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب . وهو للأموّن على الدين والدنيا . وكان من أمره وأمر

عدوه ما قد سمعتم ، فالحمد لله على أفضيته . وقد باهه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار
والتابعون بإحسان ، ولو جعل الله هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان على أحق بها ، ألا
وإن البقاء في الجماعة ، والبقاء في الفرقة ، وعلى حاملكم على الحق ما استقمتم له ، فإن ملتم
أفكم ميلكم ، قال الناس : سمأ وطاعة ، ورضانا رضانا من بعدنا .

كتاب عليّ إلى الأشعث بن قيس

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى الأشعث بن قيس مع زياد بن كعب . والأشعث يومئذ
بأذربيجان عاملاً لعمان ، كان استمعه علياً : أما بعد ، فلو لا هات كنّ نيك كنت للقدم
في هذا الأمر قبل الناس ، فلعل أمراً يحمل بضاً إن أقيمت الله ، وقد كان من يمة الناس
إيأى ما قد بلغك ، وكان طلحة والزبير أول من باينى ، ثم قضاييق على غير حدث ، وأخرجنا
أم المؤمنين إلى البصرة ، فسرت إليهما في المهاجرين والأنصار ، فالتفتنا ، فدعوتهما إلى أن
يرجعا إلى ما خرجا منه ، فأيا . فأبقت في الدعاء ، وأحسنت في البقاء ، وإن حملك ليس لك
بطعمة ، ولكنه أمانة في عنقك ، وللال مال الله ، وأنت من خزائى عليه حتى تسلمه إلى إن
شاء الله موئلى أن لا أكون من ولائك .

خطبة زياد بن كعب

قال : وذكروا أن الأشعث بن قيس لما قرأ كتاب علي ، قام زياد بن كعب خطيباً ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إني من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير ، وإن أمر
حنان لم ينفع فيه البيان ، ولم يشف منه الخبر ، خير أن من سمع كمن عاينه ، وإن المهاجرين
والأنصار بايسوا علياً راضين به ، وإن طلحة والزبير قضا يمة على ، على غير حدث ، وأخرجنا
أم المؤمنين على غير رضى ، فصار إليهم ، ولم ينلهم ، فتركهم وما في نفسه منهم حاجة ، فأورثه الله
الأرض ، وجعل له عاقبة للثقلين .

خطبة الأشعث بن قيس

قال : فقام الأشعث بن قيس خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إن حنان رحمه الله ولائى
أذربيجان ، وهلك وحي في بدي ، وقد بايع الناس علياً ، وطاعتنا له لازمة ، وقد كان من
أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم ، وهو للأموال ما غلب عنا وعنكم من ذلك .

مشورة الأشعث تقات في الحقوق بمعاوية إلى الشام

قال : وذكروا أن الأشعث رجع إلى منزله ، ف دعا أهل قته من أصحابه ، فقال لهم : إن

كتاب عليّ جاهدني ، وقد أوحشني ، وهو أخذي بالأذنين وأنا لاحق بماوية ، فقال القوم :
لولا خير لك من ذلك ، أمتع مصرك وجماعة قومك ، وتكون ذنباً لأهل الشام ؟ .

كتاب جرير إلى الأشعث

قال : وذكروا أن جريراً كتب إلى الأشعث : أما بعد . فإنه ألقى يمة عليّ فقبلتها . ولم
أجد إلى دفعها سبيلاً ، وإن نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان ، فلم أجده يائساً ، وقد شهدته
للهاجرين والأنصار ، فكان أوثق أمرهم فيه الوقوف ، فأقبل بيته ، فإنك لا تثبت إلى خير
منه . وأعلم أن يمة عليّ خير من مصارع أهل البصرة . وقد تحلب الناقة الضجور^(١) . وجلس
المسود^(٢) على البحر الدبر . فانظر لنفسك . والسلام .

إرسال عليّ جريراً إلى معاوية

قال : وذكروا أن جريراً لما قدم على عليّ قال له : يا جرير . انطلق إلى معاوية بكتابي
هذا ، وكن عند ظني فبك ، وأعلم يا جرير أنك ترى من حولي من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ، وإني اخترتك عليهم ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : خير ذي بمن جرير ، فذهب إلى معاوية بكتابي هذا ورسالي ، فإن دخل فيما
دخل فيه المسلمون ، وإلا فابذ إليه بالحرب ، وأعلمه أني لا أرضى به أميراً ، والعامة لا أرضى
به والياً ، فقال جرير : إني لأكره أن أمتنك ممنوني ، وما أطمع لك في معاوية ، وصنع
الله ما يشاء .

كتاب عليّ إلى معاوية صه ثانية

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى معاوية مع جرير : أما بعد ، فإن يمتي بالمدينة لؤمته
وأنت بالشام ، لأنه يأسى الذين يأسوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بأسوا ، فلم يكن للشاهد أن
يختار ، ولا لقائب أن يرد ، وإنما الصوري للمهاجرين والأنصار ، فلما اجتمعوا على رجل
فسموه إماماً كان ذلك لله رضا ، فإن خرج منهم خارج ردوه إلى ماخرج منه ، فإن أبي قاتلوه
على اتباعه غير سبيل للؤمنين ، وأولاه الله ما تولى ، وأصله جهنم وسات مصيراً . وإن طلحة

(١) الناقة الضجور : التي ترغو عند حلبها .

(٢) المسود : السن من الإبل .

(٣) القتيين : نسبة إلى القبة ، والبراد يمة القبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والزير بإحدى البلدتين ، ثم قضا بينهما ، فكان خضهما كرتهما ، فباهتتهما بعد ما أعتدت إليهما ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فدخل فيها دخل قبه للملوك ، فإن أحب أمورك إلى العافية ، فإن تعرض للبلاء فانتك ، واستمنت بالله عليك ، وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان ، فادخل في الطاعة ، ثم حاكم القوم إلى أحلك وإيهم على كتاب الله ، فأما تلك التي تريدونها فهي خدعة الصبي عن اللبن ، ولمرى لأن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدي أبرأ الناس من دم عثمان ، واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء ، الذين لا تعمل لهم الخلافة ولا تنفذ منهم الإمامة ، ولا تعرض فيهم الثوري ، وقد بشت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والمجربة الساجدة ، فبايع ، ولا قوة إلا بالله .

قدوم جرير إلى معاوية

قال : وذكروا أن جريراً لما قدم على معاوية بكتاب على ، قام جرير بالشام خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده ، فإنا نذكركم بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا علياً ، وإن طلحة والزبير كانا ممن بايع ، ثم قضا بينه ، ألا وإن هذا الدين لا يجتمع الفتن ، ألا وإن هذا الدين لا يجتمع السيف . وقد كانت بالبصرة أس روعة مئة ، إن يشفع البلاء يمثله فلا يقاء للناس ، وقد بايت العامة علياً ، ولو ملكنا أمرنا لم نحتزلها غيره ، فمن خالف هذا فقد استتب (١) فادخل يا معاوية فيها دخل الناس فيه ، فإن قلت : إن عثمان ولأبي ولم يزلني ، فإن هذا لو كان لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئ ما هو فيه .

إشارة الناس على عليّ بالقيام بالكوفة

قال : وذكروا أن علياً استشار الناس ، فأشاروا عليه بالقيام بالكوفة عامه ذلك ، غير الأكثر النخعي ، وعدى بن حاتم ، وشريح بن هانئ ، فأنهم قاموا إلى عليّ ، فحككوا لبجان واحد ، فقالوا : إن الذين أشاروا عليك بالقيام ، إنما خوفوك بحرب الشام ، وليس في حربهم شيء أخوف من الموت ونحن نريد . قال لهم : إن استبدادى لحرب أهمل الشام ، وجرير عندكم إغلاق الشام ، وصرف لأهله عن خير إن أراخوه ، ولكني قد وقتت له وقتاً لا يقم بعده إلا أن يكون مخدوعاً أو غاصياً ، ولا أكره لكم الإعداد ، وأبطل جرير على عليّ بالشام حتى يش منه ، وإن جريراً لا أبطل عليه معاوية برأيه ، استعنه باليسة ، فقال معاوية لجرير :

(١) استتب : استوجب الثبات

يا جرير ، إن البيعة ليست بخلسة ، وإنه أمر له ما بعده . فأبلى ريق^(١) .

مشورة معاوية أهل ثقته

قال : وذكروا أن معاوية دعا أهل ثقته لاستشارهم ، فقال عتبة بن أبي سليان : استعن على هذا الأمر بمرو بن الحارث ، فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل^٢ : مان في حياته ، وهو لأمرك أحد اعتزلا إلا أن ترضيه .

كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى عمرو بن العاص وهو بفسطاطين : أما بعد ، فقد كان من أمر على وطلة والفرير ما قد بلغك ، وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة ، وقدم على جرير بن عبد الله في بيعة على ، وقد حبست نفسي عليك ، فاقدم على بركة الله ، والسلام .

ما سأل معاوية من على من الإقرار بالشام ومصر

قال : وذكروا أن معاوية قال لجرير : إني قد رأيت رأياً . قال جرير : هات . قال : أكتب إلى على أن يجعل لي الشام ومصر جباية ، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بيته في عتقي بيعة ، وأسلم إليه هذا الأمر ، وأكتب إليه بالخلافة . قال جرير : أكتب ما شئت . وإنما أراد معاوية في طلبه الشام ومصر ألا يكون لعل في عتقه بيعة ، وأن يخرج نفسه مما دخل فيه الناس ، فكتب إلى على يسأله ذلك ، فلما أتى على كتاب معاوية عرف أنها خدعة منه .

كتاب على إلى جرير بن عبد الله

قال : وذكروا أن على كتب إلى جرير : أما بعد ، فإن معاوية إنما أراد بما طلب ألا يكون لي في عتقه بيعة ، وإن يختار من أمره ما أحب ، وقد كان للبيعة بن شعبة أعمار على وأنا بالمدينة أن أستعمله على الشام ، فأبيت ذلك عليه ، ولم يكن الله ليراني أأخذ للضليل عضداً ، فإن بابك الرجل ، وإلا فأقبل .

(١) انتظر على حتى أتوى في الأمر .

استشارة عمرو بن العاص ابنه ومواليه

قال : وذكروا أنه لما انتهى إلى عمرو بن العاص كتاب معاوية وهو بفلسطين ، استشار ابنه عبد الله ومعهداً ، وقال : يا ابنى ، إنه قد كان من فى أمر عثمان ثلثات لم أستقبلها بعد ، وقد كان من هروى بنفسى حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية منى ، وقد قدم على معاوية جرير ببيعة على ، وقد كتب إلى معاوية بالقدوم عليه ، فما ترى ؟ فقال عبد الله وهو الأكبر : أرى والله أن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفةان من بعده كذلك .

وقتل عثمان وأنت غائب ، فأقم في منزلك ، فليست مجيولاً خليفة ، ولا يزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، أو حكمتما أن تهلكتا فتستروا فيها جيماً . وقال محمد : أرى أنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل ، يسر أمرك ، فالحق يجماعة أهل الشام ، وأطلب بدم عثمان ، فإنك به تستميل إلى بنى أمية . فقال عمرو : أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فقد أمرتنى بما هو خير لى فى دنياى . ثم دعا غلاماً له يقال له وردان ، وكان داهياً ، فقال له عمرو : يا وردان احطط ، يا وردان ارسل ، يا وردان احطط ، يا وردان ارسل . فقال وردان : أما إنك إن عشت نبأك بما فى نفسك ، فقال عمرو : هات يا وردان ، فقال : اتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، قلت مع على الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بشير آخرة ، فأنت واقف بينهما . فقال عمرو : ما أخطأت ما فى نفسى ، فما ترى يا وردان ؟ فقال : أرى أن تقيم فى منزلك ، فإن ظهر أهل الدين عشت فى علو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستنوا عنك ، فقال عمرو : الآن حين شهرتى العرب بعيرى إلى معاوية ؟

قنوم عمرو إلى معاوية

قال : وذكروا أن عمرو بن العاص لما قدم إلى معاوية ، وعرف حاجته إليه بأعده من نفسه ، وكابد كل واحد منهما صاحبه ، فقال عمرو لمعاوية : أعطنى مصر ، فلتكأ معاوية وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ قال : بلى ولكها إنما تكون لى إذا كانت لك ، وإنما تكون لك إذا غلبت على العراق . وقد بث أهلها بطاعتهم إلى على . فدخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية ، فقال : أما ترضى أن تفتري عمرأ بمصر إن هى صلت لك ؟ إليك لا تطلب على الشام . فلما سمع معاوية قول عتبة بث إلى عمرو ، فأعطاه مصر ، ولما كتب معاوية لعمرو بمصر ، كتب فى أسفل الكتاب : ولا يتنقض شرط طاعة . وكتب عمرو ، ولا يتنقض طاعة .

شرطا ، وكابد كل واحد منهما صاحبه ، وكان مع عمرو بن الطغص ابن أخ له ، جاءه من مصر ، فلما جاء عمرو بالكتاب مسرورا به ، عجب ابن أخيه من سروره ، وقال : يا عمرو ألا تخبرني بأى رأى تمشي في قريش وقد أعطيت دينك غيرك ؟ أتري أهل مصر وهم ثلاثة حثيان يبخونها إلى معاوية وعلى ؟ أو تراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذك بالجدل الذي قدمه ؟ فقال عمرو : يا ابن أخى . إنه لأمر الله دون معاوية وعلى . يا ابن أخى لو كنت مع على وسعى يتي ، ولكنى مع معاوية . قال : الحق إنك لم ترد معاوية ، ولكنك تريد دنياه ، ويريد دينك ، فبلغ معاوية قول الحق فغلبه غرير ، فطحق بلى ، وحدث عليا بأمر معاوية وعمرو ، ومقاله ، فسر على بذلك ، وقرّبه .

مشورة معاوية عمرا رضى الله عنهما

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو : يا أبا عبد الله ، طرقتني في ليلتي هذه ثلاثة أخبار ، ليس لي فيها ورد ولا صد ، منها أن ابن أبي حذيفة كسر سجن مصر ، ومنها أن قيس زحف بجيعة الروم ليطلب على الشام ، ومنها أن عليا قد تهاى للجناء إلينا ، فما عندك ؟ قال عمرو : كل هذا عظيم : أما ابن أبي حذيفة فخرج في أميابه من الناس ، فبين بحث إليه رجلا يقتله ، وإن يقتل فلا يضره : وأما قيس فأخذ له من وصائف الروم ومن الذهب والفضة ، واطلب إليه للوادة ، فحمد إليها سرما : وأما علي فواته إن له في الحرب لحظا ما هو لأحد من الناس ، وإنه لصاحب الأمر . قال معاوية : صدقت ، ولكنى أقاتله على ما بأيدينا ، ونظمه دم حثيان : فقال عمرو : وسوائله ، إن أحق الناس ألا يذكر حثيان لأننا ولأنت . قال معاوية : ولم ؟ فقال عمرو : أما أنت فخذله ومعك أهل الشام ، واستأثرك فأبطأت عليه ، وأما أنا فتركته حيانا ، وهربت إلى فلسطين . قال معاوية : دعني من هذا ، فلم يابني . قال عمرو : لا والله لا أصطليك من دين حتى آخذ من دنياه ، قال معاوية : صدقت ، سل تعطى ، قال عمرو : مصر طعمة . فنضب مروان بن الحكم ، وقال : ما بلى لا أختري ، قال معاوية : اسكت يا ابن عم ، فإنما يشتري لك الرجال . فكتب معاوية لعمرو : مصر طعمة .

كتاب معاوية إلى أهل مكة والمدينة وجوابهما

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو : إنى أريد أن أكتب إلى أهل مكة والمدينة كتابا أذكر فيه قتل عثمان ، فلما أن تدرك به حاجتنا ، أو نكتبهم عن السير . فقال له عمرو : لى من تكتب ؟ قال : لى ثلاثة نفر : رجل لى لا يريد غيره ، ولا يزيد كتابنا فيه إلا بصيرة ، أو رجل يهوى عثمان . فلا يزيد على ما هو عليه ، أو رجل مثقل لا يريد القتال :

قال عمرو : على ذلك ؟ قال : نعم . قال : اكتب ، فكتب إلى أهل مكة وللدنية : أما بعد ، فإنه مهما طلب عنا فإنه لم يفت علينا أن علياً كل عثمان ، والله ليل على ذلك أن قتله عند ، وإنما نطلب بدمه حتى يدفع إلينا قتله ، فقتلهم بكتاب الله تعالى ، فإن دفعهم إلينا كفنا عنه ، وجعلناها هوى بين المسلمين ، على ما جعلها عمر بن الخطاب ، فأما الخلافة فلنا نطلبها ، فأعينونا يرحمك الله ، واتهموا من عجبكم .

جوابه .

قال : وذكروا أنه لاقرأ عليهم كتابه لاجتماع رأيهم على أن يستنوا أمرهم إلى السور بن غزوة ، فجاوب عنهم ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك أخطأت خطأ عظيماً ، وأخطأت مواضع النصر ، وتناولتها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافة يا معاوية ، وأنت طليق^(١) ، وأبولك من الأحزاب^(٢) . فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولي ولا نصير .

كتاب معاوية إلى ابن عمر

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى ابن عمر كتاباً خاصاً ، دون كتابه إلى أهل المدينة : أما بعد ، فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إليّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان ، فذكرت خذلك إياه ، ووطنك على أنصاره ، فخيرت لك ، وقد هون ذلك علىّ خلافتك علىّ ، ووطنك عليه ، وردني إليك بدعماً كان منك ، فأعنا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظالم ، فإنني لست أريد الإمارة عليك ، ولكنني أريدك لك ، فإن أبيت كانت هوى بين المسلمين .

جوابه

فكتب إليه عبد الله بن عمر : أما بعد ، فإن الرأي الذي أطعك في هذا هو الذي صيرك إلى ماصرك . تركتُ علياً في المهاجرين والأنصار ، وتركْتُ طلحة والزبير وعائشة ، وأبيك فيمن أتبعك؟^(٣) وأما قولك إني طعنت علىّ ظمري ما أنا كهل في الإسلام والمهجرة ،

(١) طليق : معنى من الطلقاء الذين قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(٢) وأبولك من الأحزاب : معنى أن أباه كان من المشركين الذين حاصروا المدينة في غزوة الأحزاب .

(٣) استهام إرنسكاري معنى لا أتبعك .

ويكافئه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أحدث أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففزعنا إلى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فضلاً تركته ، وإن كان ضلالة فسر منه نجوت ، فأغن عني نفسك .

كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى سعد بن أبي وقاص : أما بعد ، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى ، والذين اتبوا حقه ، واختاروه على غيره ، وقد نصره طلبة والوزير ، وها شريكك في الأمر والشورى ، ونظيرك في الإسلام ، وخفت لك أم المؤمنين ، فلا تكرهن ما رخصوا ، ولا تردن ما قبلوا ، فلما تردعا هوري بين المسلمين .

جواب سعد بن أبي وقاص لمعاوية

قال : وذكروا أن سعداً كتب إليه : أما بعد ، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبها ، غير أن علياً كان من السابقة ، ولم يكن فيما فيه ، فشاركنا في محاسنها ، ولم نشاركه في محاسنها ، وكأنا نحننا كلنا بالخلافة ، ولكن مقادير الله تعالى التي صرحتها عنه ، حيث شاء لهله وقدره . وقد علمنا أنه أحق بها منا ، ولكن لم يكن بد من الكلام في ذلك والشاكر ، فنع ذا . وأما أمرك لمعاوية ، فإنه أمر كرهننا أوله وآخره . وأما طلبة والوزير ، فلوزما بيوتهما لكان خيراً لهما . والله تعالى ينظر لمصلحة أم المؤمنين .

كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري

وكان فارس الأنصاري رضى الله عنهم ، وذا التجدة فهم : أما بعد ، فإن لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ، ولكني أذكرك النعمة التي خرجت منها ، إنك سكنت فارس الأنصار ، وعدة المهاجرين ، فادعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً لم تستطع فيه الإمضاء ، فهذا أعنى ، وعن قتال أهل الصلاة . فهلا نيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً ؟ أو ترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين ؟ وأما قومك الأنصار قد عصوا الله تعالى ، وخذلوا عثمان ، وساطلهم وساطلك الله تعالى عن التي كان يوم القيامة .

جوابه

قال : وذكروا أن محمد بن مسلمة كتب إليه : أما بعد ، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي في يدي ، وقد أخبرت بالذي هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرت سفي ، ولزمت يتيق ، واتهمت الرأي على العيين ، إذ لم يصح لي معروف أمر به ، ولا منكر أنهي عنه ، ولعمري يا معاوية ما طلبت إلا الله نيا ، ولا اتيت إلا الهوى ، ولئن كنت نصرت عثمان ميثاً ، لقد خذله حيا ، ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب .

قال : فلما أجاب القوم معاوية بما أجابوه ، من الخلاف إلى ما دعاهم إليه قال له عمرو : كيف رأيت يا معاوية رأيي ورأيك ، أخبرتك بالأمر قبل أن يقع ، قال معاوية : رجوت ما خفت .

مكتاب معاوية إلى علي رضي الله عنه

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى علي . أما بعد ، فعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، ولكنك أغريت بثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإذا دفعتم كانت هوري بين المسلمين ، وقد كان أهل الحجاز الحكم على الناس وفي أيديهم الحق ، فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام ، ولعمري ما حبتك على أهل الشام كحبتك على أهل البصرة ولا حبتك على طلحة والزبير ، لأن أهل البصرة بايعوك ، ولم يبايعك أحد من أهل الشام ، وإن طلحة والزبير بايعاك ولم يبايعك . وأما فضلك في الإسلام ، وقرابتك من النبي عليه الصلوة والسلام ، فلعمرى ما أذهبه ولا أنكره .

جواب علي إلى معاوية

قالوا : فكتب إليه علي : أما بعد ، فقد جادني منك كتاب امرئ ليس له بصير يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجاب به ، وقاده طغيانه . زعمت أنك إنما أقصد عليك يتيق . خطيبي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالسيف ، وما أمرت قبلي من خطيئة عثمان ، ولا قتلت قبلي من قتال . أما قولك إن أهل الشام هم الحكماء على الناس ، فهات رجلا من قريش الشام قبيل في الشورى ، أو تحمل له الخلافة ، فإن سميت كذا بك

للهاجرون والأنصار ، وإلا أنتك به من قريش الحجاز . وأما قولك نفع إليك قتله عثمان لما أنت وعثمان ؟ إنما أنت رجل من بني أمية ، وبني عثمان أولى بميثان منك ، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل في الطاعة ، ثم حاكم القوم إلى ، وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير ، فلمرى ما الأمر إلا واحد ، إنها يمة عامة ، لا يلتصق عنها البصر ، ولا يستأنف فيها الحيار ، وأما ولوعك بي في أمر عثمان ، فوالله ما قلت ذلك عن حق البيان ولا عن يقين الخبر ، وأما فضلي في الإسلام ، وقرابتي من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وشرقي في قريش ، فلمرى لو استطعت دمه لدفنته .

قدوم عبيد الله بن عمر على معاوية

قال : وذكروا أن عبيد الله بن عمر قدم على معاوية الشام ، فسره سروراً شديداً وسره به أهل الشام ، وكان أحد قريش سروراً به عمرو بن الماس فقال معاوية لعمرو : ما منع عبيد الله أن يكون كعبيد الله ؟ فضحك عمرو ، وقال : هبت غير هيبه ، إنما أناك عبيد الله خافة أن يقتله على يده الهرمزان ، ورأى عبيد الله ألا يكون عليك ولا لك ، ولو كان ممك لتضك أو عليك لتضرك .

تمبئة معاوية أهل الشام لقتال عليّ

قال : وذكروا أن معاوية بحث إلى رؤساء أهل الشام ولجميعهم ثم قال : أتتم أهل الفضل ، فليقم كل رجل منكم بكم ، فقام رجل فقال : أما والله لو شهدنا أمر عثمان ، فصرنا قتلته بأعيانهم لا استعينا عن إخبار الناس ، ولكننا نضيقك على ما غلب منا ، وإن أبغض الناس إلينا من يقال عليّ بن أبي طالب قدمه في الإسلام ، وعلمه بالحرب .

ثم قام حوشب فقال : والله ما إياك نصر ، ولا لك تضب ، ولا عنك نحام ، ما نصر إلا الله : ولا تضب إلا للخليفة ، ولا نحام إلا عن الشام ، فلف الحيل بالحيل ، والرجال بالرجال ، وقد دعونا قومنا إلى ماحوتنا إليه أمس ، وأمرناهم بما أمرتنا به ، فجعلوا يبتنا وبين الله ، ونحن بينك وبينهم ، فرنا بما نحب ، وأنها عما تكره .

قال : فلما عزم معاوية على السير إلى حصين ، كتباً أهل الشام ، فجعل على مقدمته أبا الأعمور

السلامي ، وعلى ساقته بسر بن أرطاة ، وعلى الحليل عبيد الله بن عمر ، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى اللينة يزيد المبيسي ، وعلى الليرة عبد الله بن عمرو ابن العاص ، ثم قال : يا أهل الشام ، إنكم قد سرتهم فتصاوا الشام ، وتأخذوا العراق ، ولعمري ما للشام رجال العراق وأموالها ، ولا لأهل العراق بسر أهل الشام ولا بإسائرهم ، مع أن القوم يبدؤهم غيرهم مثلهم ، وليس بذكر غيركم ، فإن غلبتموهم قلم تغلبوا إلا من قد أناكم ، وإن غلبوكم عاقبوا من بذكركم ، والقوم لا يوالونكم يخالون أهل الحجاز ، وورقة أهل اليمن ، وقسوة أهل مصر ، وكيد أهل العراق ، وإعنا يصير غدا من أبصر اليوم ، فاستعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين .

ثم سار معاوية في ثلاثة آلاف وثمانين ألفاً ، حتى نزل بصقين ، وذلك في نصف حرم ، وسبق إلى سهولة الأرض ، وسعة المناخ ، وقرب الفرات ، وكتب إلى علي يخبره بحسبه .

تميئة أهل العراق للقتال

قال : وذكروا أن علياً لما بلغه تأهب معاوية قال : أيها الناس ، إنما بايع معاوية أهل الشام ، وليس له غيرهم ولي ولا نصير ، وإنكم أهل الحجاز ، وأهل العراق ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وقد جعل القوم معاوية بينهم وبين الله ، وليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد وادع القوم الروم ، فإن غلبتموهم استماتوا بهم ، ولحقوا بأرضهم ، وإن غلبوكم فالنابة للوث ، وللقر إلى الله العزيز الحكيم . وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر ، ولعمري لأتم أولى بذلك منهم ، لأنكم للهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، وإنما الصبر اليوم ، والتصر غداً .

قال : فجد الناس ونشطوا وتأهبوا ، فصار على الناس من الكوفة في مئة ألف وتسعين ألفاً ، فقبل على القسمة الأشتر النخعي ، وعلى ساقته شريح ابن هاني ، وعلى الهاجري والأنصار محمد بن أبي بكر ، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس ، وعلى الكوفة عبد الله بن جعفر ، وعلى جماعة الحليل عمار بن ياسر ، وعلى القلب الحسن بن علي ، وسار على حتى نزل مدائن ، وقد سبقه معاوية إلى سهولة الأرض . وسعة المناخ ، وقرب الفرات .

منع معاوية الماء من أصحاب علي

قال : وذكروا أنه لما نزل معاوية بصفين ، بث أبوا الأعور عن ماله ، ليعرلوا بينهم وبين الفرات ، وأن أهل العراق لما نزلوا بشوا غلظتهم ليستقوا لهم من الفرات ، فحالت خيل معاوية بينهم وبين الماء ، فانصرفوا ، فساروا إلى علي ، فأخبروه فقال علي للأشعث : اذهب إلى معاوية ، قل له : إن الذي جئنا له غير الماء ، ولو سيقناك إليه لم نحل بينك وبينه ، فإن شئت خليت عن الماء ، وإن شئت تاجرنا عليه وتركنا ما جئنا له . فانطلق الأشعث إلى معاوية ، فقال له إنك تمنعنا الماء وإيكم الله لكثرت به ، فرمى بكتفائه عنه قبل أن قلب عليه ، والله لا نموت عطشاً وسيبقنا على رقابنا . فقال معاوية لأصحابه : ما ترون ؟ فقال رجل منهم : نرى أن نقتلهم عطشاً ، كما قتلوا عثمان ظلماً . فقال عمرو بن العاص : لا تظن يا معاوية أن علياً ينظم وأهله الخيل بيده ، وهو ينظر إلى الفرات ، حتى يشرب أو يموت دونه ، خل عن القوم بشربوا . فقال معاوية : هذا والله أول النظر ، لاستقائ الله من حوض الرسول إن شربوا منه ، حتى يثلبوني عليه . فقال عمرو : وهذا أول الجور ، أما تعلم أن فهم البعد والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ لقد شجعت الجبان ، وحملت من لا يريد قتالاً على قتالك .

غلبة أصحاب علي على الماء

قال : وذكروا أن معاوية لما غلب على الماء اغتم علي لما فيه الناس من العطش ، فخرج إلى الناس يشكون بضمهم إلى بعض ، عاقبة أن يثلب أهل الشام على الماء ، فقال الأشعث : يا أمير المؤمنين ، أينما القوم الماء وأنت فينا ومعنا السيوف ؟ خل عنا وعن القوم ، فوالله لا أرجع إليك حتى أريده ، أو أموت دونه ، وأمر الأشعث أن يعلو الفرات في الحيل ، حتى أمره بأمرى . فقال علي : ذلك لك . فانصرف الأشعث ، فنادى في الناس : من كان يريد الماء فيماده الصبح ، فإني ناهض إلى الماء ، فأجابه بشر كثير ، فقدم الأشعث في الرجالة ، والأشعث في الحيل ، حتى وقفا على الفرات ، فلم يزل الأشعث في الرجالة يضيء ، حتى خالط القوم ، ثم حصر عن رأسه ، فنادى : أنا الأشعث بن قيس ، خالوا عن الماء . فقال أبو الأعور : أما والله قبل أن تأخذنا وإياكم السيوف فلا . فقال الأشعث : أعطها والله قد دنت منا ومنكم . قال : وبث الأشعث إلى الأشعث أن أقسم الحيل ، فأقسمها الأشعث ، حتى وضع سناجكها في الفرات ، وحل الأشعث في الرجالة ، فأخذت القوم السيوف فأنكشفت أبو الأعور وأصحابه ، وبث الأشعث إلى علي : هلم يا أمير المؤمنين ، قد غلب الله لك على الماء ، فلما غلب أهل العراق على

للأد ، ضمت حمرو بن الماص بمعاوية ، وقال : يا معاوية ، ما شكك إن منكك على الماء اليوم كما منته أمس ؟ أترك مشاربهم كما خربوك ؟ فقال : دع ما مضى منك فإن علينا لا يستعمل منك ما استعملت منه ، وإن الذي جاء له غير الماء .

دعاء على معاوية إلى البراز

قال : وذكروا أن الناس مكثوا بسنين أربعين ليلة : يحدون إلى القتال وروحون ، فأما القتال الذي كان فيه اللئام ثلاثة أيام . فلما رأى على كثرة القتال والقتل في الناس ، برز يوما من الأيام ومعاوية فوق التل ، فنادى بأعلى صوته : يا معاوية فأجابه فقال : ما تشاء يا أبا الحسن ؟ قال على ، علام يقتل الناس ويحبون ؟ على ملك إن ثلته كان لك دونهم ؟ وإن ثلته أنا كان لي دونهم ؟ ابرز إلى ودع الناس ، فيكون الأمر لمن غلب . قال حمرو بن الماص أنصلك الرجل يا معاوية . فضحك معاوية وقال ، طمعت فيهما يا حمرو ، فقال عمرو ، والله ما أراه يحل بك إلا أن تبارزه . فقال معاوية ، ما أراك إلا مازحا ، نلقاه بجمعنا .

براز حمرو بن الماص لملى

قال : وذكروا أن حمرا قال لمعاوية : أجبني عن حل ، وتهمي في نصيحتي إليك ؟ والله لأبرزنك عليا ولو مت ألف مائة في أول لقاءه . فبارزه حمرو ، فطمع على قصره ، فاضاه جودته فانصرف عنه على ، وولى بوجهه دونه . وكان على رضى الله عنه لم ينظر قط إلى حوزة أحد ، حياء وتكرما ، وتزها عما لا يحل ولا يحمل عليه ، كرم الله وجهه .

قطع لليرة عن أهل الشام

قال : وذكروا أن عليا دعا زحر بن قيس ، فقال له : سر في جنى هذه الخيل إلى التمسقطانة^(١) ، فاقطع لليرة عن معاوية ، ولا تخطل إلا من يحمل لك قتله ، وضع السيف موضعه ، فبلغ ذلك معاوية ، فدعا الضحاك بن قيس ، فأمره أن يلقى زحر بن قيس فيقاتله ، فسار الضحاك فلقى زحر فهزمه ، وقتل من أصحابه ، وقطع لليرة عن أهل الشام ، ورجع الضحاك إلى معاوية منهزما ، فجمع معاوية الناس ، فقال : أتاني خبر من ناحية من نواحي ،

(١) التمسقطانة : بضم التاءين موضع بالكوفة .

أمر حديد ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، ألسنا في شدة مما أتاك ، إنما علينا السمع والطاعة ، وبلغ علينا قول معاوية وقول أهل الشام ، فأراد أن يعلم ما رأى أهل العراق ، فجهمهم ، فقال : أيها الناس إنه أتاني خبر من ناحية من نواحي . فقال ابن الكواء وأصحابه : إن لنا في كل أمر رأيا ، فما أتاك فأطعنا عليه ، حتى نشير عليك . فبكى علي ، ثم قال ظفر والله ابن هند باجتماع أهل الشام له ، واختلافكم علي ، والله لينزلن بطله حركم ، إنما أتاني أن زحر بن قيس ظفر بالصلح ، وقطع لليرة : وأني معاوية هزيمة صاحبه ، فقال : يا أهل الشام ، إنه أتاني أمر حديد ، فقلوه أمرهم ، واخلفتم علي .

فقام قيس بن سعد ، فقال : أما والله لنحن كنا أولى بالتسليم من أهل الشام .

قدوم أبي هريرة وأبي الدرداء على معاوية وعلي

قال : وذكروا أن أبا هريرة وأبا الدرداء قدما على معاوية من حمص ، وهو بسليلين ، فرعظاه وقالاه : يا معاوية ، علام تقابل عليا وهو أحق بهذا الأمر منك في الفشل والسابقة ؟ لأنه رجل من المهاجرين الأولين ، السابقين بإحسان ، وأنت طليق ، وأبوك من الأجرام . أما والله ما قوله لك أن تكون العراق أحب إلينا من الشام ، ولكن البقاء أحب إلينا من الفناء ، والصلاح أحب إلينا من الفساد . فقال معاوية : لست أزعم آني أولى بهذا الأمر من علي ، ولكني أقاتله حتى يدفع إلي قتل عثمان . فقالا : إذا دفعهم إليك ماذا يكون ؟ قال : أكون رجلا من المسلمين . فأبيا عليا ، فإن دفع إليكما قتل عثمان جعلتها غوري . فقدم علي عسكر علي ، فأتابها الأشر ، قال : يا هذيان إنه لم ينزلكما الشام حب معاوية ، وقد زعمنا أنه يطلب قتل عثمان ، فممن أخذنا ذلك قبلناه ؟ أعمى قتل فصدقتموه على الذنب ، كما صدقتموه على القتل ؟ أم عمن نصره ، فلا شهادة لمن جر إلى نفسه ، أم عمن اعتزلوا ، إذ علموا ذنب عثمان وقد علموا ما الحكم في قتل ؟ أم عن معاوية وقد زعم أن عليا قتل ؟ أميا الله ، فإني شهدنا وغبتا ، ونحن الحكم على من غاب . فاضرفا ذلك اليوم ، فلما أصبحنا أيما عليا ، فقال له : إن لك فضلا لا يدفع ، وقد سرت مسيرتي إلى سفيه من السفهاء ، ومعاوية يسألك أن تدفع إليه قتل عثمان ، فإن فلت ثم فأتاك كنا معك . قال علي : أترفانهم ؟ قال : نعم . قال : غفلام ، فأبيا محمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر ، والأشر ، فقالا : أنتم من قتل عثمان وقد أمرنا بأخذكم ، فخرج إليهما أكثر من عشرة آلاف رجل ، فقالوا نحن قتلنا عثمان ، فقالا : نرى أمرا شديدا أليس علينا الرجل . وإن أبا هريرة وأبا الدرداء انصرفا إلى منزلهما بحمص ، فلما قدما حمص اتبعهما عبد الرحمن بن عثمان ، فسألهما عن سيرهما ، فصفا علي

القصة ، قال : السب منك أنسك من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما والله لن
كففت أيديك ما كففت ألسنتك ، أتأتيان علياً وتطلبان إليه فتقتلهما وقد علمتا أن المهاجرين
والأنصار لو حرموا حمى عن نصرته ، وبايوا علياً على قتله ، فهل ضلوا ؟ وأعجب من ذلك
رغبتهما عما صنعوا ، وقولكما : لن نجلها هوى ، وأخطأ من حقت ، وإسكالكما أن
من رضى بلى خير ممن كرهه ، وأن من بايحه خير ممن لم يبايحه ، ثم صرنا رسولاً رجل
من الطلقاء ، لا تحمل له الخلافة ، ففما قوله وقولهما ، فهم معاوية يقتله ، ثم رآب فيه عفرته .

وقوع عمرو بن العاص في حل

وذكروا أن رجلاً من هذيل يقال له برد قدم على معاوية ، فسمع عمرأ يبيع في حل ،
فقال له : يا عمرو ، إن أهلكنا مصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنت مولاه
فضل مولاهم ، فذلك أم باطل ؟ فقال عمرو : حق ، وأنا أريدك أنه ليس أحد من صحابة رسول
الله له مناقب مثل مناقب حل ، فزعم القتي ، فقال عمرو : إنه أقصدها بأمره في عيانه ، فقال
برد : هل أمر أو قتل ؟ قال : لا ، ولكنه آوى ومنع . قال : فهل بايحه الناس عليها ؟ قال :
نعم . قال : فما أخرجك من بيته ؟ قال : انتهى إليه في عيانه . قال له : وأنت أيضاً قد انتهت ،
قال : صدقت فيها خرجت إلى فلسطين ، فزعم القتي إلى قومه فقال : إنا أينما قوماً أخذنا الحبة
عليهم من أفواههم . حل على الحق فابسره .

كتاب معاوية إلى أبي أيوب الأنصاري

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى أبي أيوب الأنصاري ، وكان أحد الأنصار على معاوية :
أما بعد ، فإنني ناسيتك ما لا تنسى الأشياء . فذا قرأ كتابه آتى به علياً ، فأقرأه إليه . قال
حل : يعني بالشياء الرأ الشمطاء لا تنسى لكل ابنها ، فأنا لا أنسى قتل عيانه . فكتب إليه
أبو أيوب : إنه لا تنسى الأشياء لكل ولدها ، وضربتها مثلاً قتل عيانه ، فما نحن وقتك
عيانه ؟ إن الذي ترضى بئانه ، وحبط أهل الشام عن نصرته لأنك ، وإن الذين قتلوه خير
الأنصار ، والسلام .

ما خاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد

قال : وذكروا أن النعمان بن بشير الأنصاري وقف بين المسلمين ، فقال : يا قيس بن سعد ،
أما أنت فمك من دعاكم إلى ماضى نفسه ، إنكم يا مشرك الأنصار أخطأتم في خذل عيانه يوم
الدار ، وقتلكم أنصاره يوم الجبل ، وإصاحكم على أهل الشام بسدين ، فلو كنتم إذ خذلت عيانه
(٧ - الإمارة والسياسة)

خذلتم علياً ، كان هذا بهذا ، ولكنكم خذلتم حقاً ، ونصرتم باطلاً ، ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس ، حتى أشعلتم الحرب ، ودعوتهم إلى البراز ، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم ، غير أنكمس عن حربكم ، ثم لم ينزل بل أمر قط إلا هوتهم عليه للصية ، وودعتموه الظفر ، وقد والله أخلصتموه ، وهان عليكم بأسكم ، وما كنتم لتخلوا به أنفسكم ، من عدتكم في الحرب ، وقدرتكم على عدوك ، وقد أسبجتم أذلاء على أهل الشام ، لا يرون حربكم شيئاً ، وأنتم أكثر منهم عدداً ومدداً ، وقد والله كاثروكم بالقتلة ، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة ؟ والله لا تزالون أذلاء في الحرب بعدها أبداً ، إلا أن يكون معكم أهل الشام ، وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قدر رأيتم ، ونحن أحسن بقية ، وأقرب إلى الظفر ، فاضرو الله في البقية .

فضحك قيس وقال : والله ما كنت أراك يا ثمان تجترى على هذا اللقام ، أما للنصف الحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه ، وأنت والله المنافق لنفسه ، للبطل فيم انتصح غيره ، أما ذكرك عثمان فإن كان الإيماز بكليك غفده ، قتل عثمان من لست خيراً منه ، وخذله من هو خير منك ، وأما أصحاب الجبل فقاتلتهم على الشكت ، وأما معاوية فلو اجتمعت العرب على بيته لقاتلتهم الأنصار ، وأما قولك : إنا لسنا كالناس ، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تنقي السيوف بوجهنا ، والرماح بنصورتنا ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله يوم كربوهن . ولكن انظروا يا ثمان : هل نرى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً ، أو غائباً مستدرجاً ؟ وانظر ابن المهاجرين والأنصار ، والصابون بإحسان ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ؟ ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صومحك ، ولست والله بدريين ، ولا عقبيين^(١) ، ولا لكما سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن .

كتاب عمرو إلى ابن عباس

قال : وذكروا أن معاوية قال لسرو بن الماس : إن رأس أهل العراق مع علي عبد الله ابن عباس ، فلو أقيمت إليه كتاباً ترفق فيه ، فلان قال شيئاً لم يخرج منه علي ، وقد أكتلتنا هذه الحرب ، ولا أرانا نطيق العراق إلا بهلاك الشام . فقال له عمرو : إن ابن عباس لا يرضع ، ولو طمعت فيه طمعت في علي . قال معاوية : على ذلك . فكتب عمرو إلى ابن عباس : أما بعد ،

فإن الذي نحن وأنت فيه ليس أول أمر قاده البلاد ، وساقته العافية ، وإنك رأس هذا الجمع بعد عليٍّ ، فانظرنما بقى بين ماضى ، فوالله ما أبقّت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا . وإعلم أن الشام لا تهلك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعدادنا منكم؟ وما خيركم بعد أعدادكم منا ؟ ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ، ولكننا نقول : ليتنا لم تكن . وإن فينا لمن يكره البقاء كما فيكم ، وإننا هما ثلاثة : أمير مطاع ، أو مأمور مطيع ، أو مشاور مأمون . فأما العاصي السفيه فليس بأهل أن يدعى في تحت أهل الشورى ، ولا خراس أهل التجوى .

جواب عبد الله بن عباس إلى عمرو بن العاص

قال : وذكروا أنه لما انتهى كتاب عمرو إلى ابن عباس ، آتى به إلى علي ، فأقرأه إياه ، فقال علي : قال الله ابن العاص ، أجيء . فكتب إليه : أما بعد ، فإني لأعلم رجلاً أقل حياء منك في الحرب ، إنك مال بك الهوى إلى معاوية ، وبسته دينك بالثمن الأوكس ، ثم خيبت الناس في عشرين ، طمعا في هذا الملك ، فلما ترامينا ، أعظمت الحرب والرماء ، فإعظام أهل الدين ، وأظهرت فيها كراهية أهل الورع ، لارتداد ذلك إلا تعيد الحرب ، وكسر أهل الدين ، فإن كنت تريد الله فنع مصر ، وارجع إلى بيتك ، فإن هذه حرب ليس فيها معاوية كحل ، بدأها على بالحق ، وانتهى فيها إلى العذر ، وبدأها معاوية بالبنى ، وانتهى فيها إلى السرف ، وليس أهل الشام فيها كأهل العراق ، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست أنا وأنت فيها سواء ، أردت الله ، وأنت أردت مصر ، وقد عرفت الشيء الذي بأهلك مني ، ولا أعرف الشيء الذي قربك من معاوية ، فإن ترد شرّاً لا تفتتا به ، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه .

أمر معاوية مروان بحرب الأشتر

قال : وذكروا أن معاوية دعا مروان بن الحكم ، فقال : يا مروان ، إن الأشتر قد غمى ، فاخرج بهنك الخيل ، فقاتله بها غداً . فقال مروان : ادع لهما عمراً ، فإنه شعارك دون دنارك . قال معاوية : وأنت نفسى دون وبرى . قال مروان ، لو كنت كذلك لأخفقت به في السقاء ، وأخفقت بي في الحرمان ، ولكنك أعظيته ما في يدك ، ومنيتى ما في يدى غيرك ، فإن غلبت طاب المقام ، وإن غلبت خف عليك الحرب . قال معاوية : يضى الله عنك ، قال : أما اليوم فلا . فدعا معاوية حمراً ، فأمره بأمره ، فقال : أما والله لئن ضللت لقد قدمتى كافياً ، وأدخلتى ناصحاً ، وقد غمرك القوم في مصر ، فإن كان لا يرضهم إلا أخضعا غلدها ، عليها لعنة الله ، أما والله وإمير

لثومنين إن مروان ياعدك منا وياعدنا منك ، ويأبى الله إلا أن يقرنا إليك .

كتاب معاوية إلى ابن عباس

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : أما بعد ، فإنكم محضين هائم لستم إلى أحد أسرع منكم بالمساءة إلى أنصار عثمان ، فإن يك ذلك لسلطان بن أمية ، فقد ورنها عدى وتيم ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأدالت هذه الحرب بعضنا من بعض ، حتى استوتنا فيها ، فما أطعمكم فيها ، وما أياكم منا أياستنا منكم ، وقد رجونا غير الذى كان ، وخشينا دون ما وقع ، ولستم ملاقينا اليوم بأحد من حذركم أسر ، وقد تمننا بما كان منا الغمام ؛ وقد منتم بما كان منكم العراق ، فاقضوا الله في قريش ، فما بقي من رجلها إلا ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز ، فأما اللذان بالحجاز : فسد ، وعبد الله بن عمر ، وأما اللذان بالشام : فأنا ، وعمر ، وأما اللذان بالعراق : فضلى وأنت . ومن الستة رجلان ناصبان لك ، وآخران واقعان عليك ، وأنت رأس هذا الجمع اليوم وغدا ، ولو باع الناس لك بعد عثمان كنا أسرع إليك منا إلى على .

جوابه

قال : وذكروا أنه لما أتى كتاب معاوية إلى ابن عباس ضحك ، ثم قال : حتى متى يطلب إلى معاوية عقل ؟ وحتى متى أحجم له عما في نفسه ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فقد جاءني كتابك فأما ما ذكرت من سرعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان لسلطان بن أمية ، فظمري لقد أدركت في عثمان حاجتك ، قد استمررت فلم تنصره ، حتى صرت إلى ما صرت إليه ، وبينى وبينك في ذلك ابن عمك ، وأخو عثمان الوليد بن عقبة^(١) ، وأما قولك : إنه لم يبق من رجال قريش غير ستة ، فما أكثر رجلها ، وأحسن جيتها ، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خذلك ، وأما إقرارك إيانا بنى وتيم ، فأبو بكر وعمر كانا خيرا منك ومن عثمان ، كما أن عليا خير منك ، وأما قولك : إننا لن نقاتلك إلا بما قاتلناك به ، فقد بقى لك منا يوم يسلك ما قبله ، وتخاف له ما بعده ، وأما قولك : إنه لو بايعني الناس استقمت قد بايعوا عليا وهو خير منى ، فلم تستم له ، وإن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان في الشورى ، فما أنت الخلافة ؛ وأنت طليق الإسلام ، وابن رأس الأحزاب ، وابن آكلة الأكباد من قتل بدر^(٢)

(١) الوليد بن عقبة أخو عثمان من الرضاع .

(٢) أكلت أمه كبد حمزة عم النبي ﷺ بعد أن قتله وحشي .

خطبة على كرم الله وجهه

قال : وذكروا أن علياً قام خطيباً فقال : أيها الناس ، ألا إن هذا القدر ينزل من السماء كقطر المطر ، على كل نفس بما كسبت من زيادة أو نقصان ، في أهل أو مال ، فمن أصابه ضمان في أهل أو مال فلا يشع نفسه ، ألا وإننا المال حرث الدنيا ، والعسل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوالهم ، وقد دخل في هذا السكر طمع من معاوية ، فضموا عنكم هم الدنيا بفرأقها ، وشدة ما اشتد منها ، يرجاء ما بعدها ، فإن فازتكم أنفسكم إلى غير ذلك فردوها إلى الصبر ، ووطنوها على العزاء ، فوالله إن أرجى ما أرجوه الرزق من الله ، حيث لا يحاسب ، وقد فارقتكم مصقلة بن هيرة ، فأكر الدنيا على الآخرة ، وفارقتكم بشر بن أرطاة فأصبح قبيل الظهر من الدماء ، ملتصق البطن من الليل ، وفارقتكم زيد بن عدى بن حاتم ، فأصبح يسأل الرجة . وإيم الله لوئت رجال مع معاوية أنهم معي ، فباعوا الدنيا بالآخرة ، ولوئت رجال معي أنهم مع معاوية ، فباعوا الآخرة بالدنيا .

قيلوم ابن أبي محجن على معاوية

قال : وذكروا أن عبد الله بن أبي محجن التقى قدام علي معاوية . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أيتها من عند النبي البليان البئيل ابن أبي طالب . فقال معاوية : لله أنت أأعدى ما قلت ؟ أما قولك النبي ، فوالله لو أن السنن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكانها لسان علي ، وأما قولك إنه جبان ، فشككتك أمك ، هل رأيت أحداً قط بارزه إلا قتله ؟ وأما قولك إنه بخيل ، فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبين ، لأعقد تبره قبل تبينه . فقال التقى : خلاص تقائه إن ؟ قال : على دم عيان ، وعلى هذا الحاتم ، الذي من جبهه في يده جادت طيلته ، وأحطم عياله ، وأدخر لأهله . فضحك التقى ثم لحق به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي يدعي بجرعي ، لادنيا أصبت ولا آخرة . فضحك علي ، ثم قال : أنت منها على رأس أمرك ، وإنما يأخذ الله العباد بأحد الأمرين .

رفع أهل الشام للمصاحف

قال : وذكروا أن أهل السكركين باتوا بشدة من الألم ، ونادى على أصحابه ، فأصبحوا على راياتهم ومصافيتهم ، فلما رآهم معاوية وقد برزوا القتال ، قال لمعرو بن العاص : يا معمر ، ألم ترع أنك ماوتت في أمر قط إلا خرجت منه ؟ قال : بلى ، قال : ألا تخرج مما ترى ؟ قال : والله لأدعوتهم إن مشيت إلى أمر أفرق به جمعهم ، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً ، إن أعطوك اختلوا ، وإن منعه اختلوا . قال معاوية : وما ذلك ؟ قال معمر : تأمر بالمصاحف ترفع ثم تدعوم إلى ما فيها ، فوالله لئن قبله لتفرقن عنه جماعته ، ولئن ردته ليكثر أصحابه . فدعا معاوية

بالمصنف ، ثم دعا رجلا من أصحابه يقال له ابن هند ، فشره بين الصفيين ، ثم نادى : الله الله في دمائنا ودمائكم الباقية ، يبتنا وبينكم كتاب الله . فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى على ، فقالوا : قد أعطاك معاوية الحق ، ودعاك إلى كتاب الله ، فاقبل منه . ورض صاحب معاوية المصنف وهو يقول : يبتنا وبينكم هذا للمصنف ، ثم تلا : « ألم تر إلى الذين أتوا نسيا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ، ثم نادى من هاريس من الروم ؟ فقال الأشعث : والله لا تأتي هذه أبدا ، ونرضى بمك ، أو تقاتل معك وتاجبه اشراف أهل اليمن ، وركنوا إلى الصلح ، وكرهوا القتال .

ما تكلم به عبيد الله بن عمرو وأهل العراق

قال : وذكروا أن معاوية دعا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فأمره أن يكلم أهل العراق ، فأقبل عبد الله بن عمرو ، حتى إذا كان بين الصفيين نادى : يا أهل العراق ، أنا عبد الله ابن عمرو بن العاص ، إنه قد كانت يبتنا وبينكم أمور للدين والدنيا ، فلن تلك الدين ، فقد والله أسرفنا وأسرفتم ، وإن تلك الدنيا فقد والله أعلننا وأعزتم ، وقد دعوناكم لأمر لو دعوتونا إليه أجبناكم ، فلن يجمنا وإياكم الرضا ، فذلك من الله ، وإلا فاضتموا هذه العرجة ، لعل الله أن ينص بها الحى ، ويسى بها القتل ، فلن جاء للقد بعد الممالك قليل . فقال على لسمد بن قيس : أجب الرجل ، وقد كان عبد الله بن عمرو قاتل يوم صفين بسيفين ، وكان من حجة أن قال : أمرني رسول الله أن أطيع أبا . فقدم سعد بن قيس ، حتى إذا كان بين الصفيين نادى : يا أهل الشام إنه كانت يبتنا وبينكم أمور حamina فيها على الدين والدنيا ، وقد دعوتونا إلى ما قاتلناكم عليه أس ، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجل منه ، فلن يحكم فيه بما أنزل الله فلا بأس في أيدينا ، وإلا فنحن نحن ، وأتم أتم ، وإن الناس ثاروا إلى على عند كلام عبد الله بن عمرو ، فقالوا : أجب القوم إلى ما دعوك إليه ، فلما دعونا عثان إلى ما دعاك القوم إليه ، فأبى فقاتلناه . فبث على الأشعث إلى أهل الرابت ، يأمرهم أن ينقضوها ويرجعوا إلى رحلم ، حتى يرموا رأيم .

ما خاطب به عتبة بن أبي سفيان الأشعث بن قيس

قال : وذكروا أن معاوية دعا عتبة ، فقال له : ألن إلى الأشعث كلاما ، فإنه إن رضى بالصلح رضى به العامة ، فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفيين نادى الأشعث ، فأناه . فقال عتبة : أيها الرجل ، إن معاوية لو كان لاقيا أحدا غيرك وغير على لتيك ، إنك رأس أهل

المرقي ، وسيد أهل اليمن ، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصبر والعمل ، ولست كأصحابك . أما الأشتر فقتل عثمان ، وأما عدى غفص ، وأما سعد بن قيس فقد علياً دينه ، وأما شريح بن هانئ وزحر بن قيس فلا يبرهان غير الهوى ، وأما أنت فحافيت عن أهل العراق تكرماً ، وحلوت أهل الشام حجة وقد والله بلغنا منك ما أردنا ، وبلغت منا ما أردت ، وإننا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك من تركك علياً ، ولا نصره معاوية ولكننا ندعوك إلى البقية ، التي فيها صلاحك وصلاحنا .

تسلك الأمتثال : يا حبة ، أما قولك إن معاوية لا يلقي إلا علياً ، فلو قضى ما زاد ولا عظم في عيني ، ولا صبرت عنه ، ولئن أحب أن أجمع يهوديين على لأفطن ، وأما قولك : إن رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن ، فلرأس الأمير ، والسيد الطاع ، وهاتان لئي ، وأما ما سلف إلى من عثمان فوالله ما زادني صهره شرفاً ، ولا عمله غنى ، وأما عيك أصحابي ، فإن هذا الأمر لا يقربك مني ، وأما حملاتي عن العراق ، فمن نزل بيتنا حينئذ ، وأما البقية قلنا بأحوج منها إليكم .

كتاب معاوية إلى علي رضي الله عنهما

قال : وذكروا أن علياً أظهر أنه مصيب معاوية لقتال ، فبلغ ذلك معاوية فخرج أهل الشام ، فالكسروا قلبك ، فقال معاوية لعمرو : إنني قد رأيت رأياً ، أن أعيد إلى علي كتاباً أسأله فيه الشام . فضحك عمرو ، ثم قال : أين أنت يا معاوية من خدمة علي ؟ فقال معاوية : ألسنا بنو عبد مناف ؟ فقال : بلى ولكن لهم الثبوة دونكم ، فإن شئت أن تكتب فاكذب . فكتب معاوية إلى علي : أما بعد ، فإنني أهلك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنأ بضنا على بعض ، وإن كنا قد حلينا على عقولنا ، قلنا منها ما نضم به ما مضى ، ونصلح ما بقى ، وقد كنت سألتك ألا يلمني لك طاعة ولا يمة ، فأبيت ذلك على ، فأعطاني الله ما مننت ، وإنني أدعوك إلى ما دعوك إليه أمس ، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا تخاف من الفناء إلا ما أخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، ليس لبضنا على بعض فضل ، إلا فضل لا يستند به عزز ، ولا يسترق به حر .

جوابه

فلما انتهى كتابه إلى علي ، دعا كاتبه عبيد الله بن رافع ، فقال : اكتب أما بعد ، فقد جازني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ ما بلغت لم يجنأ بضنا على بعض ،

وأنا وإياك في غاية لم نبلغها بعد ، وأما طلبك إلى الشام ، فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منتك أمس ، وأما استوائنا في الخوف والرجاء ، فإني لست أمضي على التلك متى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك : إنا بنو عبد مناف فسنكذلك ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كمبد للطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا لهاجر كالطليق ، ولا الحق كالبلبل ، وفي أيدينا فضل النبوة التي قلنا بها العز ، وبنا بها الحر ، والسلام . فلما أتى معاوية الكتاب أقرأه حمراً ، فغضب به عمرو ، ولم يكن أحد أهد تعظيماً لعل من عمرو بن المصم يد يوم مبارزته ، فقال معاوية لعمرو : قد علمت أن إعظامك لعلنا لما فضحك ، قال عمرو لم يتضح امرؤ بارز علياً ، وإنما اتضح من دعاه إلى البراز فلم يجبه .

اختلاف أهل العراق في اللوامة

قال : وذكروا أنه لما عظم الأمر ، واستحر القتال ، قال له رأس من أهل العراق : إن هذه الحرب قد أكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأى للوامة . وقال بعضهم : لا بل قاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أسس ، وكانت الجماعة قد رضيت للوامة ، وجئمت إلى الصلح والسالة . فقام على خطيباً فقال : أيها الناس ، إني لم أزل من أمرى على ما أحب حق قدحكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركتم ، وهي لعدوكم أتهك . وقد كنت بالأسس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منياً ، فليس لي أن أحكم على ما تكرهون .

مارد كردوس بن هاني على علي

قال وذكروا أن كردوس بن هاني قام فقال : أيها الناس ، إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من علي منذ توليناه ، وإن علينا لشديد ، وإن علينا لتأخر ، وإن علينا على بينة من ربه ، وما أجاب القوم إلا إنصافاً ، وكل حق منصف ، فمن سلم له نجا ، ومن خالفه هوى .

ما قال سفيان بن عمار

قال : وذكروا أن سفيان بن عمار قال : أيها الناس إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا ، فقاتلناهم ، وإني دعونا إلى كتاب الله ، فلن ردونا عليهم ، حل لهم منا ما حل لنا منهم ، ولنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله ، وإن علياً ليس بالراجح التأكس ، وهو اليوم على ما كان عليه أسس ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في اللوامة .

ما قال حريث بن جابر

ثم قام حريث بن جابر ، فقال : أيها الناس ، إن علياً لو كان خلواً من هذا الأمر لكان للرجح إليه ، فكيف وهو قائم وسابقه ؟ وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا الأمر الذي دعاهم إليه أمس ، ولو رده عليهم كنتم له أعيب ولا يلحد في هذا الأمر إلا راجع على حقيقه ، أو مستدرج مغرور ، وما يتناوين من طعن علينا إلا السيف .

ما قال خالد بن ممر

ثم قام خالد بن ممر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا والله ما أخرنا هذا للقمام أن يكون أحد أولى به منا ، ولكن قلنا : أحب الأمور إلينا ما كفينا مشوته ، فأما إذا استخينا فلنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاه القوم إليه اليوم ، إن رأيت ذلك ، وإن لم تره فراك أفضل .

ما قال الحصين بن النضر

ثم قام الحصين بن النضر ، وكان أحدث القوم سنّاً ، فقال : أيها الناس ، إنما بنى هذا الدين على التسليم ، فلا تدفعوه بالقياس ، ولا تهجموه بالشبهة ، وإنا والله لو أننا لا قبل من الأمور إلا ما نعرف ، لأصبح الحق في الدنيا قليلاً ، ولو تركنا وما نهوى لأصبح الباطل في أيدينا كثيراً ، وإن لنا راحياً قد سعدنا ورده وسدركه^(١) ، وهو للأموّن على ما قال وفضل ، فإن قال : لا ، قلنا : لا ، وإن قال : نعم ، قلنا : نعم .

ما قال عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حاملاً لعل على البصرة ، وكان له فضل ، فقال : أيها الناس ، اتهموا رأيكم ، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يوم أبي جندل وإنا لقرىب القتال ، إنكاراً لهلج ، حتى ردتا عنه رسول الله ، وإن أهل الشام دعوا إلى كتاب الله اضطراباً ، فأجبنام إليه إعتذاراً ، قلنا والقوم سواء إنا والله ما عدلنا الحى بالحى ، ولا القتل بالقتل ، ولا الشامة بالمرأى ، ولا مملوية بلى ، وإنه لأمر منه غير نافع ، ولمعطائه غير ضار ، وقد كفت البسائر التي كنا

(١) ما يأتي وما يدع .

فأنت أولنا إيماناً ، وآخرنا بنبي الله عهداً ، وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانمنا ، وقد أعطيناك بيتنا ، وشرحت بالطاعة صدورنا ، وتدفقت في جهاد عدوك بصيرتنا ، فأنت الوالي المطاع ، ونحن الرعية الأتباع ، أنت أعلننا برنا وأقربنا بيننا ، وخبرنا في ديننا ، وأعظمنا حقاً فينا ، فمدد رأيك تنجك ، ولستخر الله تعالى في أمرك ، وأعزم عليه برأيك ، فأنت الوالي اللطاع ، قال : فسرّ على كرم الله وجهه بقوله ، وأثنى خيراً .

ثم قام مصعب بن صوحان فقال : يا أمير المؤمنين ، إننا سبقتنا الناس إليك يوم قدم طلحة والزبير عليك ، فدعانا حكيم إلى نصره طاملك عيان بن حنيف فأجبتاه ، قاتل عدوك ، حق أصيب في قوم من بني عبد قيس ، عبدوا الله حتى كانت أكتفهم مثل أكتف الإبل^(١) ، وجباهم مثل ركب المنز^(٢) ، فأسر الحنيّ وسلب القتيل ، فكنا أول قتل وأسير ، ثم رأيت بلادنا بصدين ، وقد كلت البصائر ، وذهب العبر ، وبقي الحق موفوراً ، وأنت بالنز هذا حاجتك ، والأمر إليك ، ما أراك الله لمنا به .

ما قال للزبير بن الجارود

ثم قام للزبير بن الجارود ، فقال يا أمير المؤمنين ، إني أرى أمراً لا يدين له الشام إلا بهلاك العراق ، ولا يدين له العراق إلا بهلاك الشام ، ولقد كنا نرى أن ما زادنا نقصهم ، وما نقصنا أضرهم ، فلذا في ذلك أمران ، فإني رأيت خيرهم فنيانا والله ما يدل^(٣) به الحد ، وردّ به الكلب^(٤) ، وليس لنا معك إيراد ولا صدر^(٥) .

ما قال الأحف بن قيس

ثم قام الأحف بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس بين مانس وواقف ، وقائل وساکت ، وكلّ في موضعه حسن ، وإنه لو نكل الآخر عن الأول لم يقل شيئاً ، إلا أن يقول اليوم ما قد قيل أمس ، ولكنه حق يقضى ، ولم تقابل القوم لنا ولا لك ، إنما قاتلناهم لله ، فإن

-
- (١) خشفة مثل أخفاف الإبل من كثرة العمل .
 - (٢) المراد بتل ركب المنز : أن بها أرباً طاهراً من كثرة السجود .
 - (٣) يدل : يوقف ويصير غير طامع .
 - (٤) الكلب يرده الزجر والضرب .
 - (٥) حل ولا عقد ، أي ليس لنا معك رأى بل الرأي هو رأيك .

حال أمر الله دوتا ودونك فاقبله ، فإنيك أولى بالحق ، وأحقنا بالتوفيق ، ولا أرى إلا القتال .

ما قال عمر بن عطار

ثم قام عمر بن عطار فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية ، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام ، وكان القوم للدين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم ، فوالله ما منعتك ذلك من قتل المحارب ، وعيب الوائف ، فقاتل القوم إنا معك .

ما قال علي رضي الله عنه

ثم قام علي خطيباً ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنه قد بلغ بكم وبدونكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين ، حتى يلتوا منكم ما يلتوا ، وأنا غدا عليهم بنسى بالنداء فأحاكمهم بسبيل هذا إلى الله .

نداء أهل الشام واستغاثتهم علياً رضي الله عنه

قال : فلما بلغ معاوية قول علي دعا عمرو بن الماس ، فقال له : يا عمرو إنما هي اللية ، حتى يندو علينا علي بنفسه ، فما ترى ؟ قال عمرو : إن رجلك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ، أنت تقايله على أمر ، ويقايلك على غيره ، وأنت تريد البقاء ، وعلي يريد القضاء ، وليس يخاف أهل الشام من علي ما يخاف منك أهل العراق وإن هلكوا ، ولكن ادعهم إلى كتاب الله . فإنيك تقضي منه حاجتك ، قبل أن يلشب عليه فيك ، فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوهم ، فنادوا في سواد الليل نداء معه صرلح واستغاثة ، يقولون : يا أبا الحسن من قدر علينا من الروم إن قتلنا ؟ الله الله ، ألياً ، كتاب الله بيننا وبينكم . فأصبحوا وقد رفضوا المصاحف على الرماح ، وقهقروا أعناق الخيل ، والناس على رءسهم قد أصبحوا للقتال .

ما أشار به عدي بن حاتم

فقام عدي بن حاتم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أهل الباطل لا تموت أهل الحق ، وقد جزع القوم حين تأهب للقتال بتسك ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، ناجز القوم .

ما قال الأشتر وأشار به

ثم قام الأشتر فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدينا . إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولكن بحمد الله الخلف لك ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل سيرك ولا نصرتك ، فافرج الحديد بالحديد ، وامتن بالله .

ما قال عمرو بن الحق

ثم قام عمرو بن الحق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدينا ، ولا نصرناك على باطل ، ما أجبناك إلا الله تعالى ، ولا نصرناك إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا لكثرة فيه اللجاج ، وطالت له التبعوى ، وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا ملك رأى .

ما قال الأشعث بن قيس

ثم قام الأشعث بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إننا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولست أدرى كيف يكون غد ؟ وما القوم الذين كلوك بأحمد لأهل العراق مني ، ولا بأوتر لأهل الشام مني ، فأجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الله البغيا .

ما قال عبد الرحمن بن الحارث

ثم قام عبد الرحمن بن الحارث ، فقال : يا أمير المؤمنين ، امض لأمر الله ، ولا يستخفك الذين لا يؤمنون . أحكم بعد حكم ؟ وأمر بعد أمر ؟ مضت دماؤنا ودماؤهم ، ومضى حكم الله علينا وعليهم .

ما رآه على كرم الله وجهه

قال : لما على إلى قوله الأشعث بن قيس وأهل اليمن ، فأمر رجلا يتأدى : إننا قد أجبنا معاوية إلى ما دعانا إليه ، فأرسل معاوية إلى على : إن كتاب الله لا يطلع ، ولكن نبهت رجلا منا ورجلا منكم ، فيحكجان بما فيه . فقال على : قد قبلت ذلك .

ما قال حماد بن ياسر

فلما أظهر على أنه قد قبل ذلك قام حماد بن ياسر فقال : يا أمير المؤمنين ، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية يضاء ، من أثر بها هلك ، ومن أنكرها ملك ، مالك يا أبا الحسن ؟

شككتنا في ديننا ! ورددتنا على أعقابنا بدمعة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أنلا كان هذا قبل
السيف ؟ وقيل طلحة والزبير وعائشة ، قد دعوك إلى ذلك فأبيت ، وزعت ألك أولى بالحق
وأن من خلفنا منهم ضالّ حلال الدم ، وقد حكم الله تعالى في هذا الحال ما قد سمعت ، فإن كان
القوم كفاراً مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى يثبتوا إلى أمر الله ، وإن كانوا
أهل فتنه فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنه ، ويكون الدين كله لله ، والله
ما أسلموا ، ولا أدوا الجزية ، ولا طأوا إلى أمر الله ، ولا طفت الفتنة ، فقال على : والله
إنى لهذا الأمر كاره .

قتل عمار بن ياسر

قال : فلما ردّ على عمار أنه كاره للفتنة ، وأنه ليس من رأيه ، نادى عمار : أيها
الناس هل من رآني إلى الجنة ، فخرج إليه خمس مئة رجل ، منهم أبو الهيثم وخزيمة بن ثابت
ذو الشهادتين ، فاستسقى عمار الماء ، فأناه غلام له بإدائه فيها لبن ، فلما رآه كبر وقال :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « آخر زائدك من الدنيا لبن » ، ثم قال عمار :
اليوم ألقى الأجرة : عمدا وحزبه . ثم حل عمار وأصحابه ، فالتقى عليه رجلا قتلاه ،
وأقبلأ برأسه إلى معاوية يتنازعان فيه ، كل يقول أنا قتله ، فقال لهما عمرو بن الماس : والله
إن تتنازعان إلا في النار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تقتل عماراً الفتنه الباغية »
فقال معاوية : قبحك الله من شيخ لما تزال تنزلق في قورك ، أو نحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين
جاءوا به ، ثم التفت إلى أهل الشام فقال : إنما نحن الفتنه الباغية التي تبغى دم عثمان . فلما
قتل عمار اختلط الناس ، حتى ترك أهل الرايات مرا كرم ، وأقسم أهل الشام ، وذلك من آخر
التهار ، وتفرق الناس عن على ، فقال عدى بن حاتم : والله يا أمير المؤمنين ما أقيمت هذه الوصية
لنا ولا لهم عمدا ، فقاتل حتى يفتح الله تعالى لك ، فإن فينا بقية ، فقال على : ياعدى ، قتل
عمار بن ياسر ؟ قال : نعم ، فبكى على وقال : رحمك الله يا عمار ، استوجب الحياة والرزق
السكريم ، كم تريدون أن يعيش عمار ، وقد نبت على التسعين ؟

هزيمة أهل الشام

ثم أقبل الأشر جريحا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، خيل كخيلى ، ورجال كرجال ، ولنا
الفضل إلى ساعتنا هذه ، قد مكناك الذى كنت فيه ، فإن الناس إنما يطلبونك حيث تركوك .
وإن عليا دعا بفرسه التى كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بيضة رسول الله صلى الله

عليه وسلم الشهاب ، ثم تصب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم السوداء ، ثم نادى : من يبع نفسه اليوم يبع خذاً ، يوم له ما بئس ، وإن عدوك قد قدح كما قدحتم . فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى ثمان عشرة ألفاً وأمامهم سيوفهم على عواتقهم وتقدموا ، فدخل على الناس حملة واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أحمد ، حتى أفضى الأمر إلى مصاورة ، وطل يشرب بسيفه ، ولا يستقبل أحداً إلى ولى عنه . فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه ، فلما وضع رجله في الركاب نظر إلى عمرو بن المص ، فقال له : يا بن المص ، اليوم صبر ، وغدا غر ، قال : صدقت ، فترك الركوب ، وصبر وصبر القوم معه إلى الليل ، فبات الناس يتحارسون ، وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذى فيه البلاء العظيم ، يوم قتل حمير ، وكل يظن أن الدائرة عليه ، وأسرف الفرقان في القتل ، ولم يكن في الإسلام بلاد ولا قتل أعظم منه في تلك الثلاثة الأيام ، وإن علياً نادى بالرحيل في جوف الليل ، فلما سمع معاوية رضى الله عنه رغاء الإبل ، دعا عمرو بن المص ، فقال : ما ترى هاهنا ؟ قال عمرو : أظن الرجل هارباً ، فلما أصبحوا إذا على وأصعابها إلى جانبهم قد خالطوا ، فقال معاوية : كلا ، زعمت يا عمرو أنه هارب ، فضحك وقال : من فلاحه والله ، فزادها يقين معاوية بالهزيمة ، ونادى أهل الشام : كتاب الله بيننا وبينكم ، ويومئذ استبان ذل أهل الشام ، وورقوا المصاحف ، ثم ارتعوا فاعتصموا بجبل منيف ، وصاحوا : لا ترد كتاب الله يا أبا الحسن فإنك أولى به منا ، وأحق من أخذ به .

ما قال الأشعث بن قيس

قال : فأقبل الأشعث بن قيس في أناس كثير من أهل اليمن ، فقالوا لى : لا ترد مادعائك القوم إليه ، قد أنصفتك القوم ، والله لئن لم تقبل هذا منهم لا وفاء مذك ، ولا نرى معك بسهم ولا حير ، ولا تف مذك موتها .

ما قال القراء

قال : فلما سمع على قول الأشعث ورأى حال الناس قبل القضية ، وأجاب إلى الصلح ، وقام إلى على أناس ، وهم القراء منهم عبدالله بن وهب الراسي في أناس كثير قد اختلطوا سيوفهم ، ووضعوا على عواتقهم ، فقالوا لى : اتق الله ، فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا ، لنثنين أنفسنا أو لنثنين عدونا ، أو يبقى إلى أمر الله ، وإننا نراك قد ركبت إلى أمر فيه الفرقة والمصلحة لله ، والعدل في الدنيا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فلنحاكمه إلى الله بسيفنا . حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، للاحكومة الناس .

ما قال عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، فقال : أيها الناس ، اتهموا رأيكم ، فانا والله قد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو رأينا قتالا قاتلنا وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة ، فامس على القضية ، واتهم هذا الصلح .

ما قال الأشتر وقيس بن سعد

قال : فأذكركمها الأشتر وقيس بن سعد وكانا أشد الناس على عليّ فيها قولا ، فكان الدين هموا في الصلح الأشتر بن قيس ، وهدى بن حاتم وشرع بن هاشم ، وعمرو بن الحمق وزحر بن قيس ، ومن أهل الشام زيد بن أسد ، وعمارق بن الحارث ، وحيدة بن مالك . فلما رأى ذلك أبو الأعور قام إلى معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين إن القوم لم يجيئوا إلى ما دعوناهم إليه حق لم يجندوا من ذلك بدأ وإثم إن ينصرفوا العام يعودوا في قابل في سنة يرا فيها الجريح ، ويسى القتل ، وقد أخذت الحرب منا ومنهم ، غير أنهم اختلفوا على عليّ ، ولم يختلف عليك أحد والخلاف أهد من القتل ، نأجز القوم ، فقال بهر بن أرطاة . والله إن الشام خير من العراق لعل ، وما في يدك لك ، وما في يد علي لأصحابه دونه ، فلئن كنت إنما سألت اللدة لإعداد اللدة ، وانتظار للدد ، فتمم ؛ وإن كنت سألتها بنض الحرب ، وبقيت على أهل الشام ، فلا .

ذكر الاتفاق على الصلح وإرسال الحكمين

قال : وذكروا أن معاوية قال لأصحابه حين استقامت اللدة ، ولم يسم الحكمين : من نرون علياً يختار ؟ فأما نحن فصاحبنا عمرو بن العاص . قال حنيفة بن أبي سليمان : أنت أعلم بطل منا . فقال معاوية : إن لعل خمسة رجال من قهاته ، منهم عدى بن حاتم ، وعبد الله بن عباس ، وقيس بن سعد ، وشرع بن هاشم ، والأحنف بن قيس ، وأنا أصعب لك ؛ أما ابن عباس فإنه لا يتقوى عليه ، وأما عدى بن حاتم فيرد عمرا سائلا ، ويسأله مجيبا ، وأما شرع بن هاشم فلا يدع لعمرو حياشا ، وأما الأحنف بن قيس فبديته كرويته ، وأما قيس بن سعد فلو كان من قريش بايته العرب . ومع هذا إن الناس قد ملوا هذه الحرب ، ولم يرضوا إلا رجلا له قسبة ، وكل هؤلاء لا تقبته لهم ، ولكن انظروا أين أنتم من رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تأتمت أهل الشام ، وترضى به أهل العراق ، فقال حنيفة : ذلك أبو موسى الأهمري .

اختلاف أهل الرقاق في الحكمين

قال : وذكروا أن علياً لا استقام رأيهُ على أن يرسل عبيد الله بن عباس مع عمرو بن العاص ، قام إليه الأشعث بن قيس ، وشریح بن هاشم ، وعدى ابن حاتم ، وقيس بن سعد ، ومعه أبو موسى الأشعري ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا أبو موسى الأشعري وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب مغانم أبي بكر ، وعامل عمر بن الخطاب ، وقد عرضنا على القوم ابن عباس فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ضنين في أمرك ، وإيم الله لو لقيت به عمراً لأخذ بصره ، وغم صدوه . ولكن الناس قد رضوا برجل يثق أهل الرقاق وأهل الشام بثقته . فتكلم شبيب بن رسي ، قال إنا والله وإن خفنا على أبي موسى من عمرو مالا يحمله أهل الشام على عمرو من أبي موسى ، قلل ما خفناه لا يضرتنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم ؛ فإن قلت في أبي موسى ضعف فضله ونفاده خير من قوة عمرو وفجوره ، فأخلق به البلاد ، وأضح به العاقبة . ثم تكلم ابن السكوء فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أجبت الله وأجبتك ، ولكنك تقول : الله يبتنا وبينك ، إن كنت تخشى من أبي موسى عجزاً فسر من أرسلت الخائن العاجز ، ولست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد ، أن لا يجعل حقه قيرك ، فيدرك حاجته منك . ثم قال لأبي موسى : أعلم أن معاوية طليق الإسلام ، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة ، فإن صدقت فقد حل خلفه ، وإن كذبتك فقد حرم عليك كلامه ، وإن ادعى أن عمر وعثمان استملاه ، فقد صدق ، استمعه عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطيب من المرض ، يحبه ما يشتهي ، ويوجره^(١) ما يكره ، ثم استمعه عثمان برأى عمر وما أكثر من استعمالهم لم يذبح الخلافة ، ولعلم أن لعمرو مع كل شهيد يسرك خيراً يسوؤك ، ومهما نسيت فلا تلس أن علياً بايه الدين يابصوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها يمة هدى ، وأنه لم يقاتل إلا عاصياً أو ناكثاً . فقال أبو موسى : رحمك الله ، أما والله ما لي إمام غير علي ، وإن لواقف عظماء رأي ، ولرضاء الله تعالى أحب إلي من رضاء الناس ، وما أنا وأنت إلا بالله تعالى .

ما قال أهل الشام لأهل الرقاق

قال : وذكروا أن أهل الشام قالوا لأهل الرقاق : أعطونا رجالاً نمنعهم لكم ، يكونوا شهوداً على ما يقول صاحبنا وصاحبكم ، يبتنا وبينكم صحيفة ، فقال علي : سموا من أحببتكم ،

(١) يوجره : يتيهه ، وللراد هنا يحمله على ما يكره .

فدسوا ابن عباس ، والأشعث بن قيس ، وزيد بن كعب ، وشرح بن هانيه ؛ وعدئ بن حاتم . وحجر بن عدي ، وعبد الله بن الطليل . وسفيان بن ثور ، وعروة بن عامر ، وعبد الله بن حجر ، وخالد بن ممر ؛ وطلب أهل العراق من أهل الشام : عتبة بن أبي سفيان ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وزيد بن أسيد ، وأبا الأعور ، والحسين بن نجر ، وحمزة بن مالك ، وبسر بن أرطاة ، والنسمان بن بشير ، وعمارق بن الحارث .

فلما سمى أهل العراق رجال أهل الشام ، وسمى أهل الشام رجال أهل العراق ، قال معاوية : أين يكون هذان الرجلان ؟ فرضى الناس أن يكونا بدومة الجندل .

ما قال الأحنف بن قيس لمي

قال : فلما لم يبق إلا الكتاب ، قال الأحنف بن قيس لمي : يا أمير المؤمنين إن أبا موسى رجل عافى ، وقومه مع معاوية ، فاجتنبه ، فوالله لا يعمل لك عقدة إلا عقدت لك أحد منها ، فإني قلت : إنني لست من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابت ابن عباس وابشيت معه .

ما قال علي كرم الله وجهه

قال علي : إن الأنصار والقراء أتوني بأبي موسى ، فقالوا : ابت هذا ، فقد رشيتنا ، ولا زيد سواء ، والله بالغ أمره .

الاختلاف في كتابة صحيفة الصالح

قال : فوضع الناس السلاح ، وانتصوا بين المكرين ، فلما جيء بالكتاب قال علي : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تناقش عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، ومعاوية بن أبي سفيان ، فقال معاوية : علام قاتلك إذا كنت أمير المؤمنين ؟ اكتب : علي ابن أبي طالب . فقال الأشعث : اطرح هذا الاسم فإنه لا يضرك ، فضحك علي ، ثم قال : دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، حين صدته للترك من مكة ، فقال : يا علي اكتب : هذا ما تناقش عليه محمد رسول الله ومشركو قريش ، فقال سهيل بن عمرو : قد علمت أنك إذا يا محمد إن قاتلك وأنت رسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : اكتب محمد بن عبد الله ، وإني رسول الله . وكنت إذا أمرني بشيء رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرع ، وإذا قاله مشركو قريش أبطلت به ، وإذا كتبت شيئاً قال

نبي الله ، امها ، فتماطى ذلك . فدعا بعقراض قمرته ، وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما تناهى عليه علي بن أبي طالب ، ومماوية بن أبي سفيان ، فقال أبو الأعور : أو مماوية وعلي ، فقال الأعمش : لا لصر الله ، ولكن نبأ بأولهما إيماناً وهجرة ، وأدناهما من القبيلة . فقال مماوية : قدموا أو أخرؤا ، ففاضوا على أن علياً ومن معه من شيعة من أهل العراق ، ومماوية ومن معه من أهل الشام ، أنا ننزل عند حكم الله وكتابه ، من غابته إلى خاتمة ، ما أحيا القرآن أحيناه ، وما أمات القرآن أماتناه ، وما لم يجد عبد الله بن قيس وعمر بن الناس في القرآن حكماً بما يجدان في السنة للصادقة ، غير للفرقة ، وعلى علي ومماوية ، وبمبعضهما وضع السلاح إلى انقضاء هذه اللفة ، وهي من رمضان إلى رمضان ، وعلى أن عبد الله بن قيس وعمرزأ آمنان على دعائهما وأموالهما وحرعهما والأمة على ذلك أقصار ، وعليهما مثل الذي أخذنا أن يضيا بما في كتاب الله تعالى ، وما لم يجد في كتاب الله ضياء بما يجدان في السنة ، وعليهما أن لا يؤخرأ امرهما عن هذه اللفة ، فإن أحيا أن يقولأ قبل انقضائها ، فلهما أن يقولأ عن تراض منهما ، على أن يرجع أهل الرقاق إلى العراق ، وأهل الشام إلى الشام ، فيكون الاجتماع إلى دومة الجندل ، فإن رضيا أن يجتمعا بغيرهما فلهما ذلك ، ولهما ألا يحضرهما إلا من أحبأ ، ولا يشهدأ إلا من أرادأ ، وهؤلاء الثغر من أهل الرقاق وأهل الشام ضامنون بالوفاء إلى هذه اللفة ، فكتب أهل الرقاق بهذا كتاباً لأهل الشام ، وكتب أهل الشام كتاباً بهذا لأهل العراق ، بخط عمرو بن عبادة كاتب مماوية ، وهدد شهود أهل الشام على أهل العراق ، وهدد شهود أهل العراق على أهل الشام . فلما كتب الكتابان أقبل رجل من بني يشكر ، على فرسه أبلق ، حتى وقف بين الصدين على علي ، فقال : يا علي ، أكره بد إسلام ، وتقتل بد تأكيد ، وردة بد معرفة ؛ أنا من سحيتيسكا برىء ، ونحن أقربها برىء ، ثم حمل على أصحاب مماوية ، فظعن فيهم ، حتى إذا عطش آتى عسكر على ، فاستسقى فسقى ، ثم حمل على عسكر علي ، فظعن فيهم ، حتى إذا عطش آتى عسكر مماوية ، فاستسقى فسقى .

ما وصي به شريح بن هاني* أبا موسى

قال : وذكروا أن شريح بن هاني* أخذ يد أبي موسى فقال : يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ولا تستقال قلته ، ومهما تقل من شيء لك أو عليك ، يثبت حقه ، ويزيل باطله ، إنه لا يقاء لأهل العراق إن ملكها مماوية ، ولا بأس بأهل الشام إن ملكها علي ، فانظر في ذلك نظر من يرف هذا الأبر حقا .

ما وصى به الأخنف بن قيس أباً موسى

قال : ثم جله الأخنف بن قيس ، فأخذ يده ، ثم قال : يا أباً موسى ، اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده ، وإنك إن ضيبت العراق ، فلا عراق لك ، فائق الله ، فإنك تجمع بينك دنيا وأخرى ، وإذا بقيت عمراً غداً فلا تبادره بالسلام ، فليس من أهله ، ولا تصطه يدك ، فبها أمانة ، وإياك أن تصدك على صدر الفرائس ، فلها خدمة ، ولا تلقه إلا وحده ، وإياك أن يكلمك في بيت فيه خنخ يحيا لك فيه رجلاً ، وإن لم يستم لك عمرو على الرضا بلى ، غيره أن يختار أهل العراق من قريش أهل الشام من شاموا ، فليهم أن يولوا الخيار يختاروا من يريدون ، فلنأبى فلتتخر أهل الشام من قريش أهل العراق من شاموا ، فلنأبوا كان الأمر بيننا .

ما قال معاوية لعمرو

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو : إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وأرجو في دفع هذه الحرب خصالاً : قوة لأهل الشام ، ووفرة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، وله على ذلك دين وفضل ، قدعه يقل ، فإذا هو قال فصمت ، واعلم أن حسن الرأي زيادة في العقل ، إن خوفك العراق خوفاً بالشام ، وإن خوفك مصر خوفاً باليمن ، وإن خوفك علياً خوفاً بمعاوية ، وإن أذاك بالجليل ، فأته بالجليل . قال عمرو : يا أمير المؤمنين ، أقلل الاحتام بما قبلي ، وأرج الله تعالى فياً وجهتي له ، إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل في حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرت لأبي موسى ديناً ، وإن الدين منصور ، أرايت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والمهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ فقال معاوية : قل ما تريد وتري . قال : فانصرف عمرو إلى منزله ، فقال لأصحابه : هل ترون ما أراد معاوية من تصيير أبي موسى ؟ قالوا : لا ، قال : عرف آتى خلداه غداً .

ما قال شرحبيل لعمرو

قال : وأتى شرحبيل بن السمط إلى عمرو ، فقال : يا عمرو ، إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يمشك إلا لفتته بك ، واعلم أنك لا تقوى من عجز ، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لساكبك ولك ، فككن عند ظننا بك .

اجتماع أبي موسى وعمرو

قال : وذكروا أن أبا موسى وعمرا لما اجتمعا بدومة الجندل ، وحضرهما من يلبهما من العرب ، ليستمعا قول الرجلين ، فلما اتفقا استقبل عمرو أبا موسى ، فأعطاه يده وضم عمرو أبا موسى إلى صدره ، فقال : يا أخى قبح الله أمرا فرق بيننا ، ثم أقعد أبا موسى على صدر الفرأش ، وأقبل عليه بوجهه ، والناس مجتمعون ، فلم يزالا حتى تفرقا ، ومكثا أياما يلتقيان في أمرهما سرا وجهرا ؛ وأقبل الأشعث بن قيس ، وكان من أحرس الناس على إتمام السلب ، فمر به من الحرب ، فقال : يا هذان ، إنا قد كرهننا هذه الحرب ، فلا ترداها إلينا ، فظنهما مرة الرضاع والقطام ، فحصب به سهم .

ما قال سعيد بن قيس للحككين

قال : فأقبل سعيد بن قيس ، وكان من الصمحاء لمن كرم الله وجهه ، فقال : أيها الرجلان ، إني أراكما قد أبطلتما هذا الأمر حتى أيس القوم منكما ، فإن كنتما اجتمعتما على خير فأظهرناه ، ونسمة ونشهد عليه ، وإن كنتما لم تجتمعا رجعتا إلى الحرب .

ما قال عدي بن حاتم لعمرو

قال : وذكروا أن عدياً قال لعمرو : أما والله يا عمرو إنك لغير مأمون التناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضف ، وما نتظر بالقول منكما إلا أن تقولوا : والله ما لسكنا مع كتاب الله إيراد ولا صدر . فقال أبو موسى : كنوا عنا غزنا إنما قول فيها بلى ، ولنا قول فيها مضى .

ما قال عمرو لأبي موسى

قال : وذكروا أن عمرا غدا على أبي موسى ، فقال : يا أبا موسى ، قد عرفت حال معاوية في قريش ، وشرفته في بني عبد مناف ، وأنه ابن هند ، وابن أبي سفيان ، فما ترى ؟ فقال أبو موسى : أما معاوية فليس بأشرف في قريش من عليّ ، ولو كان هذا الأمر على شرف الجاهلية ، كان أخوال ذى أصبح ، ولكنني أرى وترى ، وبعده أبو موسى ، ثم غدا عليه

عمرو ، قال : يا أبا موسى إن قال قائل : إن معاوية من الطلقاء ، وأبوهم رأس الأحزاب ، لم يبايعه لها جرون والأنصار قد صدق ، وإذا قال إن علياً آوى قتل عثمان ، وقتل أضارته يوم الجمل ، وبرز على أهل الشام صدين قد صدق ، وفيما وفيكم بقية ، وإن عادت الحرب ذهب ما بقي ، فهل لك أن تحملهما جميعاً ، وتجعل الأمر لمبد الله بن عمر ، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ييسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً ، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه ؟ قال أبو موسى : جزاك الله بنصيتك خيراً ، وكان أبو موسى لا يمدد بيد الله بن عمر أحداً ، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، لفضل عبد الله في نفسه ، واقراراً على هذا الأمر ، واجتمع رأيهما على ذلك . عمران عمر اخذ على أبي موسى بالند ، وجهله اليهود ، هل . يا أبا موسى : ما شدتك الله تعالى ، من أحق بهذا الأمر ؟ من أوفى ، أو من غدر ؟ قال أبو موسى : من أوفى . قال عمرو : يا أبا موسى : نددتك الله تعالى : ما تقول في عثمان ؟ قال أبو موسى : قتل مظلوماً . قال عمرو : فما الحكم فيمن قتل ؟ قال أبو موسى : يقتل بكتاب الله تعالى . قال : فمن يقتله ؟ قال : أولياء عثمان . قال : فإن الله يقول في كتابه العزيز : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » . قال : فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان ؟ قال : نعم . قال عمرو للقوم : اشهدوا . قال أبو موسى للقوم : اشهدوا على ما يقول عمرو .

ثم قال أبو موسى لعمر : قم يا عمرو ، قل وصرح بما اجتمع عليه رأيي ورأيك ، وما اتفقنا عليه ، قال عمرو : سبحان الله ! أقوم قبلك وقد قدمك الله قبلي في الإيمان والمجرة ، وأنت وفاد أهل البين إلى رسول الله ، ووافد رسول الله إليهم ؛ وبك هداهم الله ، وعرفهم شرايع دينه ، وسنة نبيه ، وصاحب مقام أبي بكر وعمر ؛ ولكن قم أنت قل ، ثم أقوم فأقول . قام أبو موسى ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وإن لا أهلك ديني بصلاح غيري ، إن هذه الفتنة قد أكلت العرب ، وإن رأيت وعمر أن يتخلع عليا ومعاوية ، ويخبطها لمبد الله بن عمر ، فإنه لم ييسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً ، ثم قام عمرو وقال : أيها الناس ، هذا أبو موسى شيخ للسليين ، وحكم أهل العراق ومن لا يبيع الدين بالدين ، وقد خلع علياً وأنا ألتجئت معاوية . قال أبو موسى : مالك ؟ عليك لعنة الله ! ما أنت إلا كليل الكلب ظله ! قال عمرو : لكلك مثل الحمار يعمل أسفاراً : واخطط اداس ، فقالوا : والله لو اجتمعنا على هذا لمحو لثامنا عما نحن عليه ، وما صلحتك بلازمنا ، وإنما اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولقد كنا ننظر إلى هذا قبل أن يقع ، وما أمات قولكنا حقاً ، ولا أحداً باطلاً . ثم تشاتم أبو موسى وعمر ، ثم انصرف عمرو إلى معاوية ، وطلق

أبو موسى بمكة ، وانصرف القوم إلى علي ، فقال علي : أما والله يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخبرت الرجال ، وجعلت الحكم لله . فقال علي : أما إنني قد أخبركم أن هذا يكون بالأمس ، وجهت أن تبشروا غير أبي موسى ، فأبيت علي ، ولا سبيل إلى حرب القوم حتى تنقضي الليلة ، فصعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : تم يا حسن فتكلم في أمر هذين الرجلين : أبي موسى وعمرو . فقام الحسن ، فتكلم ، فقال : أيها الناس ، قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بشنا ليحكمنا بالقرآن دون الهوى ، فحكمنا بالهوى دون القرآن ، فمن كان هكذا لم يكن حكماً ، ولكنه محكوم عليه ، وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها ليد الله ابن عمر ، فأخطأ في ثلاث خصال : خالف (يعني أبا موسى) آياه عمر ، إذ لم يرضه لها (١) ، ولم يره أهلاً لها ، وكان أبوه أعلم به من غيره ، ولا أدخله في الشورى إلا على أنه لاشيء له فيها ، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى ، فهذه واحدة ، وثانية : لم يجمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يصدقون الإمامة ، ويحكمون على الناس ، وثالثة : لم يستأمر الرجل في نفسه ، ولا علم ما عنده من رد أو قبول . ثم جلس . ثم قال علي ليد الله بن عباس : تم فتكلم . فقام عبد الله بن عباس ، وقال : أيها الناس ، إن الحق أناسا أسايروه بالتوفيق والرضا والناس بين راض به ، وراغب عنه ، وإنما سار أبو موسى يهدي إلى ضلال ، وسار عمرو بضلالة إلى هدى ، فها انتقيا رجح أبو موسى عن هدا ، ومضى عمرو على ضلاله ، فوالله لو كانا حكماً عليه بالقرآن لقد حكما عليه ، ولئن كان حكماً بهواهما على القرآن ، ولئن مسكا بما سارا به لقد سار أبو موسى وعلى إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه . ثم جلس فقال علي ليد الله بن جعفر : تم فتكلم . فقام وقال : أيها الناس هذا أمر كان النظر فيه ليل ، والرضا فيه إلى غيره ، جثم بأبي موسى ، فقلتم قد رضينا هذا ، فترض به ، وإيم الله ما أصابنا بما أصاب الشام ، ولا أفسدنا العراق ولا أمانا حق علي ، ولا أحيانا باطل معاوية ، ولا يذهب الحق قط رأى ، ولا تنفع شيطان ، وإنما ليل اليوم كما كنا أمس عليه . ثم جلس .

كتاب ابن عمر إلى أبي موسى

قال : وذكروا أن عبد الله بن عمر لما بلغه ما كان من رأى أبي موسى ، كتب إليه : أما بعد يا أبا موسى ، فإني كنت قد خربت إلى ما لم تعلم هوأى فيه ، أ كنت تظن أني أبسط يداً إلى أمر نهائى عنه عمر ؟ أو كنت ترى أنهم على حق وهو خير مني ؟ لقد خبتُ إننا

(١) أي لم يرض عمر رضي الله عنه ابنة عبد الله للخلافة ولم يره أهلاً لها .

وخسرت ، وما أنا من المهتدين ، فأغضبت بقولك وفكك عليّ ومعاوية ، ثم أعظم من ذلك خديعة عمرو إبائك ، وأنت حامل القرآن ، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله ، وصاحب مقام أبي بكر وعمر ، قدمك عمرو لقول غادعاً ، حتى خلعت علياً قبل أن تخلع معاوية ، ولمرّ ما يجوز لك عليّ ما جاز لعمرو عليّ معاوية ، ولا ما جاز لنا عليه ، ولقد كرهنّا ما وضيت وأردت ، إن إلحاحكم هو من يحكم بما حكم الله بين الناس ، ولم تبلغ من خطيئتك عنده ما غدير أمرك في خلاف هؤلاء .

فلما أتى أبا موسى كتاب ابن عمر كتب إليه : أما بعد ، فإني والله ما أردت بتوليقي إبائك ويعني لك القربة إليك ، ما أردت بذلك إلا الله عز وجل ، وما تقلدي أمر هذه الأمة غير مستكره ، فإتهم كانوا عليّ مثل حد السيف ، قتلتي إلى سنة عيا ومعات ، إن يصلحوا فهو الذي أردت ، وإلا لم يرجعوا إلى أعظم مما كانوا عليه ، وأما إغضابي عليك علياً ومعاوية ، فقد غضبا عليك قبل ذلك ؟ وأما خديعة عمرو إبائي ، فوالله ما خسر بخديعته علياً ، ولا نعم معاوية ، وقد كان الشرط ما اجتمعتا عليه ، لا ما اختلفنا فيه ، وأما نهّي أهلك ، فوالله لو تم الأمر لأكرهت عليه .

كتاب معاوية إلى أبي موسى

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى أبي موسى بعد الحكومة وهو بمكة : أما بعد ، فأكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام ، فإني خير لك من علي ، والسلام .

جوابه

فكتب إليه أبو موسى : أما بعد ، فإنه لم يكن مني في علي إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أني أردت بما صنعت وجه الله ، وإبراد عمرو بما صنعت ما عندك ، وقد كان بيني وبينه شروط من تراض ، فلما رجع عمرو رجعت ، وأما قولك : إن الحكيم إذا حكما عليّ أمر فليس للحكوم عليه أن يكون بالخيار ، إنما ذلك في الشاة والبعير ، وأما في أمر هذه الأمة فليست تساق إلى ما تكره ، ولن تنهب بين صير عاجز ، ولا كيد كائد ، ولا خديعة طاجر ؟ وأما معاوية إبائي إلى الشام ، فليس لي بدله ولا إشار عن قبر ابن إبراهيم أبي الأنبياء .

كتاب علي إلى أبي موسى

قال: وذكروا أنه لما بلغ علياً كتاب أبي موسى رقى له ، وأحب أن يثبت إليه ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك امرؤ ضلوك الهوى ، واستدرجك الثرور ، فاستقل الله خلقك عثرتك ، فإنه من استقال الله آله ، إن الله يضر ولا ينير ، وأحب عباده إليه التقون ، والسلام .

فلما انتهى كتاب علي إلى أبي موسى م أن يرجع ، ثم قال لأصحابه إن امرؤ غلب على الحياء ، ولا يستطيع هذا الأمر وجل فيه حياء .

جوابه

فكتب أبو موسى إلى علي : أما بعد ، فلو لا أن خشيت أن يقول منع الجواب إلى أعظم حامي نفسك لم أجيبك ، لأنه ليس عند ينعني ، ولا عند ينعني منك ، وأما الزمى مكة ، فإنني أكتسرت إلى أهل الشام ، وانقطعت من أهل العراق ، وأصبحت أقواماً مشغوراً من ذوي ماعظمهم ، وعظموها من حق ماضيتهم ، فألفت بين أظهرهم ، إذ لم يكن لي منكم ولي ولا نصير .

ذكر الخوارج علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

قال : وذكروا أنه لما كان من الحكيم ما كان ، تبيت الخوارج بضوا بضاً ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويؤمنون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آخر عهدهم من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن ضرروهم (١) فإنه إن يضر ويضر في هذه الدنيا ، فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله ، وخلود الجنة ، فأخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بطن هذه اللعان ، منكرين لهذه البدعة الفاسدة ، والأحكام الجائرة .

فقال حرقوس بن زهير : إن الخلق بهذه الدنيا قليل ، وإن العراق لما وعيك ، فلا تدعوك زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلحقكم عن طلب الحق ، وإنكم الظالم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، يا قوم هل رأي ما قد رأيتم ، والحق ما ذكرتم ، قولوا أمركم رجلاً منكم ، فإنه لا بد لكم من حماد وسناد ، ومن راية تحمسون حولها ، وترجعون إليها .

ثم اجتمعوا في منزل زفر بن حسين الطائي ، فقالوا : إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد في تحريم السبيل ، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد » . « وقال نوح لم يحكما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » - فلهذه على أهل دعوتنا أن قد اتبعوا الهوى ، ونبذوا حكم القرآن ، وجاروا في الحكم والعسل ، وأن جهادهم على المؤمنين فرض ، وأقسم بالله ممنه له الوجوه ، وتخشع دونه الأيسار ، لو لم يكن أحد على تشيير للنكر ، وقتال القاسطين مساعداً ، فقاتلهم وحدي فرداً ، حتى ألقى الله ربي ، فيرى أنى قد غرت ^(١) إرادة رضوانه بلساني ، يا إخواننا، اضربوا جباههم ووجوههم بالسيف ، حتى يطاع الرحمن عز وجل ، فإن يطع الله كما أردتم أنابكم ثواب الطيعين له ، الأمرين بأمره ، وإن تلتزم فأي شيء أعظم من السير إلى رضوان الله وجهته . وأعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإقصاء حكم الضلالة ، فخرجوا بنا إلى بلد تمتد ^(٢) فيه الاجتاع من مكاننا هذا ، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم ، وأنتم أهل الحق بين الخلق ، إذ قلتم بالحق ، وصممتم قول الصدق ، فخرجوا بنا إلى الدائن نسكنها فتأخذ بأبرارها ، ونخرج منها سكانها ، ونبت إلى إخواننا من أهل البصرة ، فيقدمون علينا .

فقال زيد بن حسين الطائي : إن الدائن بهاقوم يتعنونكم منها ، ويعنونها منكم ، ولكن اكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأعلموهم بخروجكم ، وسيروا أنهم على الدائن ، فأنزلوا بجسر الثبروان ^(٣) قالوا : هذا هو الرأي فاجتمعوا على ذلك ، وكتبوا إلى إخوانهم من أهل البصرة : أما بعد ، فإن أهل دعوتنا حكموا الرجال في أمر الله ، ورووا بحكم القاسطين على عباده ، غفلانهم وناذنانهم ، تريد بذلك الوسيلة إلى الله ، وقد تعدوا بجسر الثبروان وأحييند إعلامكم لتأخذوا بنصيركم من الأجر ، والسلام .

الجواب

فكتبوا إليهم : أما بعد ، قد بلغنا كتابكم ، وفهمناه ذكرتم . وقد وهبنا لكم الرأي الذي جمعكم الله عليه من الطاعة ، وإخلاص الحكم ، وأعمالكم أنفسكم فيما يجمع الله به كلحكم ، وقد أجمعنا على السير إليكم حاجلاً .

(١) يريد قد غرت النكر رغبة في رضوانه تعالى وهذا التشيير بلساني لأنى لم أقدر على تشييره يئس .

(٢) تمتد فيه الاجتاع : تتواعد على الاجتاع فيه .

(٣) الثبروان ثلاث قرى بين واسط وبغداد .

وكان بدء خروجهم أنهم اجتمعوا في منزل حرقوس بن زهير ليلته الخميس ، فقالوا : متى أنتم خارجون ؟ قالوا : الليلة القابلة من يوم الجمعة ، فقال لهم حرقوس : بل اقموا ليلة الجمعة تعبدوا ربكم ، وأوصوا فيها بوصاياكم ، ثم اخرجوا ليلة السبت متى ووجدنا لا يضر بكم .

خطبة على كرم الله وجهه

قالوا : فلما خرج جميع الخوارج ، وتوافروا إلى الثبروان ، قام على بالكوفة على النبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن مصيبة العالم اتصاح تورث الحسرة ، وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين ، وفي هذه الحكومة بأمرى ، فأبينم إلا ما أردتم ، فأحببنا ما أمات القرآن ، وأمانا ما أحيا القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، يحكم بشير حجة ، ولا سنة ظاهرة ، واختلنا في أمرهما وحكمهما ، فكللنا لم يرشد الله ، فبرئهم الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين ، فاستمدوا للجهاد ، وتأهبوا للسير ، ثم أصبحوا إلى مسكرهم يوم الاثنين بالتيبة^(١) ، وإنما حكمنا من حكمنا ، ليحكمنا بالكتاب ، فقد علمتم أنهما حكما بشير الكتاب ، وبشير السنة ، والله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيري لجاهدتهم ، وأعطى الناس السطاء وهم بالجهاد .

كتاب على كرم الله وجهه للخوارج

قالوا : فأجمع رأي على والناس على السير إلى معاوية بصفين ، فجهز معاوية وخرج حتى نزل بصفين ، وأصبح على قد تجهز وعسكر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه قد افرقت منا فرقة ، فذهبت ؟ قال : فكتب إليهم على : أما بعد ، فإن هذين الرجلين الخاطئين الخاكئين ، الذين ارتضيتهم حكيم ، قد خالفنا كتاب الله ، واتبعوا هواهما بشير هدى من الله ، فلم يعملوا بالسنة ، ولم ينفذوا القرآن حكما ، فبرئهم الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين ، إذا بلغكم كتابنا هذا فأتواوا إلينا ، فإننا سائررون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الذي كنا عليه ، والسلام . قال : فكتبوا إليه : أما بعد فإنك لم ترضب الله ، إنما غضبت لنفسك ، والله لا يهدى كيد الخاطئين . قال : فلما رأي على كتابهم أيس منهم ، ورأى أن يدهمهم ، وبغى بالناس إلى معاوية وأهل الشام فيناجزهم قتال على خطيأ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن

(١) التبيبة : موضع بالمرق قال فيه الإمام على الخوارج .

عن ترك الجهاد وداعن في أمر الله كان على شفا حلكة ، إلا أن يدركه الله برحمته ، فأتوا
الله عباد الله ، فأتوا من حاد الله ، وحاول أن يعطي نور الله ، فأتوا الخاطئين ، القاطنين
لأولياء الله ، المحرفين لمرين الله ، الذين ليسوا بقرء الكتاب ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء
بالتأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في دين ، ولا ساجدة في الإسلام ، ووالله لو وكوا عليكم لسموا
فيكم بعمل كسرى وقيصر . فسيروا وتأهبوا للقتال ، وقد بعثت لآل نوح : كم من أهل البصرة ،
ليقدموا عليكم فإذا قدموا واجتمعتم فخصنا إن شاء الله .

كتاب علي إلى ابن عباس

قالوا : وكان علي قد كتب إلى ابن عباس وإلى أهل البصرة : أما بعد ، فلما أجمعنا على
السير إلى مدونا من أهل الشام ، فأخصص إلى من قبلك من الناس ، وأقم حتى أتيتك ،
والسلام .

ما قال ابن عباس إلى أهل البصرة

فلما قدم كتاب علي إلى ابن عباس ، قرأه على الناس ، ثم أمرهم بالخصوص مع الأحنف
ابن قيس ، ففخص معه منهم ألف وخمسة رجل ، فاستقامهم ابن عباس ، فقام خطيباً ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل البصرة ، قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني
بإيهاضكم ، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس ، فلم يخصص إليكم منكم إلا ألف وخمسة
وأتم في الله يومان ستون ألفاً سوى أنا أنكم وعبدانكم ومواليكم . ألا فأتروا ، ولا يحمل
لمرؤ على نفسه سيلاً ، فإني موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته ، حاصياً لإمامه ، حزناً
يقب ندماً ، وقد أمرت أبا الأسود بمحشدكم ، فلا يلم امرؤ جمل السيل على نفسه إلا نفسه .

ما قال علي كرم الله وجهه لأهل الكوفة

قال : لحشد أبو الأسود الناس بالبصرة ، فاجتمع عليه ألف وسبع مئة فأقبل هو والأحنف
ابن قيس ، حتى وافيا علياً بالنتيجة ، فلما رأى علي أنه إنما قسم عليه من أهل البصرة ثلاثة
آلاف ومائة رجل ، جمع إليه رؤساء الناس وأمرأه الأجناد ووجوه القبائل ، فحمد الله وأثنى
عليه ، ثم قال : يا أهل الكوفة أنتم إخواني وأصاري وأعوان على الحق ، وجميعي إلى جهاد
المخلين ، بك أضر بالدبر ، وأرجو إعلاء طاعة للقبل ، وقد بعثت إلى أهل البصرة ، فاستنصرتهم ،

فلم يأتي منهم غير ثلاثة آلاف وميتين ، فأعينوني بتناحية صحة ، خلية من النش ، وإني أصرم أن يكتب لي رئيس كل قوم منكم ما في عشيرته من اللقاة ، وأبائهم الذين أدركوا القتال . والبدان والوالى ، وارضوا ذلك إلى تنظر فيه إن شاء الله . فقام سعد بن قيس الحمداى ، قال : يا أمير المؤمنين سمعنا وطاعة ، ووداً ونصيحة ، أنا أول الناس ، وأول من أجابك بما سألت وطلبت . ثم قام عدى بن حاتم وسحر بن عدى وأشرف القبائل ، قالوا : نحن كذلك ، ثم كتبوا ورضوا إلى حى ، فكان جميع ما رضىوا إليه أربعين ألف مقاتل ، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ، وثمانية آلاف من عيدهم ومواليهم ، وكانت العرب يومئذ سبعة وخمسين ألفاً من أهل الكوفة ، ومن ماليتهم ومواليهم ثمانية آلاف ، ومن أهل البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل . فقام حى فيهم خطيباً ، فقال : أما بعد ، فقد بلغتني قولكم : لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التي خرجت علينا ، فيبدأنا بهم ، إلا أن غير هذه الخارجة أهم حى أمير المؤمنين ، سيدوا إلى قوم يقاتلونكم كما يكرهون في الأرض جبارين ملوكاً ، ويتخذهم للمؤمنين أرباباً ، ويتخذون عباد الله خولاً ، ودعوا ذكر الخوارج . قال : فنادى الناس من كل جانب : سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ، فتحن حزبك وأفسارك ، فنادى من عاداك ، ونشاع من أناب إليك وإلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك ، كاتماً من كان ، فإنك لن تؤذى من فقه ولا ضف ، فإن قلوب شيعتك كقلب رجل واحد في الاجتماع حى نصرتك ، والجد في جهاد عدوك ، فأبش يا أمير المؤمنين بالنصر . واشخص إلى أمى الفريقين أحببت ، فإننا شيعتك التي ترجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب من الله ، تخلف من الله في خذلانك ، والتخلف عنك شديد الوبال .

ما قال حى بكرم الله وجهه في الخشمى

فبأيوه حى التسليم والرضا ، وشرط عليهم كتاب الله سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل من خشم ، فقال له الإمام حى : بأيع حى كتاب الله سنة نبيه ، قال : لا ، ولكن بأيعك حى كتاب الله سنة نبيه سنة أبى بكر وعمر . فقال حى : وما يدخل سنة أبى بكر وعمر مع كتاب الله سنة نبيه ؟ إنما كانا عاملين بالحق حيث عملا ، فأبى الخصمى إلا سنة أبى بكر وعمر ، وأبى حى أن يبايه إلا على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،

فقال له حيث ألق عليه : تباع ؟ قال : لا ، إلا على ما ذكرت لك ، قال له على :
أما والله لكأنى بك قد نثرت في هذه الفتنة ، وكأنى بموافر خيلي قد شدت وجهك ،
فلحق بالخورج ، فقتل يوم التروان . قال قبيصة : فرأيت يوم التروان تلياً ، قد
وطأت الخيل وجهه ، وعدت رأسه ، ومثلت به ، فذكرت قول علي : قلت لله در
أبي الحسن ! ما حرك شفتيه قط بشيء إلا كان كذلك .

إجماع على الذهاب إلى صفين

فأجمع على والتاس على السير إلى صفين ، وتجهز معاوية حتى نزل صفين ، فلما خرج
على بالناس عبر الجسر ، ثم مضى حتى نزل دير أبي موسى ، على شاطئ الفرات ، ثم أخذ
على الأنبار . وإن الخارجة التي خرجت على علي بن أبي طالب يسبيون ، فلذا لم ير رجل يسوق
إمرأته على سحار له ، ضربوا إليه الفرات ، فقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا رجل
مؤمن ، قالوا : فما تقول في علي بن أبي طالب ؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين ،
وأول السليين إماماً بالله ورسوله قالوا : فما اسمك ؟ قال : أنا عبد الله بن حبيب الأكرت ،
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أفزعناك ؟ قال : نعم ، قالوا :
لا روع عليك ، حدثنا عن أبيك بحديث سمع من رسول الله ، لعل الله أن ينقنا به ،
قال : نعم ، حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ستكون فتنة بسدي ،
يموت فيها قلب الرجل كما يموت يده ، يمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً : فقالوا : لهذا
الحديث سألتك ، والله لنقتلك فتنة ما قتلناها أحداً . فأخضوه وكنتموه ، ثم أقبلوا به
وبإمرأته وهي حبل مسموم^(١) ، حتى نزلوا تحت نخل ، فسقطت رطبة منها ، فأخذها بعضهم
فقتلها في فيه ، فقال له أحدم بنير حل ، أو بنير نمن أكلتها ، فألقاها من فيه ، ثم
اخرط بعضهم سيده فضرب به خنزيراً لأهل الأمة ، فقتله ، قال له بعض أصحابه : إن هذا
من الفساد في الأرض ، فلقى الرجل صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره ، فلما رأى منهم
عبد الله بن حبيب ذلك ، قال : لئن كنتم صادقين فما أرى ، ما على منكم بأس ، ووالله
ما أحدثت حدثاً في الإسلام ، وإنى لمؤمن ، وقد امتتموني ، وقلتم لا روع عليك
بجاهوا به وبإمرأته ، فأضجوه على شفير النهر ، على ذلك الخنزير ، فذبحوه فسأل منه
في الماء ، ثم أقبلوا إلى إمرأته ، فقالت : إنا أنا امرأة ، أما تتقون الله ؟ قال :

(١) تم : أي أمت أشهرها وفاربت الولادة .

فخبروا بطنها ، وقتلوا ثلاثة نساء ، فبهم أم ستان قد صحت النبي عليه الصلاة والسلام . فبلغ علماً خبرهم ، فبعث إليهم الحارث بن مرة ؛ لينظر فيما بلغه من قتل عبد الله بن خباب والنسوة ، ويكتب إليه بالأمر ، فلما انتهى إليهم ليسانهم ، خرجوا إليه يقتلوه ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، دمع هؤلاء القوم وراءنا يحفظونا في عيالنا وأموالنا ، سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدونا من أهل الشام .

مسير على إلى الخوارج وما قال لهم

قال : فسار على ومن معه حتى نزلوا المدائن ، ثم خرج حتى أتى التبروان فبعث إليهم : أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم يقتلهم بهم ، ثم أنا أفرقكم ، واكتب عنكم ، حتى ألقى أهل الشام ، فبشوا إليه : إنا كنا قتلناهم ، وكلنا مستعمل لفسادكم ودمائهم . ثم أتاهم على ، فوقف عليهم ، فقال : أيها الصابة ، إني نذير لكم أن تصبوا تلنسكم الأمة غداً ، وأنتم صرعي يئزاه هذا النهر ، بغير برهان ، ولا سنة ؛ ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم لما مكيدة ، وأنأيكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإني أعرف بهم منكم ، قد عرفتهم أطفالاً ، وعرفتهم رجلاً ، لهم شر رجال ، وشر أطفال ، وهم أهل المكر والقدور ، وإنكم إن فارقتموني ورأي ، جانبهم الخير والحزم ، فصيتموني وأكرهتموني ، حتى حكمت ، فلما أن فلت شرطت واستوثقت ، وأخذت على الحكيم أن يحيا ما أحيا القرآن ، وأن يمينا ما أمان القرآن ، فاختلعا ، وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالمعوى ، فبذا أمرهم ، ونحن على أمرنا الأول ، لما نؤمكم ومن أين أتيتهم ؟ قالوا له : إنا حيث حكنا الرجلين أخطأنا بذلك ، وكنا كافرين ، وقد تبنا من ذلك ، فإن شهدنا على نفسك بالكفر ، وبنت كما تبنا وأشهدنا ، فمن مملك ومنك ، وإلا فاعترنا ، وإن أبيت فمنن منا بنوك على سواء . فقال على : أهد إيماني بالله ، وهجرتي وجهادي مع رسول الله ، أبوء^(١) وأشهد على نفسي بالكفر ؛ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . وبمكم أجم استعالم قتالنا ، والخروج من جامعنا ؛ لأن اختار الناس رجلين ، فقالوا لها : انظرا بالحق فيما يصلح العامة ليحزل رجل ، ويوضع آخر مكانه . أصل لكم أن تضموا سيوفكم على عواتقكم ، تضربون بها هامات الناس ، وتصفكون دماهم ؛ إن هذا هو الحسبان المبين . قال : فتنادوا لا نخطبهم ولا نكلمهم ، تهيئوا لقاء الحرب ، الرواح الرواح إلى الجنة .

(١) أبوء : أعود وأرجع .

قتل الخوارج

قال : فرجع على ، فبأ أصحابه فجعل على المينة حبر بن عدي ، وعلى الميرة شيث بن ربي ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري ، وعلى الرجال أبا قتادة ، وعلى أهل المدينة وهم ثمان مئة رجلاً من الصحابة قيس بن سعد بن عباد ، ووقف على في القلب في مضر . قال : ثم رفع لهم راية أمان مع أبي أيوب الأنصاري ، فناداهم أبو أيوب : من جاء منكم إلى هذه الريبة فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف إلى العراق ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، فإنه لا حاجة لنا في سلك دماكم . قال : وقدم الخيل دون الرجال ، وصف الناس صدين وراء الخيل ، وصف الرماة صفاً أمام صف ، وقال لأصحابه : كفوا عنهم حتى يدهوكم . قال : وأقبلت الخوارج حتى إذا دنوا من الناس نادوا : لا حكم إلا لله ، ثم نادوا : الروح الروح إلى الجنة . قال : وشدوا على أصحاب على شدة رجل واحد ، والخيل أمام الرجال ، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل ، فظعدوا .

قال التلميذ : لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز انتفتح المطر بفرثها ، ثم عطلت الخيل عليهم من المينة والميرة ، ونهض على في القلب بالسيف والرماح ، فلا والله ما لبثوا فواقاً^(١) حتى صرعهم الله ، كأنما قيل لهم موتوا لهانوا . قال : وأخذ على ما كان في عسكرهم من كل شيء ، فأما السلاح والدواب فقسمة على بيتنا ؛ وأما المتاع والبيد والإماء فإنه حين قدم الكوفة رده على أهلها

قال : ولما أراد على الانصراف من الثروان ، قام خطيباً ، فحمد الله ثم قال : أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى مساوية وأشياعه القاسطين^(٢) ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما شروا^(٣) به أنفسهم لو كانوا يعلمون . فقالوا : يا أمير المؤمنين تعدت بنا ،

(١) الفواق : مقدار حلب الناقة ، أو البقرة ، أو نحوها .

(٢) القاسطون : الجائرلون الخارجون على الحق .

(٣) شروا به أنفسهم : باعوا به أنفسهم ، وشروا ثأني بمعنى باع بمعنى اشترى ومن مجيهاً بمعنى باع قوله تعالى «وليس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون» ومن مجيهاً بمعنى اشترى قول عترة العبيس : حسانى كان دلال المناسيا ففاض غمارها وشروى وباعها

فشرى في البيت بمعنى اشترى

وكلت أذرعنا ، وتقطعت سيوفنا ، ونسلت^(١) أسنة رماحنا ، فارجع بنا نحن هدتنا ،
ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة ، فإن ذلك أقوى لنا على عدونا . فأقبل على الناس
حتى نزل بالخنبة ، فسكربها ، وأمر الناس أن يلزموا معه عسكرهم ، ويوطنوا أنفسهم
على الجهاد ، وأن يقلعوا من زيارة آبائهم ونسائهم ، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام ،
فأقاموا معه أياماً ، ثم رجعوا يتسلطون ويدخلون الكوفة ، ويتكفون بنسائهم وأبنائهم
ولدايتهم ، حتى تركوا علياً وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، وتترك
العسكر خالياً .

خطبة على كرم الله وجهه

قال : قدام على الثبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، استعدوا
للسير إلى عدو في جهاد القربة إلى الله ، وذرك الوسيعة عنده ، فأعدوا له ما استطعتم
من قوة ، ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى به وكيلًا ، ثم تركهم أياماً ،
ودعا رؤسائهم ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذي يطمحون ؟ فنهى القتل ، ومنهم
الشكره ، وأقلمهم من نسط ، فقال لهم على : عباد الله ، ما لكم إذا أمرتكم أن تتروا
في سبيل الله تأتلفم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ، ورضيتم بالقل
والهوان من العز خلا ، كما ناذيكم إلى الجهاد دلت أعينكم ، كأنكم من الموت في حيرة ،
وكانت قلوبكم قاسية ، فأنتم لا تموتون ، وكان أبصاركم كعمى^(٢) ، فأنتم لا تبصرون ،
فله أنتم ، ما أنتم إلا أسود وواحة^(٣) ، وثقاب روضة عند الناس ، تكادون ولا تكيدون ،
ومتنعس أطرافكم فلا تحلدون ، وأنتم في خفة ساهون : إن أبا الحرب اليقظان . أما بعد :
فإن لي عليكم حقا ، ولكم على حق ، أما حقي على : فالنصيحة في ذات الله ، وتوفير
فيحكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيلا تموتوا ؛ وأما حقى عليكم : فالوفاء
بالبينة ، والنصح لى في الإجابة حين أدهركم ، والطاعة حين أمركم ، فإن يد الله بكم خير
تزعروا عما أكره ، وترجعوا إلى ما أحب ، تناولوا بذلك ما تحبون ، وتتركوا ما تأفكون .

(١) نسلت أسنة رماحنا . خرجت من الرماح فأصبحت رماحنا خشباً بلا أسلحة .

(٢) كه : إجماع أكره ، وهو الذى وله بدون عيتين ، ومن ذلك قوله تعالى (وتبرئ
الأكه والأبرص باذنى) .

(٣) روضة : خزانة جمع رواع وهو هديد الروع وهو الخوف .

أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . كلامكم يوهى الصم ^(١) ، وفلكم يطعم فيكم عدوكم ، إذا أمرتكم بالسعي قلتم كيت وكيت ، أعاليل ^(٢) بأضاليل ، هيئات ، لا يدرك الحق إلا بالجد والصبر ، أى دار بعد داركم تمنون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المرور والله من ضررته ، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب ^(٣) ، أصبغت لا أطمع فى نصرتكم ، ولا أصدق قولكم ، فرق الله بيني وبينكم ، وأعقبى بكم من هو خير لى ، وأعقبكم بعدى من هو شر لكم منى ، أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً . وسيفاً قاتلاً . وأثرة يتغنفا الظالمون بعدى عليكم سنة . تهرق جماعتكم . ويكسى عيونكم . وتدخل الفقر بيوتكم . تمنون والله عندها أن لو أيسموني ونصرتوني . وستمرفون ما أقول لكم مما قليل . استغفركم فلم تغفروا . ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأصحتكم فلم تشعروا ، فأتمت شهود كآغياب ، وصم ذوو أسماع ، أفلو عليكم الحكمة ، وأعظمكم بالموعظة النافذة ، وأحسكم على جهاد الملين ^(٤) ، الظلة الباغين ، لما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين ، إذا تركتكم عدتم إلى جمالك حلقاً عزين ^(٥) ، تضربون الأمثال ، وتتناعدون الأفعار ، تربت أيديكم ، وقد نسيت الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارعة عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل ، وبهمكم اغفروا عدوكم قبل أن ينزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى حر دارهم إلا ذلوا ، وإيم الله ما أظنكم تملكون حتى يعمل بكم ! وإيم الله لو ددت أنى قد رأيتم فلقيت الله على نيقى وبصري ، فاسترحتم من مقاساتكم ومداراتكم ، وبهمكم ! ما أنتم إلا كليل جاهلة ضل عنها رعاؤها ^(٦) ، فسكلما ضمت من جانب ، انتشرت من جانب ، والله لكأنى أنظر إليكم وقد حمى الوطيس ، قد انترجم عن على انتراج الرأس ، وانتراج المرأة عن قبلها .

فقام إليه الأشعث بن قيس الكندى ، فقال : يا أمير المؤمنين فهلا ضلت كما فعل عثمان ؟

-
- (١) الصم : جمع أصم : وللراد الجبال الصم وهي الشديدة الصلابة ، ويوهى يضف .
 (٢) أعاليل : مملات ، بأضاليل ، بأسباب زائفة خائفة .
 (٣) السهم الأخيب . أى السهم الذى لا يصيب مرماه .
 (٤) الملين : الذين أحلوا أنفسهم من يمة الإمام على بند أن وجب عليهم ولؤمتهم .
 (٥) عزين : جمع عزة وهي الجماعة والفرقة ، والحلق جمع حلقة وهي الجماعة المستديرة كالحلقة .
 (٦) رعاؤها : جمع راع : أى رعاتها .

قال له عليّ : وبك وما لعل عثمان ، رأيتني عائداً بالله من شر ما أقول ، والله إن الذي قتل عثمان لخرقة على من لا دين له ، ولا حبة منه ، فكيف وأنا على بينة من ربي ، والحق معي ، والله إن امرأ أمكن عدوه من نفسه ، قهره عظمه ، وسفك دمه ، لعظيم هيزه ، ضعيف قلبه . أنت وابن قيس فكأن ذلك ، فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرباً بالشرقي^(١) ، يطير له فراش^(٢) الرأس ، وتطيح منه الأكف والمامم ، وتجذب به التلاصم^(٣) ويمنل الله جد ذلك ما يشاء . والله يا أهل العراق ، ما أظن هؤلاء القوم من أهل الشام إلا ظاهرين عليكم ؛ فقالوا : أبطل قولك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ، والذي فلق الحبة ، وبرأ اللسمة ، إني أرى أمورهم قد علت ، وأرى أموركم قد خبت^(٤) ، وأراهم جادين في باطلهم ، وأراكم واثقين في حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرقين ، وأراهم لصاحبيهم معاوية مطيعين ، وأراكم لي عاصين . أما والله لئن ظهروا عليكم بسدى لتجدتهم أرباب سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوك في بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأنني أنظر إليكم تكشون كعشي^(٥) الضباب ، لا تأخذون له حقاً ، ولا تمنون له حرمة ، وكأنني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويخيلون علماءكم ، وكأنني أنظر إليكم يجرسونكم ويحبسونكم ، ويدبون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم الحرمان ، ولقيتم اللد والمهوان ، ووقع السيف ونزل الخوف ، لتدمن وتجرستم على تمرطكم في جهاد عدوكم ، وتدكرتم ما أنتم فيه من الخفص والمافية ، حين لا ينفعكم التذكار .

فقال الناس : قد علنا يا أمير المؤمنين أن قولك كله وجميع لفظك يكون حقاً ، أئزى معاوية يكون علينا أثيراً ؟ فقال : لا تكرهون إسمه معاوية ، فإن إسمه سلم وعالية ، فلو قد مات رأيتم الردوس تنذر عن كقولها كأنها الحنظل^(٦) ، وعدداً كان مفعولاً ، فأما إسمه معاوية فليست أخاف عليكم شرها ، ما بعدها أدهى وأمر .

كلام أبي أيوب الأنصاري

ثم قام أبو أيوب الأنصاري ، فقال : إن أمير المؤمنين أكرمه الله قد أسمع من كانت له أذن وافية ، وقلب حفيظ ، إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها ، حيث نزل

(١) للشرقي : السيف للنسوب إلى مشارف الشام وهي بلد جيدة السيوف .

(٢) فراش الرأس أعلى الرأس .

(٣) التلاصم : جمع خلصة وهي عقدة الزور ، أي تقطع منه الرقاب ، وتجذب أي تقطع .

(٤) خبت : خفت وتابت .

(٥) تكشون كعشي الضباب : تتفرقون وتزاحون عن أما كنكم كما يتفزع الضباب من مكانه في السباء .

(٦) أي رأيتم الردوس تطير عن أجسامها تنصير كالحنظل وهو نبات مرة يشبه الرمان في شكله للتدبير .

يعرف أظهركم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بدمه ،
يقفكم في الدين ، ويدعوكم إلى جهاد المسلمين ، فوالله لكأنكم صم لا تسمعون ، وقلوبكم غلف
مطبوع عليها فلا تستجيرون . عباد الله ، أليس إنما عهدكم بالجنور والدون أمس ، وقد فعل
العباد ، وشاع في الإسلام ، فذو حق محروم ، ومشتوم عرضته ، ومضروب ظهره ، ومعلوم
وجهه ، وموطوء بطنه ، وملق بالبراء ؟ فلما جاءكم أمير المؤمنين مدح بالحق ، ونشر بالعدل ،
وعمل بالكتاب ، فاعتكروا نعمة الله عليكم ، ولا تولوا مجرمين ، ولا تكونوا كافرين قالوا
ممننا وهم لا يسمعون . اشحنوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ، واستعدوا للجهاد ، فإذا دعيت
فأجيبوا ، وإذا أمرتم فأطيعوا تكونوا بذلك من الصادقين .

قال : ثم قام رجال من أصحابه على فقالوا : يا أمير المؤمنين ، اعط هؤلاء هذه الأموال ،
وفضل هؤلاء الأشراف من الرب ، قريش على اللوالب ، ممن يخوف خلافه على الناس وفرقه .
وإنما قالوا له : هذا الذي كان موعوداً بعهده من آتاه ، وإنما عامة الناس همهم الدنيا ، ولها
يسعون ، وفيها يكسحون . فأعاه هؤلاء الأشراف ، فإذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن
ما كنت عليه من القسم ، قال على : أتأمروني أن أطلب النصر بالجنور فيمن وليت عليه من
الإسلام ؟ فوالله لا أفضل ذلك ما لاح في السماء نجم ، والله لو كان لم مان لسويت بينهم ، فكيف
وإنما هي أموالكم . قال رجل : يا أمير المؤمنين إن اللوت نازل لا بد منه ، فإن حل لمن
صاحبنا ؟ قال على : أحدثك عن خاصة عيسى ؟ أما الحسن فصاحب خوان^(١) ، وفخ من
الفتيان ، ولو قد التقت حلقتا البطان^(٢) لم يبق عنكم في الحرب حثالة عصفور^(٣) . وأما ابن أخي
عبد الله بن جعفر فصاحب لمو . وأما الحسين ومحمد ابناي فأنا منهما وها مني ؟ والله قد
أحببت أن يدال هؤلاء القوم عليكم ، بإصلاحهم في أرضهم ، وفسادكم في أرضكم ، وأدائهم
الأكامة لحاوية ، وخيانتكم ، وبطاعتهم له ، ومعصيتكم لي ، واجتماعهم على باطلهم ،
وتهمركم عن حكم ، وإيم الله لا يدعون يدي محرماً إلا استحلوه ، ولا يبق بيت وبر^(٤)
ولا مدر^(٥) إلا أدخلوه ظلمهم ، حتى يقوم الباكيان منكم ، باك لدينه ، وبالك لديناه ، وحتى

(١) صاحب خوان : رجل كرم وإطعام .

(٢) حلقتا البطان : سبق يياتها .

(٣) حثالة عصفور : الحثالة القشر وما يكون في القمع ونموه من الحب غير مكتمل النضج .

(٤) بيت الور : بيت الشعر والجهد .

(٥) بيوت اللدو : البيوت المليئة من الحجير .

تكون نصرة أحدكم كنصرة العبد لسيده : إذا شهد أظلمه ، وإذا غاب شبه . قال رجل : يا أمير المؤمنين ، أظن ذلك كائناً ؟ قال : ما هو بالظن ولكنه اليقين .

ما كتب على لأهل العراق

قال : قام حبر بن عدي ، وعمرو بن الحقي ، وعبد الله بن وهب الراصي ، فدخلوا على علي ، فسألوه عن أبي بكر وعمر : ما تقول فيهما ؟ وقالوا : بين لنا قولك فيهما وفي عثمان . قال علي كرم الله وجهه : وقد تفرقت لهذا ؟ وهذه مصر قد انتصت ، وشيقي فيها قد قتل ؟ إنني خرج إليكم كتاباً أنبئكم فيه ما سألتوني عنه ، فاقربوه علي شيعي ، فأخرج إليهم كتاباً فيه : أما بعد ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين ، وأميناً على النزيل ، وشهيداً على هذه الأمة ، وأتم يا معشر العرب على غير دين ، وفي شر دار ، تسكون دماءكم ، وتقتلون أولادكم ، وتقطعون أرحامكم ، وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل ، فإن الله عليكم فيمت محمداً إليكم بلسانكم ، فكنتم أمت للؤمنين ، وكان الرسول فيكم ومنكم ، تعرفون وجهه ونسبه ، فصلكم الكتاب والحكمة والسنة والفراس ، وأمركم بصلة الأرحام ، وحسن النماء ، وإصلاح ذات بينكم ، وأن تحذروا الأمانات إلى أهلها ، وأن توفروا بالعقود ، وأن تطهقوا وبارأوا وتراحوا ، ونهاكم عن الظلم والتعاسد والتخاف والتباغي ، وعن شرب الحرام ، وعن بخش للكيال والوزان ، وتقدم إليكم فيها أنزل عليكم أن لا تزنا ولا تأكلوا أموال الناس ظلماً ، فكل خير يمدكم عن النار قد حُكم عليه ، وكل شر يمدكم عن الجنة قد نهاكم عنه ، فلما استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدته من الدنيا توفاه الله وهو مشكور سعيه مرضى عمله ، منطور له ذنبه ، شريف عند الله نُزله ، فيألوته مصيبة خست الأقربين ، وجمت للؤمنين ؟ فلما مضى تنازع المسلمون الأمر بعده ، فوالله ما كان يلقي في روعي^(١) ، ولا يحظر علي بالي أن العرب تعدل هذا الأمر عني ، لما راعني إلا إقبال الناس على أبي بكر ، وإجفالم^(٢) عليه ، فأمسكت يدي ، ورأيت أتي أحق بتقام محمد في الناس من تولى الأمور علي ، فلبثت بذلك ما شاء الله ، حتى رأيت راجحة من الناس رجحت عن الإسلام ، يدعون إلى حود دين محمد . وملة إبراهيم عليهما السلام . غشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله . أن أرى في الإسلام ثلماً وهدماً . تكون للصيبة به علي أعظم من فوت ولاية أمركم . التي إنما هي متاع أيام تلالل .

(١) الروع : القلب

(٢) إجفالم : إسرهم .

ثم يزول ما كان منها ، كما يزول السراب ، فشبثت عند ذلك إلى أبي بكر فبايسته ، ونهضت معه في تلك الأحداث ، حتى زحق الباطل ، وكانت كلمة الله هي العليا ، وأن يرغم الكافرون ، فتولى أبو بكر رضي الله عنه تلك الأمور فيستر ، وسدد ، وقارب ، واقتصاد ، فصحبته مناصحاً ، وأطمته فيها أطلع الله فيه جاهداً ، فلما احتضر بعث إلى عمر ، فوله ، فسمعنا وأطعنا ، وبايضا وناصحنا ، فتولى تلك الأمور ، فكان مرضى السيرة ، ميمون النقية^(١) أيام حياته ، فلما احتضر قلت في نفسي : ليس يصرف هذا الأمر عنى . فجعلها عمر شورى وجعلني سادس ستة ، لما كانوا لولاية أحد منهم بأكره منهم لولايتي ، لأنهم كانوا يسمعونى وأنا أحاج أبكر فأقول : يا معشر قريش ، أنا أحق بهذا الأمر منكم ما كان منا من يقرأ القرآن ، ويرف السنة ، وخطبوا إن وليت عليهم أن لا يكون لهم في هذا الأمر نصيب ، فبايوا لإجماع رجل واحد ، حتى صرفوا الأمر عنى لثمان ، فأخرجونى منها ، رجاء أن يتداولوها . حين يمشوا أن ينالوها ، ثم قالوا لى : حلم قباج عثمان . وإلا جلعناك . فبايست مستكراً . وصبرت محسباً ، وقال لائلهم : إنك يا ابن أبي طالب على الأمر لحريس ، قلت لهم : أتم أحرص . أما أنا إذ طلبت ميراث ابن أبى وحقه ، وأتم إذ دخلتم بينى وبينه ، وتضربون وجهى دونه ، اللهم إنى أستعين بك على قريش ، فإتهم قطعوا رحمى ، وصفروا عظم منزلق وفعلنى . واجتمعوا على منازعتى حقاً كنت أولى به منهم فسلبوني ؛ ثم قالوا : اسبركداً ، وعفى متأسفاً ، فظنرت فلذا ليس معى رفاق ولا مساعد إلا أهل بيتى ، فضلت بهم على الملوك ، فأغضبت عيني على القذى ، وتجرعت . رفيق على الصعاب^(٢) . وصبرت من كظم القبط على امرأ من العلقم طمعاً ، وآلم لقلب من حر الحديد ، حتى إذا قممت على عثمان أتيتموه فقتلتموه ، ثم بشمونى بيايمونى ، فأبيت عليكم ، وأبيت على ، فإزحمتوى وداخمتوى ، ولم أمدبى ، تمتأ عنكم ، ثم ازدحمت على ، حتى ظننت أن يضركم قاتل يمشى ، وأنكم قاتل ، وقتلتم : لا نجد غيرك ، ولا نرضى إلا بك ، فبايضا لا تترقى ولا تختلف ، فبايستكم ودعوتكم الناس إلى يمينى ، فمن بايع طائفاً قبلت منه ، ومن أبى تركته ، فأول من بايضى طلحة والزبير ، ولو أيا ما أكرهتهما ، كما لم أكره غيرهما ، فلما لبنا إلا يسيراً حتى قيل لى : قد خرجا متوجهين إلى البصرة في جيش ، ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة ، وصبح لى بالبيعة ، فقاموا على عمالي بالبصرة وحزائن بيوت أموالى ، وعلى أهل مصرى ، وكلهم فى طاعتى ، وعلى شيق ، فكتبوا كلمهم ، وأصدوا على جماعهم ، ثم وثبوا

(١) النقية : الفقل وللشورة وعماذ رأى .

(٢) الصعاب : العظيمة أو الشوك فى الحلق .

على شيعة ، قتلوا طائفة منهم خذراً ، وطائفة صبراً ، وطائفة عسراً بأسياهم ، فصار يوم حق
 لقوا الله صابرين عتسين ، فوالله لو لم يصيبوا منهم إلا رجلاً واحداً متمدين قتلته ، لخلل إلى
 بذلك قتل الجيوش كله ، مع أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من المئة التي دخلوا عليهم بها ،
 فقد أдал الله منهم ، فبدأ القوم الظالمين . ثم إنى نظرت بعد ذلك في أهل الشام ، فإذا هم
 أشرار وأحزاب وأهل طمع ، جفاة ظفام^(١) ، تجمعوا من كل أوب ، عن يئس أن يؤدب ،
 ويولى عليه ، ويؤخذ على يديه ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا من التابعين بإحسان ،
 فسرت إليهم ، ودعوتهم إلى الجحامة والطلاعة ، فأبوا إلا عتاقاً وعتاقاً ، ونهضوا في وجوه
 المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، يضضونهم بالئيل ، ويضضونهم بالرمح ، فهناك نهضت
 إليهم فتقاتلتهم ، فلما حضهم السلاح ، وجدوا ألم المجرع ، رفسوا للمصاف يدعونكم
 إلى ما فيها ، نياهم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإنما رفسوا إليكم خديعة ومكيدة ، فامضوا
 على قتالهم ، فاتهمتوني ، وقلت : أبل منهم ، فأنهم إن أجابوا إلى ما في الكتاب والسنة جامعوا
 على ما نحن عليه من الحق ، وإن أبوا كان أعظم لعبتنا عليهم ، قبلت منهم ، وخلفت عنهم ،
 وكان صلحاً بينكم وبينهم على رجلين حكيتين ، يحيان ما أحيا القرآن ، ويميتان ما أمات القرآن ،
 فاختلف رأيهما ، وهرق حكمهما ، وثبنا مع القرآن ، وخالفنا ما في الكتاب ، وأبما هوأما
 بشير هدى من الله ، فجئنا الله السداد وأهوى بهما في غرة الفضائل ، وكانا أهل ذلك ،
 فاعذلت عنا فرقة منهم ، فتركناهم ما تركوا ، حتى إذا عاثوا في الأرض مفسدين ، وقتلوا
 المؤمنين ، أميناهم قتلنا لم : ادفعوا إلينا قتلة إخواننا ، فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا استحلنا دمهم
 ودماءهم ، وهدت علينا خيلهم ورجلهم ، فصرهم الله مساع القوم الظالمين . ثم أمرتهم أن
 تحضوا من فودم ذلك إلى حدودكم ، فإنه أفزع قلوبهم ، وأهلك لمكرم ، وأهلك لكميدم ،
 قتلتم : كلت أفرعنا وسيوفنا ، وهدت نباتنا ، وعلت أسنة^(٢) رماحنا ، فأذن لنا ، فترجع
 حتى نستعد بأحسن عدتنا ، وإذا رجعت زدت في مقاتلتنا عدة من هلك منا ، ومن قد فارقتنا ،
 فلن ذلك قوة منا على حدودنا ، فأقبلتم حتى إذا أطلقتم على الكوفة ، أمرتهم أن تلمسوا
 مصكرهم وعضوا قواصيمكم^(٣) ، وتتوطنوا على الجهاد ، ولا تكثروا زيارة أولادكم ونساءكم
 فلن ذلك يُرق قلوبكم ويؤيك ، وإن أصحاب الحرب لا يتوجهون^(٤) ، ولا يتوجهون ،

(١) الطغام : سعة الناس .

(٢) نعلت أسنة رماحنا : خرجت من الرماح وأصبحت رماحنا بلا أسنة .

(٣) قواصيمكم جمع قاصية وهي البعثة أى تضموا ما بعد منكم .

(٤) يتوجهون : يشكون الوجود هو الحب أى لا يشكون وجدكم وحجمهم لأنبائهم وأهلهم .

ولا يأسون من سهر ليلهم، ولا من شأنا نهارهم، ولا من خص بطونهم، حتى يدركوا بأثرهم، وينالوا بغيرهم ومطلبهم، فنزلت طائفة منكم معي مغيرة^(١)، ودخلت طائفة منكم للصر عاصية^(٢) فلان من زل معي صبر فثبت، ولا من دخل للصر عاد إلى، ولقد نظرت إلى عسكري وما فيه معي منكم إلا خسون وجلا، فلما رأيت ما أتيتم دخلت إليكم، لما قدرت أن تخرجوا معي إلى يومكم هذا، فله آياؤكم؟ لما تنتظرون؟ أما ترون إلى أطرافكم قد انتقصت، وإلى مصركم قد افتتح؟ فما بالكم تؤفكون؟ ألا إن القوم قد اجتمعوا وجسدوا وتناصخوا، وإنكم تفرقتم واختلتم وتناهشتم^(٣)، فأنتم إن اجتمعتم تسعدوا، فأغفلوا وحكم الله نأفكم، وتجزوا لحرب عدوكم، إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء، بمن أسلم سكرها، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حرباً، أعداء السنة والقرآن، وأهل الأحزاب والبدع والأحداث، ومن كانت يوافقة^(٤) حتى، وكان عن الدين منصرفاً، وأكلة الرضا^(٥)، وعبيد الدنيا، لقد نعى إلى أن ابن الباغية^(٦) لم يبيع معاوية حتى شرط عليه أن يؤتیه أمانة هي أعظم ما في يديه من سلطانه^(٧)، فصررت يد هذا البائع دينه بالدنيا ورببت يد هذا للشرى نصره فاسق بأموال الناس، وإن منهم لمن شرب فيكم الحرام، وجهل حدا في الإسلام، فهؤلاء قادة القوم، ومن تركت ذكر مساويه منهم شراً وأضر، وهؤلاء الذين لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم التضب والفخر. والتسلط بالجبروت، والتناول بالتضب، والفساد في الأرض، ولا تبعوا الهوى، وحكوا بالأرأ، وأنتم على ما فيكم من تحايل وتواكل خير منكم وأهدى سبيلاً، فيكم الحكماء، والمعلماء والفقهاء، وحملة القرآن، والتهجدون بالأسفار، والبداءة والزهاد في الدنيا، ومعتكز المساجد، وأهل تلاوة القرآن، أفلا تسخطون وتتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سبغهاكم، والأراذل والأشرار منكم؟ اصبروا قولي إذا قلت، وأطيعوا أمري إذا أمرت، وامرؤوا نصيحتي إذا نصحت، واعتقدوا جزئي إذا جزمت، والزموا عزمي إذا عزمت، وانفضوا كهوضي، وقارعوا من قارعت، ولأن عصيتهم لا ترهقوا ولا تهجموا،

(١) مغيرة : ضم الميم وكسر الهمزة : أى طائفة غدرى فى لومها وذهبها.

(٢) للصر : المراد به هنا الكوفة .

(٣) غش بضمك بضمضاً ولم ينزل له التسمية .

(٤) يوافقه : فصاليه ونوابه

(٥) الرضا : جمع رهوة .

(٦) يزيد بن ابى الباغية : عمرو بن العاص .

(٧) هي مصر : التى طلبها عمرو بن العاص من معاوية ثمناً لمأوته ومساعدته .

خفوا الحرب أحببتا ، وأعدوا لها التهيؤ ، فلما قد وقعت نارها ، وعلا سناها (١) ، ونجود
لكم فيها الظالمون ، كما يطفئوا نور الله ويقرروكم ، عباد الله ، ألا إنه ليس أولياء الشيطان
من أهل الطمع والجفاء ، بأولى في الجدة في غييم وضلالهم وباطلهم ، من أهل النزاهة والحق
والإشبات بالجد في حقهم ، وطاعة ربهم ، ومناصحة إمامهم ، إني والله لو قبيتهم وحيداً
منفرداً ، وهم في أهل الأرض إن (٢) باليت بهم أو استوحشت منهم ، إني في ضلالهم للهى هم
فيه ، والمهدى للهى إنا عليه ، لعل بصيرة وحيث وبيته من ربى ، وإني لقاء ربى لستاق
ولحسن ثوابه لنتظر راج ، ولكن أسفاً يتقرين ، وجزعاً يريين من أن يلى هذه الأمة
سفهاؤها وجارها ، فيتخذون مال الله دولا ، وعباد الله خوفاً ، والصلحين حرباً ، والفاستطين
حزباً (٣) ، وإيم الله لولا ذلك ما كثرت تأليك وجمكم ، ومخريكم ، وتركتمكم عفو الله إني لعل
الحق ، وإني للشهادة لهب ، أنا نافر بك إن شاء الله ، فاعزوا خافاً وتقالا ، وجاهدوا
بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، إن الله مع الصابرين .

مقتل على عليه السلام

قال للدائن : حجج ناس من الخوارج سنة تسع وثلاثين ، وقد اختلف عامل على وعامل
معاوية ، فاصطالح الناس على عيب بن عثمان ، فلما انتهى اللوم أقام النفر من الخوارج
مجاورين بمكة ، فقالوا : كان هذا البيت معظماً في الجاهلية ، جليل الشأن في الإسلام ، وقد
انتبهك هؤلاء حرمة ، فلو أن قوماً شروا (١) أنفسهم قتلوا هذين الرجلين اللذين قد أفسدا في
الأرض ، واستحلا حرمة هذا البيت ، استراحت الأمة ، واختار الناس لهم إماماً . فقال
عبد الرحمن بن ملجم للرادي لئن الله : أنا أكليكم أمر على . وقال الحجاج بن عبد الله
الهمري ، وهو التبرك : أنا أقتل معاوية . فقال : أذويه مولى بنى النير ، واسمه عمرو بن بكر
والله ما عمرو بن الماس بدونهما . فأنا به : فصافدوا على ذلك ثم ائتمروا بحرمة رجب . واتفقوا
على يوم واحد يكون فيه وقوع القتل منهم في على ومعاوية وعمرو ، ثم سار كل منهم في طريقه
قديم ابن ملجم الكوفة وكتم أمره ، وتزوج امرأة يقال لها : قطام بنت علقمة ، وكانت
خارجية ، وكان على قد تدل أخاها في حرب الخوارج . وتزوجها على أن يقتل علياً . فأقام

(١) سناها : ضوؤها .

(٢) إن هنا بمعنى ما التافى أى ما باليت بهم .

(٣) سبق بيان معنى الخول والفاستطين قريباً .

(٤) باعوا أنفسهم .

عندما مده ، فقاتلته في بعض الأيام وهو عطف : لعلنا أحببت لكك عند أمك ، وأخبرت عن الأمر الذي جئت بسببه ، فقال : إن لي وقتاً واعتدت فيه أصحابي بولن أجوزوه فلما كان اليوم الذي تواعدوا فيه ، خرج عدو الله ، فقد لقي حين خرج على صلاة الصبح ، صبيحة نهار الجمعة ، ليلة عشرين من رمضان سنة أربعين ، فلما خرج للصلاة ومب عليه ، وقال : الحكم لله لا لك يا علي ، وضربه على قرعته ^(١) بالسيف ، فقال علي : قوت ورب السكبة ، ثم قال : لا يفوتكم الرجل ، فقد الناس عليه ، فأتخذوه .

وكان علي رضي الله عنه عديد الأمة ^(٢) قتيل البنين ، ضم البطن ، أصلع ، فاضلات ، في أذنيه شعر يخرج منهما ، وكان إلى القصر أقرب . وكان ابن ملجم يمرض سيقه ، فلذا أخبر أن فيه عيباً أسلمه ، فلما قتل علياً قال : قد أحدثت سيئاً بكذا وكذا ، وسمعت بكذا وضربت به علياً ضربة لو كانت بأهل للسر لأنت عليهم .

وروى عن الحسن أنه قال : أتيت أبي فقال لي : أرقت القيلة ، ثم ملكتك عيني ^(٣) . فسبح لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت له : يا رسول الله ، ماذا قتيت من أمرك من من الأود ^(٤) والدد ؟ فقال : ادع عليهم ، قلت : اللهم أبليهم خيراً لي منهم ، وأبليهم في شرأ لهم مني ، فخرج إلى الصلاة فاعتزمه ابن ملجم ، وأدخل ابن ملجم علياً بعد ضربه إياه ، فقال : أطبوا طعامة ، وألبسوا ثيابه ، فإن أعضى فأنا ولي دمي ، إما عفوت ، وإما انتصمت ، وإن أمت فالحقوه بي ، ولا تمتدوا ، إن الله لا يحب للفتين .

قالوا وبكت أم كلثوم ، وقالت لابن ملجم : يا عدو الله ، قتلت أمير المؤمنين ، قال : ما قتلت أمير المؤمنين ، ولكني قتلت أبالك . قالت : والله إنني لأرجو ألا يكون عليه بأس ، قال : ولم يكن إذا ؟ والله لقد أرهقت السيف ، ونعيت الخوف ، وجبت الأجل ، وقطعت الأمل وضربت ضربة لو كانت بأهل للفرق لأمت عليهم .

ومكث على يوم الجمعة ويوم السبت ، وتولى ليلة الأحد ، وضربه الحسن والحسين ومحمد

(١) أي على رأسه .

(٢) الأمة : المسرة .

(٣) أي نمت .

(٤) الأود : النوج ، أي بعد عدم استقامتهم وأمر حاجهم علي ، والدد : حدة الخصومة وعدم الرجوع إلى الحق .

ابن الحنفية وعبد الله بن جعفر ، وكفن في ثلاثة أثواب ، ليس فيها قميص ، وصلى عليه الحسن ابنه ، ودفن في قصر الإمارة بالكوفة ، وغمي قبره مخافة أن ينشئه الخوارج ، وقيل إنه قتل بعد صلح معاوية والحسن إلى المدينة ، وأخذ ابن ملجم ، ققطعت يده ورجلاه وأذناه وأعمه ، وأتوا يقطعون لسانه ، فصرخ ، فقيل له : قد قطعت منك أعضاء ولم تنطق ، فلما أنوا يقطعون لسانك صرخت ؟ قال : إني أذكر الله به ، فلم يسئل علي قطعه ، ثم تناولوه بعد هذه الليلة .

كانت خلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة .

وأما التبرك : فإنه انطلق ليلة ميادهم ، فقدم لمعاوية ، فلما خرج لصلاة الصبح شد عليه سبيله ، فأدبر معاوية ، فغضب راعداً^(١) إليه فلقها ، ووقع السيف في لحم كثير ، وأخذ فقال لمعاوية : إن لك عندي لجراً ساراً ، قد قتل الليلة علي ، وحذته الحديث ، وهرج معاوية فبري^(٢) ، وأمر بقتل البركة ، وقيل : ضرب البركة معاوية وهو ساجد ، فخذ ذلك جبل الحرس على رموس الخلفاء ، وأخذ معاوية للتصورة .

وأما الثالث : فقدم عمرو بن الماس ليلة اليماد ، فلم يخرج تلك الليلة ، ليلة وجدها في بطنه ، وصلى بالناس خارجة بن حنيفة المدوي ، فهد عليه الخارجي ، وهو يظن أنه ابن الماس ، فقتله ، وأخذ ، فأتى به عمرو بن الماس ، فلما رآه قال : ومن لقتول ؟ قالوا : خارجة . فقال : أردت حمراً وأراد الله خارجة ؟ ثم قال لعمرو بن الماس الحديث ، وما كان من اتفاقه مع صاحبيه ، فأمر بقتله . فلما قتل علي تداعى أهل الشام إلى بيعة معاوية ، وقال له عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : نحن للؤمنون ، وأنت أميرنا ، فبايعوه وهو بإيلياء لحس ليال خلون من هوال سنة أربعين .

فصل

دوى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « يا علي ، أتدري من أشقى الأولين والآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أشقى الأولين : عاقر الناقة^(٣) ، وأشقى الآخرين : الذي يعطيك . وأشار إلى حيث طمن » . قال : وخرج علي في ليلة قتله وهو يقول :

(١) راعة الآية : أسفلها .

(٢) عاقر الناقة : الذي عقر ناقة صلح عليه السلام التي أخرجها الله لثمود من الحجر معجزة لصلح عليه السلام .

اشدد حيازتك الموت قتل اللوت لاقبكا
ولا تبصع من اللوت إذا حل بواديك

وقال الشاعر في قتل ابن ملجم علياً :

تضمنت للآثام لا درّ درّه ولاقى عقاباً غير ما مُتصّرماً^(١)
فلا مهر أغلى من علي وإن خلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام للمم

قال هيرة بن شريم : سمعت الحسن رضى الله عنه مخاطباً ، فذكر أباه وفضله وسابته ،
ثم قال : والله ما ترك صفراء ولا يضاء إلا سمع مني درهم فضلت من عطائه ، أراد أن يشتري
بها خادماً . وجاء رجل من مراد إلى علي ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، احترس ، فإن هنا قوماً
يريدون قتلك ، فقال : إن لكل إنسان ملكين يحفظانه ، فإذا جاء القدر خليا .

قيل : ولما ضرب عليّ دما أولاده ، وقال لهم : عليكم بقوى الله وطاعته وآلا تأمروا على
ما صرف عنكم منها ، واتبعوا إلى عبادة ربكم ، وصبروا عن ساق الجذ ، ولا تناقلوا إلى الأرض ،
وتقروا بالخلف ، وتبوءوا بالذلّ ، اللهم اجعلنا وإياهم على الهدى ، وزهدنا وإياهم في الدنيا ،
واجعل الآخرة خيراً لنا ولم من الأولى ، والسلام .

بيعة الحسن بن علي رضى الله عنه لماوية

قال : وذكروا أنه لما قتل علي بن أبي طالب ، ثار الناس إلى الحسن بن علي بالبيعة ،
فلما بايروه قال لهم : يا أيها الذين آمنوا ، وحمادون من حاربت ، وتسلمون من
سالت ، فلما سمعوا ذلك ارتابوا وأمسكوا أيديهم وقبض هو يده ، فأتوا الحسين ، فقالوا له :
أيسط يدك نياييك على ما باينا عليه أبائك ، وعلى حرب الحلين الضالين أهل الشام ، فقال
الحسين : معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حياً . قال : فانصرفوا إلى الحسن ، فلم يجعلوا
بدأ من بيعة ، على ما شرط عليهم ، فلما تمت البيعة له ، وأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ،
كاتب معاوية ، فأثناء غفلة ، فاصطلع معه عليّ أن لماوية الإمامة ما كان حياً ، فإذا مات فالأمر
للحسن ، فلما تم صلحهما صعد الحسن إلى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ،

(١) أى دائم لا يتصرم ولا يتقطع .

إن الله هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخركنا ، وكانت لي في رقابكم يمة ، تحاربون من حاربت ، وتسالون من سالت ، وقد سالت معاوية ، وبيته قبايسه وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، وأحارب إلى معاوية .

إنكار سليمان بن صرد

قال : وذكروا أنه لما تمت اليمه لمعاوية بالمرأى ، وانصرف راجعا إلى الشام ، أتاه سليمان بن صرد ، وكان غابا عن الكوفة ، وكان سيد أهل الرأى ورأسهم . فدخل على الحسن ، فقال : السلام عليك يا بنذ المؤمنين ، قال الحسن : وعليك السلام ، اجلس . لله أبوك ، قال : اجلس سليمان ، قال : أما جد ، فإن تمعينا لا يتقصى من يمينك معاوية ومعه مئة ألف مقاتل من أهل الرأى ، وكلهم يأخذ البطاء مع مثلهم من أبناءهم ومواليهم ، سوى عيشك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العهد ، ولا حظا من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد واليثاق ، كنت كتبت عليك بذلك كتابا ، وأشهدت عليه شهودا من أهل للشرق والغرب إن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوه ، ثم قال : وزعم على رؤوس الناس ما قد صحت ، إنى كنت شرطت تقوم شروطا ، ووعدتهم عدات ، ومنينهم أمانى ، إرادته إطفاء نار الحرب ، ومداواة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، ووالله ما عني بذلك إلا تقضى ما بينك وبينه ، فأعد للحرب خدعة ، وإننى لأشخص إلى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلمه ، وإننى إليه على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين . ثم سكت . فتكلم كل من حضر مجلسه بثل مقالته ، وكلهم يقول : اجب سليمان بن صرد ، واجبتنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أننا قد أضضنا عامله ، وأظهرنا خلمه . فتكلم الحسن ، فحمد الله ، ثم قال : أما جد ، فإنكم شيتنا وأهل مودتنا ، ومن تفرقه بالتضيعة والصعبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ولو كنت بالجزم في أمر الدنيا ولدينا أعمل وأتصب ، ما كان معاوية بأبأس منى أبسا ، وأشد شكيمه ، ولكان رأى غير ما رأيتم ، ولكنى أشهد الله ولياكم أنى لم أرد بما رأيتم إلا حقن دماءكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فافقوا الله وارضوا بقضائه الله ، وسلموا لأمر الله ، وازموا بيوكم ، وكلوا أيديكم ، حتى يستريح بـ . أو يستراح من فاجر ، مع أن أبى كان يحدثنى أن معاوية سبى الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالليل والنهار ، ما شككت أنه سيظهر ، إن الله لا مقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، وأما قولك : يا بنذ

للمؤمنين ، فوالله لأن تذلو وتضافوا أحب إلى من أن تمزوا وتقتلوا ، فإن رد الله علينا حقنا في عافية قليلنا ، وسألتنا الله المون على أمره ، وإن صرفه عنا رضىنا ، وسألتنا الله أن يبارك في صرفه عنا ، فليكن كل رجل منكم حليماً من^(١) أحلاس بيته ، ما دام معاوية حياً ، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء ، سألتنا الله العزيرة على رخصتنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتخاوا والذين هم محسنون .

كرهية الحسين رضى الله عنه للبيعة

قال : ثم خرج سليمان بن صرد من عنده ، فدخل على الحسين ، ففرض عليه ما هرض على الحسن ، وأخبره بما رد عليه الحسن ، فقال الحسين : ليسكن كل رجل منكم حليماً من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حياً ؛ فإنها بيعة كنت والله لها كرهاً ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ، ورأينا ورأيتم .

ما أشار به المنيرة بن شمعة على معاوية من البيعة ليزيد

قال : وذكروا أنه لا استقامت الأمور لمعاوية ، استعمل على الكوفة للمنيرة بن شمعة ، ثم ثم أن يمزله ويولى سيد بن العاص ، فلما بلغ ذلك المنيرة قدم الشام على معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد علمت ما تقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفي عتقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس في مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فأجمل الناس بذلك علماً يزعزون إليه ، وأجمل ذلك يزيد ابنك . قال : فدخل معاوية على امرأته فاخته بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس وكان ابنها منه عبد الله بن معاوية ، وقد كان يلينها ما قال للمنيرة ، وما أشار به عليه من البيعة ليزيد وكان يزيد بن الكلبي ميسون إنة عبد الرحمن بن بحدل الكلبي . فقالت فاختة ، وكانت معادية الكلبي ، ما أشار به عليك للمنيرة ؟ أراد أن يصل لك هدواً من نفسك ، يتمي هلاكك كل يوم ، فشق ذلك على معاوية ، ثم بدا له أن يأخذ بما أشار عليه المنيرة بن شمعة .

(١) الحسن : هو ما يلى ظهر الدابة تحت البرذعة ، وللمنى الثموا يوتكم ولا تبرحوها .

ما حاول معاوية في بيعة يزيد

قال : فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار بمشقة ، وفهم الأنصف بن قيس ، دعا معاوية الضحاك بن قيس الهجري ، فقال له إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلاسي ، فاستأذني للقيام ، فلذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى ، واذكر يزيد ، وقتل فيه الذي يحق له عليك ، من حسن الثناء عليه ، ثم ادعني إلى توليته من بعدى فأبى قد رأيت وأجمت على توليته ، فأسأل الله في ذلك ، وفي غيره الحجرة وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفي وعبد الله بن مسعدة الخزاعي ، وثور بن معن السلمي ، وعبد الله بن عصام الأحمري ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يسدقوا قوله ، ويدعوه إلى بيعة يزيد .

ما تكلم به الضحاك بن قيس

قال : فلما جلس معاوية على المنبر ، وفرغ من بعض موعظته ، وهؤلاء النفر في المجلس قد قدوا للكلام ، قام الضحاك بن قيس ، فاستأذن في الكلام ، فأذن له ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلى الله أمير المؤمنين ، وأمتح به ، إنا قد بلونا الجماعة والألفة ، والاختلاف والفرقة فوجدناها ألم لشعنا ، وأمة لسبنا ، وحاقة لعمالنا ، وعائلة علينا في عاجل ما نرجو وآجل ما نؤمل . مع ما نرجو به الجماعة من الألفة ، ولا خير لنا أن تترك سدى ، والأيام عروج رواج ، والله يقول : (كل يوم هو في شأن) ، ولنا ندرى ما يختلف به العصران ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلائقه ، نسأل الله تعالى بك للناج ، وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه ، وقصد سيرته ، وعين نقيته^(١) ، مع ما قسم الله له من المحبة في السنين ، والشبه بأمر المؤمنين ، في عقله وسياسة وشيخته للرضية ، ما دعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والتفتوح به في الولاية علينا ، ظيروه أمير المؤمنين — أكرمهم الله — عهد ، وليبطله لنا ملجأً ومغزاً بعده ، نأوى إليه إن كان كون فإنه ليس أحد أحق بها منه ، فأعزم على ذلك ، عزم الله لك في رشدك ، ووفقك في أمورنا .

ما قال عبد الرحمن بن عثمان

قال : ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلى الله

(١) النقية : العقل والصفوة وتعاذ الرأي .

أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان مختلفة أهواؤه ، قد اُحدوديت علينا ميساؤه ^(١) ، واقطوطيت ^(٢) علينا أدواؤه ، وأناخت علينا أبنائه ^(٣) ، ونحن نشير عليك بالرعاد ، وتدعوك إلى السداد ، وأنت — يا أمير المؤمنين — أحسننا نظراً وأجبتنا بصرأ ، ويزيد بن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورشينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اختباطاً ، ما منحه الله من الشبه بأمير المؤمنين والهمة في السليين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضيق به ذرماً ، فإله تعالى يقيم به الأود ^(٤) ، ويردع به الألف ^(٥) ، وتأمين به السبل ، ومجمع به العمل ، ومظم به الأجر ، ويحسن به النحر . ثم جلس .

ما قال ثور بن ممن

قال : ثم قام ثور بن ممن السلمي ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان صاحبه هاضب ، وظله ذاهب مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت نسال الله بك التاع ويزيد ابن أمير المؤمنين أفلمنا شرعاً ، وأبدلنا عرفاً ^(١) وقد دحمتا إلى الرضا به ، والتنوع بولايته ، والحرس عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه ، فاجله لنا بسلك خلفاً ، فإنه أوسنا كنفاً ، وأقمننا سلفاً ، وهو رفق لا تفرق ، وزمام لا تحب ^(٢) ، ونكال لمن طرقت وناقى ، وسلم لمن واطب ، وحافظ الحق ، أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، واقترطن في البلاد ، وسلاح أمر جميع المباد . ثم جلس .

ما تكلم به عهد الله بن عصام

قال : ثم قام عبد الله بن عصام ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ،

-
- (١) السبب : الظاهر ، ولراد أن الزمان غير مستقيم كما يحسدوب ظهر الهابة فلا يمكن ركوبها .
 - (٢) اقطوطيت : اجتمعت ، والأدواء جمع داء ، أى اجتمعت علينا علله
 - (٣) أناخت علينا : غلبت علينا ورمت بقلها .
 - (٤) الأود : العوج .
 - (٥) الألف : شديد الخصومة .
 - (٦) الرف : السطاء .
 - (٧) شرب : كسر وتفرق .

وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دنيا منقضية ، وأهواء منجذبة (١) تخاف ههنا ، وتنتظر جدتها ، شديد منطودها ، كثير وعرها ، شائعة مراقبها ، ثابتة مراقبها ، صعبة مراقبها ، فالوت يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد ، لا يخلد في الدنيا أحد ، ولا يبقى لنا أمد ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول من رعبتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنظر (٢) للجماعة وأعلى عيناً بحسن الراى لأهل الطاعة ، وقد هدبت ليزيد في أكل الأمور وأفضلها رايًا ، وأجسها رضاءً ، فاقطع يزيد قالة الكلام ، ونحوه للطل ، وغب للثائق ، واكت به الباذخ (٣) للمادى ، فإن ذلك ألم للشمل واسهل للوعث (٤) ، طعزم على ذلك ، ولا تترامى بك الظنون .

ما تكلم به عبيد الله بن مسعدة

ثم قام عبد الله بن مسعدة الخزاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أوصى الله أمير المؤمنين ، وأمتع به . إن الله قد آثره بخلافته ، واختص بكرامته ، وجعل صمة لأوليائه ، وذا نكايته لأعدائه ، فأصبحت بأمنه جدلاً ، ولما جعلك محملاً ، يكشف الله تعالى بك المص ، ويهدي بك المص ، وزيد ابن أمير المؤمنين أحسن الناس رعبتك رافة ، وأحقهم بالخلافة بعدك ، قد ساس الأمور ، وأحكمته المحور ، ليس بالصغير المهيبة (٥) ، ولا بالكبير السليبة ، قد احتجن (٦) للكلام ، وارنحى لحل العظام ، وأهد الناس في العود نكايته ، وأحسنهم صنأً في الولاية ، وأنت أغنى بأمرك ، وأحفظ لوصيتك ، وأحرز لنفسك . أسأل الله لأمر المؤمنين العافية في غير جهد ، والمنة في غير تنبير .

ما قال الأحنف بن قيس

قال : فقال معاوية : أو كلكم قد أجمع رأيي على ما ذكرنا ؟ فقالوا : كذا قد أجمع رأيي على ما ذكرنا . قال : فأين الأحنف ؟ فأجاباه ، قال : ألا تكلم ؟ فقال الأحنف حمد الله وأثنى عليه ،

(١) منجذبة : أى متقلبة ، كل هوى له وجهة غير وجهة الآخر فلا يجتمع الأهواء على رأى واحد .

(٢) أنظر : أحسن نظراً في أمر الجماعة واختيار من يتولى أمرها من بعده .

(٣) الباذخ : المستطيل الشكبر .

(٤) الوعث : الطريق السر ، والمراد أسهل لسير في الطريق الصعب .

(٥) الهيبة : الهي الذي لا يحسن الكلام .

(٦) احتجن الكلام : جمها وحوالها .

ثم قال : أصلى الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسكوا في منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتسف^(١) ، وزيد بن أمير المؤمنين ثم الخلف ، وقد حلبت البحر أشطره^(٢) يا أمير المؤمنين ، فأعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يترك من يعير عليك ، ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، واعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً .

ما رد الضحاك بن قيس عليه

قال : فضبط الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلى الله أمير المؤمنين . إن أهل النفاق من أهل العراق ، مروءتهم في أنفسهم الشقاق ، وأهملهم في دينهم العراق ، يرون الحق على أهوائهم ، كأنما ينظرون بأفهامهم ، اختلوا جهلاً ويطغوا ، لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبأل هاربة ، اعتذوا إليس لم رباً ، واعتذم إليس حزباً ، فمن يقاربه لا يسره ، ومن يفارقه لا يشروه ، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في محورهم ، وكلامهم في صدورهم ، مالمس وذوى الحسن في سلطان الله الذي استخلف به معاوية في أرضه أهبات لا تورث الخلافة عن كلاله^(٣) ، ويصحب غير الله ذكر الصبة^(٤) ، فوطئوا أعكم يا أهل العراق على الناصبة لإمامكم ، وكاتب نبيكم وصهره ، يسلم لكم العاجل ، وترجموا من الأجل .

ما أجاب به الأحنف بن قيس

قال : ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إنا قد فررنا عنك قريباً^(٥) ، فوجدناك أكرمها زنداً ، وأحدها عقداً ، وأوفاهما عهداً ، وقد علمت

(١) مستقبلي .

(٢) هذا مثل يضرب للسجرب للأمر الحثك ، يقال حلب البحر أشطره .

(٣) الكلاله : الذي لا ولد له ولا ولد .

(٤) الصبة : هم الذكور من الورقة الذين يأخذون كل التركة إذا اعتزوا ، أو معظم التركة .
بمسد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصبتهم ، والمراد استبعاد أن يأخذ الحسن رضى الله عنه الخلافة من يزيد ، فجعل الضحاك : الحسن مثل غير الذكر وجعل يزيد هو الذكر على التشبيه ، وهذا باطل من القول لأن الخلافة لا تورث وفيه من سوء الأدب على الحسن رضى الله عنه ما كان يجب معه قطع لسان الضحاك .

(٥) فررنا عنك قريباً : أى بحثنا في قرين وقتلنا فيها .

أنك لم تنتج العراق عنوة ، ولم تظهر عليها قسراً (١) ، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر من يدك ، فإن تف قامت أهل الوفاء ، وإن تدبر تعلم والله إن وراء الحسن خيراً كثيراً ، وأذرعاً شديداً ، وسيوفاً حاداً ، إن تدن له شراً من غير ، تجد وراءه باماً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أجرك منذ أبضوك ، ولا أبضوا عليك وحسناً منذ أجوبها ، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء ، وإن السيف التي شهورها عليك مع علي يوم صفين لعل عواضهم ، والقلوب التي أبضوك بها ليعن جوانهم ، وإيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علي .

ما قال عبد الرحمن بن عثمان

قال : ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فمدد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس عتلف ، وكثير منهم منحرف ، لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يغيثون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأي الخلفاء ، عاتقون لهم في السنة والقضاء ، وقد وقتت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاهما لحل الرعية ، فإذا خار (٢) الله لك ، فأعزم ، ثم اقتطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حلاً وعلماً ، وأوسماً كنفاً ، وخيراً سلفاً ، قد أحكمت التجارب ، وتصدت به سبل للذاهب ، فلا يصرفك عن ريشته صارف ، ولا يقن بك دونها واقف ، عن هو شامع عاص ، ينوس (٣) لفتنة كل مناس ، لسانه ملو ، وفي صدره داء دوى (٤) ، إن قال فصرقاتل ، وإن سكنت فلزود فثال (٥) ، قد عرفت من هم أولئك وما هم عليه لك ، من المجانبة لتتوفيق ، والكاف (٦) لتفريق ، فأجل بيته عنا النعة ، واجمع به فعل الأمة ، فلا تحذ عنه إذ هديت له ، ولا تلحق (٧) عنه إذ وقتت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا وعليك ، أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنه .

ما قال معاوية بن أبي سفيان

قال : قام معاوية فقال : أيها الناس ، إن لإبليس من الناس إخواناً وخلاتاً بهم يستعد ،

-
- (١) القصص : القتل ، والمراد أنه لم يأخذ العراق بالحرب وإنما بايسته طاعة بعد صلح الحسن .
 - (٢) خارك : اختارك .
 - (٣) ينوس للفتنة : يتحركلما وينهش لما كل منهش .
 - (٤) دوى : يبلغ في حالته هسيدي .
 - (٥) زود فثال : دفع بلاد عنه .
 - (٦) الكاف : الحب .
 - (٧) لا تلحق عنه : لا تبعد عنه ولا تترك من ناحيته .

وإمام يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أوجعوا^(١) ، وإن استخفى عنهم أوجعوا^(٢) ثم يلحقون الثقب بالقيصور ، ويشققون لها حطب الشقاق ، عيايون مرتابون ، إن ولوا عروة أمر حقوقاً وإن دعوا إلى غي أسرفوا ، وليسوا أولئك بمتبين ولا بمقلين ولا متعطين ، حتى تصيبهم صواعق خزي ويل ، وتحمل بهم فوارع أمر جليل ، تبحث أصولهم كاجنات أصول الفقع^(٣) ، فأولى لأولئك ثم أولى ، فإنا قد قدمنا وأندونا إن أغنى التقديم شيئاً أو تنفع التذير .

قال : فدعا معاوية الضحاك فولاه الكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة ، ثم قام أبو خنيف فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لا نطبق السنة مضر وخطيها ، أنت يا أمير المؤمنين ، فإن هلكت فيزيد بذلك ، فمن أبي فهذا ، وسل سيفه ، فقال معاوية : أنت أخطب القوم وأكرمهم .

ثم قام الأنحن بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت أعلننا ببله ونهاره ، وبسره وعلايته فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك ، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ، وأعلم أنه لا حيلة لك عند الله إن قلمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم من هما ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : (سمنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

قدوم معاوية المدينة وما خاض فيه المباحلة

قال قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء الثمر ، فلما جلسوا تكلم معاوية ، قال : الحمد لله الذي أمرنا بمحمد ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنتم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد ، فإني قد كبر سن ، ووهن عظمي ، وقرب أجل ، وأوهكت أن أدعي فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيت لكم رضا ، وأنتم عبادلة قرش وخيارها ، وأبناء خيارها ، ولم يمتني أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما علي بن حسن رأي فيهما ، وعشيد عجبى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خير أرحمهم الله .

(١) أوجعوا : أسرعوا .

(٢) أوجعوا : أثأروا الشقايات .

(٣) أصول الفقع : أصول الكفاة الزخوة واستشالها سهل ، يريد أن الذي يصيبهم

يبحث أصولهم بسهولة كما تبحث أصول الكفاة الزخوة .

ما تكلم به عبد الله بن عباس

قال : تكلم عبد الله بن عباس ، فقال : الحمد لله الذي الهنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد ، فإني قد تكلمت فأضنت ، وقلت قسماً ، وإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لتبنيها ، إذ اختاره الله لها ، فإني إنما اختار محمداً بجله ، وهو العلم الخير ، واستغفر الله لي ولكم .

ما تكلم به عبد الله بن جعفر

قال : أقام عبد الله بن جعفر فقال : الحمد لله أهل الحمد ومثناه ، نحمده على إلها منا حمده ، ونرغب إليه في تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً حمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ، فأولوا الأرحام بضمها وأولى يعض في كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولوا رسول الله ، وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وإيم الله ولو لو به بد نبيهم لوضعوا الأمر موضعهم ، لطفه وصفقه ، ولأطيع الرحمن ، وعصى الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيمان ، فائق الله يا معاوية ، فإني قد صرت راعياً ، ونحن رعية ، فانظر لرعيك فإني مسئول عنها غداً ، وأما ما ذكرت من ابن عمي ، وتركك أن تحضرها ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بما ، وإني لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، قلل أو دع . واستغفر لي الله ولكم .

ما تكلم به عبد الله بن الزبير

قال : فحككم عبد الله بن الزبير ، فقال : الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمد على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد : فإني هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بآثرها السلية وأضالها المرصية ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء ، فائق الله يا معاوية وأصنف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسناً وحبناً .

وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتفق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك ، ثم سكت .

ما تكلم به عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، فقال : الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرفنا بدينه صلى الله عليه وسلم أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست ^(١) بهرقلية ، ولا قيصرية ولا كسروية ^(٢) يتوارثها الأبناء عن الآباء ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع السنة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرعاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصة ، لمن كان لها أهل بمن أرفضاه للسلون لأنفسهم ، من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد اللتين من قريش ، فلمعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئاً .

ما تكلم به معاوية

فتكلم معاوية فقال : قد قلت وقلتم ، وإنه ذهبت الآباء ، وبقيت الأبناء ، فابني أحب إلى من أباؤهم ، مع أن ابني إن قاولتموه وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من خير مدد للكل ولا خلافة ، غير أنهم سارا بسيرة حمية ، ثم رجع للكل إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير ، وأنت يا بن عمر منها ، فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله . ثم أمر بالرحلة ، وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم وأعطياتهم : ثم اصصرف راجعاً إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

موت الحسن بن علي رضي الله عنهما

قال : فلما كانت سنة إحدى وخمسين ، مرض الحسن بن علي مرضه الذي مات فيه ، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن ، فكتب إليه معاوية : إن استطلعت ألا يغشى يوم يمر بي إلا يأتيني فيه خبره فافعل ، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفي . فكتب إليه بذلك ، فلما أناه الخبر أظهر فرحاً وسروراً ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ،

(١) ليست بهرقلية : أى ليست ملكية توارثها الملوك أبناءهم ملكهم ، وهرقل كان ملك مصر من قبل الروم .
(٢) قيصرية نسبة إلى قيصر ملك الروم ، وكسروية نسبة إلى كسرى ملك الفرس .

وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا ابن عباس هلك الحسن بن علي ، فقال ابن عباس : نعم هلك (إنا لله وإنا إليه راجعون) ترجعاً مكرراً ، وقد بلغت الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاة . أما والله ما سد جسده حفرك ، ولا زاد ثقتان أجه في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أحبنا به لقد أحبنا بمن كان خيراً منه ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحير الله مصيته ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة . ثم هبط ابن عباس ويكي ، ويكي من حضر في المجلس ، ويكي معاوية ، لما رايت يوماً أكثر يا كياً من ذلك اليوم ، فقال معاوية : بلنتى أنه ترك بيني مناراً . فقال ابن عباس : كنا كان صغيراً فكبر . قال معاوية : كم أنى له من العمر ؟ فقال ابن عباس : أمر الحسن أعظم من أن يحمل أحد مولده . قال : فسكت معاوية يسيراً ، ثم قال : يا ابن العباس : أصبحت سيد قومك من بعده ، فقال ابن عباس : أما ما أبقى الله أباه عبد الله الحسين فلا . قال معاوية : لله أبوك يا ابن عباس ، ما استبأ بك إلا وجدتك معداً .

بيعة معاوية ليزيد وأخذ أهل المدينة

قالوا : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب يخته إلى الألقا ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم ، فكتب إليه يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد ، ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد .

عزل مروان عن المدينة

قال : فلما قرأ مروان كتاب معاوية ألى من ذلك . وأجته قريش . فكتب لمعاوية : إن قومك قد أبوا إيجابتك إلى بيتك ابنك ، فأرأيتك . فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أن ذلك من قبله . فكتب إليه يأمره أن يتزل حمله ، ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، فلما بلغ مروان كتاب معاوية ، أقبل مضطرباً في أهل بيته ، وناس كثير من قومه ، حتى نزل بأخواله بنى كنانة ، ففكا إليهم ، وأخبرهم بالذي كان من رأيه في أمر معاوية ، وفي عزله واستخلافه يزيد ابنه عن غير مقورة مبادرة له ، فقالوا نحن نملك في يدك ، وسيلك في قرابتك فمن رميته بنا أصناه ، ومن شرهته بنا قطنناه ، الرأى رأيك ، ونحن طوع بينك . ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير ، ممن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق ، فخرج فيهم حتى أتى سدة معاوية ، وقد أذن للناس . فلما نظر الحاجب إلى كثرة من معه من قومه وأهل بيته ، منهم من السخوف ، فومقوا إليه ، فضربوا وجهه ، حتى خلى عن الباب ، ثم دخل مروان ، ودخلوا معه ، حتى إذا كان من معاوية بحيث تناه يده .

خطبة مروان بن الحسك بين يدي معاوية

قال بعد التسليم عليه بالخلافة : إن الله عظيم خطره ، لا يقدر قادر قدره ، خلق من خلقه عباداً ، جعلهم لخدمته أوتاداً ، هم رقباه على البلاد ، وخلفاؤه على البلاد ، أسرفهم الظلم ، وألف بهم الدين ، وشد بهم اليقين ومنع بهم الظفر ، ووضع بهم من استكبر ، فكان من قبلك من خلفائنا يعرفون ذلك في سالف زماننا ، وكنا نكون لهم على الطاعة إخواناً ، وعلى من خالف عنها أعرافاً ، يشد بنا العصد ، ويقام بنا الأود ، ونستشار في القضية ، ونستأمر في أمر الرعية ، وقد أصبحنا اليوم في أمور مستحيرة ذات وجوه مستديرة ، فنتع بأزمة السلال ، ونجلس بأهواء الرجال ، يؤكل جزورها ^(١) ، ونمحق أحلافها ^(٢) ، فما لنا لا نستأمر في رضاها ^(٣) ؟ ونحن فطامها وأولات فطامها : وإبى الله لولا جهود مؤكدة ، ومواقف مقدمة ، لأثت أود ولها ، فأثم الأمر يا ابن أبي سفيان وأهدى ^(٤) من تأميرك الصبيان ، وأعلم أن لك في قومك نظراً ، وأن لهم على مناوأتك وزراً ^(٥) .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بجملة ، وأخذ يد مروان ، ثم قال : إن الله قد جعل لكل شئ أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ثم جعلك في الكرم مني محمداً ، والمزمنى والداً ، اخترت من قروم ^(٦) طائفة ، ثم استقلت بسياسة ، فأنت ابن يابغ الكرم ، فحسباً بك وأهلاً من ابن عم ذكرت خلفاً مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نمت ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلوله صوبتها ، وسفور ظلماتها ، حتى يتطأطأ جسيمها ^(٧) ، ويركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفي كل شدة عضده ، وإليك عهد عهده ، وقد وليتك قومك ، وأعظمنا في الخراج سهمك ، وأنا مجير ^(٨) وفدك ، ومحسن وفدك ^(٩) ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والتزول عند رضاك .

(١) يؤكل جزورها : يؤكل لحمها .

(٢) ونمحق أحلافها : يشرب لبنها جبهه فلا يترك منه شئ ، والمراد بالجلتين أن معاوية يستأمر بكل شئ في الخلافة ولا يترك لمروان منها شيئاً .

(٣) يريد مالك لا تأخذ رأينا في الخلافة ونحن قادرون على منع موتها عنك .

(٤) أهدى : أبطل ، وترو : ولا تسرع .

(٥) الوزر اللبأ واللتان .

(٦) القروم جمع قرم وهو الشجاع .

(٧) يتطأطأ جسيمها : حتى يذلل صمها .

(٨) مجير وفدك : مطيعهم جوائز .

(٩) الرفد : المطاء .

فكان أول ما رزق ألف دينار في كلّ حلال ، وفرض له في أهل بيته مئة مئة .

كرامية أهل المدينة البيعة ووردهم لها

قال وذكروا أن معاوية كتب إلى سعيد بن المصاح وهو على المدينة ، يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ، ويكتب إليه عن سارع عن لم يسارع . فلما أتى سعيد بن المصاح الكتاب ، دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر التلظة وأخذهم بالعزم والشدّة ، وسطاً^(١) بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها ، إلا اليسير ، لا سيما بني هاشم ، فإنه لم يجبه منهم أحد ، وكان ابن الزبير من أحد الناس إنكاراً لذلك ، وردّاه .

فكتب سعيد بن المصاح إلى معاوية : أما بعد ، فإني أمرتني أن أدعو الناس لبيعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك عن سارع عن أبيه ، وإنّي أخبرك أن الناس عن ذلك بباطل^(٢) ، لا سيما أهل البيت من بني هاشم ، فإنه لم يجبه منهم أحد ، وبلغني عنهم ما أكره وأما الذي جاهر ببداهته ، وإيالة لهذا الأمر ، فبذل الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالليل والرجال أو تنقم بنفسك ، فترى رأيك في ذلك ، والسلام .

فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر ، وإلى الحسين بن علي ، رضي الله عنهم كتباً ، وأمر سعيد بن المصاح أن يوصلها إليهم ، ويصحب جواباتها .

كتاب معاوية إلى سعيد بن المصاح

كتب إلى سعيد بن المصاح ، أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، ونهيت ما ذكرت فيه من إبطاء الناس عن البيعة . ولا سيما بني هاشم ، وما ذكر ابن الزبير وقد كتب إلي رؤسائهم كتباً ، فسلها إليهم ، وتنجز جواباتها ، وابحث بها إلى ، حتى أرى في ذلك رأيي ، ولتشدّ عزيمتك ، ولتصلب شكيمنتك ، وتحسن نيتك . وعليك بالرفق ، وإيالة والخرق^(٣) ، فإن الرفق رشد ، والخرق نكد ، وانظر حبيباً خامة ، فلا يئله منك مكروه ، فإن له قرابة وحساً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهو ليث عرين ، ولست أنتك إن شاورته أن لا تقوى عليه ، فأما من

(١) سطا بهم : نكل بهم وعاقبهم .

(٢) بباطل بكسر الباء : جمع بطل .

(٣) الخرق : الحق وعلم الزوينة .

يرد مع السباع إذا وردت ، ويكلس إذا كنت^(١) ، فذلك جسد الله بن الزبير ، فاحضره أحد الحضر ، ولا قوة إلا بالله ، وأنا خادم عليك إن شاء الله ، والسلام .

ما كتب به إلى ابن عباس

وكتب إلى ابن عباس : أما بعد ، فقد بلغني إبطائك عن البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين ، وإن لو تكتك بشأن لكان ذلك لي ، ، لأنك ممن ألب عليه وأجلب ، وما معك من أمان قطعتن به ، ولا عهد فممكن إليه ، فلذا أتاك كتابي هذا ، فأخرج إلى المسجد ، والسن تارة عثمان ، وباج علمي ، قد أعذر من أنذر ، وأنت بتسلك أبصر ، والسلام .

ما كتب به إلى عبد الله بن جعفر

وكتب إلى عبد الله بن جعفر : أما بعد ، قد عرفت أني إليك على من سواك ، وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك ، وقد أتاني عنك ما أكره ، فإن بايعة تفكر وإن تأب تجبر ، والسلام .

ما كتب به إلى الحسين

وكتب إلى الحسين : أما بعد ، فقد انتهت إلى منك أمور ، لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة من كان مثلك ، في خطرك وشررك ومزنتك التي أترك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعة ، وابق الله ، ولا تردن هذه الأمة في فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفك الذين لا يوتنون .

ما كتبه إلى ابن الزبير

وكتب إلى جسد الله بن الزبير :

رأيت كرام الناس إن كف عنهم	يحمل رأوا فضلا لمن قد يحملوا
ولا سيما إن كان عفواً بقدره	فذلك أخرى أن يحمل وسطها
ولست بذى لوم تصغر بالي	أنام من الأخلاق من كان ألوما
ولكن غفلاً لست تعرف غيره	وقد غنى قبل اليوم لإبليس آدماء

(١) يكلس : يأوى إلى كنانته وهو مأواه ومبجته .

فأخشى إلا نفسه في ضلاله فأصبح ملعوناً وقد كان مكرماً
وإنى لأخشى أن أهلك بالذى أودت فيجزي الله من كان أظلماً

ما أجابه القوم به رضى الله عنهم

فكان أول ما أجابه عبد الله بن عباس ، فكتب إليه : أما بعد ، فقد جادى كتابك ،
ونهمت ما ذكرت ، وأن ليس منى منك أمان ، وإنه والله ما منك يطلب الأمان إلا معاوية ،
وإنما يطلب الأمان من الله رب العالمين . وأما قولك في قتل ، فوالله لو فعلت لقيت الله ،
وعهد صلى الله عليه وسلم خصمك ، لما إخذه أظلم ولا أبيض من كان رسول الله خصمه . وأما
ما ذكرت من أنى من ألب في عثان وأجلب ، فذلك أمر غيب عنه ، ولو حضرته ما نسبت
إلى شيئاً من التأليب عليه ، وإيم الله ما أراى أحداً غضب لعتان غضبي ، ولا أعظم أحد قتله
إعظامي ، ولو شهدته لصرته ، أو أموت دونه ، ولقد قلت وتنبئت يوم قتل عثان : ولبت الذى
قتل عثان لقيت شتى ممه ، ولا أبقي بعده ، وأما قولك لى : الفن قتله عثان ، فعتان ولد
وطامة وقرابه ، هم أحق بلعنهم منى ، فإن هادوا أن يلنوا فليلنوا ، وإن شادوا أن يسكوا
فليسكوا ، والسلام .

وكتب إليه عبد الله بن جعفر : أما بعد ، فقد جادى كتابك ، ونهمت ما ذكرت فيه من
أرتك إياى على من سواى ، فإن تعلم فيحظك أصبت ، وإن تأب فبنسك نصرت . وأما
ما ذكرت من جبرك إياى على النية ليزيد ، فلعمري لئن أجبرتني عليها لقد أجبرتك وأباك على
الإسلام ، حتى أدخلنا كما كارهين غير طائعين ، والسلام .

وكتب إليه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما :

ألا مع الله الذى أنا عبده	فأخزى إله الناس من كان أظلماً
وأجرا على الله العظيم بحلته	وأسرهم فى اللوقات تحملاً
أفرك أن قالوا حللم برة	وليس بنى حلم ولكن تحملاً
ولورمت ما إن قد زعمت وجدنى	هزبر عرين يترك القرن أكتاً
وأقسم لولا يمة لك لم أكن	لأخضها لم تسج منى مملاً

وكتب إليه الحسين رضى الله عنه : أما بعد ، فقد جادى كتابك تذكر فيه أنه انتهت
إليك منى أمور ، لم تكن تظننى بها ، رغبة فى عنها ، وإن الحسنات لا يهين لها ، ولا يسد

إليها إلا الله تعالى ، وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عني ، فإنما رقى له الملاقون ، المشاهون بالبيعة ، للفرقون بين الجمع ، وكذب الصاؤون للثاقبون ، ما أردت حرباً ولا خلافاً ، وإني لأخشى الله في ترك ذلك . منك ومن حزبك ، القاسطين المحلين ، حزب الظالم ، وأعدوان الشيطان الرجيم . ألت قاتل حجير ، وأصحابه السابدين الخبيثين ، الذين كانوا يستغفرون البدع ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، قتلهم ظلماً وعدواناً ، من بعد ما أعطيتهم للوائيق النليظة ، واليهود للؤكدة ، جرأة على الله واستخفافاً بهده ، أو لست بقاتل عمرو بن الحنق ، الذي أخلقت وأبليت وجهه العبادة ، قتلته من بعد ما أعطيت من اليهود ما لو فهمته المصم^(١) نزلت من شف^(٢) الجبال ، أو لست للدهى زياداً في الإسلام^(٣) ، فزعمت أنه ابن أبي سفيان ، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش^(٤) وللماهر الحبر^(٥) ، ثم سلطه على أهل الإسلام ، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ويصلبهم على جذوع النخل ، سبحانه الله يا معاوية ! لكأنك لست من هذه الأمة ، وليسوا منك . أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك فيه زيادة أنه على دين على كرم الله وجهه ، ودين على هو دين ابن عمه صلى الله عليه وسلم ، الذي أجلك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك بنجم الرحلتين : رحلة الشتاء والصيف^(٦) ، فوضعها الله عنكم بنا ، منة عليكم ، وقلت فيما قلت : لا تردهذه الأمة في فتنة . وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها ، وقلت فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك ، فإن أفضل فإنه قرابة إلى ربي ، وإن لم أقمه فاستغفر الله ليهي ، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى ،

(١) المصم جمع أعصم وهي الوعول التي تتمصم بأهل الجبال .

(٢) شف الجبال . قتلها وأعالها .

(٣) زياد . هو زياد بن أبيه ، كان أبو سفيان والله معاوية قد أنكر أنه ابنه وادعى أن زوجته أنت به من سجاح وكان ذلك في الجاهلية فسمى زياد بن أبيه لأنه لا يطر له أب فألقته معاوية بأبيه وجعله أخاه وصماه زياد بن أبي سفيان واستعان به على المسلمين كما ذكر الحسين رضي الله عنه .

(٤) أي يسبب لأمة لأمتها هي الفراش .

(٥) الماهر : الزاني وإزارية لها الرجم بالحجارة ، أو المعنى الماهر الزاني له الرجم ولا يسبب له الولد .

(٦) يريد كان أكبر شرفك أن تتاجر كما كان يتاجر أبوك فنذهب في الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن للتجارة .

وقلت فيما قلت : متى تكذبن أ كذك ، فكذبن يا معاوية فيما بدا لك ، فلمرى لتديناً يكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ، ولا تحقق إلا عملك ، فكذبن ما بدا لك ، وائق الله يا معاوية ، واعلم أن الله كتاباً لا يحد صنيرة ولا كيرة إلا أحساباً . واعلم أن الله ليس بناس لك تلك بالظنة ، وأخذك بالهمة ، وإمارتك سيئاً يشرب الشراب^(١) ، ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا وقد أوجعت نفسك ، وأهلكك دينك ، وأضعت الرعية والسلام .

قدوم معاوية للدينة على هؤلاء القوم

وما كان بينهم من المنازعة

قال وذكروا أنه لما وجاب القوم معاوية بما جاوبوه ، من الخلاف لأمره ، والكراهية لبيته يزيد ، كتب إلى سعيد بن العاص ، يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد ، أخذاً بظلمة وشدة ، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايخوا ، وأمره أن لا يحرك هؤلاء الثفر ، ولا يهيجهم . فلما قدم عليه كتاب معاوية أخذهم بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايحه أحد منهم . فكتب إلى معاوية : إنه لم يبايحن أحد ، وإنما الناس تبع لهؤلاء الثفر ، فلو بايوك بايكت الناس جميعاً ، ولم يختلف عنك أحد . فكتب إليه معاوية يأمره أن لا يحركهم إلى أن يقدم ، تقدم معاوية للدينة حلجاً ، فلما أن دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه ، ما بينوا كب وماش ، وخرج النساء والسيان ، فلقينه الناس على حال طاقهم وما تسارعوا به في القوت والقرب ، فلان لمن كافحه ، وفاوض العامة بمصادته وتألفهم جهده ، مقاربة ومصانعة ، ليستميلهم إلى ما دخل فيه الناس ، حتى قال في بعض ما يحظ بهم : يا أهل المدينة ما زلت أطوى الحزن من وعاء السفر بالحبلطالمتكم ، حتى انطوى البعد ، ولان الحزن ، وحق لجار رسول الله أن يتاق إليه .

فرد عليه القوم : نفسك ودارك ومهاجرك ، أما إن لك منهم كاشفاك الحليم البري^(٢) ، والحق للتشاهد .

(١) يريد بالصبي إنه يزيد ومعنى يشرب الشراب أنه ياتر الخمر وكان يطن بها ، ويلعب بالكلاب أى يصطاد بها ويلعب بعضها على بعض فتتهارش . فكان همه الشراب والقتل .
(٢) الحليم : الصديق ، والبر الخالص في صداقته ، والحق : القريب الذى يحترم صاحبه ويمحتمل به وللتشاهد : الذى يدوم الحفاوة .

قال : حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين بن علي ، وحجده الله بن عباس ، فقال معاوية : مرحباً بأبن بنت رسول الله وأبن صنو أبيه ، ثم انحرف إلى الناس ، فقال : هذان غيخان يحيى عبد مناف ، وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذامرة ، ويضاحك هذا أخرى ، حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته للشاة والنساء والصبيان ، يسمون عليه ويسأرونه إلى أن نزل ، فانصرفا عنه قال الحسين إلى منزله ، ومضى عبد الله بن عباس إلى للسجد فدخله .

وأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام ، حتى آتى عائشة أم المؤمنين فاستأذن عليها فأذنت له وحده ، ولم يدخل عليها معه أحد ، وعندها مولاه ذكوان . فقالت عائشة : يا معاوية ، أكنت تأمن أن أتدلك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبي بكر ؟ قال معاوية : ما كنت لتصل ذلك ، قالت : لم ؟ قال : لأنى فى بيت آمن ، بيت رسول الله . ثم إن عائشة حمدت الله وأملت عليه ، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت أبى بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهما ، والاتباع لأثرهما ، ثم صمتت . قال : فلم يحطب معاوية ، وخلف أن لا يبلغ ما بلغت ، فارتجى الحديث ارتجالاً ، ثم قال : أنت — والله يا أم المؤمنين — المالة بالله وبرسولة ، دللتنا على الحق ، وحضشتنا على حفظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يطلع أمرك ، ويسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للمباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيمينهم فى أعناقهم ، وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ، أقترن أن يتقضوا عهودهم ومواثيقهم ؟ فلما صمتت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره ، فقالت : أما ما ذكرت من عهود ومواثيق ، فأتق الله فى هؤلاء الرهط ، ولا تجعل فيهم ، فطمعهم لا يسنعون إلا ما أحببت ، ثم قام معاوية ، فلما قام قالت عائشة : يا معاوية ، كتلت حبراً وأصحابه المابدين المجتهدين . فقال معاوية . دعى هذا ، كيف أنا فى الذى يقضى وينتج فى حوائجك ؟ قالت : صالح ، قال : فديننا وإلزام حق نلقى ربنا ، ثم خرج ومعه ذكوان ، فاتكأ على يد ذكوان ، وهو يعشى ويقول : تالله إن رأيت كاليرم قط خطيباً ألغى من عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى حتى آتى منزله . فأرسل إلى الحسين بن علي ، فقال له : يا بن أخى ، قد استوثق الناس لهذا الأمر ، غير خمسة نفر من قريش ، أنت هودهم بأبن أخى ، فأزبك إلى الخلاف ؟ قال الحسين : أرسل إليهم ، فإن بأسوك كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن صليبت على . بأمر . قال : ولعل ؟ قال : نعم ، قال : فأخذله أن لا يجبر بمديهما أحداً ، فخرج ، وقد

أقصد له ابن الزبير رجلاً بالطريق ، فقال : يقول لك أخوك ابن الزبير : ما كان ؟ فلم يزل به حتى استخرج منه شيئاً . قال : ثم أرسل معاوية بعده إلى ابن الزبير ، غفلاً به . فقال له : قد استوثق الناس لهذا الأمر ، غير خمسة نفر من قرشي أنت تهودهم ، يا ابن أخي ، لما أربك إلى الحلاف ؟ قال : فأرسل إليهم ، فإن يابوك كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلت على بأمر . قال : وتعمل ؟ قال : نعم . فأخذ عليه أن لا يجبر بحديثهما أحداً . قال : فأرسل بعده إلى ابن عمر ، فأناؤه وغفلاً به ، فكلّمه بكلام هو ألين من صاحبه وقال : إني كرهت أن أدع أمة محمد بسدى كالفان لا رضى لها ، وقد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر أنت تهودهم ، لما أربك إلى الحلاف ؟ قال ابن عمر : هل لك في أمر تحسن به السماء وتدرك به حاجتك ؟ فقال معاوية : وددت ذلك ، فقال ابن عمر : تبرز سررك ، ثم أجبني فأجابك ، على أن يأتى بسدك أدخل فيها اجتمعت عليه الأمة ، فوالله لو أن الأمة اجتمعت بسدك على عبد حبشي لحدخت فيها تدخل فيه الأمة . قال : وتعمل ؟ قال : نعم . ثم خرج وأرسل إلى عبد الرحمن ابن أبي بكر ، غفلاً به . قال : يأى يد أو رجل تقدم على مصيقي ؟ فقال عبد الرحمن : أرجو أن يكون ذلك خيراً لى ، فقال معاوية : والله لقد هممت أن أقتلك ، فقال : لو فعلت لأجبتك الله في الدنيا ، ولأدخلك به في الآخرة النار ، قال : ثم خرج عبد الرحمن بن أبي بكر ، وبقي معاوية يومه ذلك يعطى الخوفاً ، ويصلى مذمة الناس .

فلما كان صبيحة اليوم الثانى ، أمر بفراش فوضع له ، وسويت مقاعد الخامة حوله وتلقاه من أهله ، ثم خرج وعليه حقة يمانية ، وحمالة ذكوان ، وقد أسبل طرفها بين كتفيه ، وقد تنفّل^(١) ومطر ، فعد على سريره ، وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر صاحبه أن لا يأخذ لأحد من الناس وإن قرب ، ثم أرسل إلى الحسين بن على ، وعبدالله بن عباس ، فسبق ابن عباس ، فلما دخل وسلم أقصده فى الفراش عن يساره ، فحاذته ملياً ، ثم قال يا ابن عباس ! لقد وفر الله حظك من مجاورة هذا القبر الشريف ، ودار الرسول عليه الصلاة والسلام . فقال ابن عباس : ثم أطلع الله أمير المؤمنين ، وحظنا من القناعة بإلحاح ، والتجافى عن الكل أوفر ، فجل معاوية يحذمه ويمجد به عن طريق المجاورة ، ويعبد إلى ذكر الأعمار على اختلاف التراز والطباع ، حتى أقبل الحسين بن على ، فلما رآه معاوية جمع له وسادة كانت على عيئه ، فدخل الحسين وسلم ، فأشار إليه ، فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة فسأله معاوية عن حال بنى أخيه الحسن وأساتهم ، فأخبره ، ثم سكت . قال : ثم ابتدأ معاوية

(١) تنفّل : تخضع بالثألة وهى من أعظم أنواع المسك .

قَالَ : أما بعد ، فالحمد لله على النعم ، ومنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله تعالى عما يقول
 للعدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المخلص البعوث إلى الجن والإنس كافة ، لينذرهم بقرآن
 لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . فأدى عن الله ، وصدق
 بأمره ، وصبر على الأكث في جنبه ، حتى وضع دين الله ، وعز أوليائه . وقنع للمشركون ،
 وظهر أمر الله وهم كلهم ؛ فبفضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار
 منها الترك لما سخر له ، زهادة واختياراً لله ، وأتعة واقتداراً على الصبر ، بشياً لما يهوم ويقي ؛
 فهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفه رجلاً من محفوظان ، وثالث مشكور ، وبين
 ذلك غرض طال ما طلقناه مشاهدة ومكافحة ومعاينة وصاحاً ، وما أعلم منه فوق ما علمان ،
 وقد كان من أمر يزيد ما سبقت إليه وإلى تيجونه ، وقد علم الله ما أحاول به في أمر الرعية ،
 من سد الخلل ، ولم الصنع بولاية يزيد بما أعطى العين ، وأحد العمل ، هذا معناه في يزيد ،
 وفيما فضل القرابة ، وحظوة العلم ، وكال للرودة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على للناظرة
 وللقابلة ، ما أعيان مثله عندك ، وعند غيرك ، مع علمه بالذمة ، وقراءة القرآن ، والحلم الذي
 يرجع بالصم الصلاب ، وقد علمنا أن الرسول المفوظ بصمة الرسالة ، قدم على الصديق
 والمباروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل ، من لم
 يقارب القوم ولم ياتقدم برتبة في قرابة موصولة . ولا سنة مذكورة ، قتادهم الرجل بأمره ،
 وجمع بهم صلاتهم ، وحفظ عليهم فيهم ، وقال فلم يقل معه ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أسوة حسنة ، فهلاً بنى عبد المطلب ، فأنا وأتم شبا نفع وجد ، وما زلت أرجو الإنصاف
 في اجتاهك ، لما يقول القائل إلا يفضل قولك ، فردا على ذي رحم مستحب ما يحمده به البصيرة
 في كتابك ، واستغفر الله لي ولكما .

قَالَ : فخير ابن عباس للكلام ، ونصب يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال : طي
 وسلك ، فأنا للراد ، وضيق في التهمة أوفر ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين ، حمد الله ،
 وصلى على الرسول ثم قال : أما بعد يا معاوية ، قلن يؤدي القائل ، وإن أظن في صفة الرسول
 صلى الله عليه وسلم من جميع جزء ، وقد فهمت ما ليست به الخلف بعد رسول الله من إجماز
 الصفة وانتكبت عن استبلاغ النص ، وهيات هيات بالمعاوية : فضع الصبح خفة
 العجي ، وهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت ، واستأثرت حتى
 أجمعت ، ومنعت حتى حملت ، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه
 بضيق ، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ، ونصيه الأكل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من
 أكثاله ، وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس في يزيد ، كأنك تصف محبوباً ، أو تمت

غالباً ، أو يخبر عما كان مما احتوته بلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رايه خلف ليزيد فيما أخذ فيه ، من استراجه الكلاب للهاجرة عند النهارش ، والحمام السبق لأثر ايهن ، والقيان ذوات المازف وضرب للالهى تجده بأصرا ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لايه ، فوالله ما برحت تضح باطلا في جور ، وحقا في ظلم حتى ملأت الأسمية (١) وما ينك وبين اللوت إلا غصنة ، تقدم على عمل محفوظ ، في يوم مشهود ، ولات حين مناص ، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر ، ومنعتنا عن آياتنا تراثا ، ولقد - لمر الله - أورتنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بها ، أما - حجيت به القائم عند موت الرسول ، فأدعن للعبة بذلك ، ورده الإيمان إلى الصف ، فركبتم الإعايل ، وطمع الإناعيل ، وقتلتم كان ويكون ، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان تصدها لتترك ، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار ، وذكرت قيادة الرجل القوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمره ، وقد كان ذلك ، ولمرو بن الماص يومئذ فضيلة بصحة الرسول ، ويسته له ، وما صار - لمر الله - يومئذ مبشئهم حتى أتت القوم أمرته ، وكرهوا تدينه ، وعدوا عليه أفضاله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاجرهم مشر المهاجرين ، لا يعمل عليكم بعد اليوم خيرى . فكيف تخرج بالسوخ من صل الرسول ، في أوكد الأحكام ، وأولاهما بالجمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت صاحب تاجها ، وحوكك من لا يؤمن في صحبته ، ولا يتمد في دينه وقرباته ، وتخططهم إلى مسرف متنون ، تريد أن تليس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دياه ، وتثقي بها في آخرتك . إن هذا هو الحشران للين . واستشر الله لي ولكم .

قال ؟ فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال : ما هذا يا ابن عباس ؟ ولما عندك ادعى وأمر . فقال ابن عباس : لمر الله إنها لدنية الرسول ، وأحد أصحاب السماء ، وفي البيت للطهر ، قاله عما تريد ، فإن لك في الناس متعنا ، حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين . فقال معاوية : أعوذ الحلم التحلم ، قل : وخيره التحلم عن الأهل . انصرفا في حفظ الله ، ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن ابن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال : يا عبد الله بن عمر قد كنت تحدثنا أنك لاتب أن تبيت ليلة وليس في عنقك يعة جماعة وأن لك للدنيا وما فيها ، وإنى أحزرك أن تشق عصا للسليين ، وتسمى في تريق ملثهم ، وأن تسلك دماهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من

(١) الأسمية جمع سقاء وهو القربة ، والمراد أنك تكلمت كثيراً حتى ملأت الأوعية من كثرة كلامك .

القضاء ، وليس لعماد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس يسيتم في أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهدهم ومواثيقهم ، ثم سكت .

تتكلم عبدالله بن عمر ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد يا معاوية ، لقد كانت قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير من آبائهم ، فلم يروا في آبائهم ما رأيت في ابنك . فلم يحاربوا في هذا الأمر أحدا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علومهم ، وإنك تحذرن أن أشقّ عصا المسلمين ، وأفرق مائهم . وأسلك دعاءهم ، ولم أكن لأفضل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناس فسأدخل في صالح ما تدخل فيه أمة محمد . فقال معاوية : يرحمك الله ليس عندك خلاف . ثم قال معاوية لعبد الرحمن بن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر . فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو دعت أنا نكلك إلى الله فها جسرت عليه من أمر يزيد ، والذي نفس يده لنسبها شورى ، أو لأعيدنها جنة ، ثم قام ليخرج ، فطلق معاوية بطرف رداءه . ثم قال : على رسلك ، اللهم اكفنيه بما شئت ، ثم قال له : لا تظهرن لأهل الشام ، فأنى أخشى عليك منهم . ثم قال لابن الزبير ، نحو ما قاله لابن عمر . ثم قال له : أنت طيب رواق ، كما خرجت من جحر انجسرت في آخره ، أنت ألئت هذين الرجلين ، وأخرجتما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير . أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن باسناه أبكما نطبع ، أنطبعك أم نطبعه ؟ إن كنت ملئت الخلافة فأخرج منها وباع ليزيد ، فمنن نبايه ، فكفر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلا نفسك ، ولكأن بك قد تحبطت في الجبال . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج .

ثم خرج ، فأمر للنادى أن ينادى في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع فاجتمع الناس في المسجد ، وقصد هؤلاء حول للنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه . ثم ذكر يزيد وفضله ، وقرأه القرآن ، ثم قال : يا أهل المدينة ، لقد هممت بيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدنة إلا بعثت إليها في يمينه ، فباع الناس جميعا ، وسلموا ، وأخبرت المدينة يمينه ، وقلت يمينته وأصله ، ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كانوا أجدر أن يسلم ، والله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبأيت له ، فقام الحسين فقال : والله لقد تركت من هو خير منه أبا وأما ونسما ، فقال معاوية : كأنك تريد نفسك ؟ فقال الحسين : نعم ، أسلمك الله . فقال معاوية : إذا أخبرك ، أما قولك : خير منه أما ، فاعلمى : أمك خير من أمه ، ولو لم تكن إلا أنها امرأة من قريش لكان للنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ثم فاطمة في دينها وما بقها ، فأمكن لعمر الله خير من أمه ، وأما أبوك فقد حاكم أباه

إلى الله ، قضى لأبيه على أبيك . فقال الحسين : حبيك جهلك ، آثرت العاجل على الآجل .
 فقال معاوية : وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد فها ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك .
 فقال الحسين : هذا هو الإفك والזור ، يزيد شارب الخمر ، ومشترى اللهو خير مني ؟ قال
 معاوية : مهلا عن هتم ابن عمك ، فإني لو ذكرت عنده بسوء لم يشتك . ثم التفت معاوية
 إلى الناس وقال : أيها الناس ، قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، ولم يستخلف
 أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت يمينه بيعة هدى ، فصل بكتاب الله وسنة
 نبيه ، فلما حضرته الوفاة ، رأى أن يستخلف عمر ، فصل عمر بكتاب الله ، وسنة نبيه ، فلما
 حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر ، اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر
 ما لم يصنع رسول الله ، وصنع عمر ما لم يصنع أبو بكر ، كل ذلك يصنونه نظراً للمسلمين ،
 فذلك رأيت أن أبايع يزيد لما وقع الناس في من الاختلاف ، ونظراً لهم بين الإنصاف .

ما قال عبد الله بن الزبير لمعاوية

قال : وذكروا أن عبد الله بن الزبير قام إلى معاوية فقال : إن رسول الله صلى الله عليه
 وسلم قبض ، فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أبو بكر
 أن يستخلف عمر ، وهو أقرى قريش منه نسباً ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر
 اختارهم من المسلمين ، وفي المسلمين ابنه عبد الله ، وهو خير من ابنك ، فإني خشيت أن تدع الناس
 على ما تركهم رسول الله ، فيختارون لأنفسهم ، وإن خشيت أن تستخلف من قريش كما استخلف
 أبو بكر خير من علم ، وإن خشيت أن تصنع مثل ما صنع عمر ، تختار رهطاً من المسلمين ،
 وتزوجها عن ابنك ، فاقبل .

فقول معاوية عن التبر ، وانصرف فلحقها إلى منزله ، وأمر من حرسه وشرطته قوماً أن يحضروا
 هؤلاء الثفر الذين أبوا البيعة ، يوم الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله
 بن عباس ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، وأوصاهم معاوية فقال : إني خارج المشية إلى أهل الشام ،
 فأخبركم أن هؤلاء الثفر قد بايوا وسلموا ، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقني أو يكذبني فيه ،
 فلا ينقضي كلامه حتى يطير رأسه ، فعذر القوم ذلك ، فلما كان النصف ، خرج معاوية ، وخرج
 معه هؤلاء الثفر ، وهو يضاحكهم ، ويحدثهم ، وقد ألبسهم الحلل ، فألبس ابن عمر حلة حمراء ،
 وألبس الحسين حلة صفراء ، وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حلة
 بيضاء . ثم خرج بينهم ، وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم : أي القوم ، وأنهم بايوا ، قال :

يأهل الشام إن هؤلاء الثغر دعاهم أمير المؤمنين ، فوجدهم وإسطين مطيعين ، وقد يابسوا وسلبوا ، قال ذلك : والقوم سكوت ولم يتكلموا شيئا حذر القتل ، فوثب أناس من أهل الشام فقالوا : يا أمير المؤمنين إن كان رابك منهم ريب ، فخل بيننا وبينهم . حتى نضرب أعناقهم . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام . لا أسمع لهم ذا كرا بسوء ، فإنهم قد يابسوا وسلبوا ، وارتضوني فرسيت عنهم ، رضى الله عنهم .

ثم ارتحل معاوية راجعا إلى مكة ، وقد أعطى الناس أعطياتهم ، وأجزل المطاء ، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ، ولم يخرج لبنى هاشم جائزة ولا عطاء . فخرج عبد الله ابن عباس في أثره حتى لحقه بالروحاء ، فجلس بيابه ، فبعث معاوية يقول : من بالباب ؟ فقال : عبد الله بن عباس أفلم يأذن لأحد . فلما استيقظ قال : من بالباب ؟ قيل : عبد الله بن عباس ، فدعا بدابته ، فأدخلت إليه ، ثم خرج راجعا ، فوثب إليه عبد الله بن عباس ، فأخذ بلجام البغلة ، ثم قال : أين تذهب ؟ قال : إلى مكة ، قال : فأين جوازنا كما أجزت غيرنا ، فأومأ إليه معاوية ، فقال : والله ما لك عندي جائزة ولا عطاء حتى يبيع صاحبك . قال ابن عباس : قد أتى ابن الزبير فأخرجت جائزة بنى أمية ، وأبى عبد الله بن عمر ، فأخرجت جائزة بنى عدى ، فلما إن أتى صاحبنا ، وقد أتى صاحب غيرنا ؟ فقال معاوية : لستم كغيركم ، لا والله لا أعطيكم درهما حتى يبيع صاحبكم . فقال ابن عباس : أما والله لئن لم تفعل لألحقن بساحل من سواحل الشام ، ثم لأقولن ما تعلم ، والله لأترككنم عليك خوارج . فقال معاوية . لا ، بل أعطيكم جوائزكم ، فبست بها من الروحاء ومضى راجعا إلى الشام ، فلم يلبث إلا قليلا ، حتى توفى عبد الرحمن بن أبي بكر في نومة نامها رحمه الله .

ما قال سعيد بن عثمان بن عفان لمعاوية

قال : فلما قدم معاوية الشام ، أتاه سعيد بن عثمان بن عفان ، وكان شيطان قريش ولسانها . قال : يا أمير المؤمنين علام تباع ليزيد وتركني ؟ فوالله لعل أن أتى خير من أبيه ، وأخى خير من أمه ، وأنا خير منه ، وأنت قلت ما أنت فيه بأبي ، فضعك معاوية وقال : يا بن أخى أما قولك : إن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية ، وأما قولك : إن أمك خير من أمه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون قلت ما أنا فيه بأبيك ، فلما هو الملك يؤتيه الله من يشاء ، قل أبوك رحمه الله ، فوالله لعل بنو العاص^(١) وقامت فيه بنو حرب ، فمن أعظم بذلك منه عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد ، فوالله ما أحب أن دأرى معاوية رجلا مثلك يزيد ، ولكن دعني من هذا القول ، وسلفي أعطك . فقال

(١) توارثته بنو العاص : تركت العاص من قتلته .

سعيد بن عثمان : يا أمير المؤمنين ، لا يحسن يزيد مركبا ما دمت له ، وما كنت لأرضى
يخفى حتى دون بعض ، فإذا آيت فأعطيني بما أعطاك الله . قال معاوية : لك خراسان .
قال سعيد : وما خراسان ؟ قال : إنها لك طعمة وصصة رحم ، فخرج راضيا ، وهو
يقول :

ذكرت أمير المؤمنين ونضله فقلت جزاء الله خيرا بما وصل
وقد سبقت مني إليه برادر من القول فيه آفة العقل والزال
فناد أمير المؤمنين بفضله وقد كان فيه قبل عودته كميل
وقال خراسان لك اليوم طعمة فمجزى أمير المؤمنين بما فعل
فلو كان عثمان الصدقة مكانه لما نالني من ملكه فوق ما بذل

فلما انتهى قوله إلى معاوية ، أمر يزيد أن يزوده ، وأمر إليه بمخلة ،
وهيمة فرسخا .

قدوم أبي الطليل على معاوية

قال : وذكروا أنه لم يكن أحد أحب إلى معاوية أن يلقاه من أبي الطليل الكتاني ،
وهو عامر بن واثقة ، وكان فارس أهل صفين ، وشارعهم ، وكان من أحسن الناس بجلي كرم الله
وجهه ، فقدم أبو الطليل الشام يزود ابن أخ له من رجال معاوية ، فأخبر معاوية بقدومه ،
فأرسل إليه ، فأفاده وهو شيخ كبير ، فلما دخل عليه ، قال له معاوية : أنت أبو الطليل طمر
ابن واثقة ؟ قال : نعم . قال معاوية : أكنت ممن قتل عثمان أمير المؤمنين ، قال : لا ، ولكن
ممن شهد فلم ينصره ، قال : ولم ؟ قال : لم ينصره للمهاجرين والأنصار ، فقال معاوية : أما والله
إن نصرته كانت عليهم وعليك حقا واجبا ، وفرضا لازما ، فلذضيموه فقد فعل الله بكم ما أتم
أهله ، وأحاركم إلى ما رأيتم ، فقال له أبو الطليل : فما منك يا أمير المؤمنين ، إذ ترجست به ريب
للنون أن تنصره ومك أهل الشام ؟ قال معاوية : أو ما ترى طلي لئمه ، فضحك
أبو الطليل وقال : بلى ، ولكني وإياك كما قال عبيد بن الأبرص :

لا أعرفك بعد للوت تدبني وفي حياتي ما زودتني زاحي

فدخل مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحكم ، فلما جلسوا نظر
إليه معاوية ، ثم قال : أنصرفون هذا الشيخ ؟ قالوا : لا ، فقال معاوية : هذا خليل علي بن
أبي طالب وفارس صفين ، وشارع أهل العراق ، هذا أبو الطليل . قال سعيد بن العاص : قد

(١) الميل : بفتح الميم والياء : الأعوجاج وعدم الاستقامة .

عرفناه يا أمير المؤمنين ، فما يمنك منه ؟ وعثمه اقوم ، فزجرهم معاوية وقال : مهلا ، قرب يوم ارتفع عن الأسباب قد صقم به ذرعا ، ثم قال : أنصف هؤلاء يا أبا الطليل ؟ قال : ما أنسركم من سوء ، ولا أعرفهم بخير ، وأنشد :

فإن تكن المداوة قد أكتت فخر عداوة للرء السباب

قال معاوية : يا أبا الطليل ، ما أبقى لك الدهر من حب علي ؟ قال : حب أم موسى ، وأهكو إلى الله التفسير ، فضحك معاوية ، قال : ولكن والله هؤلاء الذين حولك لو شئوا حتى ما قالوا هذا . فقال مروان : أجل ، والله لا قول الباطل . قال : ثم جهزه بمساوية ، وألحقه بالكوفة .

ما حاول معاوية من تزويج يزيد

قال : وذكروا أن يزيد بن معاوية سهر ليلة من الليالي ، وعنده وصيف لمعاوية يقال له رفيق ، فقال يزيد : أستمم الله بقاء أمير المؤمنين ، وعافيته إياه ، وأرغب إليه في تولية أمره وكفاية همه ، فقد كنت أعرف من جيل رأى أمير المؤمنين في ، وحسن نظره في جميع الأشياء ما يؤكدا الثقة في ذلك والتوكل عليه ؟ متنى من البرج بما جمعت في صدري له ، وتطالبه إليه ، فأضلع من أمرى وترك من النظر في شأني ، وقد كان في حله ، وعله ، ورضائه ، ومعرفة ، بما يحق لشئ النظر فيه ، غير غافل عنه ، ولا تارك له ، مع ما يعلم من هيبته له وخشيته منه ، فإله يحزه عن إحسانه ، ويظهر له ما اجترح من عهده ونسيانه ، فقال الوصيف : وما ذلك جعلت فداك ؟ لأنهم على قضيه إياك ، فإنك تعرف قضيله لك ، وحرصه عليك ، وما يخامرهم من حبك ، وأن ليس شيء أحب إليه ، ولا أكرهه منك لديه ، فأذكر بلاءه ، واشكر حباه ، فإنك لا تباع من شكره إلا بمون من الله .

قال : فأطرق يزيد إطرأ عرف الوصيف منه ندامت على ما بدا منه ، وبلغ به ، فلما آتب من عنده توجه نحو مدة معاوية ليلا وكان غير محبوب عنه ، ولا محبوب دونه ، فلم معاوية أنه ما ساء به إلا خبر أراد إعلامه به . فقال له معاوية : ما وراءك ؟ وما جاء بك ؟ قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، كنت عند يزيد ابنك : فقال فبا استبر من الكلام كذا وكذا ، فوجب معاوية وقال : وعملك ما أضنا منه ؟ رحمه له ، وكراهية لما هجاه وخالف هواه ؟ وكان معاوية لا يسئل بما يرضيه شيئا . فقال علي به ، وكان معاوية إذا أتمت الأمور للشكلة للحضرة ، بث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شهادتها واستمهال مضلاتها ،

فما جاءه الرسول قال : أجب أمير المؤمنين ، حسب يزيد أما دعاه إلى تلك الأمور التي يفرح
إليه منها ، ويستعين برأيه عليها ، فأقبل حتى دخل عليه ، فسلم ثم جلس . قال معاوية : يا يزيد
ما الذي أضعنا من أمرك وتركتنا من الحيلة عليك ، وحسن النظر لك ، حيث قلت ما قلت ؟
وقد تعرف رحمتي بك ، ونظري في الأشياء التي تملكك ، قبل أن تخاطر على وهلك ، فكنت
أطلبك على تلك النعماء شاكرا ، فأصبحت بها كافرا ، إذ فرط من قولك ما أؤمتني فيه إضاعتني
إياك ، وأوجبت عليّ منه التخصير ، لم يجر لك عن ذلك تخوف سخطي ، ولم يجبرك دون ذكر
سالف نعمتي ، ولم يردك عنه حق أبوي ، نأى ولد أعق منك وأكد ، وقد علمت أني تخطأت
الناس كلهم في تقديمك ، ونزلتهم لتوليقي إياك ، وضعتك لعلما على أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وفهم من عرفت ، وحاولت منهم ما علمت ؟ قال : فتكلم يزيد ، وقد خفه من
شدة الحياء الشرقي ، وأخضله^(١) من ألم الوجد العرق . قال : لا تنزمني ككر نعمتك ، ولا تنزل
في عقابك ، وقد عرفت نعمة مواصلتك يرك ، وخطوي إلى كل ما يسرك ، في سرى وجهرى
فليسكن سخطك ، فإن الذي أرى له من أعياء حمله وثقله ، أكثر مما أرى لنفسى ، من ألم
ما بها وهدته ، وسوف أنبئك وأعلمك أمرى . كنت قد عرفت من أمير المؤمنين استكمل الله
بقائه ، نظرا في خيار الأمور لي ، وحرصا على سياقها إلي ، وأفضل ما عسيت أستعمله بعد
إسلامي للراة الصالحة وقد كان ما تحدث به من فضل جمال أريب بلى إسحاق وكان أدبها ما قد
سطع وشاع في الناس ، فوقع متى بموقع الهوى فيها ، والرغبة في نكاحها ، فرجوت ألا تنزع
حسن النظر لي في أمرها ، فتركت ذلك حتى استنكمتها بملها ، فلم يزل ما وقع في خلدي ينمو
ويستل في صدرى ، حتى هيل صبرى ، فبعت بصرى ، فكان مما ذكرت تخصيرك في أمرى ، فإله
يجزيك أفضل من سؤالى وذكرى . فقال له معاوية : مهلا يا يزيد ، فقال : علام تأتى بالهل
وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين حباك ومروءتك وثقاك ؟ فقال يزيد : قد
ينقلب الهوى على الصبر والحلم ، ولو كان أحد يتبجح قيا يبتلى به من الهوى يتناه ، أو يدفع
ما أقصده^(٢) بحمده ، لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام ، وقد خبرك القرآن بأمره .
فقال معاوية : لما منعك قبل الفوت من ذكره ؟ قال ما كنت أهرقه ، وأثق به من جبل نظرك له ،
قال : صدقت ، ولكن أكنم يابى أمرك بحملك . واستمن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن
البوح به غير نافلك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن .

(١) أخضله : بطله .

(٢) أقصده : ضربه .

وكانت أريئب بنت إسحاق مثلاً في أهل زملتها في جمالها ، وعام كالمها وشرفها ، وكثرة مالها ، فتزوجها رجل من بني عمها يقال له عبد الله بن سلام من قرشي ، وكان من معاوية بالمنزلة الرفيعة في الفضل . ووقع أمر يزيد من معاوية موقفاً ملاءً همماً ، وأوسمه غمّاً ، فأخذ في الحيلة والنظر أن يصل إليها ، وكيف يجمع بينه وبينها حتى يبلغ رضا يزيد فيها . فكتب مداوية إلى عبد الله بن سلام : وكان قد استعمله على العراق ، أن أقبل حين تنظر في كتابي هذا لأمر حفظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه ، فأعد السير والإقبال . وكان عند معاوية بالشام أبو هريرة وأبو الرداء ، صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلما قدم عبد الله بن سلام الشام ، أمر معاوية أن ينزل منزلاً قد هيء له ، وأعد له فيه نزله ، ثم قال لأبي هريرة وصاحبه : إن الله قسم بين عباده قسماً ، ووهبهم نعماً أوجب عليهم شكرها ، وحتم عليهم حفظها ، وأمرهم برعايتها حقها ، وسلطان طريقها ، بجمل النظر ، وحسن التفقد لمن ملوهم الله أمره ، كما فوضه إليهم ، حتى يؤديوا إلى الله الحق فيهم كما أوجب عليهم ، فصياناً منها عز وجل بأعز الصرف ، وممو السلف ، وأفضل الذكر ، وأغنى اليسر ، وأوسع حل في رزقه ، وجعلني راعي خلقه ، وأمينه في بلاده ، والحاكم في أمر عباده ، ليلوئي لأشكر آلاءه أم أكفرها ، فإياه أسأله أداء شكره ، وبلوغ ما أرجو بلوغه ، من عظيم أجره ، وأول ما ينبغي للمسلم أن يتفقه وينظر فيه ، فيمن استرعاه الله أمره من أهله ومن لا غنى به عنه . وقد بلغت لي ابنة أردت إنكاحها ، والنظر فيمن يريد أن ياعلمها^(١) . لعل من يكون يبدى يهتدى منه يهتدى ، ويبيع فيه أثرى ، فلأن قد تخوفت أن يدعو من يل هذا الأمر من بدى زهوة السلطان وسرفه إلى حصل نسايم ، ولا يزون لمن فيمن ملكوا أمره كلفوا ولا نظروا ، وقد وضعت لها عبد الله ابن سلام لدينه وفضله ومروءة وأديه . فقال أبو هريرة وأبو الرداء : إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيها فيما خصه به منها ، أنت صاحب رسول الله وكتابه . فقال معاوية : إذكروا له ذلك عني ، وقد كنت جعلت لها في نفسها شوري ، غير أني أرجو أنها لا تخرج من رأيي إن شاء الله ؟ فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله ابن سلام بالتي قال لهما ، قال : ودخل معاوية إلى ابنته ، فقال لهما : إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الرداء ، فرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وإنكاسي لإذك منه ، ودعواك إلى مبايعته ، وحضالك على ملازمة رأيي ، والساوعة إلى هواي . فقولوا لهما : عبد الله بن سلام كفى كريم ، وقريب حميم ، غير أنه تحت أريئب بنت إسحاق ، وأنا خاتمة أن يعرض لي من التيرة ما يمرض للنساء ،

(١) ياعلمها : يسير بملأها أي زوجاً .

فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، ففترق الرجاء ، واستمر الأذى ، ولست بجاعة
حق بإزارتها ، فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام ، وأعلمه بالذي أمرها
معاوية ، فلما أخبره سر به وفرح ، وحمد الله عليه ، ثم قال : نستمتع الله بأمر المؤمنين ، لقد
والى حل من نفسه ، وأسدى إلى من منه ، فأطول ما أقوله فيه قصير ، وأعظم الوصف لها
يسر . ثم أراد إخلاطي بنفسه ، وإلحائي بأهله ، إنعاماً لثمته ، وإكفالا لإحسانه ، فله استعين
على شكره ، وبه أعوذ من كيد ومكره . ثم بهما إليه خاطبين عليه ، فلما قلما ، قال لهما
معاوية : قد تملأن رضائي به وتغلي (١) إليه ، وحرصى عليه ، وقد كنت أعلتكما بالذي جلست
لها في نفسها من الثوري ، فدخل إليها ، وأعرضا عليها الذي رأيت لها ، فدخل عليها وأعلمها
بالذي ارتضاه لها أبوها ، لما رجا من ثواب الله عليه . فقالت لهما كاذبي قال لها أبوها ،
فأعلمها بذلك ، فلما ظن أنه لا يمنها منه إلا أمرها ، فارق زوجته ، وأشهدهما على طلاقها ،
وبهها خاطبين إليه أيضاً ، فخطبا ، وأعلمها معاوية بالذي كان من فراق عبد الله بن سلام
أمراته ، طلاقاً لما يرضيها ، وخروجاً عما يشجيها ، فأظهر معاوية كراهية لعله ، وقال :
ما استحسن له طلاق امرأته ، ولا أحببته ، ولو صبر ولم يسجل لسكان أمره إلى مصيره ، فإن
كون ما هو كائن لا بد منه ، ولا يحصى عنه ، ولا خيرة فيه للعباد ، والأقدار غالبية ، وما سبق
في علم الله لا بد جار فيه ، فأنصرفا في طاعة ، ثم صودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا .
ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرياب بنت إسحاق عبد الله بن سلام ، فلما عاد
أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرها بال دخول عليها ، وسؤاها عن رضاها برباً من
الأمر ، ونظرا في القول والنفذ ، فيقول : لم يكن لي أن أكرهاها ، وقد جلست لها الثوري
في نفسها ، فدخل عليها ، وأعلمها بالذي رضي إن رضيت هي ، وبطلاق عبد الله بن سلام
أمراته أرياب ، طلاقاً لمسرتها ، وذكراً من فضله ، وكال مروءته ، وكرام محنته ، ما القول
يقصر عن ذكره . فقالت لهما : جف القلم بما هو كائن ، وإنه في قريش ربيع ، غير أن الله
عز وجل يتولى تدبير الأمور في خلقه ، وتقسيمها بين عباده حتى يؤلفا منازلها بهم ، ويضعها
على ما سبق في أقدارها ، وليست تجري لأحد على ما يهوى ، ولو كان بلغ منها غاية ما شاء . وقد
تفرقان أن الزوج هزله جد ، وجدّه نعم ، ائتم عليه يدوم ، وللشور فيه لا يكاد يقوم ،

(١) تغلي إليه : اصطفاى له من بين الناس ، وأصل التغلي معناه أن ينخل الشخص
التيق حتى يخرج صافيه ويخلص رديته .

والأمانة في الأمور أوفى لما يختلف فيها من الخفوة ، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بد
الثاني فيها ، كان الرء بحسن الرءاء خليقا ، وبالصبر عليها حقيقا ، وعلمت أن الله ولي التدابير .
فلم تلم النفس على التقصير ، وإن بالله استعين ، سألت عنه ، حتى أعرف دخيلة خبره ، وصح
لي الذي أريد علمه من أمره ومستخيرة ، وإن كنت أعلم أنه لاخيرة لأحد فيها هو كائن ،
ومملكتها بالذي يريته الله في أمره ، ولا قوة إلا بالله .

قالا : وهك الله وخار لك . ثم انصرفا عنها ، فلما أعلماه بقولها تكل وقال :

فإن يك صدر هذا اليوم ونسى فإن غسدا لناظره قريب

وتحدث الناس بالذي كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يغرب من طلبته ، وقبل أن
يوجب له الذي كان من بيته ، ولم يشكوا في غدر معاوية بإياه . فاستحث عبد الله بن سلام بأ
هريرة وأبا الدرداء ، وسألهما الفرار من أمره ، فأياها . قالاهما : قد أئيناك لما أنت صانه
في أمرك ، وإن تستخيري الله يحرك لك فيا مختارين ، فله يهدي من استهداه ، وسطي من
اجتده ، وهو أقدر الشارين . قالت : الحمد لله أرجو أن يكون الله قد خالي ، فإنه لا يكل
إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه فوجدته غير ملامم ولا موافق لا
أريد لنفسى ، مع اختلاف من استكثرت فيه ، فثمنم التامى عنه ، ومنهم الأمر به ، واختلافهم
أول ما كرهت من الله . فلم عبد الله أنه خضع ، فبلغ ساعة واشتد عليه المم . ثم اتبه فحمد
الله تعالى وأثنى عليه ، وقال متمزيا : ليس لأمر الله راد ، ولا لا بد أن يكون منه صاد ،
أمور في علم الله سبقت ، فحرت بها أسبابها ، حتى امتلأت منها أقرابها ، وإن امرؤ انتال له
علمه واجتمع له عقله ، واستد له رأيه ، ليس بدافع عن نفسه قدرا ولا أكيدا ، ولا انحرافا
عنه ولا جيذا ، ولأل ما سروا به واستجنلوا له لا يذوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم
محدوره . قال : وذاع أمره في الناس وشاع ، وهلوه إلى الأمصار ، وتحدوا به في الأمصار ،
وفي الليل والنهار ، وشاع في ذلك قولهم ، وعظم لماوية عليه لومهم ، وقالوا : خدمه معاوية
حق طلق امرأته ، وإنما أرادها لابنه ، فبس من استرعاه الله أمر عياده ، ومكته في بلاده ،
وأشركه في سلطانه ، يطلب أمرا بخدعة من جبل الله إليه أمره ، ويحميه ويصرعه جراءة على
الله . فلما بلغ معاوية ذلك من قول الناس . قال : لمرى ما خدعته . قال : فلما انقضت
أقراؤها ، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدمها ،
وجها يومئذ الحسين بن على وهو سيد أهل العراق قتها ومالا وجودا وبذلا . فقال أبو الدرداء
إذ قدم العراق : بما يبنى لدى الحجا والرفة والتقى أن يبدأ به ويؤثمه على مهم أمره ، لما

بازمه حقه، ويجب عليه حفظه، وهذا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة، فقلت بنظر في شيء قبل الإلام به والدخول عليه، والنظر إلى وجهه الكريم وأداء حقه، والتسليم عليه، ثم استقبل بعد أن شاء الله ما جئت له، وبعت إليه، فقصص حتى أتى الحسين، فلما رآه الحسين قام إليه ضافه إجلالا له، ومعرفة لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضعه من الإسلام. ثم قال الحسين: مرجأ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجليسه، يا أبا العرداء، أحدثت لي ووثقت هوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوقدت مطلقا أحزاني عليه، فإني لم أرمذ فارقة أحدا كان له جليسا، وإليه حيا، إلا حملت عني، وأحرقت كبدى أسمى عليه، وصباة إليه. فهاضت عينا أبي العرداء قد كر رسول الله، وقال: جزى الله ليانة^(١) أقدمتنا عليك، وجمنا بك خيرا. فقال الحسين: والله إنى لكو حرص عليك، وقد كنت بالاعتياق إليك. فقال أبو العرداء: وجهي معاوية خاطبا على ابنه يزيد أرييب بنت إسحاق، فرأيت أن لا أبدا بهى قبل إحداث العهد بك، والتسليم عليك. فشكر له الحسين ذلك، وأثنى عليه وقال: لقد كنت ذكرت نكاحها، وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء أقرانها، فلم عنى من ذلك إلا تخيير مثلك، فقد أنى الله بك، فأخطب رحمك الله على وعليه، فلتختر من اختاره الله لها ولها أمانة فى عنقك حتى تؤدبها إليها، وأعطاها من اللهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه. فقال أبو العرداء: أفضل إن شاء الله، فلما دخل عليها قال لها: أيتها للراء إن الله خلق الأمور بقدره، وكونها بمرتبه، فجعل لكل أمر قدرا، ولكل قدر سبيبا، فليس لأحد من قدر الله مستحاض، ولا عن الخروج عن علمه مستعاض، فكان مما سبق لك وقدر عليك، الذى كان من فراق عبد الله بن سلام إليك، ولعل ذلك لا يضرك، وأن يجعل الله لك فيه خيرا كثيرا. وقد خطبك أمير هذه الأمة، وابن لك، وولى عهد، والخليفة من بعده، يزيد بن معاوية. وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من آمن به من أمته، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة، وقد بلغك سناها وفضلها، وجئتك خاطبا عليهما، فاختارى أجمعا هلكت؟ فسكت طويلا. ثم قالت: يا أبا العرداء لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غالب عني أخضعت فيه الرسل إليك، وأبنت فيه رأبك، ولم أقطعه دونك على جد مكاتك، ونأى دلك، فأما إذ كنت الرسل فيه قد فوجئت أمرى بعد الله إليك، وبررت منه إليك، وجلسته فى يدك، فاختلى أرضاهما لك، والله شهيد عليك، وأقضى فيه قضاء ذى التعرى للفق، ولا يصدك من

ذلك اتبع هوى ، فليس امرها عليك خيراً وما أنت مما طوتك حمياً . فقال أبو العرداء
أيتها للمرأة إنما على إعلامك وعليك الاختيار لنفسك . قالت عفا الله عنك ، إنما أنا بات
أخيك ، ومن لا غنى بها عنك فلا يملك رغبة أحد من قول الحق في طوتك ، فقد وجب
عليك أداء الأمانة فيها حملتك ، والله خير من روعى وخيف ، إنه بنا خير لطيف . فلما لم
يجد بداً من القول والإشارة عليها . قال : بُيُوتِي ، ابن بنت رسول الله أحب إلى وأرضاهما عندي ،
والله أعلم بخبرها لك ، وقد كنت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما هفتيه على شفقي الحسين
قضى شفتيك حيث وضعهما رسول الله ، قالت : قد اخترته ورضيته ، فلتسكنها الحسين بن
على ، وساق إليها مهرًا عظيمًا ، وقال الناس وبلغ معاوية الذي كان من قبل أبي العرداء في
ذكره حاجة أحد مع حاجته ، وما بهته هو له ، وتكاح الحسين إياها ، فتماخذه ذلك جدا ،
ولامه لوما شديداً ، وقال : من يرسل ذا بلاهة وعمى ، يركب في أمره خلاف ما يهوى ،
ورأيي كان من رأيه أسوأ ، ولقد كنا باللامنة منه أولى حين يشتاء ، ولحاجتنا استخلاءه ،
وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بدرات^(١) مملوءة دراً ، كان ذلك الشهر
أعظم ماله وأحب إليه ، وكان معاوية قد أطرحه وقطع جميع روافده عنه ، لسوء قوله فيه ، وتهمته إياه
على الخديعة ، فلم يزل يجهوه ويضبه ، ويكدي^(٢) عنه ، ما كان يجديه ، حتى عيل صبره ،
وطال أمره ، وقرن ما في يديه ، ولام نفسه على اللقائم لديه ، فخرج من عنده راجعاً إلى
العراق ، وهو يذكر ماله الذي كان استودعها ، ولا يدري كيف يصنع فيه ، وأتى بسل
إليه ، ويتوقع جودها عليه ، لسوء فعله بها ، وطلاقه إياها على غير شيء أنكره منها ،
ولا شمة عليها . فلما قدم العراق لقي الحسين ، فسلم عليه . ثم قال : قد علت جعلت فداك
الذي كان من قضاء الله في طلاق أديلب بنت إسحاق ، وكنت قبل فراقك إياها قد استودعتها
ملا عظيمًا دراً وكان الذي كان ولم أقبضه ، والله ما أنكرت منها في طول ما صحبتها قليلاً ،
ولا أطعن بها إلا جيلاءً فذكرتها أمرى ، واحضضها على الرد على ، فلئن الله يحسن عليك ذكرك ،
ويجزل به أجره . فسكت عنه . فلما انصرف الحسين إلى أهله ، قال لها : قدم عبد الله بن سلام
وهو يحسن التواء عليك ، ويعمل لك الشر عنك ، في حسن صحبتك ، وما أنه قديماً من أماتك
فسرتني ذلك وأعيينى ، وذكر أنه كان استودعك مالا قبل فراقه إياك ، فأدبني إليه أماته ،
وردني عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ، ولم يطلب إلا حقاً . قالت : صدق ، قد والله استودعني مالا

(١) بدرات : جمع بدرة وهي الصرة المملوءة نفوداً أو جواهر .

(٢) يكدي عنه ما كان يجديه : يتبع عنه ما كان يطبعه .

لا أدرى ما هو ، وإنه لطوبى عليه بطايحه ما أخذ منه شيء إلى يومه هذا ، فأتى عليها الحسين خيرا ، وقال : بل أدخله عليك حتى تبرئ إليّ منه كما دفعه إليك . ثم لبى عبد الله بن سلام ، فقال له : ما أنكرت مالك ، وزعمت أنه لكما دفعته إليها بطايحك ، فأدخل يا هذا عليها ، وتوفى مالك منها . فقال عبد الله بن سلام : أو تأمر بدفعه إلىّ جعلت فداك . قال : لا ، حتى يقبضه منها كما دفعته إليها ، ويرثها منه إذا أدته . فمادخلها عليها قال لها الحسين : هذا عبد الله بن سلام ، قد جاء يطلب وديته ، فأدبها إليه كما قبضتها منه ، فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه ، وقالت له : هذا مالك ، ففكر لها ، وأتى عليها ، وأخرج الحسين ، فقبض عبد الله خاتم يده ، فحشا لها من ذلك الفرح حوات ، وقال : خذى ، فهذا قليل منى لك ، واستعبرا جميعا ، حتى تعالت أصواتهما بالبكاء ، أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رقى لهما ، لذى سمع منهما . فقال : أشهد الله أنها طالق ثلاثا ، اللهم إنك تعلم أنى لم أستنكحها (١) رغبة في مالها ولا جملها ، ولكنى أردت إحلالها لبعليها ، وثوابك على ما عالجته في أمرها ، فأوجب لى بذلك الأجر ، وأجزل لى عليه الفخر إنك على كل شيء قدير ، ولم يأخذ مما سأل إليها في مهرها قليلا ولا كثيرا . وقد كان عبد الله ابن سلام سأل ذلك أريد ، أى التوسيع على الحسين ، فأجابته إلى ردّ ماله عليه شكرا لما منه بهما ، فلم يقبله ، وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه فزوّجها عبد الله بن سلام ، وعاشا متصافين حتى قبضهما الله ، وحرّمها الله على يزيد . والحمد لله ربّ العالمين .

وفاة معاوية رحمه الله

قال : وذكروا أن عتبة بن مسعود قال : مرّ بنا نسي معاوية بن أبى سفيان ونحن بالمسجد الحرام . قال : قمنا فأبينا ابن عباس ، فوجدناه جالسا قد وضع له الخوان ، وعنده نفر . فقلنا : أما علمت بهذا الخبر يا ابن عباس ؟ قال : وما هو ؟ قلنا : هلك معاوية . فقال : ارفع الخوان يا غلام ، وسكت ساحة ، ثم قال : جيل مزهزع ثم مال بكلكلة (٢) ، أما والله ما كان كمن كان قبله ، ولا يكن بعده مثله . اللهم أنت أوسع لمعاوية فينا وفى بنى عبدنا هؤلاء لقى لبّ متبر ، فاستعبرنا بيننا ، وقتل صاحبهم غيرنا ، وقتل صاحبنا غيرهم ، وما أفرام بنا إلا أنهم

(١) استنكحها : أطلب نكاحها أي زواجها .

(٢) الكلكل : السدر .

لا يجدون مثلاً ، وما أغرانا بهم إلا أننا لا نجد مثله ، كما قال القائل : مالك تظنني ؟ قال : لا أجد من أظلم خيراً . والله إن ابنه خير أهله ، أعد طعامك يا غلام . قال : فما رغب الخوارج حتى جاء رسول خالد بن الحسك إلى ابن عباس ، أن انطلق فبايع . فقال لرسول : أقرى الأمير السلام ، وقل له : والله ما بقي في ما تخافون ، فاقض من أمره ما أنت قاض ، فإذا سهل للشئ ذهبت حطمة الناس ، جشك فعلت ما أحببت . قال : ثم أقبل علينا فقال : مهلاً مشر قريش ، أن تقولوا عند موت معاوية : ذهب جد بني معاوية ، واقطع ملكهم ، ذهب لمر الله جدكم ، وبقي ملكهم وشرها بقية هي أطول مما مضى ، إثموا بحالكم وأعطوا بيعتكم . قال : فما ربحنا حتى جاء رسول خالد فقال : يقول لك الأمير : لا بد لك أن تأتينا . قال : فإن كان لا بد ، فلا بد مما لا بد منه ، يا نوافر هلبي ثيابي ، ثم قال : وما ينعكم إيان رجل إن جلس لم يضركم ؟ قال : قللت له : أبايع ليزيد ، وهو يشرب الخمر ، ويلهو بالتيان ، ويستتر بالفواحي ؟ قال : مه ، فأين ما قلت لكم ؟ وكم بعد من أت من يشرب الخمر ، أو هو شر من عاربها ، أنتم إلى بيعته سراغ ؟ أما والله إنى لأناكم ، وأنا أهدم أنكم فاعلون ما أنتم فاعلون ، حتى يسلب مصلوب قريش بحكة ، ينفى عبد الله بن الزبير .

مكتاب يزيد بالبيعة إلى أهل المدينة

قال : وذكرنا أن نافع بن جبير قال : إنى بالشام يوم موت معاوية ، وكان يزيد غائباً ، واستخلف معاوية الصالح بن قيس بعده ، حتى يقدم يزيد ، فلما مات معاوية خرج الضحاك إلى الناس ، فقال : لا يحملن اليوم نعش أمير المؤمنين إلا قرئى : قال : لحملته قريش ساعة . ثم قال أهل الشام : أصلح الله الأمير . اجعل لنا من أمير المؤمنين نصيباً في موته ، كما كان لنا في حياته . قال : فاحلوه ، فحلوه ، وأزدحموا عليه ، حتى شقوا البرد الذي كان عليه صدعين^(١) . قال : فلما قدم يزيد دمشق بعد موت أبيه إلى عشرة أيام ، كتب إلى خالد بن الحسك ، وهو حامل المدينة : أما بعد ، فإن معاوية بن أبي سفيان ، كان عبداً استخلفه الله على البلاد ، ويمكن له في البلاد وكان من حادث قضاء الله جل ثناؤه ، وتهدمت أسماؤه فيه ، ما سبق في الأولين والآخرين لم يدفع عنه ملك مقرب ، ولا نهي مرسل ، فهاش حميداً ، ومات سيداً ، وقد قدنا الله عز وجل ما كان إليه ، فيا لها مصيبة ما أجلبها ونعمة ما أعظمها ، قل الخلافة ، وقدد الحليفة ، فلستوزعه^(٢) الشكر ، ونستلهمه الجسد ، ونسأله الخيرة في الدارين معاً ،

(١) صدعين : نصلين .

(٢) نستوزعه : نطلب منه إتمام الشكر ، ومن ذلك قوله تعالى (رب أوزعني أن أشكر نعمتك) .

ومحمد النبي في الآخرة والأولى ، إنه وليّ ذلك ، وكلّ شيء بيده لا شريك له . وإن أهل المدينة قوماً ورجالا ، ومن لم نزل على حسن الرأى فيهم ، والاستعداد بهم ، واتباع أثر الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله ليسم ، من الإقبال عليهم ، والتقبل من محبتهم ، والتجاوز عن مساوئهم ، فبايع لنا قوماً ، ومن قبلك من رجالاتنا ، يمة منسوحة بها مدورك ، طيبة عليها ألسنكم ، وليكن أول من يبايعك من قوماً وأهلنا : الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جابر ، ويعملون على ذلك بجميع الأمان اللازمة ، ويعملون بصدقة أموالهم غير عشرها ، وجزية رقيقهم ، وطلاق نسائهم ، بالثبات على الوفاء بما يسطون من بيعتهم ، ولا قوة إلا بالله ، والسلام .

إبابة القوم للمتقين عن البيعة

قال : وذكروا أن خلفه بن الحكم ، لما أتاه الكتاب من يزيد فطع به ، فدعا مروان ابن الحكم ، وكان على المدينة قبله ، فلما دخل عليه مروان ، وذلك في أول الليل . قال له خلفه : احتسب صاحبك يا مروان ، فقال له مروان : أكرم ما بملك ، إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم أقرأه الكتاب ، وقال له : ما الرأى ؟ فقال : أرسل الساعة إلى هؤلاء الثغر ، غفد بيئهم ، فليتهم إن بايعوا لم يختلف على يزيد أحد من أهل الإسلام ، فصيل عليهم قبل أن يغشى الخبر فيموتوا ، فأرسل إلى الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر ، فلما أتاهم الرسول قال عبد الله بن الزبير للحسين : ظنّ يا أبا عبد الله فيما أرسل إلينا ؟ فقال الحسين : لم يرسل إلينا إلا البيعة ، فما ترى ؟ قال : آتبه ، فإن أراد تلك امتعت عليه ، فدعا الحسين مواليه وأهل بيته ، وأتقدم على الباب ، وقال لهم : إن ارتفع صوتي فالتصموا الفار علىّ ، وإلا شكناكم حتى أخرج إليكم . ثم دخل على خلفه ، فأقرأه الكتاب ، فقال الحسين : رحم الله معاوية . فقال له : بايع ، فقال الحسين : لا خير في يمة سرّ ، والظاهرة خير ، فإذا حضر الناس كان أمراً واحداً ، ثم وبّ أهله ، فقال مروان لخلفه : أشدد يدك بالرجل ، فلا يخرج حتى يبايعك ، فلن أبى لأضرب عنقه . فقال له ابن الزبير : قد علمت أنا كنا أئينا البيعة إذ دعانا إليها معاوية ، وفي نفسه علينا من ذلك ما لا نجهله ، ومتى ما نبايعك ليلا على هذه الحال ، ترانك أغضبتنا على أنفسنا ، دعنا حتى نصبح ، ودعوا الناس إلى البيعة ، فتأتيك فنيابك يمة سليمة صحيحة ، فلم يزالا به حتى خلى عنهما وخرجا . فقال مروان لخلفه : تركتهما ، والله لا انتظر بجلها منهما أبداً ، فقال خلفه : ويحك أنت خير علىّ أن اتحل

الحسين ، فوالله ما يسرني أن لي الدنيا وما فيها ، وما أحسب أن قاتله يلقي الله بهمه إلا خفيف لليزان يوم القيامة . فقال له مروان مستهزئاً : إن كنت إنما تركت ذلك لذلك فقد أصبت .

خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية

قال : وذكروا أن يزيد بن معاوية عزل خالد بن الحكم عن المدينة ، وولاه عثان ابن محمد بن أبي سفيان الثقفي ، وخرج الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير إلى مكة وأقبل عثان بن محمد من الشام والياً على المدينة ومكة وعلى اللوس في رمضان ، فلما استوى على المنبر بمكة رجع ، فقال رجل مستقبلاً : بخت والله بدم ، فلقاه رجل آخر بجمامته . فقال : مه ، والله عم الناس . ثم قام يخطب ، فتناول عصاً لها شعبتان ، فقال : مه : شعب والله أمر الناس ، ثم نزل . فقال الناس للحسين : يا أبا عبد الله ، لو تخدمت فصيلت بالناس ؟ فإنه لهم بذلك إذ جاء للؤذنين ، فأقام الصلاة ، فتقدم عثان فكبر ، فقال الحسين : يا أبا عبد الله ، إذا أبيت أن تتقدم فاطخرج . فقال : الصلاة في الجماعة أفضل . قال : فصل ، ثم خرج ، فلما انصرف عثان ابن محمد من الصلاة ، بلغه أن الحسين خرج . قال : اركبوا كل بئر بين السماء والأرض فاطلبوه ، فطلب ، فلم يدرك . قال : ثم قسم المدينة ، فأقبل بن ميثاء بسراج^(١) له من الحرمة^(٢) ، يريد الأموال التي كانت لمعاوية ، ففتح منها ، وأزاحه أهل المدينة عنها ، وكانت أموالاً أكسبها معاوية ، ونحوها^(٣) منها مئة ألف وسق^(٤) وستين ألفاً ، ودخل نهر من قريش والأنصار على عثان ، فكلّموه فيها فقالوا : قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا ، وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ، ولم يعطنا قط درهماً لما فوقه ، حتى مضت الزمان ، وثالثا الحجابة ، فاهترأها منا بجزء من مئة من ثمنها ، فأغلظ لهم عثان في القول ، واغلظوا له . فقال لهم : لا كتبني إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم ، وما أتم عليه من كون^(٥) الأثنان القديمة ، والأخذ التي لم نزل في صدوركم ، فافترقوا على موجدة ، ثم اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القتم عليها ، فكشف عثان بن محمد عنهم ، وكتب بأمرهم إلى يزيد بن معاوية .

(١) سراج : جمع سرج وهي جماعة الإبل التي تسرح الرعى .

(٢) الحرمة : الأرض المرتفعة .

(٣) يجد : يقطع .

(٤) الوسق : مائة وعشرون قدحاً مصرياً .

(٥) كون الأثنان : استنارها واختارها .

قال عبد الله بن جعفر : جاء كتاب عثمان بن محمد بعد هذاة من الليل ، وقد كنت انصرفت من عند يزيد ، فلم ألبث أن جاءني رسول ، فدخلت عليه ، والشئمة بين يديه ، وهو منفض قد حصر من فرائمه ، والكتاب بين يديه ، فقال : دولك يا أبا جعفر هذا الكتاب ، فاقراءه ، فرأيت كتابا قبيحا ، فيه مريض بأهل المدينة ومحرمين . ثم قال : والله لأطأنهم وطأة آتى منها على أنفسهم . قال ابن جعفر : قتلت له إن الله لم يزل يعرف أبلك في الرفق خيرا ، فلئن رأيت أن ترفق بهم وتتجاوز عنهم ضلت ، فإنا هم أهلك وعشيرتك ، وإنما قتل بهم نفسك إذا قتلهم . قال : أقتل وأخفى نفسي ، فلم أزل ألح عليه بهم ، وأرقه عليهم ، وكان لي سامعا ومطبا ، فقال لي : إن ابن الزبير حيث علت من مكة ، وهو زعم أنه قد نصب الحرب ، فأنا أبث إليه الجيوش ، وأمر صاحب أول جيش أبته أن يخذ المدينة طرقا ، وأن لا يقتل ، فلئن أقرأوا بالطاعة ، وترعوا عن خيهم وضلالهم ، فهم على عهد الله وميثاقه ، أن لهم عطاءين في كل عام ، ما لا ألفه بأحد من الناس طول حياتي ، عطاء في الشتاء ، وعطاء في الصيف ، ولهم على عهد أن أجعل الخنطة عندهم كسر الخنطة عندنا ، والخنطة عندهم سبعة أصح^(١) بدوم ، والعطاء الذي يذكرون أنه اجتبس عنهم في زمان معاوية فهو على أن أخرجه لهم واقرا كلاما ، فلئن أنا بوا وقبلوا ذلك ، جاوز لي ابن الزبير ، وإن أبوا قاتلهم ، ثم لبث ظفر بها أتبها ثلاثا ، هذا عهدي إلى صاحب جيشي لكأنك ولعلبتك فيهم ، ولما زحمت أنهم قومي وعشيرتي . قال عبد الله بن جعفر . فرأيت هذا لم فرجا ، فرجيت إلى منزلي فكتبت إليهم من ليقي كتابا إلى أهل المدينة ، أهلهم فيه قول يزيد ، وأحضرهم على الطاعة والسلام ، والرضا والقبول لا بذل لهم ، وأنهاهم أن يتراضوا لجيوشه ، وقلت لرسولي : اسجد السيرة ، فدخلها في عشر ، فوالله ما أريدوا ذلك ولا قبلوه ، وقالوا : والله لا يدخلها عنوة أبدا .

كتاب يزيد إلى أهل المدينة

قال : وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتابا ، وأمر عثمان بن محمد يقرؤهم عليه ، فقدم الكتاب للمدينة ، وعثمان خائف ، فقرأ عليهم ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإني قد تمسكتكم حتى أخلصتكم ، ورفعتكم حتى أخرتكم^(٢) ، ورفعتكم على رأسى ثم وضعتكم ، وإيم الله لئن آثرت أن أمتكم تحت قدي لأطأنكم وطأة أقل منها عندكم وأترككم أحاديث تتناسخ^(٣) كالحديث عاد ونمود ، وإيم الله لا يأتيكم مني أولى من عقوبي ، فلا أقلح من ندم .

(١) سبعة أصح : ١٤ قلحا مصريا ، الأصح جمع صلع وهو قنطار مصريان .

(٢) أخرتكم : وجدكم خرق أي حقي .

(٣) تتناسخ : أي تمكث وتلتصق في الكتب .

ما أجمع عليه أهل المدينة ورأوه من إخراج بنى أمية

قال : وذكروا أنه لما قرئ الكتاب ، تكلم عبد الله بن مطيع ورجال معه كلاما قبيحا ، فلما استبان لهم أن يزيد باعث الجيوش إليهم ، أجمعوا على خلافهم ، واختلقوا في الريلة أهم يقوم بهذا الأمر . فقال قائل : ابن مطيع ، وقال قائل : إبراهيم بن نسيب ، ثم اجتمع رأيهم أن يقوم بأمرهم ابن حنظلة ، وهرب عثمان بن محمد منهم ليلا فلقح بالشام ، ثم أخذوا مروان ابن الحكم وكبراء بنى أمية ، فأخرجوهم من المدينة ، فقالوا : الشقة بيده ، ولا بد لنا مما يصلحنا ، ولنا عيال وصيبة ، ونحن نريد الشام . قال : فاستنظروا عشرة أيام ، فأنظروا . ثم اجتمع رأى أهل المدينة أن يملكوا كبراء بنى أمية عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن لقوا جيعى يزيد ليردّونهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ولم يرجعوا معهم ، خلفوا لهم على ذلك ، وشرطوا عليهم أن يقيموا بنى خُصْب^(١) عشرة أيام ، غرّجوا من المدينة ، وتيمم الصبيان ، وسفهاء الناس يرمونهم بالحجارة ، حتى انتهوا إلى ذكّا خشب ، ولم يتحرك أحد من آل عثمان بن محمد ، ولم يخرج من المدينة ، فلما رأت بنو أمية ما صنع بهم أهل المدينة من إخراجهم منها ، اجتمعوا إلى مروان ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ما الرأي ؟ قال : من قدر منكم أن يتّيب حرره فليفعل ، فإنما الخوف على الحرمة ، فتيّبوا حرمهم ، فأتى مروان عبد الله بن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، بلغنى أنك تريد الخروج إلى مكة ، وتّيب عن هذا الأمر ، فأحب أن أوجه عيالي معك . فقال ابن عمر : إني لا أقدر على مصاحبة النساء . قال : فتصلهم في منزلك مع حرمك . قال لا آمن أن يُدخل على حريمي من أجل مكانكم . فكلم مروان عليّ بن الحسين ، قال : نعم ، فضمهم علىّ إليه ، وبعث بهم مع عياله . قال : ثم ارتحل القوم من ذى خشب على اقتبح إخراج يكون ، وإسراع خوفا منهم أن يبدؤوا القوم في حبسهم ، وجعل مروان يقول لابنه عبد الملك : يا بنيّ إن هؤلاء القوم لم يبدؤوا ولم يستغيثوا ، فقال ابنه : وكيف ذلك ؟ قال : إذ لم يقتلونا أو يحبسونا ، فإن بعثوا إلينا بشاكتنا في أيديهم وما أخوفنا أن يعطونا لهذا الأمر فيحثوا في طلبنا فالوحى الوحى^(٢) والنجاح النجاء .

(١) ذو خشب بقسم الحناء والطين : واد بالمدينة .

(٢) الوحى الوحى : الإسراع والنجدة .

إرسال يزيد الجيوش إليهم

قال : فلما أجمع رأي يزيد على إرسال الجيوش ، سعد كثير ، فعمد الله وإني عليه ، ثم قال : أما بعد يا أهل الشام ، فلن أهل المدينة أخرجوا قومنا منها ، والله لأن تقع الحضراء على القبراء (١) أحب إلى من ذلك . وكان معاوية قد أوصى يزيد فقال له : إن رايت منهم ريب ، أو انتقض عليك منهم أحد ، فليك بأعور بني مرة مسلم بن عقبة ، فدعا به فقال : سر إلى هذه المدينة بهذه الجيوش ، وإن هتت أهلك ، فإني أراك مدعياً منهوكاً . فقال : لشدتك الله ، أن لا تحرمي أجرًا ساقه الله إلي ، أو تمت غيري ، فإني رايت في النوم شجرة قرند (٢) تصبح أغصانها : يا ثارات حثان ، فأقبلت إليها ، وجعلت الشجرة تقول : إني يا مسلم بن عقبة ، فأبيت فأخذتها ، فسيرت ذلك أن أكون أنا القاتم بأمر حثان ، والله ما صنعوا الذي صنعوا إلا أن الله أراد بهم الملاك . فقال يزيد : فسر على بركة الله ، فأنت صاحبهم ، فخرج مسلم فمسك وعرض الأجناد ، فلم يخرج معه أصغر من ابن عشرين ، ولا أكبر من ابن خمسين على خيل عرب ، وسلاح حاك ، وأداة كاملة ، ووجهه معه عشرة آلاف سير تحمل الزاد حتى خرج ، فخرج معه يزيد فودعه . قال له : إن حدث بك حدث فامر الجيوش إلى حسين بن نير ، فامض بسم الله إلى ابن الزبير ، واتخذ المدينة طريقاً إليه ، فلن صدوك أو قتلوك فاقبل من طهرت به منهم ، وأمنها (٣) ثلاثاً ، فقال مسلم بن عقبة : أصلى الله الأمير ، لست بأخذ من كل ماعدت به إلا بحرفين . قال يزيد : وماهما ؟ وبملك . قال : أقبل من القبل الطامع ، وأقبل الدبر العاصي . فقال يزيد : حسبك ، ولكن البيان لا يضررك ، والتأكيد ينسك ، فلذا قدمت المدينة فمن عاقبك عن دخولها ، أو نصب لك الحرب ، فالسيف السيف ، أجهز على جرحهم ، وأقبل على مدبرهم ، وإياك أن يبقوا عليهم ، وإن لم يرضوا لك ، فامض إلى ابن الزبير .

فقتل الجيوش ، فلما نزلوا بواحي القرى ، قتيهم بنو أمية خارجين من المدينة ، فرجعوا معهم ، واستغزىهم مسلم بن عقبة عما خلفهم ، وعما لقوا ، وعن عديم . قال مروان : عديم كثير ، أكثر مما جئت به من الجيوش ، ولكن طاعتهم ليس لهم نيات ولا بصائر ، وفيهم قوم قليل لهم نية وبسيرة ، ولكن لا بقاء لهم مع السيف ، وليس لهم كراخ ولا سلاح ، وقد خدعوا عليهم وحسنوا . قال مسلم : هذه أشدها علينا ، ولكننا قطع عنهم مدبرهم ، وزعم عليهم

(١) الحضراء : النساء ، والقبراء : الأرض .

(٢) القرند : شجر عظيم كبير الحجم ، وسميت مقبرة المدينة جميع القرند لأن هذا الشجر ينبت فيها .

(٣) أمنها : اجعلها نواى أى مباحة ثلاثة أيام لسركوك يعملون فيها ما يشاؤون .

خندقهم . فقال مروان : عليه رجال لا يسلمونه ، ولكن عندى فيه وجه سأخبرك به . قال : هاته . فقال : اطوه ودعه حتى يحضر ذلك . قال : فدعه إذا . ثم قال لهم مسلم : تريدون أن تسيروا إلى أمير المؤمنين ، أو تقيموا موضعكم هذا ، أو تسيروا معنا ؟ فقال بعضهم : نسير إلى أمير المؤمنين ، ونحدث به عهداً ، فقال مروان : أما أنا فراجع . فقال بعضهم لبعض : قد حلفنا لهم عند اللبر لئن استظنا أن نرد الجيش عنهم لتردته فكيف بالرجوع إليهم . فقال مروان : أما أنا فراجع إليهم . فقال له قوم : ما نرى أن تفعل ، فإنما تقتلون هؤلاء أنفسكم ، والله لا أكثرنا عليهم لسلم جمعاً أبداً . فقال مروان : أنا والله ماض مع مسلم إلى المدينة ، فندرك ثأرى من عدوى ، ومن أخرجنى من يثرب ، وفرق بينى وبين أهلى ، وإن قتلت بهم نفسى ، فلم يرجع مع مسلم من بى أمية غير مروان وابنه عبد الملك ، وكان مجدوراً فجعله بنى خشب .

فلما أيقن أهل المدينة بقدم الجيوش إليهم تشاوروا فى الخندق وقالوا قد خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخذقوا المدينة من كل نواحيها . ثم جمع عبد الله بن حنظلة أهل المدينة عند اللبر ، فقال : تباينوا على الموت وإلا فلا حاجة فى يمينكم . فبايعوه على الموت ، ثم صعد اللبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنما خرجتم غضباً لدينكم ، فأبوا إلى الله بلاء حسناً ليجب لكم به الجنة ومغفرته ، ويعمل بكم رضوانه ، واستعدوا بأحسن عدتكم ، وتأهبوا بأكل أهبتكم ، فقد أخبرت أن اقوم قد نزلوا بنى خشب ، ومعهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مهلككم بنهضة العهد واليثاق عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصايح الناس ، وجعلوا ينادون منه ويسبونه . فقال لهم : إن الشتم ليس بشئ ، ولكن صدقهم اللقاء ، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنا بك واقفون ، وعليك متوكفون ، وإليك الجأنا ظهرونا ثم نزل . وكان عبد الله بن حنظلة لا يبيت إلا فى المسجد الشريف ، وكان لا يزيد على شربة من سويق يقطر عليها إلى مثلهما من الند .

قدوم الجيوش إلى المدينة

قال : وذكروا أن أهل الشام لما اتهموا إلى المدينة عسكروا بالجرف^(١) ، ومشوا رجالاً من رجالهم ، فأخذوا بالمدينة من كل ناحية لا يمدون مدخلا ، لأنهم قد خندقوها عليهم ، والناس متلبسون السلاح ، قد قاموا على أفواه الخنادق ، وقد حرصوا أن لا يتكلم منهم متكلم ، وجعل

(١) الجرف : مواضع : أحدها قرب مكة والآخر قرب المدينة والثالث باليمن ، والرابع بالبحامة ، والمراد هنا الذى يقرب المدينة .

أهل الشام يطوفون بها والناس يرمونهم بالحجارة والتيل من فوق الأكام والبيوت، حتى خرجوا فيهم وفي خيلهم ، فقال سلم لروان : أين ما قلت لي بوادي القرى ؟ فخرج مروان حتى جاء بني حارثه ، فسلم رجلا منهم ، ورغبه في الضيعة ، وقال : اتبع لنا طريقا ، فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ، ومتضمن لك عنه شطر ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وضميقه ، ففتح له طريقا ، ورغب فيما بذل له ، وعقب ما تضمن له عن يزيد ، فالتحمت الحيل ، فجاء الخبر إلى عبد الله بن حنظلة فأقبل ، وكان من ناحية الطورين ، وأقبل عبد الله بن مقطع ، وكان من ناحية ذئاب ، وأقبل ابن أبي ربيعة ، فاجتمعوا جميعا بمن معهم ، بحيث اتصم عليهم أهل الشام ، فالتقوا حتى عابنوا اللوت ، ثم تفرقوا .

غلبة أهل الشام على أهل المدينة

قال : وذكروا أن عبد الله بن أبي سفيان قال : وقعت مع قوم عند مسجد بني عبد الأشهل ، منهم عبد الله بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل مسيلة الكذاب ، ومعه عبد الله بن حنظلة ، وعهد بن سعد بن أبي وقاص ، وإبراهيم بن فارط ، وإبراهيم بن نعيم ابن النجار ، فهم يقاتلون ويقولون للناس : أين الفرار ؟ والله لأن يقتل الرجل مقيلا خيرا له من أن يقتل مدبرا . قال : فالتقوا ساعة ، والنساء والصبيان يصيحون ويكون على قتلام ، حتى جاءهم ما لا طاقة لهم به ، وجعل مسلم يقول : من جاء برأس فله كذا وكذا ، وجعل يري قوما لا دين لهم ، فقتلوا وظهروا على أكثر المدينة . قال : وكان على بشر ابن حنظلة يومئذ درعان ، فلما هزم القوم طرحهما . ثم جعل يقاتلهم وهو حاسر حتى قتلوه ، ضربه رجل من أهل الشام ضربة بالسيف قطع منكبته ، فوقع ميتا . فلما مات ابن حنظلة صار أهل المدينة كالنم بلا راع ، شرود يقتلهم أهل الشام من كل وجه ، فأقبل محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، وإن جراحه لتنتف دما ، وهو يقاتل ويحمل على الكردوس منهم فيفقس جماعتهم ، وكان فارسا ، فعمل عليه أهل الشام حملة واحدة حتى نظموه بالرماح ، فلما ميتا . فلما قتل انهزم من بقى من الناس في كل وجه ، ودخل القوم المدينة ، فجالت خيولهم فيها يقتلون وينهبون .

قال : وخرج يومئذ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحيل تسرع في كل وجه قتلوا ونهبوا : قتل له : لو علم القوم باسمك وصبيتك لم يجبروك ،

فلم أعلمتهم بمكانك ؟ فقال : والله لا أقبل لهم أمانا ، ولا أبرح حتى أقتل ، لا أطلع من ندم ، وكان رجلا أبيض طويلا أسلح ، فأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول : والله لا أبرح حتى أضرب صلته وهو حلسر . فقال عبد الله : شر لك خير لي ، فضربه بئاس في يده ، فرأيت نورا ساطعا في السماء ، فسقط ميتا . وكان يومه ذلك صائغا ، رحمه الله .

قال : فجعل مسلم يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتل . فرمى على عبد الله ابن حنظلة ، وهو ماذ أصبح السبابة . فقال مروان : أما والله لئن نصبتها ميتا لفظلتا نصبتها حيا ، داعيا إلى الله . ورمى على إبراهيم بن نعيم ، ورمده على فرجه ، فقال : أما والله لئن حفظته في المأث لقد حفظته في الحياة . ورمى على محمد بن عمرو بن حزم وهو على وجهه وانما جبهة بالأرض ، فقال : أما والله لئن كنت على وجهك في المأث لفظلتا بفرجه حيا ساجدا لله . فقال مسلم : والله ما أدري هؤلاء إلا من أهل الجنة . ورمى على عبد الله بن زيد وبين حيلة أثر السجود ، فلما نظر إليه مروان عرفه ، وكره أن يعرفه لمسلم فحيز رأسه . فقال له مسلم : من هذا ؟ فقال بعض هذه الموالى وجاوزه ، فقال له مسلم : كلا ، ويبت الله لقد نكبت عنه لئلا . فقال له مروان هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن زيد . فقال : ذلك أخزى ناكث يسيته حزوا رأسه .

وكان قصر بني حارثة أماتا لمن أراد أهل الشام أن يؤمنوه ، وكان بنو حارثة آمنين ما قتل منهم أحد ، وكان كل من نادى باسم الأمان إلى أحد من قبيلة بني حارثة أمنوه رجلا كان أو امرأة ثم ذبحوا عنه حتى يلقوه قصر بني حارثة ، فأجير يومئذ رجال كثير ونساء كثيرة ، فلم يزالوا في قصر بني حارثة حتى انقضت الثلاث .

قال : وأول دور انتهت والحرب قائمة دور بني عبد الأشهل ، لما تركوا في المنازل من اثاث ولا حتى ولا فراش إلا قضى نسوة ، حتى الحمام والسباع كانوا يذبحونها ، فدخلوا دار محمد بن مسلمة ، فصاح النساء ، فأقبل زيد بن محمد بن مسلمة إلى الصوت ، فوجد عشرة ينجبون ، فقاتلهم ومعه رجلان من أهله حتى قتل الشاميون جميعا بوخلتوا منهم ما أخوه ، فألقوا متاعهم في بئر لا ماء فيها ، وأبقى عليها التراب ، ثم أقبل نمر من أهل الشام ، فقاتلهم أيضا ، حتى قتل زيد بن محمد أربعة عشر رجلا ، فضربه بالسيف منهم أربعة في وجهه . ورم أبو سعيد الخدري بيته ، فدخل عليه نمر من أهل الشام ، فقالوا : أيها الشيخ ، من أنت ؟ قال : أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما زلنا

نسبحك ، فبعضك أخذت في تركك قاتنا ، وكذلك عنا ، ولزوم بيتك ، ولكن أخرجنا ما عندك . قال : والله ما عندي مال ، فتقوا لحيتي ، وضربوه ضربات ، ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الصواع ^(١) ، وحتى زوج حمام كان له .

وكان جابر بن عبد الله يومئذ قد ذهب بصره ، فبعل يمشي في جنب أزقة المدينة ، وهو يقول : خمس من أخاف الله ورسوله . فقال له رجل : ومن أخاف الله ورسوله ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخاف للمدينة فقد أخاف ما بين جنبي ، فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله ، فقرأى عليه مروان فأجاره ، وأمر أن يدخله منزله ، وخلق عليه بابه ، وكان سعيد بن السب رحمه الله لم يرح من المسجد ، ولم يكن يخرج إلا من الليل إلى الليل ، وكان يسمع إذا جاء وقت الأذان أذانا يخرج من قبل القبر الصريف ، حتى آمن الناس ، فكان سعيد يقول : ما رأيت خيراً من الجملة ، ثم أمر مسلم بالأسارى ، فسلوا بالحديد ، ثم دعا إلى يعة يزيد ، فكان أوك من بايع مروان بن الحكم ، ثم أكابر بني أمية ، حتى أتى على آخرهم . ثم دعا بني أسد ، وكان عليهم حقاً ، فقال : أتبايعون لسيد الله يزيد بن أمير المؤمنين ولبن استخلف عليكم بعده ، على أن أموالكم ودماءكم وأتسكم خول له ، يقضى فيها ما شاء ؟ قال يزيد بن عبد الله بن زمة : إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم . فقال مسلم : والله لا أقيمك ، ولا تعرب البارد بعدها أبداً ، فأمر به ، فضربت عنقه . ثم أتى بمقل بن سنان ، وكان مقل حاملاً لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله ، فلما دخل عليه قال له : أعطشت يا مقل ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير ، قال : رحسوا له شربة من سويق السوز الذي زودنا به أمير المؤمنين ، فلما شربها قال له : رويت ؟ قال : نعم . فقال مسلم : أما والله لا يؤلمنا من مثانتك أبداً ، قديم ، فضربت عنقه ، ثم قال : ما كنت لأدعك بعد كلام سمعت منك تطعن به على إمامك ، وكان مقل قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل ذلك ، فيها بينه وبين مسلم ، على الاستراحة بذلك ، ثم أمر محمد بن أبي الجهم وجماعة من وجوه قريش والأصهار ، وخيار الناس والصعابة والتابعين ، ثم أتى بيد الله بن الحارث مغولا . فقال مسلم : أنت القتال : اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية ، لا تروا شراً أبداً ؟ قال : قد قتلنا ، ولكن لا يسمع من أسير أمر ، أرسل يدي ، وقد برئت مني القعة ، إنما نزلت بهد الله وميثاقه ، وأبى الله لو أطاعوني وقيلوا مني ما أشرت به عليهم ما تحمكت بهم أنت أبداً . فقال له مسلم : والله لأذهبك إلى نار تظني ، ثم أمر به فضربت عنقه . قد ل

مروان : قد والله سقيتني من هذا هؤلاء القوم ، إلا ما كان من قريش ، فإني أعصتها وأطيعها . فقال مسلم : والله لا أعلم عند أحد غصا لأكثر المؤمنين إلا سألت الله أن يسقيني منه . فقال : إن عند أمير المؤمنين غصوا لهم ، وحلماً عنهم ليس عندك . وجعل مروان يستند إلى قريش ، ويقول : والله لقد سادني قتل من قتل منكم . فقالت له قريش : أنت والله الذي تكلمنا ، ما عندك الله ولا الناس ، لقد خرجت من عندنا ، وحلفت لنا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لردتهم هنا ، فإن لم تستطع لتضيق ولا ترجع معهم ، فرجعت ، وذلك على البقرة ، وأمنت على الملكة ، فإني لك بالجزاء . قال : فبلغ حدة قتل الحرة يومئذ من قريش والأصهار والمهاجرين ووجوه الناس ، ألفا وسبع مئة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف ، سوى النساء والصبيان .

قال أبو مشر : دخل رجل من أهل الشام على امرأة تسمي من نساء الأصهار ومعهما صبي لها ، فقال لها : هل من مال ؟ قالت : لا والله ما تركوا لي شيئاً . فقال : والله لتخرجين لي شيئاً أو لأقتلك وصبيك هذا . فقالت له : وعليك إنه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد بايت رسول الله صلى الله عليه وسلم معه يوم بكة الشجرة ، على أن لا أزي ، ولا أسرق ، ولا أقتل ولدي ، ولا آتي بيتان أقره ، لما أبنت شيئاً ، فإني لله . ثم قالت لابنها : يا بني ، والله لو كان عندي شيء لآتيتك به . قال : فأخذ رجل الصبي ، وألغى في فيه ، فجذبه من حبرها ، فضرب به الحائط فانتثر دماغه في الأرض ، قال : فلم يخرج من البيت حتى اسود نصف وجهه ، وصار مثلاً .

قال أبو مشر : قال لي رجل : بينا أنا في بعض أسواق الشام ، إذا برجل ضخم ، فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : رجل من أهل المدينة ، قال : من أهل الحيرة ؟ قال : قلت له سبحان الله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم معها طيبة وسميتها خبيثة ، قال : فبكى ، فقلت له : ما يبكيك ، قال : الحبيب والله ، كنت أغزو الصائفة كل عام زمن معاوية ، فأبيت في الشام ثقيل لي : إنك تغزو المدينة وتقتل فيها رجلاً يقال له : محمد بن عمرو بن حزم ، وتكون يقتله من أهل النار . قال : قلت : ما هذا من شأن المدينة ، ولا يقع في نفس مدينة الرسول . قال : قلت : لها بعض مدائن الروم ، فسكنت أغزو ولا أسل فيها شيئاً ، حتى مات معاوية ، وولي يزيد ، فغضب قرعة بث المدينة ، فأصابني القرعة . قال : قلت : هي هذه والله ، فأردت أن يأخذوا مني بديلاً ، فأبوا ، وقلت في نفسي : أما إذا أبوا ، فإني لا أسل فيها شيئاً . قال : فغضرت الحرة ، فخرج أصحابي يقاتلون ، وجلس في فسطاطي ، فلما غرخوا من القتال ، جلدنا أصحابنا ،

فقالوا : دخلنا وفرغنا من الناس ، فقال بعض أصحابي لبعض : تمالوا حتى تنظر إلى القتل ، فتقلتبت سيفي وخرجت ، فجعلنا ننظر إلى القتل ونقول : هذا فلان ، وهذا فلان ، فإذا رجل في بعض تلك المرات في يده سيف ، وقد أزيد شدقه ، وحوله صرعى من أهل الشام ، فلما أبصرني قال : يا كلب احسن عني دمك . قال فسلمت والله كل شيء ، فقلت عليه ، فقاتلته فقتلته ، فسطع نور بين علييه وسقط في يدي ، قلت : من هذا ؟ فليل : هذا محمد بن عمرو بن حزم ، فجعلت أدور مع أصحابي ، فيقولون : هذا فلان ، وهذا فلان . فمرّ إنسان لا يعرف ، فقال : من قتل هذا ، وبجحك ، يريد محمد بن عمرو بن حزم ! قتله الله ، والله لا يرى الجنة به أبداً .

عدة من قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم

قال : وذكروا أنه قتل يوم الحرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلاً ، ولم يبق بدمي بعد ذلك ، ومن قريش والأندلس سبع مئة ، ومن سائر الناس من اللواتي والعرب والتابعين عشرة آلاف ، وكانت الوقفة في ذى الحجة ثلاث بقين منها سنة ثلاث وستين . قالوا : وكان الناس يسبون من ذلك أن ابن الزبير لم يصلوا إليه إلا بعد ستة أشهر ، ولم يكن مع ابن الزبير إلا نضر قليبس ، وكان بالمدينة أكثر من عشرة آلاف رجل ، والله ما استطاعوا أن يناهضوه يوماً إلى الليل .

كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد

قال : وذكروا أن مسلماً لما فرغ من قتال أهل المدينة ونهبها ، كتب إلى يزيد بن معاوية بسم الله الرحمن الرحيم ، لبعد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مسلم بن عقبة ، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : تولى الله حفظ أمير المؤمنين والكفاية له ، فإني أخير أمير المؤمنين أجاه الله ، أي خرجت من محقق ونحن على التبعة التي رأى أمير المؤمنين يوم فارقتنا بالمدينة ، فلقينا أهل بيت أمير المؤمنين بوادى القرى ، فرجع منا مروان بن الحكم ، وكان لنا عوناً على عدونا ، وإنا انتهينا إلى المدينة فلذا أهلها قد خندقوا عليها الحنادق ، وأقاموا على ألقابها الرجال بالسلح وأدخلوا ما شيهتهم ، وما يحتاجون لحصارهم سنة فيما كانوا يقولون ، وإنا أعزنا لإهم ، وأخبرناهم بعد أمير المؤمنين ، وما بذل لهم ، فأبوا ، ففرقت أصحابي على أقواء الحنادق ، فوليت الحصين بن نمير ، ناحية ذناب وما والاها ، وعلى اللواتي وجهت حبيبي بن دجة إلى ناحية بني سلمة ،

ووجهت عبد الله بن مسلمة إلى ناحية بئج الترقدة^(١)، وكنت ومن معي من قواد أمير المؤمنين ورجاله في وجوه بني حارثة، فأدخلنا الخيل عليهم حين ارتفع النهار، من ناحية عبد الأشهل بطريق قصه لنا رجل منهم بما دعاه إليه مروان بن الحكم إلى صليح أمير المؤمنين، وما تضمن له عنه من قرب السكان، وجزيل المطاء، وإيجاب الحق، وقضاء الأمان، وقد بشت به إلى أمير المؤمنين، وأرجو من الله عز وجل، أن يلهم خليفته وعبد عرقان ما أولى من الصنع وأسدى من الفضل، وكان أكرم الله أمير المؤمنين من محمود مقام مروان بن الحكم، وجليل مشهده، وسديد بأسه، وعظيم نكاته لسدو أمير المؤمنين، ما لا إخال ذلك صانعا عند إمام المسلمين وخليفة رب العالمين إن شاء الله، وسلم الله رجال أمير المؤمنين، فلم يصب منهم أحد بمكرهه، ولم يقم لهم عدوم من ساعات نهارهم أربع ساعات، فما صليت الظهر أصلى الله أمير المؤمنين إلا في مسجد؛ بعد القتل الذريع، والانتاب العظيم، وأوقنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم، وأتينا مدبرهم وأجهزنا على جرحهم، وانتبهنا ثلاثا كما قال أمير المؤمنين، أمد الله نصره، وجعلت دور بني الشهيد للظلم عثمان بن عفان، في حرز وأمان، فالحمد لله الذي شفي صدرى من قتل أهل الخلاف القديم، والشقاق العظيم، فظالمنا هتوا، وقديما ما ظفروا.

وكتبت إلى أمير المؤمنين، وأنا في منزل سعيد بن العاص مدعنا مريضا، ما أراى إلا لما بي، فما كنت أبالي، متى بعد يوحى هذا، وكتب لخلال الحرم سنة ثلاث وستين. فلما جاءه الكتاب، أرسل إلى عبد الله بن جعفر وإلى ابنه معاوية بن يزيد، فأقرأهما الكتاب، فاسترجع عبد الله بن جعفر وأكثر، ويكى معاوية بن يزيد، حتى كتبت نفسه مخرج، وطال بكأوه، فقال يزيد لعبد الله بن جعفر: ألم أجيبك إلى ما طلبت، وأسعفتك فيما سألت، فبذلت لهم المطاء وأجزلت لهم الإحسان، وأعطيت اليهود والوائق على ذلك؟ فقال عبد الله بن جعفر: فإن هنالك استرجعت، وتأسفت عليهم، إذ اختاروا البلاء على العافية، وبالفاقة على النعمة، ورضوا بالحمران دون المطاء، ثم قال يزيد لابنه معاوية: لما بكأوك أنت يا بني؟ قال: أبكى على قتل من قتل من قريش، ولأنما قتلنا بهم أقمنا. فقال يزيد: هو ذاك، قتل بهم نفسى وشيئتها قال: وسأل مسلم بن عقبة قبل أن يرتحل عن المدينة عن علي بن الحسين، أحاضر هو؟ فقيل له: نعم. فأناه علي بن الحسين، ومعه إبناه، فرحب بهما، وسهل وقرهم، وقال:

إن أمير المؤمنين أوصاني بك . فقال عليّ بن الحسين : وصل الله أمير المؤمنين وأحسن جزاءه
ثم انصرف عنه . ولم يكن أحد نصب للعرب من بني هاشم ، ولزموا بيوتهم ، فسلموا ، إلا
ثلاثة منهم تراءوا للقتال ، فأصيبوا .

موت مسلم بن عقبة ونبشه

قال : وذكروا أن مسلم بن عقبة ارتحل عن المدينة ، وهو مجرد بنسه ، يريد ابن الزبير
بمكة ، فقتل في بعض الطريق ، فدعا الحسين بن نعيم . فقال له : يا رذعة الجمار ، إنه كان من
عهد أمير المؤمنين إن حدث بي حدث للوث أن أهد إليك ، فسمع ، فإني بك عالم ، لا يمكن
قرباً من أذنك إذا قدمت مكة قبول (أي قريش فيها) ، فلما هو الوفاق ، ثم الاتفاق ثم
الانصراف ثم مات فدفن في ثنية للشلل (١) ، فلما هرق القوم عنه ، أتته أم ولد يزيد بن جند
الله بن زمة ، وكانت من وراء السكر ترقب موته ، فنبشت عنه ، فلما انتهت إلى لحيه ،
وجدت أسود من الأسود منطوياً في رقبته ، فاحمأ فاه ، فتيبته . ثم لم تزل به حتى تسى لها عنه
فصلبته على الشلل . قال الضحاك : لحدثني من رآه مصلوباً يرى كأي قبر أبي رغال . (٢)

فضائل قتلى أهل الحرّة ورحمهم الله تعالى

قال : وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في سفر من أسفاره فلما مرّ بحرّة
بن زهرة ، وقف فاسترجع . . فقالوا : ما هو يا رسول الله ؟ قال : يقتل في هذه الحرّة خيار
أهل بعد أصحابي . قال : وذكروا أن عبد الله بن سلام وقف بالحرّة زمان مساوية بن أبي
سفيان . فقال : أجد في كتاب يهود الذي لم يذكر ولم ينير ، أنه يكون هاهنا مقتلة قوم يحضرون
يوم القيامة وأمنى سيوفهم على رقابهم ، حتى يأتيوا الرحمن تبارك وتعالى ، فيقتلون بين يديه ،
فيقولون : قلنا نيك . قال : وذكروا عن داود بن الحصين قال : عندنا قبور قوم من قتلى
الحرّة ، قلل ما حركت إلا فاح منها ريح السك . وقال بعضهم : عن عبد الله بن أبي سفيان

(١) ثنية للشلل : الثنية القبة أي الأرض المرتفعة . وللشلل : ضم اللم وفتح اللام للشدّة
جبل بالمدينة .

(٢) أبو رغال : بكسر الراء قيل هو رجل من ثمود كان يقيم بالحرم يدافع عنه فلما خرج
منه أصحابه القصة ، وقيل كان دليلاً للبعثتين توجهوا إلى مكة ، وقيل كان عشاراً جائراً ،
ورجم قبره لكرهه الناس له .

عن أبيه قال : رأيت عبد الله بن حنظلة في منامي بأحسن صورة ، معه لؤلؤه ، قلت : يا أبا عبد الرحمن ، أقلت ؟ قال : بلى ، فقلت رب ، فأدخلني الجنة ، فأنا أسرح في ثمارها حيث شئت ، قلت : فأصحابك ما صنع بهم ؟ قال : هم معي ، وحول لوائى هذا الذى ترى لم تحمل عقده بعد . وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى : رأيت كثير بن أنفلح رضى الله عنه في النوم ، قلت له : ألت قد استشهدت ؟ قال : ليس في الإسلام شهادة ، ولكنها الندباء . وقال الأعرج : كان الناس لا يلبسون للصبوغ^(١) من الثياب قبل الحرمة ، فلما قتل الناس بالحرمة استحبوا أن يلبسوها وقالوا : لقد مكث النوح في الدور على أهل الحرمة سنة لاجدمون . وقال عبد الله بن أبي بكر كان أهل المدينة أعز الناس وأهيبهم ، حتى كانت الحرمة ، فأجترأ الناس عليهم فهانوا . قال الزهرى : بلغ القتل يوم الحرمة من قريش والأنصار ، ومهاجرة العرب ووجوه الناس سبع مئة ، ودار الناس عشرة آلاف . من أخلاط الناس وللوالى والبيد ، قال وأصيب نساء وصبيان وكان قدوم أهل الشام المدينة ثلاث قين من ذى الحجة ، سنة ثلاث وستين ، فاتتهوا ثلاثا حتى رأوا هلال الحرمة ، ثم أمسكوا بهد أن لم يفتوا أحدا به رمق ، وقتل بها من أصعاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلا ، ولم يبق بعد ذلك بدرى .

وقالوا : قال عيسى بن طلحة : قلت لعبد الله بن مطيع : كيف نجوت يوم الحرمة ؟ قال : رأيت ما رأيت من غلبة أهل الشام ، وصنع بنى حارثة الذى صنعوا من إدخالهم علينا وولى الناس ، فذكرت قول الحارث بن هشام يوم بدو ، وعلت أنه لا يضر عدوى مشهدى ، ولا ينفع ولي ، فتواريت ، ثم لحقت بأبن الزبير ، وكنت أعجب كل العجب أن ابن الزبير لم يصلوا إليه سنة أشهر ، ولم يكن معه إلا قريسيه ، قوم من قريش من الحوارج ، وكان معنا يوم الحرمة ألفا رجلا ، كلهم ذوو حفاظ ، لما استطعنا أن نجيبهم يوماً إلى آخر الليل .

تم الجزء الأول من كتاب الإملة والسياسة

وطيه الجزء الثانى

(١) للراد بالصبوغ هنا : الصبوغ بالسواد .

فهرس
الجزء الأول
من الامعة والسياسة

صفحة	
٣	مقدمة الناشر
٥	مقدمة المحقق
٧	ترجمة بن كتيبة
٩	مقدمة المؤلف
١٢	استخلاف أبي بكر رضى الله عنه في الصلاة بالناس
١٢	محاولة العباس يمة الإمام على
١٢	ذكر السقيفة وما جرى فيها من القول
١٦	مخالفة بغير بن سعد وقضه لعدم
١٦	يعة أبي بكر الصديق رضى الله عنه
١٧	تخلف سعد بن عباد رضى الله عنه عن البيعة
١٨	لإيالة على كرم الله وجهه يمة أبي بكر رضى الله عنهما
١٩	كيف كانت يمة على بن أبي طالب كرم الله وجهه
٢٢	خطبة أبي بكر الصديق رضى الله عنه
٢٣	مرض أبي بكر واستخلافه عمر رضى الله عنه
٢٥	ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه
٢٦	قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه
٢٨	تولية عمر بن الخطاب الستة القورى وعهد إليهم
٣٠	ذكرى القورى ويعة عثمان بن عفان رضى الله عنه
٣١	ذكر الإنكار على عثمان رضى الله عنه
٣٣	ذكر القول والمباحلة لثمان ومعاوية رضى الله عنهما
٣٥	ما أنكر الناس على عثمان رضى الله عنه
٣٧	حصار عثمان رضى الله عنه
٣٩	شكوى أهل مصر من ابن أبي سرح وتولية محمد بن أبي بكر على مصر

سلسلة

- ٤٠ وجيع محمد بن أبي بكر إلى المدينة
- ٤٠ حصار أهل مصر والكوفة عثمان رضي الله عنه
- ٤٠ غاطية عثمان من أهل القصر طلحة وأهل الكوفة وغيرهم
- ٤٢ رؤية عثمان أبا بكر وعمر في المنام
- ٤٤ قتل عثمان رضي الله عنه وكيف كان
- ٤٦ دفن عثمان بن عفان رضي الله عنه
- ٤٦ يمة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكيف كانت
- ٥٠ خطبة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
- ٥١ اختلاف الزبير وطلحة على علي كرم الله وجهه
- ٥١ خلاف عائشة رضي الله عنها على علي

استنزال عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة عن مشاهدة

- ٥٢ علي وحروبه
- ٥٣ هروب مروان بن الحكم من المدينة المنورة
- ٥٣ خروج علي من المدينة
- ٥٥ كتاب أم سلمة إلى عائشة
- ٥٥ استنصار عدي بن حاتم قومه لنصرة علي رضي الله عنه
- ٥٦ استنصار زفر بن زيد قومه لنصرة علي
- ٥٧ توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة
- ٦١ زول طلحة والزبير وعائشة البصرة
- ٦٢ نزول علي بن أبي طالب الكوفة
- ٦٢ خطبة أبي موسى الأشعري
- ٦٢ خطبة عمار بن ياسر
- ٦٣ كتاب علي إلى أهل الكوفة
- ٦٣ خطاب شعيب بن هاشم

منحة

٦٤	• • • • •	دخول طلحة والزبير ومائشة البصرة
٦٤	• • • • •	خطبة مائشة رضي الله عنها
٦٥	• • • • •	قتل أصصاب عثمان بن حنيف عامل على البصرة
٦٦	• • • • •	مبعثة الثنين للقتال
٦٦	• • • • •	كتاب على إلى مائشة
٦٨	• • • • •	رجوع الزبير عن الحرب
٦٩	• • • • •	قتل الزبير بن العوام
٧٠	• • • • •	عناطبة على لطلحة بين الصدين
٧٠	• • • • •	التحام الحرب
٧٤	• • • • •	مبايعة أهل الشام معاوية بالخلافة
٧٤	• • • • •	كتاب معاوية إلى على
٧٥	• • • • •	رد الإمام على على معاوية
٧٥	• • • • •	قدوم عقيل بن أبي طالب على معاوية
٧٦	• • • • •	نسي عثمان بن عفان إلى معاوية
٧٨	• • • • •	قدوم ابن م عدي بن حاتم الشام
٧٩	• • • • •	استعمال على عبد الله بن عباس على البصرة
٧٩	• • • • •	ما أشار به الأحنف بن قيس على على
٧٩	• • • • •	كتاب الأحنف إلى قومه يدعوهم إلى نصرة على
٨٠	• • • • •	كتاب أهل العراق إلى مصقلة
٨١	• • • • •	جواب مصقلة إلى قومه
٨١	• • • • •	لحقو عبد الله بن عامر بالشام
٨١	• • • • •	ما أشار به همار بن ياسر على على
٨٢	• • • • •	ما أشار به الأختري على على
٨٢	• • • • •	كتاب على إلى جرير بن عبد الله

٨٢	خطبة زفر بن قيس — خطبة جرير بن عبد الله البجلي
٨٣	كتاب عليّ إلى الأعمش بن قيس
٨٣	خطبة زياد بن كعب — خطبة الأعمش بن قيس
٨٣	معدودة الأعمش ثقافه في الحقوق بماوية إلى الشام
٨٤	كتاب جرير إلى الأعمش — إرسال عليّ جريراً إلى معاوية
٨٤	كتاب عليّ إلى معاوية مرة ثانية
٨٥	قدم جرير إلى معاوية — إشارة الناس على عليّ بالمقام بالكوفة
	مشورة معاوية أهل ثقته — كتاب معاوية إلى عمرو بن الناس
٨٦	ما سأل معاوية من عليّ من الإقرار بالشام ومصر
٨٦	كتاب عليّ إلى جرير بن عبد الله
٨٧	استشارة عمرو بن الناس أبيه ومواليه
٨٧	قدم عمرو إلى معاوية
	مشورة معاوية عمرأ رضى الله عنهما — كتاب معاوية إلى أهل مكة وللدنية
٨٨	وجوابهما
٨٩	جوابهما — كتاب معاوية إلى ابن عمر — جوابه
٩٠	كتاب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص — جواب سعد بن أبي وقاص لمعاوية ،
٩٠	كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصاري
٩١	جوابه — كتاب معاوية إلى عليّ رضى الله عنه — جواب عليّ إلى معاوية ،
٩٢	قدم عبيد الله بن عمر على معاوية — تبعة معاوية أهل الشام لقتال عليّ
٩٣	تبعة أهل العراق لقتال
٩٤	منع معاوية للناء من أصصاب عليّ — خطبة أصصاب عليّ للناء
٩٥	فهام عليّ معاوية إلى البراز — براز عمرو بن الناس لعلّ
٩٥	قطع لليرة عن أهل الشام
٩٦	قدم أبي هريرة وأبي الدرداء على معاوية وعليّ
	(م ١٤ — الإملاء والسياسة)

سنة

- ٩٧ وقوع عمرو بن العاص في عليّ — كتاب معاوية إلى أبي أيوب الأنصاري ،
 ما خاطب به الثمان بن بشير قيس بن سعد ٩٧
 ٩٨ كتاب عمرو إلى ابن عباس ٩٨
 جواب عبد الله بن عباس إلى عمرو بن العاص — أمر معاوية مروان بحرب
 الأشت ٩٩
 ١٠٠ كتاب معاوية إلى ابن عباس — جوابه ١٠٠
 خطبة على كرم الله وجهه — قدوم ابن أبي محجن على معاوية — رفع أهل
 الشام للصالح ١٠١
 ما تكلم به عبد الله بن عمرو وأهل العراق — ما خاطب به عتبة بن أبي سفيان
 الأحمش بن قيس ١٠٢
 ١٠٣ كتاب معاوية إلى عليّ رضي الله عنه — جوابه ١٠٣
 اختلاف أهل العراق في للوادة — ما ردّ كردوس بن هاني على عليّ ، . . . ١٠٤
 ما قال سفيان بن ثور ١٠٤
 ما قال حريث بن جابر — ما قال خالد بن معمر — ما قال الحصين
 ابن المنذر ١٠٥
 ما قال عثمان بن حنيف ١٠٥
 ما قال عدى بن حاتم — ما قال عبد الله بن جمل ١٠٦
 ما قال المنذر بن الجارود — ما قال الأخنف بن قيس ١٠٧
 ما قال عمرو بن عطارد — ما قال عليّ رضي الله عنه بعه — نداء أهل الشام
 ولستأنتهم علياً — ما أشار به عدى بن حاتم ١٠٨
 ما قال الأهمتر وأشار به — ما قال عمرو بن الحقيق — ما قال الأهمتر
 ابن قيس ١٠٩
 ما قال عبد الرحمن بن الحارث — ما رآه عليّ كرم الله وجهه — ما قال
 عمار بن يسر ١٠٩

ملحة

- ١١٠ قتل عثمان بن يسر — هزيمة أهل الشام
- ١١١ ما قال الأعمش بن قيس — ما قال القراء
- ما قال عثمان بن حنيف — ما قال الأشتر وقيس بن سعد — ذكر الاتفاق
- ١١٢ على السليح وإرسال الحكمين
- ١١٣ اختلاف أهل العراق في الحكمين — ما قال أهل الشام لأهل العراق
- ما قال الأحنف بن قيس لـ — ما قال عليّ كرم الله وجهه — الاختلاف
- ١١٤ في كتابة صحيفة السليح
- ١١٥ ما وصى به شرحبيل بن هانيّ أبا موسى
- ما وصى به الأحنف بن قيس أبا موسى — ما قال معاوية لمعمر —
- ١١٦ ما قال شرحبيل لمعمر
- اجتماع أبي موسى وعمرو — ما قال سعيد بن قيس للحكمين — ما قال
- عدى بن حاتم — ما قال عمرو لأبي موسى
- ١١٧ كتاب ابن عمر إلى أبي موسى
- ١١٩ كتاب معاوية إلى أبي موسى — جوابه
- ١٢٠ كتاب عليّ إلى أبي موسى — جوابه — ذكر الخوارج على عليّ ابن أبي
- طالب كرم الله وجهه
- ١٢١ كتاب الخوارج إلى إخوانهم من أهل البصرة — الجواب
- ١٢٢ خطبة عليّ كرم الله وجهه — كتاب عليّ كرم الله وجهه للخوارج
- ١٢٣ كتاب عليّ إلى ابن عباس — ما قال ابن عباس إلى أهل البصرة —
- ١٢٤ ما قال عليّ كرم الله وجهه لأهل الكوفة
- ١٢٥ ما قال عليّ كرم الله وجهه في الحشمي
- ١٢٦ إجماع على الذهاب إلى صفين
- ١٢٧ مسير عليّ إلى الخوارج وما قال لهم
- ١٢٨ قتل الخوارج

- خطبة على كرم الله وجهه ١٢٩
 كلام أبي أيوب الأنصاري ١٣١
 ما كتب على لأهل العراق ١٣٣
 مقتل على عليه السلام ١٣٧
 فصل ١٣٩
 يعة الحسن بن علي رضي الله عنه لمعاوية ١٤٠
 إنكار سليمان بن صرد ١٤١
 كراهية الحسين رضي الله عنه لليعة — ما أشار به للتيرة بن شعبة على معاوية
 من اليعة يزيد ١٤٢
 ما حاول معاوية في يعة يزيد — ما تكلم به الضحاك بن قيس — ما قال
 عبد الرحمن بن عثمان ١٤٣
 ما قال ثور بن من — ما تكلم به عبد الله بن همام ١٤٤
 ما تكلم به عبد الله بن مسعدة — ما قال الأحنف بن قيس ١٤٥
 ما ورد به الضحاك بن قيس — ما أجاب به الأحنف بن قيس ١٤٦
 ما قال عبد الرحمن بن عثمان — ما قال معاوية بن أبي سليمان ١٤٧
 قدوم معاوية للمدينة وما خاوض فيه العبادة ١٤٨
 ما تكلم به عبد الله بن عباس — ما تكلم به عبد الله بن جعفر — ما تكلم
 به عبد الله بن الزبير ١٤٩
 ما تكلم به عبد الله بن عمر — ما تكلم به معاوية — موت الحسن
 ابن علي رضي الله عنهما ١٥٠
 يعة معاوية ليزيد بالشام وأخذه أهل المدينة — عزل مروان عن المدينة ، . . . ١٥١
 خطبة مروان بن الحكم بين يدى معاوية ١٥٢
 كراهية أهل المدينة لليعة وردم لها — كتاب معاوية إلى سيد بن العاص ، . . ١٥٣
 ما كتب به إلى ابن عباس — ما كتب به إلى عبد الله بن جعفر — ما كتب
 به إلى الحسين — ما كتب به إلى ابن الزبير ١٥٤

سنة	
١٥٥	• • • • • ما أجابه القوم به رضى الله عنهم
١٥٧	• • • • • قدوم معاوية للدينة على هؤلاء القوم وما كان بينهم من المنازعة
١٦٣	• • • • • ما قاله عبد الله بن الزبير لمعاوية
١٦٤	• • • • • ما قاله سعيد بن عثمان بن عفان لمعاوية
١٦٥	• • • • • قدوم أبي الطفيل على معاوية
١٦٦	• • • • • ما حاول معاوية من تزويج يزيد
١٧٣	• • • • • وفاة معاوية رحمه الله
١٧٤	• • • • • كتاب يزيد بالبيعة إلى أهل المدينة
١٧٥	• • • • • إجابة القوم للمتبعين عن البيعة
١٧٦	• • • • • خلق أهل المدينة يزيد بن معاوية
١٧٧	• • • • • كتاب يزيد إلى أهل المدينة
١٧٨	• • • • • ما أجمع عليه أهل المدينة ورأوه من إخراج بني أمية
١٧٩	• • • • • إرسال يزيد للجيش إلى أهل المدينة
١٨٠	• • • • • قدوم الجيش إلى المدينة
١٨١	• • • • • طلب أهل الشام على أهل المدينة
١٨٥	• • • • • عدة من قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم
١٨٥	• • • • • كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد
١٨٧	• • • • • موت مسلم بن عقبة ونفيه
١٨٧	• • • • • فضائل قتل أهل الحرّة رحمهم الله

الأفكار السنيّة

تأليف
الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن هاشم
ابن قتيبة الدينوري

المجلد سلاسله والثاني سلاسله وكتبه الله
وهو المعروف بـ "تاريخ الخلفاء"

تحقيق د. كنود

د. محمد الزبي

الأستاذ بالأزهر

المجلد الثاني

الناشر

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر اختلاف الرواة في وقعة الحرة وخير يزيد

قال : وذكروا أنه لما بوج يزيد بن معاوية خرج الحسين حتى قدم مكة ، فأقام هو وابن الزبير . قال : وقدم عمرو بن سعيد بن الساس في رمضان أميرا على المدينة وعلى الموسم ، وعزل الوليد بن عتبة ، فلما استوى على الثور وعف قال أعرابي مستبغ : مه مه ا جاءنا والله بالهم فتلقاه رجل بصمته ، فقال مه ا عم والله الناس ، ثم قام يغضب ، فخلوه آخر عصا لما هبتان . فقال : مه ا هب والله الناس . ثم خرج إلى مكة ، فقدمها يوم القعدة ، فسلم الحسين ثم خرج .

فلما انصرف عمرو يلته أن الحسين خرج ، قال : اركبوا كل بئر بين السماء والأرض فاطلبوه . قال : فكان الناس يسيرون من قوه هذا . قال : فطلبوه فلم يدركوه ، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنيه هونا وعمدا ليردا الحسين . فأبى أن يرجع ، وخرج الحسين بأبي عبد الله ابن جعفر معه ، ورجع عمرو بن سعيد بن الساس إلى المدينة ، فأرسل إلى ابن الزبير ، فأبى أن يأتيه ، وامتنع برجاله منه من قريش وغيرهم . قال : فبعث عمرو بن سعيد جيشا من المدينة يقاتلون ابن الزبير . قال : ففُترب على أهل الديوان البعث إلى مكة ، وهم كارهون لخروج . فقال لهم : إما أن تأتوا يدل ، وإما أن تخرجوا . قال : فجاء الحارث بن مالك بن البرصاء برجل استأجره بخمسة مئة درهم إلى عمرو بن سعيد . قال : قد جئت برجل بدلي . فقال الحارث للرجل الذي استأجره هل لك أن أزيدك خمسة مئة أخرى ، وتكبح أمك ؟ فقال له : إما تستحي ؟ فقال : إنما حرمت عليك أمك في مكان واحد ، وحرمت عليك الكعبة في كذا وكذا مكان من القرآن . قال فجاء به إلى عمرو بن سعيد ، قال : قد جئت برجل لو أمرته أن ينكح أمه لتكبحها . فقال له عمرو : لنكح الله من شيع . قال : فبعثهم إلى مكة يقاتلون ابن الزبير ، فهزم عمرو ابن الزبير ، وبث يزيد بن معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري ، يحطب الناس بالدينة . فقال في خطبته : أهل الشام جند الله الأعظم ، وأهل الشام خير الخلق . فقال الحارث بن مالك : ائذن لي أن أنكح . فقال : اجلس لا أجلسك الله من شيع . قال : فعهد الحارث وقال : لعن الله ثعنة خير من أهل الشام ، ما ثقت من أهل المدينة إلا أنهم قتوا

أباك وهو يسرق لقاح النبي صلى الله عليه وسلم ، أنسيت طعنة ابن قتادة لست أريك بالرمح ، فخرج منه جموس مثل هذا ، وأغار إلى ساعده ، ثم جلس .

ولاية الوليد المدينة وخروج الحسين بن علي

قال : وذكروا أن يزيد بن معاوية ، عزل عمرو بن سعيد ، وأمر الوليد ابن عتبة ، وخروج الحسين بن علي إلى مكة ، فمال الناس إليه ، وكثروا عنده واختلطوا إليه ، وكان عبد الله بن الزبير فيمن يأتيه . قال : فأثابه كتاب أهل الكوفة فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن علي ، من سليمان بن صرد ، والسبب ، بورقاهة بن هذاد . وبعثته من المؤمنين وللمسلمين من أهل الكوفة . أما بعد ، فالحمد لله الذي قسم عدوك الحيار السعيد ، الذي احتدى على هذه الأمة ، فانتزعها حقوقها ، واختصها أمورها ، وغلبها على فيعها ، وتآمر عليها على غير رضاء منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ؛ فبعداً له كما بدت بمود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقدم علينا ، لئلا الله أن يصيبنا بك على الهدى ، فإن النعمان بن بشير في قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا عجزك أخرجنا من الكوفة ، وألحقنا بالشام والسلام . قال : فبث الحسين بن علي مسلم بن حنظل إلى الكوفة يبايعهم له ، وكان على الكوفة النعمان بن بشير . قال النعمان لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلينا من ابن سبدل . قال : فبلغ ذلك يزيد ، فأراد أن يمزله . قال لأهل الشام : أشيروا علي ، من أستمع على الكوفة ؟ فقالوا : أترضى برأى معاوية ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن الصاك يأمرك جبيد الله بن زياد على المراقين قد كتبه في الديوان . قال : فاستعمله على الكوفة ، فقدم الكوفة قبل أن يقدم الحسين ، وبايع له مسلم بن حنظل وأكثر من ثلاثين ألفاً من أهل الكوفة ، فنهضوا معه يريدون جبيد الله بن زياد ؟ فجعلوا كلما أشرفوا على زقاق ، أنسل منه منهم ناس ، حتى بقي مسلم في شرفة قليلة . قال : فجعل أناس يرمونه بالأجر من فوق البيوت ؟ فلما رأى ذلك دخل دار هاني بن عروة للراصد ، وكان له فيهم رأى . فقال له هاني بن عروة : إن لي من ابن زياد مكاناً ، وسوف أتعرض له ، فلذا جاء يسودني ، فاضرب عنقه ، فقيل لابن زياد : إن هاني بن عروة شاك بقرء إليهم . قال : وشرب للنرة ، فجعل يقيها . قال : فجاء ابن زياد يموه ، وقال لهم هاني : إذا قلت لكم اسقوني ، فأخرج إلي فاضرب عنقه ، فقال اسقوني ، فأبطأوا عليه ، فقال : ويحك اسقوني ولو كان فيه ذهاب تلسي قال : فخرج عبيد الله بن زياد ولم يصنع الآخر شيئاً ، وكان من أشجع الناس ، ولكنه أخذته كبرة ، فقيل لابن زياد : والله إن في البيت رجلاً مسلحاً . قال : فأرسل ابن زياد إلى هاني فعداه . قال : إنني شاكلاً أستطيع التماس . قال : اتقني به وإن كان شاكياً ، قال : فأخرج له دابة ، فركب ومعه عصاه وكان

أخرج ، فجعل يسير قليلا ووقف ، وغول : مالي أنهب إلى ابن زياد ؟ لما زال ذلك ذأ به حتى دخل عليه . فقال له عبيد الله بن زياد : يا هانيء ، أما كانت يد زياد عندك يضاء ؟ قال : بلى ، قال : ویدی ؟ قال : بلى ، فقال يا هانيء : قد كانت لك عندی يد يضاء ، وقد امتنكت علی نفسك ومالك ، فتناول العصا التي كانت بيد هانيء ، فضرب بها وجهه حتى كسرها ، ثم قدمه فضرب عنقه . قاله : وأرسل جماعة إلى مسلم بن عقيل ، فخرج عليهم بيته ، لما زال يتألمهم حتى أخرج وأسر ، فلما أسرى بث الرجال ، فقال : استقوني ماء . قال : ومعه رجل من بني أبي ميط ، ورجل من بني سليم يقال له : شهر بن حوشب . فقال له شهر بن حوشب : لا أسقيك إلا من البئر . فقال الميطي : والله لا نسقيك إلا من الثرات ، قال : فأمر خلافا له ، فأثاء بإريق من ماء ، وفتح قوارير ومتدبل . قال : فشقاه فمضمض مسلم ، فخرج إليهم ، لما زال يمسح الدم ، ولا يسبح شيئا منه حتى قال : أخشروه عني . قال : فلما أصبح دعا به عبيد الله بن زياد وهو قصير ، فضعه لثضرب عنقه ، فقال : دعني حتى أوصي ، فقال : أوص . فنظر مسلم في وجوه الناس فقال لعمرو بن سعيد : ما أرى هاهنا من قريش خيرك ، فادن مني حتى أكلك ، فدنا منه ، فقال له : هل لك أن تكون سيد قريش ما كانت قريش ؟ إن الحسين ومن معه وهم تسعون بين رجل وامرأة في الطريق فلرددم ، واكتب إليهم بما أصابني . قال : فضرب عنقه وألقاه عمرو لعبيد الله وقال : أتندري ما قال ؟ قال عبيد الله اكتم على ابن عمك . قال عمرو : هو أعظم من ذلك ، قال ابن زياد : فأى شيء هو ؟ قال : أخبرني أن الحسين ومن معه قد أقبل . وهم تسعون إنسانا بين رجل وامرأة . فقال : أما والله إذا دلت عليه لا يتألمهم أحد خيرك .

قتال عمرو بن سعيد الحسين وقتله

قال : وذكروا أن عبيد الله بن زياد ، بث جيشا أمر عليهم عمرو بن سعيد ، وقد جاء الحسين الخبر ، فهم أن يرجع ومعه خمسة من بني عقيل فقالوا له : أرجع وقد قتل أخونا ، وقد جاهدك من الكتب ما تنق به ؟ قال لبعض أصحابه : والله مالي عن هؤلاء من صبر ، يعني بلى عقيل . قال : فلقية الجيش على خيولهم بوادي السباع ، فلقروهم وليس معهم ماء . فقالوا : يا بن بلة رسول الله لسمنا . قال : فأخرج لكل فرس صفة من ماء ، فستاقم بقدر ما يمسك برمقهم . ثم قالوا : مر يا بن بلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما زالوا يرجونه ، وأخشوا به على الجرف حتى نزلوا بكربلاد ، فقال الحسين : أى أرض هذه ؟ قالوا : كربلاء ، قال : هنا كرب وبلاء . قال : فنزلوا وبينهم وبين الماء وربة ، فأراد الحسين وأصحابه الماء فخلوا بينهم

وبينه . فقال له شهر بن حوشب لا تعرفوا منه حتى تعرفوا من الحميم ، فقال عباس بن عليّ : يا أبا عبد الله ، نحن على الحقّ فقاتل ؟ قال نعم . فركب فرسه ، وحمل بعض أصحابه على الخيول ، ثم حمل عليهم فكشفهم عن لئاه حتى شربوا وسقوا . ثم بث عبيد الله بن زياد عمرو بن سعيد يقاتلهم . قال الحسين : يا عمرو ، اختر مني ثلاث خصال : إما أن تتركني أرجع كما جئت ، فإن آيت هذه فأخري ، سيئري إلى الترك أقاتلهم حتى أموت ، أو تستيري إلى يزيد فأضح يدي في يده ، فيحكمني بما يريد . فأرسل عمرو إلى ابن زياد بذلك فهم أن يسيره إلى يزيد . فقال له شهر بن حوشب : قد أمكنك الله من عدوك وتسيره إلى يزيد ، والله لئن سار إلى يزيد لا وای مكروها ، وليكونن من يزيد بالكلان الذي لا تناله أنت منه ، ولا غيرك من أهل الأرض ، لا تسيره ولا تبلمه ريقه حتى ينزل على حنكك . قال : فأرسل إليه يقول : لا ، إلا أن تنزل على حنكي . فقال الحسين : أنزل على حكم ابن زانية ؟ لا والله لا أضل ، للوت دون ذلك وأحلي . قال : وأبطأ عمرو بن سعيد عن قتاله . فأرسل عبيد الله بن زياد إلى شهر بن حوشب إن تقدم عمرو يقاتل ، وإلا فأنته ، وكن أنت مكانه . قال : وكان مع عمرو ابن سعيد من قريش ثلاثون رجلاً من أهل الكوفة ، فقالوا : يمرض عليكم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال لا تقبلون واحدة منها ؟ فحولوا مع الحسين ، فقاتلوا . قال فرأى رجل من أهل الكوفة عبد الله بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، وكان من أجل الناس . قال : لا تاتن هذا الذي ، قبل له ويحك ، ما تصنع بقتله ، دعه ، قال : حمل عليه فضربه ، قطع يده ، ثم ضربه ضربة أخرى فقتله ، ثم قتلوا جميعاً . فقتل يومئذ الحسين بن عليّ ، وعباس بن عليّ ، وعثمان بن عليّ ، وأبو بكر بن عليّ ، وجعفر بن عليّ ، وأمه أم البنين بنت حرام السكالية ، وإبراهيم بن عليّ ، وأمه أم ولد ، وعبد الله بن عليّ ، وخمسة من بني عقيل ، وإبنان لعبد الله بن جعفر : عون ، ومحمد ، وثلاثة من بني هاشم ، ونساء من نسائهم ، وفيهم فاطمة بنت الحسين بن عليّ ، وفيهم محمد بن عليّ ، وإبن جعفر ، ومحمد بن الحسين بن عليّ .

قلوب من أسر من آل عليّ بن يزيد

قال : وذكروا أن أبا نصر قال : حدثني محمد بن الحسين بن عليّ ، قال : دخلنا على يزيد ، ونحن اثنا عشر غلاماً منفلتين في الحديد وعلينا قمص . فقال يزيد : انصمتم أنتمكم جيد أهل العراق ؟ وما علت بخروج أبي عبد الله حين خرج ، ولا بقتله حين قتل . قال : فقال عليّ بن الحسين : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنتمكم إلا في كتاب من قبل أن تترأها ، إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا مفرحوا بما آتاكم ، والله

لا يحب كل غثاقل غثور). قال : فغضب يزيد ، وجعل يبت بليته ، وقال : (وما أصابعك من مصيبة فبا كسبت أيديكم ، ويخبر عن كثير) يا أهل الشام ما ترون في هؤلاء ؟ قال رجل من أهل الشام لا تتخذن من كلب سوء جروا . قال التيمان بن بشر : يا أمير المؤمنين ! اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتم بهذه الحال . قالت خاتمة بنت الحسين : يا يزيد بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فبكى يزيد حتى كادت نفسه تفيض ، وبكى أهل الشام حتى علت أصواتهم . ثم قال : خكروا عنهم ، واذهبوا بهم إلى الحمام ، واضلوموا ، واضربوا عليهم القباب ، فضاخوا ، وأمال عليهم اللطخ وكساهم ، وأخرج لهم الجوازات الكثيرة من الأموال والكسوة ثم قال : لو كان بينهم وبين عاصي بنظر أمه^(١) نسب ما قطعهم ، ارجعوا بهم إلى المدينة . قال : فبعت بهم من صلوهم إلى المدينة .

إخراج بنى أمية عن المدينة ، وذكر قتال أهل الحررة

قال : وذكروا في قصة إخراج بنى أمية عن المدينة ، قالوا : بعث عثمان بن محمد أمير المدينة إلى يزيد بنتميمه مشقوقاً ، وكتب إليه : واغوثاه ! إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة .

قال أبو مسهر : غرغ يزيد بد الفتنة ، ومعه فستان قفصة عن يمينه ، وقفصة عن يساره ، وعليه مصفرتان ، وقد قفى جبهته كأنها ترس ، فصد الذبر ، فصد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، يا أهل الشام ، فإنه كتب إلى عثمان بن محمد أن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة ، والله لأن تقع الخضراء على القبراء أحب إلى من هذا الخير . قال : وكان معاوية أوصى يزيد فقال له : إن رابك من قومك ريب ، أو تنقص عليك منهم أحد ، فليك بأعور بن مرة ، فاستشره ، يعني مسلم بن عقبة ، فلما كانت تلك الليلة قال يزيد : ابن مسلم بن عقبة ؟ قام فقال : ها أنا ذا . قال هي ثلاثين ألفاً من الخيل . قال وكان مغل بن سنان الأحمسي نازلاً على مسلم بن عقبة . فقال له مسلم بن عقبة : إن أمير المؤمنين أمرني أن أوجه إلى المدينة في ثلاثين ألفاً . فقال له : استمع . قال : لا . قال : فركب فيلاً أو فيلة ، وتكون أبوكوم^(٢) ، فرض مسلم قبيل خروجه من الشام ، فأدنف فدخل عليه يزيد ابن معاوية يسوده ؟ قال له : قد كنت وجهك لهذا البعث ، وكان أمير المؤمنين معاوية

(١) عاصي بنظر أمه : كناية عن أحط الناس ، لأن البظر هو ما بين اسكنى الفرج (الزنبر) والذي يحض بنظر أمه يكون أقر الناس .
(٢) أبوكوم : كناية أربعة الحبشى صاحب الميل الذي أتى به ليهم الكعبة .

قد أوصاني بك ، وأراك مدتماً ليس نيك سفر . فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله ، أن لا نعرض أجراً ساقه الله إلينا ، إنما أنا امرؤ وليس بي بأس . قال . فلم يطق من الوجع أن يركب بغيراً ولا دابة ، فوضع على سريره ، وحمل الرجال على أعناقهم ، حتى جاءوا مكاناً يقال له البراء ، فأراحوا الزول به . فقال لهم : ما اسم هذا المكان ؟ قيل له البراء . فقال : لا تنزلوا به ، ثم سار حتى حازرة ، فنزل به ، فأرسل إلى أهل المدينة : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : أنتم الأصل والعشيرة والأهل ، فافقوا الله واسمعوا وأطيعوا ، فإن لكم عندي في عهد الله وميثاقه عطاءً ين في كل سنة ، عطاء في الصيف ، وعطاء في الشتاء ، ولكم عندي عهد الله وميثاقه ، أن أجعل سر الحنطة عندكم كسر الحنطة عندنا ، والحنطة يومئذ سبعة آصع بدرهم ، وأما السطاء الذي ذهب به عنكم حمرو بن سعيد ، فلي أن أخرجه لكم ، وكان حمرو بن سعيد قد أخذ أعطياتهم ، فاشترى بها عبيداً لنفسه : فقالوا لمسلم : نخطمه كما نخطع عثماناً ، يسنون يزيد ، وكما نخطع ناعماً . قال : فقال لهم ، فهزم الناس أهل المدينة ^(١) .

قال أبو محضر : حدثنا محمد بن حمرو بن حزم ، قال : قتل بضعة وسبعون رجلاً من قريش ، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار ، وقتل من الناس نحو من أربعة آلاف ، وقتل ابنان لزيد الله بن جعفر ، وقتل أربعة أو خمسة من ولده زيد بن ثابت لصلبه . فقال مسلم بن عقبة لأهل الشام : كفوا أيديكم ، فخرج محمد بن سحبد بن أبي وقاص ، يريد القتال ، فقاطمهم بد الكنف . فقال مسلم بن عقبة : أتيتها ثلاثاً . قال : فقتل الناس ، وفشمت النساء ، ونهبت الأموال . فلما فرغ مسلم بن عقبة من القتال ، انتقل من منزله ذلك إلى قصر بني عامر بدومة ، فدعا أهل المدينة من بقي منهم للبيعة . قال : فجاء حمرو بن عثمان بن عفان يزيد بن عبد الله ابن زبعة ، وجدته أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حمرو قال لأُم سلمة : أرسلني معي ابن بنتك ، فجاء به إلى مسلم ، فلما تقدم يزيد قال له مسلم : تباع لزيد الله أمير المؤمنين على أنسك خول له ، مما آله الله عليه بأسيايف المسلمين ، إن شاء وهب ، وإن شاء أعتق ، وإن شاء استرق . فقال يزيد : لأننا أقرب إلى أمير المؤمنين منك . قال : والله لا تسجلها أبداً . فقال حمرو بن عثمان : أنشدك الله ، فإن أخذته من أم سلمة ، يبعده وميثاقه ، أن أردّه إليها . قال : فركضه برجله ، فرماه من فوق السرير ، فقتل يزيد بن عبد الله ، ثم أتى محمد بن أبي جهم مغلولاً . فقال له مسلم : أنت القاتل ، اقتلوا بضعة عمر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبداً . قال : قد قتلها ولكن لا يسمح لتفسير أمر ، فأرسل

(١) هذه إمادة لما ذكر في الجزء الأول ، أمادها ابن قتيبة ليلى عليها ما بعدها .

يدى ، وقد برئت من القصة ، إنما نزلت بعد الله وميثاقه . قال : لا ، والله حتى أقدمك إلى النار . قال : فضرب عنقه . ثم جاء مغل بن سنان الأحمسي ، وكان جالساً في بيته ، فأناه مئة رجل من قومه ، فقالوا له اذهب بنا إلى الأمير حتى نبأيه . فقال لهم : إني قد قلت له قولاً ، وأنا أخوف ، فقالوا : لا ، والله لا يصل إليك أبداً ؟ فلما بلغوا الباب ادخلوا مغللاً ، وحبسوا الآخرين ، وأغلقوا الباب ؟ فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قال : إني أرى شيئاً قد تسب وعطش ، أسقوه من البلح الذي زودني به أمير المؤمنين ، قال : غلغوا له بلحاً بسل فصر به . قال له : أشربت ؟ قال : نعم ، قال : والله لا تبولها من مناتك أبداً ، أنت القاتل : اركب فيلاً أو فية وتكون أبليكوم . فقال مغل : أما والله لقد غلغوت ذلك منك ، وإنما خلقتي عسيف . قال : لجل يغري جبة كانت عليه ، وقال : أكره أن يلبسوها ، فضرب عنقه ، ثم سار إلى مكة ، حتى إذا بلغ قفا للشلل أذف ، فدعا الحسين بن نمير . فقال له : يا ابن برذمة الحمار ، والله ما خلق الله أحداً أبغض إلى منك ، ولولا أن أمير المؤمنين أمرني أن أستخلك ما استخلك ، أسمع ؟ قال : نعم ؛ قال : لا تكونن إلا على الوقاف ، ثم التقاف^(١) ، ثم الانصراف ، ولا تمسكن قريشاً من أذنك . ثم مات مسلم بن عقبة ، فدفن بقفا للشلل ، وكانت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمة بأستار ، غرقت إليه فبيشته من قبره ، ثم أحرقت عليه بالنار ، وأخذت أكلهاته فحقتها ، وعطفتها بالصخرة ، فكل من مرّ عليه يرميه بالحجارة ، وسار الحسين حتى جاء مكة ، فدعاهم إلى الطاعة ، وعبد الله بن الزبير يؤمئذ بمكة ، فلم يجبه ، فقاتله ، فقتل يومئذ النضر بن الزبير ، ورجلان من إخوته ، ومصعب بن عبد الرحمن ، والسور بن غزمية .

حرب ابن الزبير رضي الله عنهما

قال : وذكروا أن مسلم بن عقبة لما فرغ من قتال أهل المدينة يوم الحرّة ، مضى إلى مكة للكرمة ، يريد ابن الزبير ، حتى إذا كان بتديد ، حضرته الوفاة ، فدعا الحسين بن نمير . فقال له : إن أمير المؤمنين عصاني فيك ، فأني إلا استخلك بدي ، فلا ترسلن بينك وبين قريش رسولا تمكك من أذنك ، إنما هو الوقاف ، ثم التقاف ، ثم الانصراف . وهلك مسلم بن عقبة ، فدفن بالثنية . قال : ومعهم عبد الله بن الزبير ، فأحكم مراد مكة ، لجل عليها

(١) الوقاف : بكسر الواو : الوقوف للحرب ، والتقاف : الخصام والمجافاة ، يريد لا تمسكن إلا على الحرب ولا تسكن على للهادنة أو تصرف .

للقائفة ، وجامه جند أهل المدينة ، وأقبل ابن نعيم حتى نزل على مكة ، وأرسل خيلاً فأخذت أسلحتها ، وضرب عليها الراديات والمجانيق ، وفرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة ، في كل يوم يرمونها بها . فقال الناس : انظروا لتلايسيه ما أصاب أصحاب القبل . قال عبد الله ابن عمرو بن الماس ، وكان بمكة مشتمراً ، قدم من الطائف : لا تظن ذلك ، لو كان كافراً بها لسوق دونها ، فأما إذا كان مؤمناً بها فسيقتل فيها ، فكان كما قال ، وحاصروهم لعسريال بن جعين من الحرم ، سنة أربع وستين ، فحاصروهم بقية الحرم ، وصفر ، وشهر ربيع ، يندون على القتال ويروحون ، حتى جاهد موت يزيد بن معاوية ، فأرسل الحسين بن نعيم إلى ابن الزبير ، أن أئذن لنا نطوف بالبيت ، ونصرف عنكم ، فقد مات صاحبنا . فقال ابن الزبير : وهل تركتم من البيت إلا مدرة ؟ وكانت المجانيق قد أصابت ناحية من البيت الشريف فهدمته ، مع الحريق الذي أصابه ، قال : فمنهم أن يطوفوا بالبيت . فارتحل الحسين ، حتى إذا كان بصفيل فترقوا ، وبهمم الناس يأخذونهم ، حتى إن كانت الرابعة في غنمها لتأني الرجل منهم مربوطاً ، فيثب بهم إلى المدينة ، وأصاب منهم أهل المدينة حين مروا بهم ناساً كثيراً ، فحبسوا بالمدينة ، حتى قدم مصعب بن الزبير عليهم من عند عبد الله بن الزبير ، فأخرجهم إلى الحرّة ، فضرب أعناقهم ، وكانوا أربع مئة وأكثر ، قال : وانصرف ذلك الجيش إلى الشام مغلولاً ، وبايع أهل المدينة لابن الزبير بالخلافة ، وكان ابن عباس بمكة يومئذ ، فخرج إلى الطائف ، فهلك بها سنة سبعين ، وهو يومئذ ابن أربعة وسبعين سنة رضى الله عنه .

خلافة معاوية بن يزيد

قال : فلما مات يزيد بن معاوية ، استخلف ابنه معاوية بن يزيد ، وهو يومئذ ابن ثمانين عشرة سنة ، فلبث والياً شهرين ولبالي عصبوا لا يرى ، ثم خرج بعد ذلك ، قال : فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيتها الناس ، إنى نظرت بدمكم فيها صار إلى من أمركم ، وقتلته من ولايتكم ، فوجدت ذلك لا يسنى فيها بيني وبين ربى ، أن أقدم على قوم فيهم من هو خير منى ، وأحقهم بذلك ، وأقوى على ما قلته ، فاختاروا منى إحدى خصلتين : إما أن أخرج منها ، واستخلف عليكم من أراه لكم رضاء ومقنناً ، ولكم الله على ألا آلوكم نصيباً في الدين والدنيا ، وإما أن تختاروا لا تتكلم وتخرجوني منها . قال : فأثب الناس من قوله ، وأبوا من ذلك ، وخاف بنو أمية أن تزول الخلافة منهم ، فقالوا : ننظر في ذلك يا أمير المؤمنين ونستخير الله فأمكننا . قال لكم ذلك ، وعجبوا على . قال فلم يلبثوا بعدها إلا أياماً حتى

طعن ، فدخلوا عليه ، فقالوا له : استخلف على الناس من وراءهم رشا . فقال لهم : عند الموت تريدون ذلك ؟ لا والله لا أتزوّد بها ، ما سعدت بحلاوتها ، فكيف أشق بمرارتها ، ثم هلك رحمه الله ولم يستخلف أحداً . فقالوا لثمان بن عتبة : قدّم فصل بالأس ، فأبى . وقال : لا . أما أنا فلاحق بحالي عبد الله بن الزبير ، فقال له ابن زياد : إن هذا ليس بزمان خالك ولا عمك . فلما دفن معاوية بن يزيد ، وسوى عليه القرباب ، وبنو أمية حول قبره ، قال مروان : أما والله يا بني أمية إنه لأبولى ، ثم قال :

للك جد أبي ليلى لمن غلبا .

وما جأ أمر بني أمية واختلفوا .

غلبة ابن الزبير رضى الله عنهما وظهوره

قال : وذكروا أن أبا مشر قال : حدثنا بعض الشيوخ الذين حضروا قتال ابن الزبير ، قال : لما نزل الحصين بمكة ، وغلب عليها كلها إلا للمسجد الحرام ، قال : فإني لجالس مع ابن الزبير ، ومعه من القرشيين عبد الله بن مطيع ، والختار بن أبي عبيد ، وللسور بن عزيمة ، وللتندر بن الزبير ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف في نفر من قريش . قال : فقال المختار بن عبيد : وهبت رويحة ، والله إني لأجد النصر في هذه الرويحة ، فحملوا عليهم ، قال : فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة ، وقتل المختار رجلاً ، وقتل ابن مطيع رجلاً . قال : فجاءه رجل من أهل الشام ، في طرف سنان رحمه ناز . قال : وكان بين موت يزيد بن معاوية وبين حريق الكعبة إحدى عشرة ليلة ثم التهمت الحرب عند باب بني شيبة ، فقتل يومئذ للتندر بن الزبير ، ورجلان من إخوته ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف وللسور بن عزيمة ، وكان الحصين قد نصب المجانيق^(١) على جبل أبي قبيس ، وعلى قبيقان ، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت ، وأسند ابن الزبير الواحاً من الساج إلى البيت ، وألقى عليها القطائف والفرش ، فكان إذا وقع عليها الحجر ، نجا عن البيت ، فكانوا يطوفون تحت تلك الأواح ، فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا ، وكان طول الكعبة في السماء ثمانية عشر ذراعاً ، وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية من المسجد ، فكانا جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط .

(١) المجانيق : جمع منجنيق ، وهو مثل للدفع الآن .

حريق الكعبة

قال : لجاء رجل في طرف سنان رحمه نار ، فأشعلها في السطاط ، فوقعت النار على الكعبة ، فاحترق الحطب ، وانصدع الركن ، واحترق الأستار ، وتساقت إلى الأرض . قال : ثم قاتل أهل الشام إماماً بعد حريق الكعبة ، واحترق في ربيع الأول سنة أربع وستين . قال : فلما احترقت جلس أهل مكة في ناحية الحبر ، ومعهم ابن الزبير ، وأهل الشام يرمونهم بالنبل . قال : فوقعت بين يديه نيلة . قال : في هذه خبر ، فأخفوها فوجدوا بها مكتوباً : مات يزيد ابن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . فلما قرأ ذلك ابن الزبير قال : يا أهل الشام ، يا حرق بيت الله ، يا مستحل حرم الله ، علام تقاتلون ؟ وقد مات طاغيتكم يزيد ابن معاوية ، فألهد الحسين بن غير فقال له : موعذك البطحاء اليلة يا أبا بكر . فلما كان الليل خرج ابن الزبير بأصحابه ، وخرج الحسين بأصحابه إلى البطحاء ، فتصاحى كل واحد منهما من أصحابه وانفردا ، فقال الحسين : يا أبا بكر ، قد علمت آتى سيد أهل الشام ، لا أدافع عن ذلك ، وإن أمتة خيلهم يدي ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك ، فأبليك الساعة ، على أن تهدر كل شهة أميناه يوم الحرية ، ونخرج معي إلى الشام ، فإن لا أحب أن يكون للالك في الحجاز . قال : لا والله لا لأصل لا لأمتن من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، واتهك حرمة . فقال الحسين : بلى ، فاقبل ، فقل لا يختلف عليك إثنان . فأبى ابن الزبير . فقال له الحسين لعنك الله ، ولعن من زعم أنك سيد ، والله لا تطلع أبداً ، أركبوا يا أهل الشام . فركبوا وانصرفوا قال : فعُدني من شهد انصرافهم ، قال : والله إن كانت الوليدة لتخرج فتأخذ الفارس ما يتبع . قال أبو مضر : وذلك أن للزبير لا نؤاد له . قال : فباج أهل الشام كلهم ابن الزبير ، إلا أهل الأردن ، وباج أهل مصر ابن الزبير ، وغلب على أهل العراق والحجاز واليمن ، وغلب أمره ، وعظم شأنه ، واستخلف ابن الزبير الضحالك بن قيس على أهل الشام .

اختلاف أهل الشام على ابن الزبير

قال : وذكروا أن ابن الزبير لما استخلف الضحالك على أهل الشام ، قام أناس من أهل الشام من رهوس قريش بنى أمية وأشرفهم وفيهم روح بن زبيل الجندى ، فقال بعضهم : إن الملك كان فينا أهل الشام ، أفينتقل ذلك إلى أهل الحجاز ؟ لا نرضى بذلك ، هل لكم أن تأخفوا رجلاً منا فينظر في هذا الأمر ؟ قالوا : نعم . فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو غلام

حدث السنن، قيل له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبر الله وأنظر ، فرأى القوم أنه ذو ورجع عن القيام في ذلك ، فخرجوا فأتوا عمرو بن سعيد ، فقالوا له : يا أبا أيمة ، ارفع رأسك لهذا الأمر ، فجعل يشير ويقول : والله لأضلن لأضلن ؛ فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث عليج . فأتوا مروان بن الحكم ، فإذا عنده مصباح ، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن ، فاستأذنوا ودخلوا عليه ، فقالوا له : يا أبا عبد الله ، ارفع رأسك لهذا الأمر ؛ فقال : استخبروا الله . وسألوه أن يختار لأمة محمد خبرها وأعدلها ما شاء الله .

بيعة أهل الشام مروان بن الحكم

قال : وذكروا أن روح بن زبيح قال لمروان بن الحكم : إن معي أربع مائة رجل من جنهم ، وسأمرهم أن يتنزلوا في المسجد غداً ، فإني أريدك عبد العزيز أن يخطب ، ويدعوك إليك ، وأنا أأمرهم أن يقولوا صدقت ، فيظن الناس أن أأمرهم واحد ، قال : فلما أصبح عبد العزيز خرج على الناس وهم مجتمعون ، فقام : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما ألد أولى بهذا الأمر من مروان بن الحكم ، إنه لكبير قريش وشيخها ، وأقرطها عقلاً وكالاً ، ودينياً وفضلاً ، والذي تسمى يده ، قد هلب شعر ذراعيه من الكبر . فقال الجماهير : صدقت . فقال خلفه بن يزيد : أمر قضي بليل . فبايعوا مروان بن الحكم . فقال عمرو بن سعيد للضحاك بن قيس : أرويت أن تكون بربداً لابن الزبير ، وأنت أكبر قريش وسيدتها ، تعال نبالك ، فخرج به إلى مرج راهط ، فلما دعاه إلى البيعة اقتلوا ، وقتل الضحاك بن قيس ، فقال عمرو بن سعيد لأهل الشام ، ما سارت أيديكم إلا مناديل ، من جادكم مسح يده بها ، إن مروان سيد قريش ، وأكبرهم سناً ، فبايعوا مروان بن الحكم ، وقتل الضحاك بن قيس ، وهزم أصحابه ، وكانت قيس مع الضحاك ، وكان البين مع عمرو بن سعيد ، فكثرت مروان ملهه الله أن يمكث ، ثم قال له أصحابه : والله ما تتخوف إلا خلفه بن يزيد بن معاوية ، وإنك إن تزوجت أمه كسرت ، وأمها ابنة هاشم بن حنيفة بن ربيعة ، عخطها مروان بن الحكم ، فزوّجها ، وأقام بالشام ، ثم أراد أن يخرج إلى مصر . فقال لخلفه : أعرفني سلاحاً إن كان عندك . قال : فأهانه سلاحاً ، وخرج إلى مصر ، فقاتل أهل مصر ، وسبي نساءً كثيراً ، فقتلوا منه ، ثم قدم الشام .

موت مروان بن الحكم

قال : وذكروا أن مروان بن الحكم لما قدم الشام من مصر ، قال له خلفه بن يزيد

ابن معاوية : اردد إلى سلاحى ، فأبى عليه مروان ، فألح عليه ، وكان مروان فاحشاً سباباً ، وقال له يا ابن الربيع^(١) ، يا أهل الشام ، إن أم هذا ربيع ، يا ابن الرطبة ، قال : فجاء ابنها إليها قال : هذا ما صنعت بي ، سبني مروان على رؤس أهل الشام وقال . هذا ابن الربيع . قال : وكان مروان استخلف حين خرج إلى مصر ابنه عبد الملك وعبدالمزير أنهما يكونان بعده ، وباع لهما أهل الشام ، فلبث مروان بعد ذلك ليالى ، بعد ما قال لخالد بن يزيد ما قال ، ثم جاء إلى أمّ خالد فرقد عندها ، فأمرت جوارها فطوين عليه الشوادك^(٢) ، ثم غطته حتى قتله ، ثم خرجن يصحن ويشققن جيوبهن^(٣) ، يا أمير المؤمنين . قال : قام عبدالله ، فباع نفسه ، ووعد عمرو بن سعيد أن يستخلفه ، فباعه وأقاموا بالشام .

بيعة عبد الملك بن مروان وولايته

قال : وذكروا أن عبد الملك بن مروان بايع نفسه بالشام ، ووعد الناس خيراً ، ودعاهم إلى إحياء الكتاب والسنة ، وإقامة العدل والحق^(٤) ، وكان معروفاً بالصدق ، مشهوراً بالعدل والطم ، لا يختلف في دينه ، ولا يفتن في ورعه ، قبلوا ذلك منه ، ولم يختلف عليه من قريش أحد ، ولا من أهل الشام . فلما تمت بيعة خاله عمرو بن سعيد الأشدق ، فوعده عبد الملك أن يستخلفه بعده ، فبايعه على ذلك ، وشرط عليه أن لا يقطع شيئاً دونه ، ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره ، فأعطاه ذلك . ثم إن عبد الملك بث جيش بن دجلة القيسى إلى المدينة ، في سبعة آلاف رجل ، فدخل المدينة ، وجلس على المنبر الشريف ، فدعا بمنزى ولحم ، فأكل على المنبر ، ثم أتى بماء خوصاً على المنبر .

قال أبو مشر : لحدثني رجل من أهل المدينة يقال له أبو سلمة ، قال : شهدت حينئذ ابن دجلة يومئذ ، وقد أرسل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري^(٥) ، فدعاه فقال : تباع لبيد الملك أمير المؤمنين بالخلافة ، عليك بذلك عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء ، فإن خالفت فأهرق الله دمك على الضلالة . فقال له جابر بن عبد الله : إنك أطوؤك لذلك منى ، ولكنى أبايعه على ما بايعت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، على السمع والطاعة . قال : ثم أرسل إلى عبد الله بن عمر ، فقال له : تباع لبيد الله عبد الملك

(١) الربيع : المرأة ينسب عليها عند الجماع .

(٢) الشوادك : جمع شردكان ، وهو الشبكة وأداة السلاح .

أمير المؤمنين على السمع والطاعة ؟ فقال ابن عمر : لهذا اجتمع الناس عليه بايت له إن شاء الله . ثم خرج ابن دلجة من يومه ذلك نحو الرينة^(١) ، وقام في أثره رجلان : أحدهما على أثر الآخر ، مع كل واحد منهما جيش ، وكل واحد منهما يمد للآخر ويخطب ، ثم خرجوا جميعاً إلى الرينة ، وذلك في رمضان ، سنة خمس وستين ، فاجتمعوا بها ، وأميرهم ابن دلجة .

وكتب ابن الزبير إلى عباس بن سهل الساعدي بالمدينة : أن سر إلى جيش ابن دلجة وأصحابه في فاس ، فسار حتى لقيهم بالرينة في شهر رمضان ، وبث الحارث بن عبد الله ابن أبي ريمة من البصرة ، مدداً إلى عباس بن سهل بن حنيف بن السجف في تسع مئة رجل ، فساروا حتى اتوها إلى الرينة ، فبات أهل البصرة وأهل المدينة يقرءون القرآن ، ويسلون ليلتهم حتى أصبحوا ، وبات الآخرون في المازف والخور ، فلما أصبحوا قال لهم جيش ابن دلجة : أهرقوا ماءكم ، حتى تصبروا من سويقكم للتد نأهزقوا الماء ، وغدوا إلى القتال ، قتل جيش ، ومن معه من أهل الشام ، وتحصن من أهل الشام خمس مئة رجل على عمود الرينة ، وهو الجبل الذي عليها . قال : وكانت يوسف أبو الحليج مع ابن دلجة ، قال : وأحاط بهم عباس بن سهل ، فقال : انزلوا على حكمي ، فنزلوا على حكمه ، ف ضرب أعتاقهم أجمعين .

غاية ابن الزبير على المراقبين ويصمهم

قال : وذكرنا أن عباس بن سهل ، لما فرغ من قتال أهل الشام ، وجع المدينة لجة ، اليمة لابن الزبير ، فساروا إليها ، ولم يثبطوا ، وقدم أهل البصرة على ابن الزبير بمسكة فكانوا معه ، وكان عبد الله بن الزبير استعمل الحارث بن عبد الله بن أبي ريمة على البصرة ؛ فلما قدمها قبل له : إن الناس يقطعون الحرام يصلونها حتى كأنها أصفار . فقال لهم : هلم ببيعة قتالا ، فأثرو ببيعة قتال . فقال : هذه بشرة ، فزونا كيف فئتم . قال : وأثرو بالمكيال الذي يكون به ، فقال : هذا تريب صالح . ثم قيل له : إن أهل البصرة لا يصلحهم إلا القتال . فقال : لأن تعدد البصرة أحب إلي من أن يفسد الحرث والليل . قال : فبعث ابن الزبير حمزة بن عبد الله بن الزبير إلى البصرة عاملاً ، فاستقره أهل البصرة ، فبعث مصعب بن الزبير ، فقدم عليهم ، فقال أهل البصرة : لا يقدم عليكم أحد إلا لقتلهم ، وأنا أقب لكم نفس ، أنا القصاب . ثم حار إلى المختار قتلته .

(١) الرينة : بفتح الراء والياء والذال : موضع قرب المدينة به قبر أبي ذر التماري رحمه الله .

بيعة أهل الكوفة لابن الزبير وخروج ابن زياد عنها

قال : وذكروا عن بعض للشيخة من أهل العلم بذلك ، قالوا : كان ابن زياد أول من ضم إليه الكوفة والبصرة ، وكان أبوه زياد كنفك قبله ، فلم يزل عبيد الله يبيع الخوارج ويقتلهم ، ويأخذ على ذلك الناس بالظن ، ويقتلهم بالشبهة ، واستمد إلى عاصمهم ، وكان بينهم له على ما يحب . قال : فلما اختلف أمر الناس ، ومات يزيد ، وامتد سلطان ابن الزبير ، وظل حاته وعظم أمره ، وخلع أهل البصرة طاعة بني أمية ، وبايوا ابن الزبير ، خرج عبيد الله بن زياد إلى للسجد ، قام خطيباً ، حمد الله وأثنى عليه ، وقال : أيها الناس ، إن الذي كنا نقاتل على طاعته قد مات ، واختلف أمر الناس ، وتمتت كلمتهم ، وانشقت عصامهم ، فإني أمرتوني عليكم حببت فيكم ، وقاتلت بكم عدوكم ، وحكت بينكم ، وأصفت مظلومكم ، وأخذت طريد ظالمكم حتى يجتمع الناس على خليفة . قام يزيد بن الحارث بن روم البشكري وقال : الحمد لله الذي أراحنا من بني أمية أخزي ابن سُكَيْة ، ولا والله ولاكرامة ، فأمر به عبيد الله فقتل ، ثم انطلق به إلى السجن ، قامت بكر بن وائل ، خالت بينه وبين ذلك . ثم خرج الثانية عبيد الله بن زياد إلى اللير ، فخطب الناس ، فحبه الناس ودموه بالحجارة وسبوه ، وقام قوم فدنوا منه ، فزل فاجتمع الناس في للسجد . فقالوا : نؤمر رجلاً حتى يجتمع الناس على خليفة ، فاجتمع رأيهم على أن يؤمروا عمرو بن سعد بن أبي وقاص وكان الدين ظموا بأمره هذا الحى الذى عن كنة ، فبينما هم على ذلك إذ أقبل النساء يكيين وبينهم الحدين ، وأقبلت همدان حتى ملأوا السجد ، فأطافوا بالخير متقدمين السيوف ، وأجمع رأى أهل البصرة والكوفة على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف ، فأسروه عليهم حتى يجتمع الناس ، وكتبوا إلى عبد الله بن الزبير يبايعونه بالخلافة ، فأقره عبد الله بن الزبير عاملاً عليهم نحواً من سنة ، واستعمل المال في الأمصار ، فبلغ أهل البصرة ما صنع أهل الكوفة ، فاجتمعوا وأخرجوا الريت ، فلم يبق أحد إلا خرج ، وذلك لسوء آثار عبيد الله بن زياد فيهم ، يطلبون قتله . ثم قام ابن أبي ذؤيب فقال : يا هؤلاء من ينصر الله ينصر الكعبة ، من يشار على ابن حمية ، سارعوا أيها الناس إلى مغفرة من ربكم وجنة مرضها السموات والأرض ، واجتنبوا هذه المدة ، وأقيموا أود هذه البيعة ، فإنها بيعة هدى ، فإنه من قد علمهم عبد الله بن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وابن أمه بنت أبي بكر الصديق ، أما والله لو أن أبابكر علم أنه بقى على الأرض من هو خير منه وأولى بهذه البيعة ، مائة يومه ، ولا نازعت إليها نفسه ، أما والله لقد علمت ما أخذ على وجه الأرض خير ولا أحق بها إلا هذا الشيخ عبد الله بن عمر ، للتبى من الدنيا ، للمعزل عن الناس السكاره لهذا الأمر ، ثم خرجت الخوارج من سجون عبيد الله ابن زياد ، واجتمعوا على حدة ،

والقبائل كل قبيلة في المسجد معتزلة على حدة ، وعبيد الله بن زياد في القصر ، وقد أخذ بأبوابه وقد تمنع أن يدخل القصر أحد ، وقد أخذت العرب بأفواه السكك والديروب ، وكان عبيد الله أول من جفا العرب ، وأخذ منهم الحاربة اثني عشر ألفاً ليترتب بهم ، فوافاه ما زادوه إلا ذلاً ، فلما رأى ذلك عبيد الله بن زياد لم يدركيف يصنع ، وخلف نسيا وبكر بن وائل أن يستجير بهم ولم يأمن خدومهم ، فأرسل إلى الحارث بن قيس الجهني من الأزد ، فدخل عليه الحارث - فقال : يا حارث ، قد أكرمتكم زياداً ، وحفظتم منه ما كنتم أهله ، وقد استجرت بكم ، فأشدكم الله في . قال الحارث : أخاف أن لا تهدد على الخروج إلينا ، لما أرى من سوء رأى العامة فيك مع سوء آثارك في الأزد . قال : فنيأ عبيد الله ، فليس لبس امرأة في خمرتها وعينيتها ، فأردفه الحارث خلفه ، فخرج به على الناس فقالوا : يا حارث ما هذه ؟ قال : تتجوا ورحمكم الله ، هذه امرأة من أهل ، كانت زائرة لأهل ابن زياد ، أتيت أذهب بها . فقال عبيد الله للحارث : أين نحن ؟ قال : في بني سليم ، فقال : سلنا الله . قال : ثم سار قليلاً ، ثم قال : أين نحن ؟ قال : في بني ناجة من الأزد ، قال : نهجونا إن شاء الله . قال : فأتى به مسعود بن عمرو وهو يومئذ سيد الأزد ، فقال : يا أبا قيس ؟ قد جئت بك عبيد الله مستجيراً . قال : ولم جئت بالبد ؟ قال : لقد تارك الله ، فقد اختاروك على خيرك ، فلما رآهم عبيد الله يترامون ويبتاعون ، قال : قد بلغت الجهد والجور ، فقال مسعود : يا غلام ، أئت البقال ، فأتنا من خبزهم ونعمره . قال : فجاء به الغلام فوضع . قال : فأكل ، ولما أراد ابن زياد أن يتحرم بطعامه . ثم قال : أدخل فدخل ، ومنارت الناس يومئذ من القصب ، وكان منزل مسعود يومئذ قاصياً . قال : فكان عبيد الله خاف . فقال : يا غلام ، اسعد إلى السطح هجزم من قصب ، فأهمل أعلاه ناراً ، فعمل ذلك في جوف الليل ، فأقبلت الأزد على الحيل وعلى أرجلها حتى شحوا السكك وملئوها . فقالوا : ما سيدنا ؟ قال : شيء حدث في القمار . قال : فصرف عبيد الله عزمه ورضته ، وما هو عليه . قال : وهذا والله المزم والصراف ، فأقام عنده أياماً ، وهناك امرأة من الأزد ، وامرأة من عبد قيس ، فكانت البديعة تقول : أخرجوا البعد وكانت الأزدية تقول : استجار بك على بضعة إنيك ، وجفوت لك ، ونحمت الناس أنه لجأ إلى مسعود بن عمرو ، فاجتمعت القبائل في المسجد والخوارج ، وهم في أربعة آلاف ، فقال مسعود : ما أظنني إلا خارجاً إلى البصرة مختزلاً إليهم من أمر عبيد الله . ثم قال : وكيف آمن عليه وهو في منزلي ، ولكنني ألبته مأمناً ، ثم اعتذرت إليهم . قال : وكان مسعود قد أجبر عنده ابن زياد أربعين ليلة . قال : فأقبل مسعود يوماً على برغون له ، وحوله عدة من الأزد عليهم السيوف ، وقد عصب رأسه بسير أحمر ، قال الهيثم : قتلت لابن عباس : لم عصب رأسه بسير أحمر ؟ قال : قد سألت من

(٢ م - الإمامة والسياسة ج ٢)

ذلك قبلك . فقال شيخ من الأزد ، كان منكم المهامة ، وكانت له صغيرتان ، فصحب لداك بالسير قال ابن عباس : فذكرت ذلك لعمرو بن هرم ، وكان معنا بواسط . فقال : حدثك من لا يعرف هذا شيء . كانت العرب تصنعه إذا أراد الرجل الاعتذار من الذنب ، عصب السير ليطمأن أنه معتذر . قال : فأقبل مسعود حتى انتهى إلى باب المسجد ، ومعه أصحابه رجالة ، بين يديه وحلفه وكان كبيرا فلم يستطع النزول والقبائل في المسجد بأجمعها ، فدخل للمسجد بدابته ، فبصرت به الخوارج ، فظنوا أنه عيد الله ، فأقبلوا نحوه متقلدين السيوف ، وجمال الناس جولة ، فضربوه بأسياهم حتى مات . قتله نفر من بني حنيفة من الخوارج ، وجمال الناس ونهضوا من مجالسهم ، وبلغ ذلك الأزد ، فأقبلوا على كل صب وذلول ، وأقبل عباد بن الحصين لينظر إلى عيد الله فإذا هو بمسعود . فقال : مسعود ورب الكعبة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا أبا قيس قد وفيت ، ما كان أضي أهل مصر لك بما صنعت من ذلك ، فجنهم بنفسك . ثم ألقى عليه كساءه ، ثم أتيت الأزد ، فبكت بينهما وبين مضر ما وقع ذكره في غير هذا الكتاب حتى اصطلموا ، وراضوا على يعة ابن الزبير . قال الهيثم : قال ابن عباس : حدثني عوكل اليشكري قال : إنا مع عيد الله بن زياد في ليلة مظلمة ، فإذا نحن بنار من بعد . فقال عيد الله : يا عوكل كيف الطريق ؟ قال : اجعل النار على حاجبك ، فقال : بل على حاجبك . قال عوكل : فوالله إنا للسير بالسارية ، إذ قال عيد الله : قد كرهت البعر ، فابتوا لي ذا حافر . قال : فإذا نحن بأعرابي من كلب معه مسمار أقر ضخم . فقلت : تبيعه بكم ؟ فقال : بأربع مئة درهم ، لأنك صم درهما ، فأشار إلينا عيد الله أن خلوه . قال : جملنا ففقدته الله راحم . قال : لست أدري ما هذه ؟ ولكن بيني وبينكم هذه للولي ، يعني عيد الله بن زياد ، وكان عيد الله أحمر أقر ، شيئا بالموالي . قال : فأخذناه منه فقال عبد الله : إرحلوا لي عليه ، فرحلنا له عليه ، فلما قدم ليركب ، قال الأعرابي : أنا أقسم بالله إن لكم كذا أنا ، وما أظن صاحبكم إلا والي العراق ، فاستشفاه عيد الله بالصبا ، فضربه بها ، فوقع ، ثم شدوه وثاقا . قال : وجعلوا يتجنّبون للياه . قال عوكل : ثم إن عيد الله بينا هو على راحلته ، إذ هجمت منه . فقلت له : أراك نائما . فقال : ما كنت نائما . فقلت له : ما أظنني بما كنت تحدث به نفسك قال : وبأى شيء كنت أحدث نفسي ؟ قال : قلت : ليتني لم أكن البيضاء^(١) ، ولم أستمع للمهاجرين^(٢) ، وليتني لم آخذ الحاربة ، قال : ما خطرت لي هذا على بال ، أما قولك : ليتني لم أكن البيضاء ، فإكاذيب على منها إني ، بناها الزيت من ماله ، وأما استمعال

(١) البيضاء : البصرة دار بالبصرة لبس يد الله بن زياد .

(٢) المهاجرين جمع دهقان وهو رئيس التجار .

المهاجرين ، فقد استعملهم أبي ومن كان قبله ، وأما الحاربة : فوالله ما اتخذهم إلا وقاية ، لأنى كنت أقل بهم أهل النسبة ، فلو أمرت عشائهم بهم لم يتكلموا ولشق ذلك عليهم ، جلست ذلك بينى وبينهم ، من لآل بينه وبينهم ، وليكنى كنت أحدث نفسى أنى ندمت على تركى أربعة آلاف فى السجن من الخوارج ، فوددت أنى كنت أضرمت ليلضاء عليهم ، حتى آتى على آخرهم ووددت أنى جمعت آل بينى وموالى ، وتابنت أهل المصر على سواء ، حتى يموت الأصيل ، ووددت أنى قعمت الشام ولم ياج أهلها بعد .

قتل المختار حمرو بن سعد

قال : وذكروا أن المختار بن أبي عبيد كذب إلى عبد الله بن الزبير من الكوفة ، وقال لرسوله : إذا جئت مكة فدعنى كتمانى إلى عبد الله بن الزبير ، فأبى الهذلى محمد بن طى ، وهو ابن الخثية ، فأقرأ عليه من السلام ، وقال له : يقول لك أخوك أبو إسحاق : إنى أحبك ، وأحب أهل بيتك ، قال : فأنا الرسول فقال له ذلك . قال : كذبت ، وكذب أبو إسحاق مملك ، كيف يحبنى ويحب أهل بيتى ، وهو يجلس حمرو بن سعد بن أبي وقاص طى وسائده ، وقد قتل الحسين بن طى . قال : فلما قدم عليه رسوله أخبره بما قال محمد بن طى . فقال المختار لأبى حمرو صاحب حره : استأجر لى نوايح يكنى الحسين طى باب حمرو بن سعد بن أبي وقاص . قال : ففعل ، فلما جئنا يكنى الحسين ، قال حمرو لابنه حصص : يا بنى انت الأمير ، قل له : ما هان النوايح يكنى الحسين طى باي ؟ قال : فأنا فقال له ذلك ، فقال له : إنه أهل أن يكن عليه ، فقال : أصلمك الله ، اتهم عن ذلك . قال : نعم . ثم دعا أبا حمرو ، فقال : أذهب إلى حمرو بن سعد فأخبر برأيه ، قال : فأنا ، فقال : قم إلى أبا حصص ، قمام إليه وهو ملتحف ، فجلفه بالليف ، ثم جاء برأيه إلى المختار ، وحصص جالس عنده طى الكرسي ، فقال : هل تعرف هذا الرأس ؟ قال : نعم ، رحمة الله عليه ، قال : انجب أن الملتك به ؟ قال : وما خير الحية بعده . قال : فغضب رأسه فقتله . قال : ثم أرسل عبد الله بن الزبير يزيد بن زياد طى الرقاق ، فكان بالكوفة حتى مات يزيد ، وأحرقت الكعبة ، ورجع الحسين هاربا إلى الشام . قال : ثم أرسل عبد الله بن مطيع إلى الكوفة ، ثم بعث المختار بن أبي عبيد طى الكوفة ، وعزل عبد الله بن مطيع ، وسيره إلى المدينة ، وسار عبيد الله بن زياد بعد ذلك إلى المختار ، وجهه عبد الملك بن مروان أمير طى الرقاق ، وتذب منه جيشا عظيما من أهل الشام ، فأقبل إلى الكوفة يريد المختار ، فالتقوا مجازر ، فاقترعوا ، فقتل المختار عبيد الله بن زياد ومن معه ، وكان معه الحسين بن نعيم ، وذو الكلاع ، وغلبة من كان معه من شهد وقعة الحرّة من ردهم .

قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد الله

قال : وذكروا أن أبا معشر ، قال : لما قتل عبيد الله بن زياد ومن معه ، ارتضى أهل البصرة عبد الله بن الحارث بن نوفل ، فأكسروه على أنفسهم ، ثم أتى عبد الله بن الزبير ، وأم عبد الله بن الحارث هند بنت أبي سفيان ، وكانت أمه تنزله وهو صغير به ، فلقب بيه ، ثم بعث عبد الله ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عاملا على البصرة ، ثم بعث حمزة بن الزبير بعه ، ثم بعث مصعب بن الزبير أخاه ، وضم إليه الرافقين جميعا الكوفة والبصرة ، فلما ضم إليه الكوفة ، وعزل المختار عنها خلع المختار عبد الله بن الزبير بالكوفة ، ودعا إلى آل الرسول ، وأراد أن يقعد البيعة لحمد بن الحنفية ، ويخلع عبد الله بن الزبير . فكتب عبد الله إلى أخيه مصعب ، أن سر إلى المختار بمن معك ، ثم لا تبلمه ريقه ، ولا تعلمه حتى يموت الأملج منك ، فأثام مصعب بمن معه قتاله ثلاثة أيام حتى هزمه وقتله ، وبعث مصعب برأس المختار إلى أخيه . وقتل مصعب أصعاب المختار ، قتل منهم ثمانية آلاف صبيا ، ثم قدم حاجبا في سنة إحدى وسبعين ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه رؤساء أهل العراق ووجوههم وأشرافهم . قال : يا أمير المؤمنين : قد جئتكم برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع في قومه ، وهم الذين ساروا إلى بيتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، وتابنوا أهل مصيبتك ، وسروا في قطع دعوتك ، فأعطهم من هذا المال ، فقال له عبد الله بن الزبير جئتني بسيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله إلا أصل ، وإني لله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الأمير بالبرام : عشرة من هؤلاء رجل من أهل الشام . قال : فقال رجل منهم : علفناك^(١) وعلقت أهل الشام ، ثم انصرفوا عنه وقد بثوا عما عنده ، لا يزوجون رفقته ، ولا يطمعون فيها عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلمه ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا .

خلع ابن الزبير

قال : وذكروا أن أبا معشر قال : لما أجمع القوم على خلع ابن الزبير ، وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان ، أن سر إلينا ، فلما أراد عبد الملك أن يسير إليهم ، وخرج من دمشق ، فأطلق عمرو بن سعيد باب دمشق ، قيل لبني عبد الملك ما تصنع ؟ أذهب إلى أهل العراق ، وبيع دمشق ؟ أهل الشام أخذوا عليك من أهل العراق . فأقام مكانه ، فحاصر أهل دمشق أشهر ،

(١) علفناك : أحببناك وبأيتناك ، وعلقت أهل الشام أحبيتهم ونضلتهم علينا .

حتى صالح عمرو بن سعيد ، على أنه الخليفة بعده ، ففتح دمشق ، ثم أرسل عبد الملك إلى عمرو ، وكان بيت المال في يد عمرو ، أن أخرج الحرس أوزقهم . فقال عمرو : إن كان لك حرس فإن لنا حرما ، فقال عبد الملك : أخرج لحرسك أوزقهم أيضاً .

قتل عبد الملك عمرو بن سعيد

قال : وذكروا أن أبا مضر قال : لا اصطح عبد الملك وعمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن اتقي أبا أمية . قال فخرج ليأبيه ، فقالت له امرأته لا تذهب إليه فإني أخوفه عليك ، وإن لا تجد ربح دم مسلوح . قال : لما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه ، ففجعا ، فتركته ، فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته ، لا يقدر على مثلهم ، متمسكين ، فأخذوا بخضراء دمشق ، وفيها عبد الملك بن مروان . فقالوا لعمرو : إذا دخلت على عبد الملك يا أبا أمية ورباك منه شيء فأصننا صوتك ، فقال لهم : إن خفي عليكم صوتي ولم تسموه ، فأروا لي بيني وبينكم مباد ، إن زالت الشمس ولم أخرج إليكم ، فاعلموا أني مقتول أو مغلوب ، فضعوا أسياضكم ورمالكم حيث هلكم ، ولا تصمدوا سيفا حتى تأخذوا بآثري من عدوي . قال : فدخل ، وجعلوا يصيحون : يا أبا أمية ، أصننا صوتك . وكان معه غلام أسمم شجاع . فقال له : اذهب إلى الناس قتل لهم : ليس عليه بأس ، ليسمع عبد الملك أن وراءه ناسا ، فقال له عبد الملك : أعكر يا أبا أمية عند الموت أخوه ، فأخذوه ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أقسم ليعلمن في عتقك جامعة منه ، ثم قرأ إلى الأرض ترة ، فكسرت لثته . قال : فبعل عبد الملك ينظر إليه . فقال عمرو : لا عليك يا أمير المؤمنين ، عظم انكسر . قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز : اقتله حتى أرجع إليك . قال : فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عقه ، قال له عمرو : تمسك بالرحم يا عبد العزيز أنت تقتلني من بينهم فتركه ، فجاء عبد الملك فرآه جالسا ، فقال له : لم لا تقتله؟ لعله الله ولمن أمانة ؟ قال : فإنه قال : تمسك بالرحم فتركته . قال : فأمر رجلا عنده يقال له ابن الزورع ، فضرب عقه ، ثم أدرجه في بساط ، ثم أدخله تحت السرير . قال : فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزاعي ، وكان أحد الفقهاء ، وكان رضيع عبد الملك بن مروان ، وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك : كيف رأيك في عمرو بن سعيد ؟ فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير ، فقال : اضرب عقه يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : جزاك الله خيرا ، لما فعلتك إلا ناصحا أمينا مواظبا ، قال له : فما ترى في هؤلاء الذين أخذوا بنا ، وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين ، ثم اطرح عليهم الله نائير والندام يتشاقون بها . قال : فأمر عبد الملك

براس عمرو أن يطرح إليهم من أعلى القصر ، فطرح إليهم ، وطرحت الدنانير ، وشرت
الدرام ، ثم هتف عليهم الماتف ينادى : إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم ، بما كان من
القضاء السابق ، والأمر النافذ ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه ، أن يحمل راجلكم ،
ويكسو عاريكم ، ويضئ قهقركم ، ويلبسكم إلى أكل ما يكون من العطاء والرزق ، ويلبسكم إلى
المتين في الديوان ، فاعترضوا على ديوانكم ، وأقبلوا أمره ، واسكنوا إلى عهده ، يسلم لكم
دينكم ودنياكم . قال . نصاحوا نعم نعم نعم ، مما وطاعة لأمر المؤمنين . قال : فلما تمت البيعة
لبعد الملك بن مروان بالشام ، أراد أن يخرج إلى مصب ، فعمل يستمر أهل الشام ، فيطعنون
عليه . فقال له الحجاج بن يوسف ، وكان يومئذ في حرس أبان بن مروان : يا أمير المؤمنين ،
سلطني عليهم ، فأعطاه ذلك فقال له عبد الملك : اذهب قد سلطتك عليهم . قال : فكان لا يمر
على بيت رجل من أهل الشام تخلف إلا أحرق عليه بيته ، فصارى ذلك أهل الشام خرجوا ،
قال : فأصابهم من ذلك غلاء في الأسفار ، وهدنة من الحلال ، وصوبة من الزمان ، قاله :
وكانوا يستنون لبعد الملك بن مروان الأرز . فسار بأهل الشام إلى العراق ومعه الحجاج
بن يوسف .

مسير عبد الملك إلى العراق

قال : وذكروا أن عبد الملك لما سار بأهل الشام ومعه الحجاج بن يوسف إلى العراق ،
خرج مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة ، فالتقيا بين الشام والعراق ، وكان عبد الملك
ومصعب قبل ذلك متصافيين ، وصديقين متحابين ، لا يعلم بين اثنين من الناس ما بينهما من
الإخاء والصداقة ، فبعث إليه عبد الملك أن أدن مني أكلتك . قال : فدنا كل واحد من صاحبه ،
وتنمى الناس عنهما ، فلم عبد الملك عليه ، وقال له : يا مصعب ، قد علمت ما أجرى الله بيني
وبينك منذ ثلاثين سنة ، وما اعتقدته من إخواني وصبيحي ، والله أنا خير لك من عبد الله ،
وأجمع منه لدينك ودنياك ، فحق بذلك مني ، والعرف إلى وجوه هؤلاء القوم ، وغد لي بيعة
هذين للصرب ، والأمر أمرك ، لا تنمى ولا تخالف ، وإن هئت اتخذتك صاحباً لا تخفى ،
ووزيراً لا تمنى . فقال له مصعب : أما ما ذكرت في من هئت بك ، ومودتي وإخواني ، فذلك
كما ذكرت ولكنك بعد ذلك عمرو بن سعيد لا يطمأن إليك ، وهو أقرب رجلاً مني إليك ،
وأولى بما عندك ، قتلته غدراً ، والله لو قتلته في ضرب ومعاملة لسلك عاره ، ولا سلت من
إثم . وأما ما ذكرت من أنك خير لي من أخي ، فدع عنك أبابكر ، وإياك وإياه ، لاتعرض
له وأتركه ما تركك ، وأرجع عاجل طافيته وأرج الله في السلامة من عاقبته فقال له عبد الملك :

لا تخوفني به ، فوالله إني لأعلم منه مثل ما تعلم ، إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبدا : محب قد ملكه ، واستخاء برأيه : وبخل الزنم ، فلا يسود بها أبدا .

قتل مصعب بن الزبير

قال : وذكروا أن عبد الملك لما أيس من مصعب ، كتب إلى أناس من رؤساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ، ويجعل لهم أموالا عامة ، وشروطا وعهودا ، ومواثيق وعقودا ، وكتب إلى إبراهيم بن الأختري يحمل له وحده مثل جميع ما جعل لأسعابه ، على أن يخلعوا عبد الله بن الزبير إذا اتقوا . قال إبراهيم بن الأختري لمصعب : إن عبد الملك قد كتب إلى هذا الكتاب ، وكتب لأسعابه كلهم فلان وفلان بذلك ، فادع بهم في هذه الساعة ، فاضرب أعناقهم واضرب عنق مصعب . فقال مصعب ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي ذلك من أمرهم . قال إبراهيم : فأخبرني ، قال : وما هي ؟ قال : أحبهم في السجن حتى يتبين ذلك ، فأبى ، فقال له إبراهيم ابن الأختري : عليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ولا ترائي والله يد في جيبك هذا أبدا . وقد كان قال له قبل ذلك : ادع أدعو أهل الكوفة بدعوة لا يخلعونها أبدا ، وهي مانعطة الله . فقال له مصعب : لا والله لا أفعل ، لا أكون قتلهم بالأس ، واستنصر بهم اليوم ، قال : لما هو إلا أن اتقوا لغزوهم ومالوا إلى عبد الملك بن مروان . قال فيقي مصعب في شردة قلبية . قال جفاه عبيد الله بن هبيلان ، قال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : غدوتم يا أهل العراق . قال : فرغ عبيد الله سيفه ليضربه ، فبدره مصعب بالسيف على البيضة ، فقتل فيها ، فجعل يقلب السيف ولا ينزع من البيضة . قال : فجاء غلام لعبيد الله بن هبيلان ، فضرب مصعبا بالسيف قتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك ، يدعي أنه قتله ، فطرح رأسه وقال :

نطج ملوك الأرض ما أقسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

قال : فوقع عبد الملك ساجداً ، فتعامل عبيد الله على ركابه ليضرب عبد الملك بالسيف . فرفع عبد الملك رأسه وقال : والله يا عبيد الله لولا متك لأخلفتك سريراً به . قال : فباجه الناس ، ودخل الكوفة فباجه أهله .

ذكر حرب ابن الزبير وقتله

قال : وذكروا أنه لما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل العراق ، وأناه الحجاج ابن يوسف قال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت في للنام كأني أسلمع عبد الله بن الزبير ، فقال

له عبد الملك: أنت له فأخرج إليه ، فخرج إليه الحجاج في ألف وخمسة ورجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف ، وجعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسلا ، حتى توافى الناس عنده قدر ما يظن أنه بقدر على قتال عبد الله بن الزبير ، وكان ذلك في سنة اثنتين وسبعين فساد الحجاج من الطائف ، حتى نزل منى ، فخرج بالناس وعبد الله بن الزبير محصور بمكة ، ثم نصب الحجاج للجنبيق على أبي قبيس ، ونواحي مكة كلها ، فرى أهل مكة بالحجارة ، فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها ، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين ، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل منهم من بنى عزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلا ، لأن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك ، وإنما هي إحدى خصلتين ؛ إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأمتنا ولك ، وإما أن تأذن لنا فنخرج . فقال عبد الله قد كنت عاهدت الله أن لا يبايعني أحد ، فأقبله يمينته إلا ابن صفوان . قال ابن صفوان : والله إننا لقاتلنا معك ، وما وفيت لنا بما قلت ، ولكن خذني لحظيفة أن لا أدعك عند مثل هذه حتى أموت معك . فقال رجل آخر : أكتب إلى عبد الملك . فقال له عبد الله : وكيف ؟ أكتب إليه : من عبد الله أبي بكر أمير المؤمنين ، فوالله لا يقبل هذا مني أبداً ، أم أكتب إليه : لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ، فوالله لأن تقع الخضراء على الثراء أحب إلي من ذلك . قال عروة أخوه وهو جالس معه على السرير : يا أمير المؤمنين ، قد جعل الله لك أسوة . فقال عبد الله : من هو أسوتي ؟ قال : الحسن بن علي ابن أبي طالب ، خلع نفسه وباج معاوية . فرقع عبد الله رجله وضرب عروة حتى ألقاه ثم قال : يا عروة ، فأي إذن مثل قلبك ، والله لو قبلت ما تمولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنيا ، وما ضربة بسيف إلا مثل ضربة بسوط ، لا أقبل شيئا مما تمولون . قال : فلما أصبح دخل على بعض نسائه فقال : استنى لي طعاما ، فصنعت له كبدا وسنما . قال : فأخذ منها لقمة فلا کہا ساعة ، فلم يسنها فرماها ، وقال : استقوني لبنا ، فأتى بلبن فشرب ، ثم قال هيثوا لي خلا ، قال : فاعتدل ، ثم تحط وتطيب ، ثم تغلد سبله وخرج وهو يقول :

ولا ألبس لتفسير الحق أسأله حتى يلين لفرس السانح الحبر

ثم دخل على أمه أدهاء بنت أبي بكر الصديق ، وهي عمياء من الكبر ، قد بلغت من السن مئة سنة . فقال لها : يا أمه ، ما ترين ؟ قد خذلتني الناس وخذلتني أهل بيتي . فقالت : يا بني لا يلعبن بك صبيان بنى أمية ، عسى كريمًا ، ومث كريمًا . فخرج وأستد ظهره إلى الكعبة ، ومعه عمر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام ، فهزموهم ، وهو يقول : ويل أمه فحقا لو كان له رجال ! قال : فجعل الحجاج يناديه : قد كان لك رجال ، ولكنك ضيعتهم . قال : فجاءه جبر

من حجارة التنجيق وهو يمشى ، فأصاب قتله ، فسقط ، فادرى أهل الشام أنه هو حتى معمر .
جارية تبكى وتقول : وأمير المؤمنين ، فاحترقوا رأسه ، فاجأوا به إلى الحجاج ، وقتل معه .
عبد الله بن صفوان بن أمية ، وعمار بن عمرو بن حزم ، ثم بث يردوسهم إلى عبد الملك ،
وقتل سبع عشرة ليلة مضين من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وسبعين .

قال أبو مخنف : ثم أقام الحجاج بالمدينة عاملاً عليها وعلى مكة والطائف ثلاث سنين ، يسير
بسيرته فيما يقولون ، قال : فلما مات بشر بن مروان ، وكان على الكوفة والبصرة ، كتب إليه
عبد الملك أن سر إلى العراقيين ، واحتل قتلهم ، فإنه قد بانى عنهم ما أكره . واستعمل
عبد الملك على المدينة يحيى بن حكيم بن أبي العاص .

ولاية الحجاج على العراقيين

قال : وذكروا أن عبد الملك لما كتب إلى الحجاج يأمره بالسير إلى العراقيين ومحتال
لقتلهم ، توجه معه ألفا رجل من مقاتلة أهل الشام وحاشم ، وأربعة آلاف من أخطا الناس
وقد قدم بألى رجل ، وتحرى دخول البصرة يوم الجمعة في حين أوان الصلاة ، فلما دنا من
البصرة ، أمرهم أن ينفروا على أبواب المسجد ، على كل باب مئة رجل بأسياهم تحت أرديتهم
ومعهدهم أن إذا سمعوا الجلبة في داخل المسجد ، والواقعة فيهم ، فلا يخرجوا خارج من
باب المسجد حتى يسبقه رأسه إلى الأرض وكان للسجد له ثمانية عشر باباً ، يدخل منها إليه .
فاقترب القوم من الحجاج فبدروا إلى الأبواب ، فجلسوا عندها مرتدين ينتظرون الصلاة :
ودخل الحجاج وبين يديه مئة رجل ، وخلفه مئة كل رجل منهم مرتد بدائه ، وسيفه قد
أفضى به إلى داخل لإزاره . فقال لهم : إنى إذا دخلت فسلأكم القوم في خطبى ،
وسيجسبونى ، فإذا رأيتمونى قد وضعت عمادى على ركبى ، فعضوا أسيافكم ، واستمينا
بالله ، واصبروا إن الله مع الصابرين ؛ فلما دخل المسجد ، وقد حانت الصلاة ، صمد للبر
فحمد الله ثم قال : أيها الناس إن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عز وجل
في بلاده ، ولترفضاه إماماً على عبادته ، وقد ولانى مصركم ، وقسمه فيكم ، وأمرنى بإضفاف
مظلوميكم ، وإمضاء الحكم على ظالمكم ، وعزف الثواب إلى الحسن البرى ، والغباب إلى
الخاص السيى ، وأنا متبع فيكم أمره ، ومنفذ عليكم عهده ، وأرجو بذلك من الله عز
وجل المجازاة ، ومن خليته الكفاة وأخبركم أنه قد ندى بسيفيت حين توليته إياى عليكم :
سيف رحمة ، وسيف عذاب وقمة ؛ فأما سيف الرحمة فسقط منى في الطريق ، وأما سيف

الثقة فهو هذا . فحببه الناس . فلما أكثروا عليه خلع عمامته ، فوضعها على ركبته ، فجعلت السيوف تبرى الرقب ؛ فلما سمع الخارجون الكاثبون على الأبواب وقيمة الداخلين ، ورأوا تسارع الناس إلى الخروج ، تلقوا بالسيوف ، فردعوا الناس إلى جوف المسجد ، ولم يتركوا خارجاً يخرج ، فقتل منهم بضعة وسبعين ألفاً ، حتى صالت السماء إلى باب المسجد ، وإلى السكك .

قال أبو معشر : لما قدم الحجاج البصرة ، سعد للبر ، وهو معتبر بهامته منتقل سيفه وقوسه . قال : نفس على للبر ، وكان قد أحيا الليل ، ثم تكلم بكلام غصبوه ، فرفع رأسه ثم قال : إنى أرى ردوساً قسداً أينست وحان تطافها . فهايوه وكهوا ، ثم كلمهم غصبوه وأكثروا ، فأمر بهم جنداً من أهل الشام ، وكانوا قد أحاطوا به من حوله ومن حول أبواب المسجد . قال : فلما فرغ منهم وأحكم فإنه فيهم ، بث عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث إلى سبستان ، فملاً ومعه جيش . فكتب إليه الحجاج أن يقتل حسن كذا وكذا ، فكتب إلى الحجاج : إنى لا أرى ذلك سواباً ، إن الشاهد يرى ما لا يرى النساب . فكتب إليه الحجاج : أنا الشاهد ، وأنت الغائب ، فانظر ما كتبت به إليك ، فامض له ، والسلام .

خروج ابن الأشعث على الحجاج

قال : وذكرنا أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لما خرج على الحجاج جمع أصحابه ، وفيهم عبد الرحمن بن ربيعة بن الحارث بن نوفل ، وبنو عون بن عبد الله ، وعمر بن موسى ابن معمر بن عثمان بن حمزة ، وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص . فقال لهم : ما نرون ؟ فقالوا : نحن معك ، فأخضع عدو الله وعدو رسوله ، فإن خلعك من أفضل أعمال البر ، خلعك وأظهر خلعك . فلما أظهر ذلك قدم عليهم سعيد بن جبير ، فقالوا له : إننا قد حبسنا أقمنا عليك ، فما ترى ؟ قال : أرى أن تكفوا عما تريدون ، فإن الخلع فيه الفتنة ، والفتنة فيها منك السماء ، ولست بأباحت الحرم ، وذهاب الدين والدنيا . فقالوا : إنه الحجاج وقد فعل ما فعل ، فذكروا أميائهم ، ولم يزالوا به حتى سار معهم وهو كاره . قال : واتبى الخبر إلى الحجاج ، فقيل له : إن غيد الرحمن قد خلعتك ومن معه قال : إن معه سعيد بن جبير ، وأنا أعلم أن سعيداً لا يخرج ، وإن أرادوا ذلك فسيكفهم عنه . فقيل له : إنه رام ذلك ، ثم لم يزالوا به حتى قتلوه ، وسار معهم . فبث الحجاج التضبان الشيباني ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن الأشعث من حكرمان ، وقد تم إليه أن لا يكتمه من أمره شيئاً ،

فتوجه التضبان إلى عبد الرحمن . فقال له عبد الرحمن : ما وراك يا غنيان ؟ قال : شرٌ طويل ، قد بالحيلاج قبل أن يتشى بك . ثم انصرف من عنده ، فزل وملة كرمان ، وهي أرض شديدة الحر ، فضرب بها قبة وجلس فيها ، فبينما هو كذلك إذ ورد أعرابي من بكر بن وائل على قعد ، فوقف عليه وقال : السلام عليك . فقال له التضبان : السلام كثير ، وهي كلمة مقولة . قال الأعرابي : من أين أتيت ؟ قال : من الأرض اللؤلؤ . قال : وأين تريد ؟ قال : أمشي في مناكبها ، وآكل من رزق الله الذي أخرج لعباده منها . قال الأعرابي : فمن غلب اليوم ؟ قال التضبان : للثقون . قال : لمن سبق ؟ قال : حزب الله الفائزون . قال الأعرابي : ومن حزب الله ؟ قال : هم الثالوثون . فصيب الأعرابي من منطقته ، وحضور جوابه . ثم قال : أخرض^(١) ؟ قال التضبان : إنما خرض الفأرة . قال : أفتلعد^(٢) ؟ قال : إنما تلعد الضالة . قال : أفتسبح^(٣) ؟ قال : إنما تسبح الحمامة . قال : أفتطلق^(٤) ؟ قال : إنما يطلق حكتاب الله . قال : أفتقول^(٥) ؟ قال : إنما يقول الأمير . قال الأعرابي : والله ما رأيت مثلك قط . قال التضبان : بل رأيت ولكنك نسيت ، قال الأعرابي : فكيف أقول ؟ قال : أخذتك القول ، في العاقول^(٦) ، وأنت ظالم ببول . قال الأعرابي : أأنذن لي أن أدخل عليك ؟ قال التضبان : وراؤك أوسع لك ، قال الأعرابي : قد أحرقتني الشمس : قال التضبان : الآن بقي عليك النى^(٧) إذا غربت . قال الأعرابي : إن الرمضاء قد أحرقت قدسي . قال التضبان : بل عليها تبرد . قال الأعرابي : إن الوهج شديد . قال التضبان : مالي عليه سلطان . قال الأعرابي : إني والله ما أريد طعامك ولا شرابك . قال التضبان : لا ترض بهما ، فوالله لا تدوتهما . قال الأعرابي : وما عليك لو ذقتهما ؟ قال التضبان : نأكل ونشبع . فإن فضل شيء من الأكرام^(٨) والغلمان ، فالكلب أحق به منك . قال الأعرابي : سبحان الله ! قال التضبان : نعم ، من قبل أن

(١) خرض : تقول الشعر .

(٢) تلعد : تروى شمر غيرك .

(٣) تسبح : تقول شراً مسجوباً .

(٤) تطلق : تتكلم بأي كلام .

(٥) تقول : تتكلم بأي كلام عن غيرك .

(٦) العاقول : نيات تأكله الإبل .

(٧) النى : النمل .

(٨) الأكرام : جمع كرمي وهو من يعمل بالأجر .

يطلع رأسك وأضرارك إلى الدنيا ، قال الأعرجي : ما عندك إلا ما أرى ؟ قال الضبان : بل عندي هراواتان أضرب بهما رأسك حتى يثتر دماغك . قال الأعرجي : إنا لله وإنا إليه راجعون . قال الضبان : أظنك أحد ؟ قال الأعرجي : ما أرى . ثم قال الأعرجي : يا آل حارث بن كعب ، فقال الضبان : بشئ الشيخ ذكرت . قال الأعرجي : ولم ذلك ؟ قال الضبان : لأن إبليس يسمى حارثاً . قال الأعرجي : إني لأحبك جئناً . قال الضبان : اللهم اجعلني من خيار الجن . قال الأعرجي : إني لأظنك حرورياً^(١) . قال الضبان : اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير . قال الأعرجي : إني لأراك منكراً . قال الضبان . إني لمعرف بما أرى . فولى عنه وهو يقول : إنك لينع أحق . وما أنطق الله لسانك إلا بما أنت لاق وعما قليل تنتف ساقك بالساق . فلما قسم الضبان على الحجاج قال له : أنت شاعر ؟ قال : لست بشاعر ، ولكني خابر . قال : أضرب إن أنت ؟ قال : بل ومتاف . قال : كيف وجدت أرض كerman ؟ قال الضبان : أرض ماؤها وعسل^(٢) ، وسيلها جبل ، وعمرها دقل^(٣) ، ولصها بطل ، إن كثرت الجيوش بها جلعوا ، وإن قلّ بها شاعروا . قال : صدقت ، أعلمت من كان الأعرجي ؟ قال : لا ، قال : كان ملكاً خاسمك ، فلم يحقه عنه لئذخك ، اذهبوا به إلى السجين فإنه صاحب للقال : تمتد بالحجاج قبل أن يتحى بك . وأنت يا غصبان قد أنزلت خسمك على نطق لسانك ، فما الذي به دهالك ؟ قال الضبان : جعلني الله فداك أيها الأمير ، أما إنها لا تنفع من قتلته ، ولا تضر من قبلت فيه . فقال الحجاج : أجل ولكن أراك تنجو مني بهذا ؟ والله لأقطعن يديك ورجليك ، ولأضربن بلسانك عليك . قال الضبان : أصلح الله الأمير ، قد آذاني الحسد يد وأهون سائي القيود ، فما يخلف من عدلك البرى ، ولا يقطع من رجائك للسى . قال الحجاج : إنك لسجين . قال الضبان : القيد والرقة^(٤) ، ومن بك شيف الأمير يسمن . قال : إنا حاملوك على الأدم^(٥) . قال الضبان : مثل

-
- (١) حروري : نسبة إلى حروراء قرية قرب الكوفة ظهر بها الخوارج ، يريد إني لأظنك من الخوارج .
 (٢) وعسل : قليل .
 (٣) الدقل : أودا البحر .
 (٤) الرقة : عدم للثوبية :
 (٥) الأدم : أصله في اللغة الأسود ولكنه يطلق على قيد الحديد لأن الحديد أسود وصار صلوا عليه .

الأمير أصلحه الله يمسك على الأديم^(١) والأشقر . قال الحجاج : إنه لحديد . قال التضبان : لأن يكون حديداً^(٢) خير من أن يكون بليداً . قال الحجاج : انهبوا به إلى السجن ، قال التضبان : (فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) . فاستمر في السجن إلى أن بنى الحجاج خضراء واسط ، فقال للجساسة : كيف ترون هذه القبة ؟ قالوا : ما رأينا مثلاً قط . قال الحجاج : أما إن لها عياً لها هو ؟ قالوا : ما نرى بها عياً . قال : سأبث إلى من يخبرني به ، فبث ، فأقبل بالتضبان وهو يسرف في قيوده ؛ فلما مثل بين يديه . قال له يا غضبان : كيف بقيت هذه ؟ قال : أصلح الله الأمير نعمت القبة احسنة مستوية ! قال : أخبرني ببها ؟ قال : بيئتها في غير بلوك ، لا يسكنها ولك ، ومع ذلك فإنه لا يبقى بناؤها ، ولا يندوم هراتها ، وما لا يبقى ولا يندوم ، فكأنه لم يكن . قال الحجاج : صدق ، ردوه إلى السجن . قال التضبان : أصلح الله الأمير ، قد أكلني الحديد ، وأوهن ساقى القيود ، وما أطبق لثى . قال : احموه . فلما حل على الأيدي قال : (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرين) قال : أنزلوه ، فلما أنزلوه . قال : (رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) . قال الحجاج : جردوه . قال التضبان وهو يجر : (بسم الله جبراهى ومرساها إن ربي كفور رحيم) . قال الحجاج : اضربوا به الأرض ، فقال : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) فضمك الحجاج حتى استلقى على قفاه ثم قال : وحكم ، قد غلبني والله هذا الخبيث ، أطلقوه إلى مسمى عنه . قال التضبان : (فاصطغ عنهم وقل سلام) . فنجوا من شره بإذن الله ، وكانت برأته فيها انطلق على لسانه .

حرب الحجاج مع ابن الأشعث وقته

قال : وذكروا أن الحجاج لما قدم العراق أميراً ، زوج ابنه محمد أيمونة بنت محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، وخباني شرفها ، مع ما كانت عليه من جمالها ، وفضلها في جميع حالاتها ، وأراد من ذلك ، استأفة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ، ليسكنوا له يدا حل من ثاواه ، وكان لما ع باله يقال له عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ، له أبة في نفسه . وكان جيلاً جلياً منطقياً ، مع ما كان له من التقدم والترف ، فازدهاء ذلك وملاءة كبراً وغرراً وتطاولا ، فأقرمه بنفسه ، وألحقه بأفضل أصحابه ونخاست وأهل سره ، وأجرى عليه المطايا الواسعة ،

(١) يريد الفرس الأديم وهو الأسود والفرس الأشقر وهو الأبيض .

(٢) أراد التضبان بالفرس الحديد : السريح .

صلة لصره ، وحبا لإتمام الصدية إليه ، وإلى جميع أهله . فأقام عبد الرحمن كذلك حينما مع الحجاج ، لا يزيد الحجاج إلا إكراماً ، ولا يظهر له إلا قبولا ، وفي نفس الحجاج من عبه ما فيها ، لتسمخه زاهياً بأنه حتى إنه كان يقول إذا رآه مقبلاً : أما والله يا عبد الرحمن ، إنك لتقبل على بوجه فاجر ، وتدبر على بقاء غادر ، وإيم الله لتبتلين حقيقة أمرك على ذلك . فكثرت بهذا القول منه دهرآ ، حتى إذا عيل صبر الحجاج على ما يتطلع من عبد الرحمن ، أراد أن يتلى حقيقة ما يتفرس فيه من القدر والمجور ، وأن يدعى منه ما يكتم من ظلاله ، فكتب إليه عهده على سبستان . فلما بلغ ذلك أهل بيت عبد الرحمن ، فزعوا من ذلك فزعاً شديداً ، فأثروا الحجاج ، فقالوا له : أصلى الله الأمير ، إنا أعلم به منك ، فإنك به غير عالم ، ولقد أدبته بكل أدب ، فأبى أن يتهنى عن عبه بنفسه ، ونحن نتخوف أن يفتق قفا ، أو يحدث حدثاً ، يصيننا فيه منك ما يسوؤنا . فقال الحجاج : القول كما قلتم ، والرأى كالذي رأيتم ، ولقد استعملته على بصيرة ، فإن يستمر فلننسه نظر ، وإن يفتقر سيئه عن جائر الحق يهد إليها إن شاء الله . فلما توجه عبد الرحمن إلى عمله ، توجه وهو مصرّ لخلجان طاعة الحجاج ، وسار بذلك مسيره أجمع حتى نزل مدينة سبستان ، ثم مرّ على خلجائه عام كامل ، فلما أجمع عبد الرحمن على إظهار خلجان الحجاج ، كتب إلى أيوب بن القرية التميمي ، وهو مع الحجاج في عسكره ، خاصاً المنزلة منه ، وكان مفعلاً كلياً يسأله أن يصر إليه رسالة الحجاج ، يطلع فيها طاعة الحجاج ، فكتب له ابن القرية رسالة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، إلى الحجاج بن يوسف : سلام على أهل طاعة الله ، أوليائه الذين يمكنون ببدله ، ويوفون بعهده ، ويجاهدون في سيئه ، ويتورعون لذكره ، ولا يسكنون دماً حراماً ، ولا يظلمون للرب أحكاماً ، ولا يدرسون له أعلاماً ، ولا يتسكبون التبع ، ولا يرمون السيء ، ولا يسارعون في السيء ، ولا يدللون الفجرة ، ولا يترضون الجورة ، بل يمكنون عند الاحتباب ، ويتراجعون عند الإساءة . أما بعد : فإني أحمد إليك الله حمداً بالتمام في رضاه ، متنبهاً إلى الحق في الأمور الحقيقية لله علينا . وبعد : فإن الله أنهضني لمساوئك ، وبقنى لمناضلك ، حين تحيرت أمورك ، وتهتكت ستورك ، فأصبحت عريان حيران ، مبهتاً (١) لا توافق حقاً ، ولا ترافق رقياً . ولا تلازم صدقاً ، أو لم من الله الذي الحق فلك ، أن يصيرك في حبالك ، أو أن يحيى بك في القرن (٢) ، يسحبك للذقن (٣) ويتعف منك من لم تنصه من نفسك ،

(١) مهتا : ملسوباً إلى الهتان والزيغ .

(٢) القرن : بفتح القاف والراء الجبل : يريد أن يأتي أسيراً .

(٣) أى تجر على وجهك .

ويكون هلاكك يدي من إتهمة وعادته . فلعمرى لقد طال ما تطاولت ، وتمسكت وأخطيت ، وخلصت أن لن تبور ، وأنت في فلك الملك تدور ، وأظنّ مصداق ما أقول مستجرباً عن قريب فسر لأمرك ، ولاق عصاة خلعتك من جبالها خلعا ناعماً . وتدوّعت جلالها^(١) ، تجرّعها مطالها ، لا يحدون منك جهداً ، ولا يرهون منك وعيدا ، يتأملون خزائلك ، ويتجرعون إمارتك ، عطاشا إلى دمك ، يستعظمون الله ملكك ، وإيم الله لنا قنك منهم الأبطال ، الذين بينهم فيها يحاولونك به على طاعة الله ، وشروا^(٢) أنفسهم تحرباً إلى الله ، فأغض عن ذلك باين أمّ الحجاج . فسبحم عليك إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والسلام على أهل طاعة الله .

فما قدم المكتاب على الحجاج ، خرج موافقاً قد أخذ بطرف ردائه ، وألقى الطرف الآخر يجره من خلفه حتى صمد المنبر ونودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ثم قال :

فقاتلهم ولم نشتم عدوّاً وشرّ عداوة الرء السباب

أمرؤ وعظ نفسه بنفسه ، أمرؤ تماهد غفلة نفسه وتلقدها جهده ، أمرؤ وعظ غيره فأنهض ، قد تبين لكم ما تأتون وما تبون ، السبب السبب ، وما هو أعجب من العير^(٣) الأيت ، إرفوجته ومن معه من المناقبين لسبع مئة وزن سبعة سواء ، فانطلقوا في محور الدو ، ثم أبلوا على راياتهم قتال أهل الإسلام ، من أجل عير أيت ، ومن كيده ما هو أعجب السبب ، على حين أننا قد أمنا الخوارج ، وأطعنا الفتن ، فكان من شكركم يا أهل العراق ليد الله فيكم ، ونعمته عليكم ، وإحسانه إليكم ، جرائكم على الله ، واتهاكم حرمة ، واختاركم بنعمة الله ، ألم يأتكم شبيب مهزوماً ذليلاً ، فلما توجهت إليه منكم خمسة وعشرون أمير جيش ، ليس منهم من أمير جيش إلا وهو في جنده بمنزلة العروس التي يرف بها إلى خدوها ، فيقتل أميرهم وهم وقوف ينظرون إليه ، لا يرون له حرمة في حبة ، ولا نعماء في طاعة ، تقبحت تلك الوجوه أئنا هذا الذي يخوف منكم يا أهل العراق ، أما هذا الذي تنق ؟ والله لقد أكرمنا الله بهوانكم وأهانكم بكرامتنا ، في مواطن حتى ترفونها ، وترفون أشياء حرّمكم الله اغتاضها ، وما الله

(١) الجلال : الأمور الطيبة .

(٢) شروا أنفسهم : باعوها .

(٣) العير : بفتح الميم وسكون الياء الحمار ، الأيتز للقطوع الذئب

بظلام المعبد . ثم خذلناكم لهذه الموجاء^(١) للقمصة انحرافا ، أولى لهذه^(٢) الموجاء وأخلطها من أهل العراق ! لقد همت أن أترك بكل سكك منها جيفا متسحقين ، شائلة^(٣) أرجلهم ، تهشم الطير من كل جانب . يا أهل الشام : أحذوا قلوبكم ، وأحدوا سيوفكم ، ثم قال :

قد جد اشياعكم جفدوا والقوس فيها وكره عرد^(٤)

مثل ذراع البكر^(٥) أو أسد^(٦)

هيات ترك الخداع من أجزى من الله ، ومن لم يذعن حوشه يدم ، وأرى الخزام قد بلغ الطيين ، وانفتحت خلفنا البطان^(٧) ، ليس سلامان كمهدين ، أنا ابن العرقية^(٨) . وابن الصبح الأعمى ، كذبتهم ورب السكبة ، ما أراى كما رأيت ، ولا الحديث كما حدثت ، فانظنوا ليوبكم . وإياكم أن أكون أنا وأنتم كما قال القائل :

إنك إن كلفتى ملأ اطلق ساجك مسرك متى من خلق

وأخبر بالمل ليس كل أراجم بالتقون ، فانقذتم قبل التذم ، وأخو للرء نصيحتة ثم قال .

لدى الحلم قبل اليوم ما تفرع الصا وما علم الإنسان إلا ليلا

ثم قال . احمدوا ربكم ، وصلاوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل وقال :

أكتب يانافع وكان نافع مولاه وكاتبها يكتب بين يديه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأعمش ، سلام على أهل النوايح من التزييف وأسباب

(١) الموجاء : جمع طلع وهو الرجل الأعمى الذى ليس بصرى ، وللقمصة : التى تركت حتى كادت تموت .

(٢) أولى لهذه للمواجاء : كلمة تهديد : أى قارهم ما يهلكهم .

(٣) شائلة : مرتعة .

(٤) الرد : الشدود مستعلا لإطلاق السهم .

(٥) البكر : يفتح الباء وضما : الفق من الإبل القوى .

(٦) سبق بيان معنى هذه الجملة والتى قبلها فى الجزء الأول فى خطبتيهتان رضى الله عنه إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وفى غيره من الخطب والرسائل .

(٧) كناية عن الشدة .

الرداء ، لا إلى مادن السى ، والتسليم فى القى ، فإلى أحمد الله الذى خلّك فى حيرتك ، إذ بهتك فى السيرة ، ووهلك للضرورة حتى أضلكت أمورا أخرجت بها عن طاعته ، وجانبت ولايته ، وعسكرت بها فى الكفر ، وذعلت بها عن الشكر ، فلا تفكر فى السراء ، ولا تحصر فى الضراء ، أقبلت مستأجرا بحرمة الحرمة ، وتستوفد الفتنة لتصل بحرمتها ، وجلبت لتركك ضررها ، وقلت وثاق الاحتجاج ، ومبارزة الحجاج ، إلا بل لأملك الحبل ، وعزة ربك تكبّن لنحرك^(١) .
ولتظنّ لظهورك ، ولتخيلنّ فرستك^(٢) ، ولتدحّسنّ حجتك ولتؤمننّ مقامك ، ولتستغلنّ سهامك ، كأنى بك تحصر إلى غير قبول منك . إلا السيف هوجا هوجا ، عند كشف الحرب عن ساقها ، ومبارزة أبطالها ، والسلام على من أناب إلى الله وسمع وأجاب . ثم قال : من ها هنا من فية بنى الأعمش بن قيس ؟ قيل سعيد بن جبير . قال : فأنى به . قال له : انطلق بهذا الكتاب إلى هذا الطاغية ، الذى قد كُفّن وقُفّن ، فاردعه عن بيع مداخل فيه ، وعظيم ما أصرّ عليه من حقّ الله ، وحرمة ما انتهك عدوّ الله ، إلى ما فى ذلك من سفك الدماء ، وإبلاط الحرم ، وإتقاق الأموال ، فأنى لولا مرفقى بأنك قد حوت علما ، وأصبحت قتها ، أخاف أن يكون عليك لآك ، لهدت لك به عهدا تفعل به ، ولكن انطلق مرثك هذه قبل الكتاب إليه ، واحمله على البريد . فخرج سعيد به متوجها ، حتى انتهى إليه .

فلما قرأ عبد الرحمن الكتاب ، تبينت رعبته جزعا منه ، وهية له ، وسمع بذلك من كل نياحه ، وهوى كل ذى هوى ، وضّمّ سعيد بن جبير فلم يظهره لقناس ، وكتم الكتاب وجعل يستخلى بآبى جبير فى الليل فيسمر معه ، ويسأله عبد الرحمن الدخول معه فيا رأى هو من خلق الحجاج ، فأبى سعيد ذلك عليه ، فكث بذلك شهرا كرتا^(٣) . فأسفه سعيد بن جبير بطبته ، وسارع معه فى رغبته ، وخطمان طاعة الحجاج ، ثم إن عبد الرحمن ، تجهز من سبستان مقيلا ، يقود من يقوده من أهل هوله وأهل رأيه ، وخرج الحجاج إليه بن معه من أجناده من أهل الشام ، وبعن معه يرمضد من أهل الطاعة من أهل العراق ، حتى لقيه

(١) تكبّن لنحرك : الكب : الإلقاء ، والصهر موضع الدبح من الحيوان ، أى لتقنين على وجهك .

(٢) الفرصة : داخل النخز أى الجزء غير الظاهر من الفخر ، ومعنى تحبب الفرصة اضطرارها ، وهذا يحدث عند الخوف ، يقال ارتعدت فرائصه أى خاف

(٣) كرتا : كلاما .

بدر من أديار الأهواز ، يسمى بنيسابور ، فخاص به القتال ستة أشهر كريمة^(١) ، لاله ولا عليه ، حتى إذا كان في جوف ليلة من الليالي ، خلا الحجاج بنبسة بن سعيد بن العاص ، ويزيد بن أبي مسلم ، وعلی بن متفذ مولا ، وعبید الرحمن بن زياد مولا ، وكان يزيد بن أبي مسلم حاجبه على ما وراء بابه وأما يحيى فوكله بالقيام خلف ظهره ، إذا هو نسي أو غفل تخسه بمنخسه ، ثم قال : اذكر الله يا حجاج ، فيذكر ما بدا له أن يذكر . وأما عبد الرحمن ابن زياد : فكان ذا رأى ومشورة وأدب وقته ونصيحة . أما عنبسة : فكان بعيد الحمة ، طويل اللسان ، بديه الجواب ، فاصل الخطاب ، موفق الرأي ، فاستشارهم لما طال به وعبید الرحمن القتال ، لا يظفر واحد منهما بصاحبه — ومع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعي ، فكان هذا فقيه أهل الكوفة ، وهذا فقيه أهل البصرة — في أن يبيته ، فكره ذلك مواليه ، وأشار عنبسة أن يبيته ، فقال الحجاج : أصبت ، أصاب الله بك الخير ، وما الأمر إلا النصيحة ، والرأي شعوب ، فخطفه منها أو مصيب ، غدا الاثنان ، فصوموا ونصوم ، واستعينوا الله بالحيلة ، ونييتهم الليلة القبلية ، ليلة الثلاثاء ، فسوف أترجل ، وترجل أهل مودتي ونصيتي ، من ودي وغيري . ففعل : وأصبح سائماً ، وبينهم ليلة الثلاثاء وهو يقول : اللهم إن كان الحق لهم فلا تخنأ على الضلالة ، وإن كان الحق لنا فانصرنا عليهم ، فحمل عليهم والريان توفد ، فأصاب منهم ، وأصيب منه ، وانهمز ابن الأعمش في سواد الليل ، وأصاب الحجاج عسكره ، وأسر سعيد بن جبير ، وأظمت عامر بن سعيد الشعي مع ابن الأعمش ، فلما أتى الحجاج بسيا . بن جبير ، قال له : ورحمك يا سعيد ! أما تستحي مني ؟ ومذك الشيطان في طغيانك ، ألا استحييت من المراقب لي ولك ، والحافظ عليّ ؟ عليك ؟ قال : أطيع الله الأمر ، وأمتنع به أي بيلة وقت ، وعذاب نزل ، والقول كما قال الأمير ، وكان نسيه به وأضافه إليه ، إلا أني أبيت رجلا قد أزهى وطني ، وليسته الفتنة ، وركب الشيطان كنفه ، ونفث في صدره ، وأمل طي لسانه فغفنت وأشيته بلأى فقلت ؟ فإن تماقب فيذب ، وإن تنف فسيئة منك . فقال له الحجاج : فإننا قد عرفنا عنك ، وسندرك إليه تارة أخرى . ثم كتب كتاباً ، ووجه مع سعيد بن جبير إلى عبد الرحمن ، فلما كان سعيد . يمشي الطريق ، خرق الكتاب . وقدم عبد الرحمن فأخبره ، فغفر عبد الرحمن ، وخرج موالا إلى أهل البصرة ، وقد قدمت عليه كتبهم ، يستبطلونه ويستجفونهم حتى قدم عليهم ، وبلغ ذلك الحجاج فسبقه إلى البصرة فدخل الحجاج المسجد متكباً قوساً ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وحرّض الناس على قتال ابن

(١) كريمة : كلمة .

الأشعث ، وحسبهم على طاعة عبد الملك ، وتكلم رجل من أهل البصرة ، يقال له سلمة للثوري ،
 من بني تميم ، وكان رجلاً منطيقاً ، وله هوى في الخوارج ، وكان الحجاج به خابراً . فلما رآه
 عرفه أنه يريد الكلام . فقال له : إذن بإسلة ، فدنا . فقال له : قل : رضينا بالله رباً ، وبمحمد
 نبياً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً ، وبأمر المؤمنين خليفة ، وبالحجاج بن يوسف والياً .
 قال : والله لو كنا زمناً وبني زمع مريضين أن نكون تبعاً لهذا الخائف ، أمير المؤمنين أعزّه
 الله ، وأعزّ أمره ، أقرب قرابة وأوجب حقاً ، ونحن أئمة لطاعة الأمير الأكرم الله ، من أن
 نسارع له في مصيبة أو نطيق عنه في طاعة ، فأجابه الحجاج فقال : بإسلة ، هذا قول حسن ،
 لا أدخله صدرى ، ولأردته في محرك ، حتى نبتلي حقيقته إن شاء الله ؛ وكان قوله هذا على
 اللبر ، وقد عسكر بأجناده بالزاوية ، والزاوية في طرف من ناحية البصرة في طرف بني تميم .
 ثم إنه خرج من المسجد ، وحشد الناس من كان في الطاعة يومئذ من أهل العراق ،
 وقد كان اتهم لابن الأشعث غير ماهرة ، وقتل له ابن الأشعث خلقاً لا تحصى كثيرة ، قبل
 هذه المرة ، حتى يش من نفسه وقال : أترون السجوز ، ابنة الرجل الصالح كذبني ؟ يعني
 أسماء بنت أبي بكر الصديق ، لأن صدقت أسماء لا أقتل اليوم . وكان الحجاج لما فرغ
 من قتال عبد الله بن الزبير ، بعث إلى أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق أن تأتيه ، فأبت
 أن تأتيه . فقال : والله لأن لم تأتي لأبغتن إليها من يمرّ بقرون رأسها ، ويسحبها حتى تصل
 إليّ ، فقبل ذلك لها . فقالت : والله لا أسير إليه حتى يمض إلى من يمرّ بقرون رأسى . فأقبل
 الحجاج حتى وقف عليها ، فقال لها : كيف رأيت ما فعل الله تعالى بأهلك ، جدو الله ؟ الشاق
 لصا للسليين ، المني لبياده وللثقت لكلمة أمة نبيه ؟ قالت : رأيته اختار قتالك ، فاختار
 الله له ما عنده ، إذ كان إكرامه خيراً من إكرامك . ولكن يا حجاج بلغني أنك تتنصص
 بطائى هذين : أو تدرى ما نطائى ؟ أما النطائى هذا فشدت به سفرة رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يوم غزوة بدر ، وأما النطائى الآخر ، فأوقعت به خطام بيرة . فقال لى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطائين في الجنة ، فانتصص حتى يد هذا أو دع ، ولكن
 لا إخالك يا حجاج ، أجسر فإني صحت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : منافق قتيب يملأ
 الله به زاوية من زوايا جهنم ، يبيد الخلق ، ويقذف الكعبة بأحجارها ، ألا لعنة الله عليه !
 فأعلم الحجاج ولم يمر جواباً . قال : وسار ابن الأشعث بعد ما هزم الحجاج مراراً إلى الكوفة
 حتى نزل دير الجحاجم ، فقتل للحجاج فيه خلق كثير ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان أن
 أمدني بالرجال ، قال : فأمدّه محمد بن مروان في أناس من بني أمية كثير ، وجعل الحجاج
 أميراً عليهم ، فسار الحجاج إلى ابن الأشعث ، فاقتلوا ألبما بدير الجحاجم ، حتى كثر القتل على

الفرقين جيئاً ، ثم إن ابن الأعمش لا حشد السكر والحليج بالبصرة . عسكر على مسير ثلاثة أميال من البصرة على نهر يقال له نهر ابن عمر ، فكتب ابن الأعمش يسأله أن يقتضيه منهم لما كرهوا ولايته ، حتى يستعمل عليهم أمير المؤمنين غيره ، من هو أحب إليهم منه . فلما انتهى إليه رسوله قال الحليج : أدخلوه ، فلما دخل سلم عليه بالإمارة ، قال : من أنت ؟ قال : رجل من خزاعة . قال : من أهل البصرة أنت ، أم من أهل الكوفة ؟ قال : لا ، بل من أهل سبستان . قال : هل تأخذ الأمير للمؤمنين ديواناً ؟ قال : لا ، قال : الحسن وزدراء ابن الأعمش أنت عينا في هذه الفتنة يا أخا خزاعة ؟ قال : والله ما هويتها ، ولقد جئني إليك مكرها ، قال : فكيف تسليمك على صاحبك إذا اضرقت إليه ؟ قال : بالإمرة ، قال : فهل ترى في ذلك أنك صادق ؟ قال : الله أعلم بأبي الأمرين هو في نفسك أهل الصواب أم على الخطأ ؟ قال : الله أعلم أي الأمرين في نفسي . قال : أما إنك يا أخا خزاعة قد رجعت الأمر إليه وهو تعالى أعلم ، انطلق إلى صاحبك بكتابك كما جئت به ، وأعلمه بالذي كان من ردنا عليك ، فإنه جوابه عندنا ، ونحن مناجزوه القتال ، وعسا كره إلى الله من يوم الأربعاء إن شاء الله ، فليعد وليستمد لذلك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وذلك يوم الأحد . قال : فلما انصرف رسوله إليه ناو له الكتاب ، فلما رآه بختاه ، أي مثل ما بخته كفت ، فلم يسأله أمام من حضر ، حتى ارتفع الناس ، ثم دعاه فأخبره الخبر . قال : وما وراء ظهره إلا هذا ؟ قال له : في دون ما جئت بك به ما يكتبك ، قد رأيت أمراً صعباً ليس وراءه إلا الناجزة . ثم إن الحليج هتف هتفاً أن اجتمعوا للمطية ، ففرق العطية في ثلاثة مواضع ، وكان قواده يومئذ ثلاثة : سفيان بن الأبرد السكابي على ميمنته ، وسعيد بن عمرو الجرشى على القلب ، وعبد الرحمن بن عبد الله السكي على ميسرته ، فأعطى الناس على هذا وأقام في معسكره مترجماً ومتظلاً يوم الأربعاء . فلما رأى ابن الأعمش أنه لا يقدم قتاله ، وأنه مترقب يوم الأربعاء بث رجلين من معسكره ، حتى دنا من معسكر الحليج ، فنزل قريباً منه ، على مقدار خُسْفٍ^(١) الفرس ، وجاءه أن يتحشش له أحد من معسكر الحليج ، فلبسب القتال قبل يوم الأربعاء ، غريرا منه ، وتطيراً به . فلما رأى الحليج ذلك علم ما أرادته والذي توقع ، فتقدم إلى أمراء أجناده وقواده ، وإلى أهل عسكره عامة ، ألا يكلم أحد منها أحد من عسكر ابن الأعمش ، ولا يصرحه على نفسه ، وإن أمكنته الفرصة منه إلا يوم الأربعاء ، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء ، وهو يوم تطير به أهل العراق ، فليأتنا كهمون ، ولا يسافرون فيه ، ولا يدخلون من سفر ، ولا

(١) حضر الفرس : جريه السريع ، أي على مسافة يقطعها الفرس سريعاً بحيث يراه من خلفه .

يأيون فيه شيء ، ولا بالبل الأغر الأغر . قال : فدعا الحجاج ينفذ شقراء محبته ، فركبها خلافاً لأوامرهم ، واستصغاراً بطيرتهم ، وتوكلاً على الله ، وتحدى متلديه في عسكره : أن انتهوا . إلى قتال ابن الأشعث ، وأمر خاصته فركبوا معه ، وقدم رجالاته ، وأخر خلفه مقاتله ، حتى إذا كانوا من عسكر ابن الأشعث على مثال الأسهم وقف صفواً أمامه ، وهاجم للقتال ، وفضل مثل ذلك ابن الأشعث ، وترجل الحجاج وخاضته ، ووضع له متبراً من حديد ، جلس عليه وتراحم الناس ، حتى إذا كاد القتال يشب ، خرج رجل من أصحاب ابن الأشعث وهو ينادى : ألا هل من مبارز ؟ فقام إليه عتبة بن سديد القرشي وهو يمشي مشية قد لاهه الحجاج عليها ، وكرهاها له . فلما رآه الحجاج وهو يمشي تلك المشية ، قال الحجاج : ظفرك يا عتبة ، لو كنت تاركها يوماً من الدهن لتركها يوماً منكم هذا . فلما دنا من الرجل ، قال له عتبة ظن أنت يا مستخ ؟ فقال : رجل من بني تميم ، ثم من بني دارم ، فجعل عليه عتبة فيده بالفضة فقتله ، ثم انصرف إلى مجلسه بنفسه . وقد بين الناس حسن صنعه ، ثم زحف القرقيان بعضهم إلى بعض ، واشتد كلامهم ، واتى سليمان على مركبه لم يرم ، والجرشي على مركبه لم يرم ، وكانت ميلتهم على اليسرة ، فصرخوا عبد الرحمن المنكي . فلما رآه الحجاج قد انكسرت ناجيته ، وزال عنها ، بعث إليه ابن عمه الحكم بن أيوب في خيل . فقال : انطلق إلى عدو الله فاضرب وجهه بالسيف حتى ترده إلى مقامه ، ففعل ، وبعث إلى سليمان بن الأبرد يأمره بقتال القوم ومحاربتهم ، فعمل عليهم سليمان وهم مشغولون باليسرة قد طمعوا فيها ، وكان يلذن الله الفتحة والقبلة من ناحية سليمان ، وقد بعث إليه الجرشي يستأذنه للقتال ، فنهى الحجاج وقال له : لا ، إلا أن ترى أمراً مقبلاً ، وتمكننا من فرصة ، فاجمع الأمر ، وتاب المنكي ، وانهمز ابن الأشعث ، واستعقت هزيمته ، فدعا الحجاج بدابته فركبها ، وركب من كان مترجلاً معه ، بعد سجود ودعاء ، وشكر كل من منه ، على ما صنع الله به ومن كان معه ، وحمدوا الله تعالى كثيراً ، وكبروا تكبيراً عالياً ، ثم اتهم إلى دبة فأولموا إليها ، ثم استقبل ناحيتهم والسيوف تأخذهم ، وحسر بعثته ^(١) عن راحته ، فجعل يجرع راحته بخيزان في يده ، وهو يمثل بهذه الأبيات ، وهي من قول عبيد بن الأبرس ، أو من قول البهكري :

كيف يرجون سقاطي يد ما جمل الرأس يائس وصلع
ساء ما ظنوا وقد أودرتهم عند غلات الوضي كيف أتع

(١) البيضة : الخوذة من الحديد ينعل الفارس بها رأسه .

ربة من أفضت غيظاً قلبه قد تمنى في موتاً لم يطلع
وبرأى كالكسبي في حلقه صبراً خرج به ما يتزعج
مرشد يسر ما لم يرى فإذا أصمته صوتي اتضع
ومعيني إذا لاقيته وإذا غلوا له الحلى رجع
ورث البضاء عن والده حافظاً منه الذي كان استمع
ولسني صيرني صارم كذب السيف ماسي قطع

قال : فلما فرغ الحجاج من هذه الآيات كبر ، ثم حمد الله بما هو أهله ، الذي كان من صنعه به وبجهته ، فينتا هو كذلك ، إذ أتاه من يحبره أن ابن الأخت قد انخزل من أصحابه في نهر يسير ، متوجهاً إلى ناحية خراسان ، فدعا الحجاج ابن عم له ، كان يعرفه بالتسبيحة والحوى ، قطع معه ليلاً ، وأرسله في طلب ابن الأخت إلى مواضع شتى ، وعهد إليهم أن لا يدرؤا أحداً إلا أنوا به أو يرأسه أو يموت ؛ فوقف الحجاج طويلاً في مكانه ذلك للترفع ينظر إلى مسكر ابن الأخت ، وأصحابه يتنبهونه ، ثم رجع إلى مسكره فزل ، ودخل فسطاطه جلس ، وأذن لأصحابه فدخلوا عليه ، فقام كل واحد منهم بيته بالفتح ، وجعل ابن جيلة يأتيه بالأسرى ، فكلما أتى بأسير أمر به فضربت عنقه ، فكان ذلك منه يومه ذلك إلى الليل ، فلما أصبح وتراجع إليه أكثر خيله ، أمر مناديه ينادى بالقتل^(١) ، فقتل وقتل معه أجناده ، وجميع أصحابه إلى مدينة واسط ، فكان فيها هو الذي كان بناها ، قال : وضرب ابن الأخت ظهراً لبطن ، ليلاً ونهاراً حتى لحق بخراسان ، ورجأ في لحوقه بها النجاة من الحجاج ، والحذر لنفسه ، ولم يشعر بالحيل التي بشت في طلبه حتى غشيت ، فلم تزل تطلبه من موضع إلى موضع ، حتى استأثرت بقصر منيف ، فحصره ابن عم الحجاج فيه ، وأحاطت به الحيل من كل جانب ، حتى ضيق عليه ، ودعا بالثار ليحرقه في القصر ؛ فلما رأى ابن الأخت أنه لا عيش له ولا ملجأ ، وخلف النار ، رمى بنفسه من بطن علال القصر ، وطمع أن يسلم ولا يشعر به فيدخل في غمار الناس ، فيخفي أمره ، ويكتم خبره ، فسقط فانكسرت ساقه ، وانخزل ظهره ووقع مفضياً عليه ، قال : فحضر به أصحاب الحجاج فأخفوه ، وقد أفاق بعض الإفاقة ، ولا يقدر على التهوض فأثوا به إلى ابن عم الحجاج ، فلما رآه بذلك الحال أيقن أنه لا يقدر على أن يبلغ الحجاج حتى يموت ، فأمر به فضربت رقبة ، وانطلق برأسه إلى الحجاج ، فلما قدم عليه أحدث له فكراً وحداً

(١) القتل : الرجوع.

فياكلان من عام الصنع ، وما هيا له من التأيد والتفكر ، وأقام كذلك لايوم عليه يوم إلا وهو يؤتي فيه بأسرى ، فلما رأى كثرتهم ازداد حشاً وغيتاً لمسيرتهم في اتباع ابن الأشعث ، وحالفهم عن الحجاج ، فأمر بضلعهم حرماً على الخوارج ، ودعا أن يستأصلهم ، فلا يخرج عليه خارجي بعدها ، فلما رأى كثرة من يؤتي به من الأسرى تحرى ، فجعل إذا أتى بأسير يقول له : أمؤمن أنت أم كافر ؟ ليعرف بذلك الخوارج من غيرهم ، فمن بدأ على نفسه بالكفر والتناقى عما حنه ، ومن قال أنا مؤمن ضرب عنقه .

وأسر عامر بن سعيد الشامي فيمن أسره ، وكان مع ابن الأشعث في جميع حروبه ، وكان خاصاً للزلة منه ، ليس لأحد منه مثلهما الذي كان عليه من حالة ، إلا سعيد بن جبير ، وأظنت سعيد بن جبير قلعك بركة ، وآتى الشامي إلى الحجاج في سورة غضبه^(١) ، وهو يقتل الأسرى الأول فالأول ، إلا من بدأ على نفسه بالكفر والتناقى ؛ فلما صار عامر بن سعيد الشامي إلى الدخول عليه قبيح رجل من صحابة الحجاج يقال له يزيد بن أبي مسلم وكان مولاه وحليبه ، فقال : يا شامي ، لحنى بالعلم الذي بين يديك ، وليس هذا يوم شفاعة إذا دخلت على الأمير ، فبؤله بالكفر والتناقى عسى أن تنجو ؛ فلما دخل الشامي على الحجاج صادفه وانصأ رأسه لم يشعر ، فلما رفع رأسه رآه قال له : وأنت أيضاً يا شامي فيمن أمان علينا وألب ؟ قال أصلح الله الأمير إني أمرت بأعيان أقولها لك ، أرضيك بها وأسخط الرب ، ولست أقبل ، ولكني أقول : أصلح الله الأمير وأصدقك القول ، فإن كان شوي ينتع أدبك فهو في الصدق إن شاء الله أحزن بنا للفرز ، وأجذب الجناح ، وأكتظنا السمر ، واستحلنا^(٢) الخوف ، وضاق بنا البلاء العريض ، فوعدنا في خربة لم تكن فيها برة أضياء ، ولا جرة أقوياء ، فقال له الحجاج : كذلك . قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، وامتنع به ، قال : فنظر الحجاج إلى أهل الشام فقال : صدق والله يا أهل الشام ما كانوا برة أضياء فيتورعوا عن قتالنا ؛ ولا جرة أقوياء فيقووا علينا ، ثم قال : انطلق يا شامي قد عفونا عنك ، فأنت أحق بالعلو مني بأينا وقد تطلع بالهباء ثم يقول : كان وكن ، قال : وكان قد أحضر بالبابرجلان ، وأحدهما من بكر بن وائل ، والآخر من تميم ، وكانا قد صمما ما قيل للشامي بالباب أن يقول ، فلما أدخل . قال الحجاج لجبري : أمتفق أنت ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، لكن أخو بني تميم لا يوبى على نفسه بالتناقى . قال التميمي : أنا على دى أختع ؛ بل أنا — أصلح الله الأمير — متفق مشترك

(١) في حدة غضبه

(٢) استحلنا الخوف : أي صار الخوف حلساً لنا أي ملاصقاً لأجسادنا

فتيسم الحجاج وأمر بشيلة سيلهما . قال الشعبي : فوالله ما آتى لذلك الأمر إلا نحو من شهرين ، حتى رفعت إليه فريضة أشكلت عليه ، وهي أم ، وجد ، وأخت . فقال : من هاهنا نسأله عنها ؟ قال : فقلت : طي ، فأرسل إلي ، وقال يا يحيى ما عندك في هذه الفريضة ؟ أم ، وأخت وجد ؟ قلت : أصلح الله الأمير . قال فيها خمسة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . قال : من قال فيها ؟ قلت : قال فيها طي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت . قال : هات ما قال فيها طي . فأخبرته . قال : لما قال فيها ابن مسعود ؟ فأخبرته ، قال : لما قال فيها ابن عباس ؟ فوالله لقد كان متعقبا فأخبرته . قال : لما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟ فأخبرته . قال : لما قال زيد بن ثابت ؟ قلت : أخذها من تسعة أسهم ، فأعطى الأم ثلاثة أسهم ، وأعطى الجدة أربعة أسهم ، وأعطى الأخت سهمين . فلما سمع ما كان من قوله كل واحد منهم ، وعرف رأيهم فيها . قال يا غلام : قل لقاضي يحضها طي ما قال أمير المؤمنين عثمان . قال الشعبي : ودخلت عليه التركة ، قد شدوا أوساطهم بها عنهم ، وانزعزت السيوف من أعناقهم وأخذوا الطوامير^(١) بأيمانهم ، فدخل عليه رجل من قبل أمير المؤمنين عبد الله . فقال له الحجاج : كيف تركت أمير المؤمنين وأهله وولده وحشمه ؟ فأباه عنه وعنهم صلاح . فقال : ما كان وراثة من غيث ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، أسألتني سعاية في موضع كذا ، فواد سائل ، وواد تارح ، فأرض مدبرة ، وأرض مقبلة ، حتى صنعت عن الكفاة أما كتبها ، لما أتيتك إلا في مثل مجرى الضب . فقال للحاجب : ائذن للناس فدخل عليه رجل أتاه من قبل محمد . فقال له : ما كان وراثة من غيث ؟ فقال : نعم . وصمت . قال : فقال : كثير الإعصار ، وأغير البلاد ، وأكل ما أشرف من الحشيشة ، فاستيقنت أنه عام سنة . فقال : بلى الخبر أنت . قال : أخبرتك بالذي كان . فقال للحاجب : ائذن للناس ، فدخل عليه رجل أتاه من قبل الجمامة . فقال : هل كان وراثة من غيث ؟ قال : نعم . وصمت . قال : فقال : رواد يدهون إلى روادها ، وصمت رائدا يقول : حلوا أطمعكم محبة تطفوا فيها النيران ، وتشتكي فيها النساء ، وتتافس فيها اللز . فقال له : وبمك ، إنما تحدث أهل الشام فأفهمهم . فقال : أصلح الله الأمير ، أما تطفوا النيران ، فبستكثر فيها الزبد واللابن والقر ، فلا توفد نار ، وأما أن يشتكي النساء : فإيه من جنبها طي إريق لبنها فتظل تحمض لبنها فتبيت ولها أثنين من عضديها ، وأما تافس اللز : فلأنها ترأى من نوار النبات واللوان الجمر ما يشبع بطونها ، ولا يشبع هيوتها ، فتبيت ، وقد امتلأت أكراشها ، لها من الكسطة عشرة نزل به

(١) الطوامير : جمع طومار وطامور وهو الصميمة .

الحرية . ثم قال للعاجب : أفنن الناس ، فدخل عليه رجل من القوالم ، كان أشجع الناس في زمانه ، يقال له عمرو بن الصلت . فقال له الحليج : هل كان وراكك من حيث ؟ قال : نعم . أصلى الله الأمير ، أصابني سحابة بموضع كذا وكذا ، فلم أزل أطأ في أثرها ، حتى دخلت حل الأمير . فقال له الحليج : أما والله لئن كنت في الطر أقصرم خطبة ، إنك بالسيف لأطوئهم بأنا وخطوة .

ولما انهزم بن الأشعث ، قام بعده عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة ، فقاتله الحليج ثلاثة أيام ، ثم انهزم ، فوقع بأرض فارس ، ثم صار إلى السند ، فأتاه هناك . وتحصن ناس من أصحاب ابن الأشعث في قلعة بأرض فارس ، منهم عبد الرحمن بن الحارث بن نوفل ، والفضل ابن عياش ، وعمرو بن موسى التيمي ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله ، ومحمد ، وإسحاق ، وعون ، بنو عبد الله بن الحارث بن ناس من قريش ، وعلق سبيد بن جبير بركة ، فأشهر به الحليج ، فقتله عنه ولم يبرحه ، فبعت الحليج يزيد بن اللهب ، فحاصرهم بفارس .

قال أبو مضر : حدثني عون قال : كتب إلينا يزيد بن اللهب ، أن أخبروني بأية يعني (١) وينسبك حتى أخرجه . قال : فكتب إليه عبد الله بن الحارث : كنت يوم كذا وكذا في دلو لنا . قال : فأخرجه وبليه ، فسكتا عمان . وأسر من بني ، وأسروا اثني عشر رجلا من وجوه الناس عامتهم من قريش ، منهم عمرو بن موسى التيمي ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، فبعت بهم إلى الحليج فقبضهم عنده ، وكتب إلى عبد الملك يخبره بأمرهم ، وجعل يذكر في كتابه أن سبيدا قد أنكر الخروج مع هؤلاء القوم ، فكتب إليه عبد الملك يأمره بضرب أعناقهم ويقول في كتابه : لم أبتك مسقما وإنما ببتك منفذا مناجرا لأهل الخلاف وللصية . فأبرزهم الحليج ، فقال لمعرو بن موسى : يا عاتق قريش وكان شاملا جليلا ، مالك أنت ولخرجوك ، إنما أنت عاتق (٢) صاحب ثياب ولعب ؟ فقال له عمرو : أيها الرجل ، امض لما تريد فإنا نزلت بهد الله وميثاقه ، فلئن شئت فأرسل يدي ، وبرئت مني القصة . فقال له الحليج : كلا ، حتى أقدملك إلى القار ، ففريت وقتته ، ثم جرى بمحمد بن سعد ، فقال له : يا ظن الشيطان ، وكان رجلا طويلا ، أنت صاحب كل موطن ؟ أنت صاحب الحرية ، وصاحب يوم القزوية ، وصاحب الجناح . فقال له : إنما نزلت بهد الله وميثاقه ، أرسل يدي وبرئت مني القصة ، قال : لا ، حتى

(١) الآية : للرايد بها هنا العلامة .

(٢) العاتق : الجليل والعزيز والكريم والتجيب والمرو والرياء به هنا الجليل .

أقدمك إلى النار ، ثم قال لرجل من أهل الشام : اضرب لي مفرق رأسه ، فضرب ، فقال نضه هاهنا ، ونضه هاهنا ، ثم قتل الباقيين :

ذكر قتل سعيد بن جبير

قال ، وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك ، كان والياً على أهل مكة ، فبينما هو يخطب على المنبر ، إذ أقبل خالد بن عبد الله القسري من الشام والياً عليها ، فدخل المسجد ، فلما قضى مسلمة خطبته ، صعد خالد المنبر ، فلما ارتقى في الدرجة الثالثة ، تحت مسلمة ، أخرج طوماراً مختوماً فضحه ، ثم قرأه على الناس ، فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أهل مكة ، أما بعد : فأني وليت عليكم خالد بن عبد الله القسري ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ولا يجلسن امرؤ على نفسه سيلاً ، فإنما هو القتل لا خير ، وقد برئت القصة من رجل أوي سعيد بن جبير ، والسلام . ثم التفت إليهم خالد وقال : ولدي تحلف به ، ونحج إليه ، لا أجدته في دار أحد إلا قتلت ، وهدمت داره ، ودار كل من جلوره ، واستبجت حرمة . وقد أجبت لكم فيه ثلاثة أيام ، ثم نزل ، ودعا مسلمة بخواجه وخلق بالشام ، فأني رجل إلى خالد فقال له : إن سعيد بن جبير يواد من أودية مكة ، غنطياً بئكان كذا ، فأرسل خالد في طلبه ، فأثاه الرسول ، فلما نظر إليه الرسول قال إنما أمرت بأخذك ، وأنت لأذهب بك إليه ، وأعوذ بالله من ذلك ، فالق بأي يده هلت ، وأنا معك . قال له سعيد بن جبير : ألك هاهنا أهل وولد قال : نعم . قال : إهم يؤخذون ويظلم من للكروه مثل الذي كان يثاني . قال الرسول : فإني أكلمهم إلى الله . فقال سعيد : لا يكون هذا . فأني به إلى خالد فشدّه وثاقاً ، وبث به إلى الحجاج . فقال له رجل من أهل الشام : إن الحجاج قد أضر بك وأضر قبلك ، فما عرض له ، فلو جعلته فيما بينك وبين الله لكان أذكى من كل عمل يقترب به إلى الله . فقال خالد ، وقد كان ظهره إلى الكعبة قد استند إليها : والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا ينقض هذا البيت حجراً حجراً لنقضته في مرثاته . فلما قدم سعيد على الحجاج ، قال له ما اسمك ؟ قال : سعيد . قال : أين من ؟ قال : ابن جبير . قال : بل أنت هقي بن كسبر ؟ قال سعيد : أمي أعلم باسمي واسم أبي . قال الحجاج : شقيت وشقيت أمك . قال سعيد : النبي يعلمه غيرك . قال الحجاج : لأوردتك حياض اللوت ، قال سعيد : أصابت إذا أمي اسمي . فقال الحجاج : لأبدلك بالدينار ناراً تظلي . قال سعيد : لو آني أعلم أن ذلك بيدك لأخذتك إلها . قال الحجاج : فما قولك في محمد ؟ قال سعيد : نبي الرحمة ، ورسول رب العالمين إلى الناس كافة بالوعظة الحسنة . فقال الحجاج : فما قولك في الخلفاء ؟ قال سعيد :

لست عليهم بوكيل ، كل امرئ بما كسب رهين . قال الحجاج : اختتمهم أم أمدهم ؟ قال سعيد : لا أقول ما لا أعلم ، إنما استخففت أمر قسى . وقال الحجاج : أيهم أحب إليك ؟ قال : حالاتهم يفضل بعضهم على بعض . قال الحجاج : صف لي قوتك في حل . أفى الجنة هو ، أم في النار ؟ قال سعيد : لو دخلت الجنة فرأيت أهلها علمت ، ولو رأيت من في النار علمت ، فما سؤالك عن غيب قد حفظ بالحجاب ؟ قال الحجاج : فأى رجل أنا يوم القيامة ؟ قال سعيد : أنا أهون على الله من أن يطلعنى على التيب . قال الحجاج : أبيت أن تصدقنى ؟ قال سعيد : بل لم أرد أن أكذبك . فقال الحجاج فمع عنك هذا كله ، أخبرنى مالك لم تصنعك قط ؟ قال : لم أر شيئاً يضمنكنى ، وكيف يضمنك عنقوك من ملين ، والطين تأكله النار ، ومثقله إلى الجزاء ، واليوم يسبح ويمسى في الابتلاء . قال الحجاج : فأنا أضحك . قال سعيد : كذلك خلقنا الله الطويراً . قال الحجاج هل رأيت شيئاً من اللهو ؟ قال : لا أعلمه . فدعا الحجاج بالود والثأى . قال : فلما ضرب بالود ، ونعش في الثأى بكى سعيد . قال الحجاج : ما يبكيك ؟ قال : يا حجاج ذكرتنى أمراً عظيماً ، والله لا تحبت ولا رويت ولا اكتسبت ، ولا زلت حزناً لما رأيت . قال الحجاج : وما كنت رأيت هذا اللهو ؟ قال سعيد : بل هذا والله الحزن يا حجاج ، أما هذه التبعة ، فذكرتنى يوم التلغ في الصور ، وأما هذا للصران^(١) فن عسى ستخسر منك إلى الحساب ، وأما هذا الود فتبت بحق ، وقطع لغير حق . قال الحجاج : أنا قاتلك . قال سعيد : قد فرغ من تسبب في موتى . قال الحجاج : أنا أحب إلى الله منك ؟ قال سعيد : لا يقدم أحد على ربه حق يعرف منزلته منه ، والله بالتب أعلم . قال الحجاج : كيف لا أقسم على ربه في مقامى هذا ، وأنا مع إمام الجماعة ، وأنت مع إمام الفرقة والفتنة ؟ قال سعيد : ما أنا بخارج عن الجماعة ، ولا أنا براض عن الفتنة ، ولكن قضاء الرب تأخذ لا مودة له . قال الحجاج : كيف ترى ما نجتمع لأمر المؤمنين ؟ قال سعيد : لم أر ، فدعا الحجاج بالذهب والفضة ، والكسوة والجوهر ، فوضع بين يديه . قال سعيد : هذا حسن إن قلت بشرطه . قال الحجاج : وما شرطه ؟ قال : أن تشتري به بما تجمع الأمن من الفرع الأكبر يوم القيامة ، وإلا فإن كل مرضة تذهل عما أرضعت ، وضع كل ذى حول حله ، ولا ينفع إلا ما طاب منه . قال الحجاج : قبرى طيباً ؟ قال : برأيك جمعت ، وأنت أعلم بطيبي . قال الحجاج : أحبب أن لك شيئاً منه ؟ قال : لا أحب ما لا يحب الله . قال الحجاج : وبطه . قال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة فأدخل النار . قال الحجاج : اذهبوا به فاقفوه . قال :

(١) للراد بالصران : الأوتار التي يضرب عليها ، لأنها مأخوذة من مصارين الحيوانات.

إني أعهدك يا حبيج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ،
استغفلكم يا حبيج حتى أقاتك . فلما أدير ضحك . قال الحبيج : ما يضحكك يا سيد ؟ قاله :
عميت من جرأتك على الله ، وسلم الله عليك ! قال الحبيج : إنما أقتل من حقّ عسا الجماعة
ومال إلى الفرقة التي نهى الله عنها ، اضربوا عنه . قال سعيد : حتى أصل ركتين : فاستقبل
القبلة وهو يقول : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من
المشركين . قال الحبيج : اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى ، الذين كفروا واختلفوا ببناء
بينهم ، فإنه من حزبهم ، فصرف عن القبلة . فقال سعيد : فأيتنا تولوا ثم وجه الله الكافي
بالسرائر . . قال الحبيج : لم نؤكل بالسرائر ، وإنما وكنا بالظواهر . قال سعيد : اللهم لا تترك
له ظلي ، وأطلبه يدي ، واجلس آخر قتيل يكفل من أمة محمد . فطربت عنه . ثم قال الحبيج
هاتوا من يقي من الخوارج ، فترب إليه جماعة فأمر بضرب أعناقهم ، وقال : ما أخاف
إلا دعاء من هو في شدة الحاجة من الظالمين ، فأما أمثال هؤلاء فلهم ظالمون حين خرجوا
عن جمهور السليين ، وقائد سبيل التوسمين .

وقال قال : إن الحبيج لم يخرج من قفله حتى خلط في عقله ، وجعل يصيح قيودا ،
يعني القيود التي كانت في رجل سعيد بن جبير ، ويقول : متى كان الحبيج يسأل عن القيود
أو يبأ بها ؟ وهذا يكن القول فيه لأهل الأهواء في الفتح والإغلاق .

ذكر بيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك

قال : وذكروا أنه لما فرغ الحبيج من قتل الخوارج ، وتمّ له أمر العراق ، فاستقرّ
ملك عبد الملك ، كتب إليه الحبيج أن يباح فوليد ابنه ، ويكتب له عهده الناس ؟ فأبى ذلك
عبد الملك ، لأن أخاه عبد العزيز كان حيا ، وكان قد استعمله عبد الملك على مصر ، وكتب
إلى الحبيج يبعثه ، ويقول له مالك أنت والتسليم جهنم ؟ وكانت البيعة بالشام لمعا جيجا ، إذ
مات مروان ، وكان عبد العزيز نظير عبد الملك في الحزم والرائ والعدل والعدل . وكان عبد
الملك لا يفضل عبد العزيز في شيء إلا باسم الخلافة : حتى ربما كان عبد الملك يأمر الناس ،
فيريد عبد العزيز غيره ، ويرى خلافه ، فيردّه إلى رأيه ولا يرضيه ، وكان لا يشكر ذلك عبد
الملك ، فلما كانت سنة إحدى وثلاثين عقد عبد الملك موسى بن نصير على إفريقية وما حولها ،
ووجهه إلى من بها من البربر يتقاتلون ، وضمّ إليه برقة ، فلما قدم موسى بن نصير متوجها ،
انتهى ذلك إلى عبد العزيز ، فردّه من مصر إلى الشام ، وبثقرة بن حسان الصلي : فانصرف
موسى بن نصير إلى الشام ليد الملك ، وذكر امتحاننا ناله من عبد العزيز وما استقبل به إلى كلام

كثير ، فقال له عبد الملك : إن عبد العزيز صو أمير المؤمنين ، وقد أمضينا معه ، فوجه قرة
 ابن حسان إلى أفرقية ، هزم بها ، وقتل غالب أصحابه . فلما كانت سنة أربع وعشرين ، توفي
 عبد العزيز بن مروان بمصر ، ثم ولي محمد بن مروان إلى سنة ست وعشرين ، فلما توفي عبد
 العزيز ، أجمع عبد الملك على بنة الوليد ، ثم من بعد الوليد سليمان ، فكتب إلى الحجاج بنية
 الوليد وسليمان ، فباج الحجاج لهما بالعراق ، فلم يختلف عليهما أحد ، ويومعهما بالشام ومصر
 واليمن ، وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل ، وهو عامل على المدينة ، أن يأخذ بنة أهل
 المدينة ، فلما أتت البينة لهما ، كره ذلك سعيد ابن المسيب ، وقال : لم أكن لأباج بيتين
 في الإسلام بعد حديث سمته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كانت بيتان
 في الإسلام فاقولا الأحدث منهما » فأثاه عبد الرحمن بن عبد القاري . فقال : إن مشير
 عليك ثلاث خصال ، اختر أباها عشت . قال : وما هي ؟ قال له : إنك تقوم حيث يراك هشام
 ابن إسماعيل ، فلو غيرت مقامك ؟ قال : ما كنت لأغير مقاما لله منذ أربعين سنة ، هشام بن
 إسماعيل : قال : فبانية : قال : وما هي ؟ قال : أخرج معتمرا ، قال سعيد : ما كنت لأجهد
 نفسي ، وأتفق مالي في شيء ليس لي فيه بنة . قال له : فبانية : قال : وما هي ؟ قال : تباج
 لوليد ، ثم لسليمان ، قال سعيد : أرايت إن كان الله قد أمضى قلبك كما أمضى بصرك لما حل ؟
 قال : وكان عبد الرحمن هذا أمضى . قال : فدعاه هشام بن إسماعيل إلى البينة ، وكان ابن م
 سعيد بن المسيب ، فلما علم بذلك القرشيون ، أتوا هشاما فقالوا له : لا تعجل على ابن عمك
 حتى نكلمه ونخوفه القتل ، فمضى به أن يباج ويحب . قال : فاجتمع القرشيون ، فأرسلوا
 إلى سعيد مولى له كان في الحرس . فقالوا له : اذهب إليه ، غفوه القتل ، وأخبرناه مقتول ،
 فله يدخل فيما دخل فيه الناس . فجاءه مولاه ، فوجده قائما على في مسجده ، فبكى مولاه
 بكاء شديدا ، قال له سعيد : ما يبكيك وبكك ؟ قال : أبكي بما يرايك . قال له سعيد : وما
 يرايك ، وبكك . قال : جاء كتاب من عبد الملك بن مروان ، إلى هشام بن إسماعيل ، إن
 لم تباج وإلا قتلت ، فبكيت لطهر وتليس ثيابا طاهرة وتفرغ من عهدك إن كنت لا تريد
 أن تباج . فقال لسعيد : لا أمالك قد وجدتني على في مسجدي ، أترأت كنت أملى ولست بطاهر ،
 وثيابي غير طاهرة أوأما ما ذكرت من أن أفرغ من عهدي ، لما كنت لأفرغ عهدي بعد
 ما حدثني به عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حق امرئ مسلم بيت
 ليتين له شيء يوصى به إلا ووصيته مكتوبة » ، فلذا خاموا فليصلا ، فإني لم أكن لأباج بيتين
 في الإسلام . قال : فرجع إليهم المولى فأخبرهم بما ذكر ، فكتب صاحب المدينة هشام بن إسماعيل
 إلى عبد الملك يخبره أن سعيد بن المسيب كره أن يباج لهما (الوليد وسليمان) فكتب

عبد الملك إليه : مالك ولسميد، وما كان علينا منه أمر نكرهه ، وما كان حاجتك أن تكشف عن سعيد ، أو تأخذه بيعة ؟ ما كنا نخاف من سعيد ؟ فأما إذ قد ظهر ذلك وانتشر أمره في الناس ، قاده إلى البيعة ، فإن أبي فاجده مئة سوط : أو اطلق رأسه ولحيته وألبسه ثياباً من شعر وأوقفه في السوق من الناس لكي لا يهتريه علينا أحد غيره . قال : فلما وصل الكتاب أرسل إليه هشام ، فانتطلق سعيد إليه ، فلما أتاه دعاه إلى البيعة ، فأبى أن يجيبه ، فألبسه ثياباً من شعر ، وجرحه وجهه مئة سوط ، وعلق رأسه ولحيته ، وأوقفه في السوق ، وقال لو أعلم أنه ليس إلا هذا ما نزعت ثيابي طامئاً ولا أجبت إلى ذلك قال بعض الإيليين^(١) الذين كانوا في الشرطة بالدينة : لما علمنا أنه لا يلبس الثياب طامئاً قلنا له : يا أبا محمد إنه اقتتل فاستر بها عورتك قال فلبس فلما بين له أننا خدعناه قال : يا ملجعة^(٢) أهل أيلة ، لو لأبي غنلت أنه القتل ما لبسته . قال : فكان هشام بن إسحاق بعد ذلك إذا خطب الناس يوم الجمعة يقول إليه سعيد بن المسيب، أي قتل عليه بوجهه مادام يذكر الله، حتى إذا وقع في مدح عبد الملك وغيره أعرض سعيد عنه بوجهه فلما فطن هشام لذلك، أمر حرسياً بحصوجه سعيد إذا تحول عنه ففعل ذلك به، فقال سعيد: إنما هي ثلاث، وأشار يده، قال: فما مرّ به إلا ثلاثة أشهر حتى عزل هشام.

موت عبد الملك وبيعة الوليد

قال : وذكروا أن عبد الملك بن مروان لما حضرته الوفاة ، جمع إليه وقال لهم : اتقوا الله ربكم ، وأصلحوا ذات بينكم ، وليجنّ صغيركم كبيركم ، وكبيركم صغيركم ، انظروا أخاكم مسلمة ، فاستوصوا به خيراً ، فإنه شيخكم وجنّكم الذي به تستجنون ، وسيلكم الذي به تضرعون ، أو صيكم به خيراً ، وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز ، فاصدروا عن رأيه ، ولا تتسلطوا عن مشورته اتخذوه صاحباً لا تتجفوه ، ووزيراً لا تمصوه ، فإنه من علم فضله ودينه ، وذكاء عقله ، فاستمعوا به على كلّ مهمّ ، وهاوروه في كلّ حادث . قال : ثم دخل عليه خالد وعبد الرحمن ابنا يزيد بن معاوية بن أبي سفيان . فقال لهما : أحبان أن أسألكما بيعة الوليد سليمان ؟ قلّا : يا أمير المؤمنين ، مآذ الله من ذلك . قال : فأومأ يده إلى مصلي كان مضطجاً عليه ، فأخرج من تحته سيفاً مسلطاً . فقال لهما : والله لو قلنا غير ذلك لضربت أعناقكما بهذا السيف ، ثم خرجا من عنده ، ودخل عليه عمر بن عبد العزيز . فقال عبد الملك : يا أبا حفص استوص خيراً بأخويك

(١) الإيليون : نسبة إلى أيلة وهي بلد بين بلخ ومصر

(٢) الملجعة : الأطمح الذين ليسوا عرباً

الوليد وسليمان ، إن زلا فتلهمنا^(١) وإن مالا فألقهما ، وإن غللا فذكرهما ، وإن نالما فأقطعهما ، وقد أوصيتهما بك ، وعهدت إليهما أن لا يقطعا شيئا دونك . قال عمر بن عبد العزيز بأمر المؤمنين أوصيتهما بكتاب الله طيقاه في عباده وبلاؤه ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فليحيها ، وبمحملا الناس عليها ؟ قال عبد الله : قد فعلت وولي فيكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . ثم قال : وقد علمت يا عمر مكان طعمة مني ، ومعلمها من قلبي ، وإن آثرتك بها على جميع آل مروان ، فضلك وورعك ، فكُن عند ذي بك ، ورجائي فيك ، وقد علمت أنك غير مقصر ، ولا مضيع حقها ، ولكن الله قد قضى أن لا أرى تلغ المؤمنين ، قوموا عسكم الله وكفاكم . ثم خرجوا من عنده . قال : ثم دعا عبد الله بالوليد وسليمان ، فدخل عليه . فقال الوليد : اسمع يا وليد ، قد حضر الوداع ، وذهب الخداع ، وحل القضاء . قال : فبكى الوليد . فقال له عبد الله : لا تمصر عييك على كما نصر الأمة الوكساء^(٢) ، إذا آتاك من فاضلي ، وكفى ، وصل على وأسلمني إلى عمر بن عبد العزيز يدلين في حفرتي ، وأخرج أنت إلى الناس ، وأبس لهم جهنم ، واقعد على النبر ، وادع الناس إلى بيتك ، فإن مال بوجهه عنك كذا ، قل له بالسيف كذا ، وتكر للصدوق والقريب ، واسمح للبيد ، وأوصيك بالحججاج خيرا ، فإنه هو الذي وطأ لكم للنار ، وكفاكم تضم تلك الجرائم .

قال : فلما توفي عبد الله ، ومات من يومه ذلك ، خرج الوليد إلى الناس ، وقد طى للنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : نعمة ما ألقها ، ومصيبة ما أعظمها ، وإننا لله وإننا إليه راجعون . نقل الخلافة ، وقد الحظية ، ثم دعا الناس إلى البيعة ، فلم يختلف عليه أحد ، ثم كان أول ما ظهر من أمره ، وتبين من حكمه ، أن أمر يهدم كل دار ومنزل ، من دار عبد الله إلى قبره ، فهدمت من ساعتها ، وسويت بالأرض ، ثلاث مئرج بسرير عبد الله بينا وشمالا ، وليكون التبرؤ به إلى حفرته تلقاء منزله ، ثم كتب بيعة إلى الأقاليم والأمصار ، وإلى الحججاج بال عراق فاجع له الناس ولم يختلف عليه أحد . فدخل عليه سليمان بن عبد الله . فقال له : بأمر المؤمنين ، أعزل الحججاج بن يوسف عن الراقين فإن الذي أقصد الله به أكثر مما أصلح . فقال له الوليد : إن عبد الله قد أوصاني به خيرا . فقال سليمان : أعزل الحججاج والاتقام منه من طاعة الله ، وتركه من معصية الله .

(١) هلهمنا : ارفعهما وأنهضهما ، لأن الزلا الشور والسقوط .
(٢) الوكساء : الخسيسة .

قال الوليد : سئى فى هذا الأمر ، وترون إن شاء الله : ثم كتب الحجاج إلى الوليد : أما بعد ، فإن الله تعالى استبلك يا أمير المؤمنين فى حداثة سنك بما لا أعلمه استقبل به خليفة قبلك من الحكيم فى البلاد ، وللك لبياد ، والنصر على الأعداء ، فليكن بالإسلام ، قوتهم أوده ، وشرائع وحدوده ، ودع عنك عبة الناس وبضهم وسخطهم ، فإنه قل ما يؤذى الناس من خير أو شر ، إلا أفتوه فى ثلاثة أيام ، والسلام .

تولية موسى بن نصير البصرة

قال : وحدثننا يزيد بن سعيد مولى مسلم ، أن عبد الملك بن مروان للأراد أن يوئى أخاه جسر بن مروان على العراق ، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر ، وبشر معه يهود الجنود ، وكان يومئذ حديث السن : إني قد وليت أخاك جسر البصرة ، فأشخص معه موسى بن نصير ، وزيراً ومغيراً ، وقد بشت إليك بديوان العراق ، فادفعه إلى موسى ، وأعلمه أنه فأخوذ بكل خلل وتقصير ، فخصص جسر من مصر إلى العراق ، ومعه موسى بن نصير ، حتى نزل البصرة ؛ فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه ، ويخلى عن جميع العمل ، فلبث موسى مع جسر مالم يث ، ثم إن رجلاً من أهل العراق دخل على جسر بن مروان فقال له : هل لك أن أسقيك شرباً لا تشيب معه أبداً ، بعد أن أشرط عليك شروطاً ؟ قال جسر : وما هي ؟ قال : لا تشرب ولا تركب ، ولا تجامع امرأة فى أربعين ليلة ، ولا تدخل حماماً ، قبل ذلك جسر وأجابته ، وشرب ما أسقاه ، واحتجب عن قريب الناس وبسبهم ، وخلا مع جواريه وخدمته ، فكان كذلك حتى أتت ولاية السكوفة وقد ضمت إليه مع البصرة ، فأقام من ذلك ما لم يحمل فرجه ، ولا السرور به ، فدعا بركاب ليركبها ، فأثام الرجل ، فأنشده لا يخرج ولا يركب ، وأن لا يخرج بركة من مكانه ، فلم يلتفت جسر إلى كلامه ، ولم يقبل ما أمر به ، فلما رأى الرجل عزمه قال له : فأشهد لى على نفسك بأنك قد عصيتنى فعلى جسر ذلك ، وأشهد أنه قد أبرأه ، فركب وهو يريد السكوفة ، فلم يسر إلا أميالاً ، حتى وضع يده على لحيته ، فإذا هو فى كفله قد سقطت من وجهه ، فلما رأى ذلك انصرف إلى البصرة ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى هلك ؛ فلما بلغ عبد الملك موته ، وجه الحجاج بن يوسف واليا عليها . فقال موسى بن نصير : ما فاتك فلا يغوتك ، وكان عبد الملك قد أراد له الأمر عتب عليه منه . فسكتب خالد بن أبان ، من الشام إلى موسى ابن نصير : إنك معزول ، وقد وجه

إليك الحاجب بن يوسف ، وقد أمر فيك بأفظ أم ، فالنجة ، والوحى الوحى^(١) ، فلما أن تلقى بالفرس فأمن وإما أن تلقى بيد العزيز بن مروان مستجيها به ، ولا تمكن ملون هيف من نفسك فيحك فيك . فلما أنه الكتاب : ركب التجاب وعلق بالشام ، وبها يومئذ عبد العزيز بن مروان قد وفد بأموال مصر . فكتب الحاجب من العراق : يا أمير المؤمنين ، إنه لا قدر لنا لثقله موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق ، فابت به إلى .

دخول موسى بن نصير على عبد الملك بن مروان

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن سالم حدثهم عن أبيه ، أنه حضر يومئذ هان موسى ، ودخله على عبد الملك . قال : وكانت موسى يد عطيعة عند عبد العزيز بن مروان يطولذكها قال سالم ، قال لي موسى : لما قدمت الشام فليت بها عبد العزيز ، وكان ذلك من صنع الله ، فأدخلني على عبد الملك ، فلما رأى عبد الملك قلت : موسى . قال : ما زال يعرض عليك علينا ؟ قال : قلت لم يا أمير المؤمنين ؟ قال : لم أرك على واقتطاعك على . قال : قلت ما كنت يا أمير المؤمنين ، وما أوتيت نصحا واجتهادا وإصلاحا ، قال : أقسم لتؤدبن دينك حسين مرة . قال : قلت لم يا أمير المؤمنين ؟ قال : لما تركني آتيا حتى قال : ثم لتؤدبنا مرة ، فقضيت لأحكم ، فأغار على عبد العزيز أن قل نعم . قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم خرجت فأهاني عبد العزيز بحسين أبا ، وأدبت حسين أبا في ثلاثة أشهر نجها على .

تولية موسى بن نصير على إفريقية

قال : وذكروا أن عبد العزيز لما رجع إلى مصر ، سار موسى معه . فكان من أشرف الناس عندهم ، فأقام بها ما أقام حتى قدم حسان بن النعمان من إفريقية يريد الشام إلى عبد الملك وقد فتح له بها قصرا ، وقتل الكعنة ، فأجزاه عبد الملك وزاده بركة ، وردته إليها ، أى إلى إفريقية وإباليا ، فأقبل حتى نز مصر ، وبث معه بيتا من هناك ، فأخذوا أعطياتهم منه ، ثم ساروا حتى نزلوا فأتى الجاهل . قال : فبلغ ذلك عبد العزيز وأبى حسان بن النعمان يطلب بركة من عند عبد الملك ، وأنه قد ولاه إباليا ، فبث إليه فقال له : أولاد أمير المؤمنين بركة ؟ قال : نعم . فقال له عبد العزيز . لا مصرى ، وكان عليها مولى لبى العزيز . فقال حسان : ما أنا فاعل .

(١) الوحى الوحى : النجاة : وقد قالها مروان بن الحكم لأبيه وعشيرته حين خلع أهل المدينة معاوية بن أبي سفيان وأخرجوا الأمويين منها .

فتشبه عبد العزيز وقال له : انت يهتك عليا إن كنت صادقا . قال : فأني به حسان ، فلما أقرأه عبدالمزير وجدها فيه ، فالتفت إلى حسان قال : ما أنت بتاركها ؟ قال : والله أنزل عما ولائيه أمير المؤمنين . قال : فاقصد في بيتك ، فسيولتي هذا الأمر من هو خير منك وأولى به منك ، في تجربته وسياسته ، ورضى الله أمير المؤمنين عنك . ثم أخذ عبد المزير عهده ومزقه ، ودعا عيسى بن نصير ففقد له على أفرقية يوم الخميس في صفر سنة تسع وسبعين ، فجهز موسى ابن نصير ، وحمل الأموال إلى ذات^(١) الجحاجم ، وبها الجيوش ينتظرون واليهم تقدم عليهم موسى بن نصير ، فلما صار على الجيوش الأول أتى عصور حتى وقع على صدره ، فأخذه موسى ، فدعا بسكين ، فذبحه موسى ، ولطم بجمعه صدره من فوق الثياب ، ونسف ريشه وطرحه على صدره وعلى عقه ، ثم قال : التصورية الكعبة ، والظفر إن شاء الله.

خطبة موسى بن نصير رحمه الله

قال : وذكروا أن موسى لما قسم ذات الجحاجم ، وقد توافت الجيوش بها ، جمع الناس قدام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين أسلمه الله رأى رأيا في حستان بن النعمان ، فولاه قتركم ، ووجهه أميراً عليكم ، وإنما الرجل في الناس بما أظهر ، والرأي فيما أقبل ، وليس فيما أدير ، فلما قدم حسان بن النعمان على عبد المزير أكرمه الله كافر التهمة ، وضيغ الشكر ، وتلاخ الأمر أهله ، فخير الله ما به ، وإنما الأمير أسلمه الله صنو أمير المؤمنين وشريكه ، ومن لا ينهني عزمه ورأيه ، وقد عزل حسان عنكم ، وولاني مكانه عليكم ، ولم يأل أن أجهد نفسه في الاختبار لكم ، وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى مني حسنة ، فليحمد الله ، وليحس على مثليها ، ومن رأى مني سيئة فليتركها ، فإني أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بمطايكم وتضيئها ثلاثاً ، فغفوها هنيئاً مريئاً ، ومن كانت له حاجة فليرفها إلينا ، وله عندنا قضاءها على ماعز وهان ، مع للرواسة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دخول موسى بن نصير أفرقية

قال : وذكروا أن موسى لما سار متوجهاً إلى القرب ، بقية صفر ، ثم ربيع وريبع ، ودخل في جمادى الأولى ، يوم الاثنين ، نجس خلون منه ، سنة تسع وسبعين ، فأخذ

(١) ذات الجحاجم ويقال لها دير الجحاجم موضع قرب الكوفة .

سفيان بن مالك النهري وأبا صالح النهري ، فترم كل واحد منهما عشرة آلاف دينار ، ووجههما إلى عبد الملك في الحديد . قال : وكان قدوم موسى أفريقية وما حولها غرقا ، بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في الميدان ، قرب العدو منهم ، وإن عامة بيوتها الخوص^(١) وأفضلها القباب ، وبناء للسجد يوشك شيه بالحظير ، غير أنه قد سقف بيض الخشب ، وقد كان ابن النعمان بنى القبلة وما يليها بالمدن ، بليانا ضميما ، وكانت جبالها كلها محاربا بالترام ، وعامة السهل .

خطبة موسى بأفريقية

قال : وذكروا أن موسى لما قدم أفريقية ، ونظر إلى جبالها ، وإلى ما حولها ، جمع الناس ثم صد للنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنما كان قبلي على أفريقية أحد رجلين : مسلم حبة الناقية ، ويرضى بالمؤمن من البطية ، ويكره أن يكلم^(٢) ، ويجب أن يسلم ، أو رجل ضيف السقيدة ، قليل للفرقة ، راض بالمؤمن ؛ وليس أخو الحرب إلا من اكتمل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض القمر ، وصمت به همته ، ولم يرض بالمؤمن من الفهم لينجو ، ويسلم دون أن يكلم أو يكلم ، ويبلغ الشس عندها في غير خرق يريده ، ولا علف يقاسيه ، متوكلا في حزمه ، جلا في عزمه ، مستزيدا في علمه ، مستشيرا لأهل الرأي في أحكام رأيه ، متحكما بتجاربه ، ليس بالمتجانب إقصاما ، ولا بالمتخاذل إجماعا ، إن ظفر لم يزد الظفر إلا خنذاً ، وإن نكسب أظهر جلالة وصبرا ، راجيا من الله حسن الناقية ، فذكر بها المؤمنين ، ورجاهم بإياها تقول الله تعالى (إن الناقية للمتقين) أي الحذرين . وبعد : فإن كل من كان قبلي كان يسمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدوا منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ، وإيم الله لأبريم^(٣) هذه القلاع والجبال المتشتم^(٤) يضع الله أرضها ، ويدل أمتها ، ويضعها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين .

(١) الخوص جمع خص : وهو البيت من البوس ونحوه .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) أريم القلاع : أتركها وأغادرها .

(٤) يضع الله أرضها : أي يسقطه وينزله إلى .

فتح زعوان

قال : وذكروا أنه كان يزعوان قوم من البربر ، يقال لهم عبوده ، عليهم عظيم من عظمائهم يقال له : ورقطان ، فكانوا يخبرون على سرح المسلمين ، ويرصدون رغبتهم ، والى بين زعوان وبين القيروان يوم إلى الليل ، فوجه إليهم موسى خمس مئة فارس ، عليهم رجل من خشين يقال له : عبد الملك فقاتلهم فهزمهم الله ، وقتل صاحبهم ورقطان ، وقتلها الله على يد موسى ، فبلغ سبعم يومئذ عشرة آلاف رأس ، وأنه كان أول من دخل القيروان في ولاية موسى ، ثم وجه ابنه له يقال له عبد الرحمن بن موسى ، إلى بعض نواحيها ، فأناه بمئة ألف رأس ثم وجه ابنه له يقال له مروان ، فأناه بثلثها فكان الخمس يومئذ ستين ألف رأس .

قدم كتاب الفتح على عبد العزيز بن مروان

قال : وذكروا أن موسى بن نصير كتب إلى عبد العزيز بن مروان بمصر يخبره بالذي فتح الله عليه ، وأمكن له ، ويطمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً ، وكان ذلك وجهاً من الكتاب . فلما قرأ عبد العزيز الكتاب ، دعا الكتاب وقال له : ويحك ! اقرأ هذا الكتاب . فلما قرأه قال هذا وهم من الكتاب فرجسه . فكتب إليه عبد العزيز : إنه بلغني كتابك ، وقد ذكر فيه أنه قد بلغ خمس ما أفاء الله عليك ثلاثين ألف رأس ، فاستكرت ذلك ، وغنيت أن ذلك وهم من الكتاب ، فأكتب إلى جدك على حقيقة ، وأحذر الوهم . فلما قدم الكتاب على موسى كتب إليه : بلغني أن الأمير أبقاه الله ، يذكر أنه استكثر إيجاده من المدة ، التي أفاء الله على ، وأنه شن أن ذلك وهم من الكتاب ، قد كان ذلك وجهاً على ما لفته الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألفاً حقاً ثابتاً بلا وهم . قال : فلما أتى الكتاب إلى عبد العزيز وقرأه ملأه سروراً .

إنكار عبد الملك تولية موسى بن نصير

قال : وذكروا أن عبد العزيز لما ولى موسى وعزل حسان كما تقدم ، وفتح الله لموسى بلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فكره ذلك وأنكره ، ثم كره رد رأى عبد العزيز ، ثم همّ بمنزل موسى لسوء رأيه فيه ، ثم رأى أن لا يرد ملصق عبد العزيز . فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز : أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك في عزل حسان ، وتوليته موسى مكانه ، وعلم الأمر الذي له - عزله ، وقد كنت أنتظر منك مثلاً في موسى ، وقد

أمسى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيت ، وولايتك من ولّيت ، فاستوص بحسان خبرا
فإنه يمون الطائر ، والسلام .

جوابه

فلما قدم الكتاب على عبد العزيز كتب إلى أخيه عبد الملك : أما بعد ، قد بلغتني كتاب أمير
للمؤمنين في عزل حسان ، وتوليقي موسى بن نصير ، وقد كان كلها متى منتظرا في موسى ،
ويطعن أنه قد أمضى لي من رأيي فيما أمضيت ، وولايتي من ولّيت ، وقد علمت أن أمير المؤمنين
يتعامل بحسان الذي فتح الله على يديه ، ولم أعد مع نظري لأمر المؤمنين ، بأن عزلت حسان ،
ووليت موسى في عين طائره ، وحسن أمره : فأما قول أمير المؤمنين : قد كنت أنتظرها منك
في موسى ، فظمري قد كنت لها فيه مرصدا ، ولأمر المؤمنين أن يسبق بها إليه منتظرا ، حتى
حضر أمر جهلت فيه نفسي لأمر المؤمنين . ونفسي الرأي والنصيحة ، والسلام .

كتاب عبد العزيز بالفتح إلى عبد الملك

قال : وذكروا أن عبد العزيز كتب إلى عبد الملك ، أما بعد : فإني كنت وأنت يا أمير
للمؤمنين في موسى وحسان كالترهاتين ، أرملا فريسيهما إلى غايتهما فأنا بما ، وقد مدت الناية
لأحدهما^(١) ، ولك عنده مزيد إن شاء الله^(٢) ، وقد جاءني يا أمير المؤمنين كتاب من موسى ،
وقد وجهته إليك لتقرأ ، وتحمد الله عليه ، والسلام .

جوابه

فكتب إليه عبد الملك : أما بعد ، قد بلغ أمير المؤمنين كتابك ، وفهم لك الذي مثلته لي
حسان وموسى ، ويقول لك عند أحدهما مزيد ، وكل قد عرف الله على يده خيرا ونصرا ، وقد
أجريت وحده^(٣) ، وكل مجرى بالخلاء مسرور^(٤) ، والسلام .

(١) الناية : هي النهاية أي للكان الذي ينتهي عنده السباق .

(٢) أي أناسيد فائته ثانية ومعنى ذلك أنه يصل نصره وكلاوسل إلى غايتهما إلى غيرها .

(٣) أجريت وحده : أي أرسلت موسى فوصل إلى غايته ولم أرسل أنا حسان حتى يظهر
إن كان يسبق موسى أولا يسبقه .

(٤) كل مجرى بالخلاء مسرور ؟ أي كل شخص يجري فرسه وحده بدون فرس آخر
معه يسر من جريه لأنه لا منافسة بينه وبين غيره ، يريد عبد الملك أنه لا يظهر فضل موسى إلا
إذا ظهر بهز حسان عن إدراك ما أدركه موسى .

ثم وجه عبد الملك رجلا إلى موسى ليتبش ذلك منه على ما ذكر موسى ، وعلى ما كتب به . فلما قدم الرسول على موسى : دفع إليه ما ذكر ، وزاده ألفا للوط .

فتح هوار ، وزنانة ، وكتامة

قال : وذكروا أن موسى أرسل عياش بن أخيل إلى هوار وزنانة في ألف فارس ، فأغار عليهم وقتلهم وسبهم ، فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس ، وكان عليهم رجل منهم يقال له كمامون ، فبعث به موسى إلى عبد العزيز في وجوه الأسرى ، فقتله عند البركة التي عند قرية عقبة ، فسميت بركة كمامون . فلما أوجع عياش فيهم دعوا إلى الصلح ، فقدم على موسى بوجوههم ، فصالحهم وأخرجهم ، وكانت كتامة قد قدمت على موسى فصالحته ، وولى عليهم رجلا منهم ، وأخذ منهم رهونهم ، وكتب أحدهم إلى موسى ، إنما نحن عبدانك ، قتل أحدا صاحبنا ، وأنا خير لك منه ، فلم يشكك موسى أن ذلك إنما كان من غيلة من كتامة ، وقد كانت رهون كتامة استأذنوا موسى قبل ذلك يوم ليتصيدوا ، فأذن لهم . فلما أتاه ما أتاه تحقق ظنه فيهم ، وأتهم إنما هربوا ، فوجه الخيول في طلبهم ، فأصيبهم ، فأراد صليهم . فقالوا : لا تصبل أيها الأمير بقتلنا حتى يدين أمرنا ، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً ، ونحن في ذلك وأنت على اليان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل ، فأقرهم حديداً ، وأخرجهم معه إلى كتامة ، وخرج هو بنفسه . فلما بلغهم خروج موسى ، تلقاه وجوه كتامة مشذرين ، فقبل منهم ، وبقيت له برادتهم ، واستعيا رهونهم .

فتح صنهاجة

قال : وذكروا أن الجواسيس أتوا موسى ، فقالوا له : إن صنهاجة بشرية منهم وغلبة ، وإن إيلهم تلتج ، ولا يستطيعون برأحا ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان ، وألحقهم من اللطوطة ، ومن قبائل البربر ، وخلف عياشا على أقالم للسليين وعيالم بطنية على ألقى فارس ، وعلى مقعمة موسى عياش بن عقبة ، وعلى ميخته للثيرة بن أبي ردة ، وعلى ميسرته زكرعة بن أبي مدرك ، فصار موسى حتى غشى صنهاجة ، ومن كان معها من قبائل البربر ، وهم لا يشمرون ، فقتلهم قتل الناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مئة ألف رأس ، ومن الإبل والبقر والغنم والحيل والحمر والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلا إلى القيروان ، وهذا كله في سنة ثمانين فلما سمع الأجناد بما فتح الله على موسى وما أصاب معه للسليون من النائم وغيا في الخروج إلى الترب ، غرغ نحو ما كان معه ، فالتقى للثيرة وصنهاجة ، فقتلوا قتالا شديدا ، ثم إن الله منعه أكتافهم وهزمهم ، فبلغ سبيهم ستين ألف رأس ثم انصرف قافلا .

فتح سجوما

قال : وذكروا أنه لما كان سنة ثلاث وثمانين ، قدم على موسى نجيعة عبد الله بن موسى في طالبة أهل مصر . فلما قدم عليه ، أمر الناس بالجهاد والتأهب ، ثم غزا يرد سجوما وما حولها ، واستخلف عبد الله بن موسى على القيروان ، ثم خرج وهو في عشرة آلاف من المسلمين ، وعلى مقدمته عياض بن عقبة ، وعلى ميمنته زرعة بن أبي سدوك ، وعلى يسارته النخيلة بن أبي بردة القرشي ، وعلى ساقة نجيعة بن مقسم ، فأعطى اللواء ابنه مروان ، فصار حتى إذا كان بمكان يقال له سجن اللوك ، خلف به الأختال ، ونجرد في الحيلولة ، وخلف على الأختال عمرو بن أوس في ألف ، وسار بمن معه حتى انتهى إلى نهر يقال له ملوية ، فوجده خاملا ، فكره طول اللقار عليه ، خوفا من قتاد الزاد ، وأن يبلغ العدو هزجه ومكانه ، فأحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع ، وكره أن يجوز عليها . فلما أجز واتهى إليهم : وجدهم قد أخذوا به وأحبوا ، وأعدوا للحرب ، فالتقوا قتالا شديدا في جبل منيع ، لا يوصل إليهم إلا من أبواب معاوية ، فالتقوا يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت إلى العصر ، فخرج إليهم رجل من ملوكهم ، فوقف والناس مصطفون ، فنادى بالبارزة ، فلم يجبه أحد ، فالتفت موسى إلى مروان ابنه ، فقال له : اخرج إلي أبي بنى ، فخرج إليه مروان ، ودفع اللواء إلى أخيه عبد العزيز بن موسى . فلما رآه البربري ضحك ، ثم قال له : أرجع ، فلما أكره أن أعصم منك أبلك . وكان حديث السن . قال : فصل عليه مروان فردمه حتى ألجأه إلى جبه ، ثم إنه زرق مروان بالزراق ، فلقاه مروان يده وأخذه ، ثم حمل مروان عليه وزرقه به زرقة وقت في جنبه ، ثم لحقت حتى وصلت إلى جوف برذونه ، فمال فوقع به البرذون ثم التقى الناس عليه فالتقوا قتالا شديدا أناسا ما كان قبله ، ثم إن الله هزمهم ، وفتح للمسلمين عليهم ، وقتل ملكهم كسيلة بن لزم ، وبلغ سيهم مئتي ألف رأس ، فهم بنات كسيلة ، وبنات ملوكهم ، وما لا يحصى من النساء السلمات ، اللاتي ليس لهن ثمن ولا قيمة . قال فلما وقعت بنات الملوك بين يدي موسى ، قال : على عمروان ابني . قال : فأني به قال له : أي بنى اختر . قال : فاختار ابنة كسيلة فاستمرها^(١) ، فهي أم عبد الملك بن مروان هذا . قال : قاتل يومئذ زرعة بن أبي مدرك قتالا شديدا ألى فيه حتى اندقت ساقة قال : فأتى موسى أن لا يحمل إلا على رقاب الرجال ، حتى يدخل القيروان ، وأن يحميه خمسون رجلا ، كل يوم يتابعون بينهم ، ثم انصرف موسى وقد دانت له البلاد كلها ، وجعل

(١) استمرها : اتخذها سرية أي ملوكة تزوج بها فولدت له .

يكتب إلى عبد العزيز يفتح بعد فتح ، وملأت سباه الأجناد ، وتغابى الناس إليه ، ورغبوا فيها هناك لديه ، فكان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يقول : إذا جاءه فرح موسى : تهنئتك القلبة أبا الأصبح . ثم يقول : عسى أن تسكروها شيئاً ويعمل الله فيه خيراً كثيراً . قال : وبث موسى إلى عياض وعثمان وإلى عبيدة بن عتبة ، قال : اغتصوا ، وضربوا أسياضكم في قلة أسيك عتبة . قال : قتل منهم عياض مئة رجل صبرا من خيارهم وكبارهم ، فأرسل إليه موسى أن أمسك . فقال : أما والله لو تركني ما أمسكت منهم ، ومنهم عين تطرف .

قدوم الفتح على عبد الملك بن مروان

قال : وذكروا أن موسى لما قدم ، وجه بذلك الفتح إلى عبد العزيز بن مروان ، مع علي ابن رباح ، فسار حتى قدم على عبد العزيز بمصر ، فأجازه ووصله ، ووجهه إلى عبد الملك بن مروان أخيه ، فلما قدم عليه أجازه أيضاً ، وزاد في عطائه عشرين^(١) . فلما انصرف ، قال له عبد العزيز : كم زادك أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين . قال : لولا كره أن أفعل مثل ما ففعل لزدتكم مثلاً ، ولكن تمد لها زيادة عشرة^(٢) . وكتب عبد الملك إلى موسى يله أنه قد فرض بجميع ولده في مئة^(٣) . وبلغ به هو إلى الثلاثين ، وفرض في مواليه ، وأهل الجزاء والبلاد ممن معه خمس مئة رجل ثلاثين ثلاثين ، وكتب إليه إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمئة ألف مائة وأربع مائة لك ، فدخلها من قبلك من الأمان . قال : فلما قدم على موسى كتاب عبد الملك بن مروان ، يأمره بأخذ لثة الألف بما قبله . قال : فإني أشهدكم أنه رد على المسلمين ، ومعه مئة لهم ، وفي الرقاب^(٤) وكان موسى إذا آفاه الله عليه شيئاً ، اشترى من غن منهم أنه يقبل الإسلام ويتجنب^(٥) فيعرض عليه الإسلام ، فإن رضي قبله من بعد أن يحصى عقله ، ويجرب فطنة فهمه ، فإن وجدته ماهراً أمضى عقده وتولاه ، وإن لم يجد فيه مهارة رده في الحبس والسهام . قال : وكتب موسى

(١) أي عشرين ديناراً .

(٢) أي أن عبد العزيز زاده عشرة فقط فأصبحت زيادته ثلاثين درهماً .

(٣) أي أعطى لكل ولد من أولاده مئة دينار من الفداء وهو المال الذي آفاه الله عليهم من أموال الكفار المهارين .

(٤) أي في عتق الرقاب ، وهم العبيد للموكون يأخذون من هذه الآلاف الشرة ليعطوا ساداتهم حتى يستوفى ، أو يشترون بها .

(٥) أي يصير نجيباً نافعاً للمسلمين .

إلى عبد العزيز يلاء زرة بن أبي مدرك وما أوصله ، وأنه لولا ذلك أوفده إلى أمير المؤمنين ،
فرضه عبد العزيز في مئة ، وفرض ثلاثين رجلا من قومه ، وانصرف موسى قائلا ، وذلك
في سنة أربع وثمانين .

غزوة موسى في البحر

قال : وذكروا أن موسى أقام بالقيروان بعد قتله شهر رمضان وشوال ، فأمر بدار صناعة
جنوس^(١) وجبر البحر إليها^(٢) ، فسقط عليه الناس ذلك ، وقالوا له : هذا أمر لا نطيقه ، فقام
إلى موسى رجل من مسالة البربر ، ممن حسن إسلامه ، وقال له : أيها الأمير ، قد مر على مئة
وعشرون سنة ، وإن أبي حدثني أن صاحب قرطاجنة لما أراد بناء قناتها ، أتاه الناس يظلمون
عليه ذلك فقام إليه رجل فقال له : أيها الملك : إنك إن وضعت يدك بملت منها حاجتك ، فإن للوكة
لا يسجزها شيء بقوتها وقدرتها ، فضع يدك أيها الأمير ، فإن الله تعالى سيعينك على ما نوت ،
وتأجرك فيما توليت . فسر بذلك موسى ، وأعياه قول هذا الشيخ . فوضع يده ، فبنى دار صناعة
جنوس ، وجبر البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلا ، حتى أقامه دار الصناعة ، فصارت مشق
للمراكب إذا هبت الأنواء والأرياح . ثم أمر بصناعة مئة مركب ، فأقام بذلك بقية سنة أربع
وثمانين ، وقدم عطاء بن أبي نافع المذلي في مراكب أهل مصر ، وكان قد بعثه عبد العزيز
يريد سر دانية ، فأرسل يسوسة ، فأخرج إليه موسى الأمواقي ، وكتب إليه أن ركوب البحر قد
فات في هذا الوقت وفي هذا العام . فأقم لا تنزل بنفسك . فإنك في تضرين الآخر ، فأقم بكانك
حتى يطيب ركوب البحر قال : فلم يرفع عطاء لكتاب موسى رأسا^(٣) ، وبعثن مراكبه ، ثم
رفع فسار حتى أتى جزيرة يقال لها سلسة ، وانفتحها ، وأصاب فيها مغنم كثيرة ، وأشياء عظيمة
من الذهب والفضة والجواهر ، ثم انصرف قافلا ، فأصابته ريح عاصف ، فغرق عطاؤه وأصحابه ،
وأصيب الناس ، ووقفوا بسواحل أفريقية . فلما بلغ ذلك موسى ، وجه يزيد بن مسروق في خيل
إلى سواحل البحر ، يفتش على ما يلقي البحر من سفن عطاء وأصحابه فأبوا تأبوا نصوتا قال :
لأنه كان أصل خناء يزيد بن مسروق . قال : ولقد لقيت هيجاً متوكفاً على قسبة ، فذهبت

(١) هي ترسانة بناء السفن وميناء تاوي إليه .

(٢) جزاء البحر : حفر قناة واسعة توصل مياه البحر إليها وذلك تأمينا للسفن وحرصا
على عدم تأثرها بمواصف البحر وأمواجه للتلاطمة .

(٣) أي لم يتم به ولم يعمل بضمومه ، وتلف ما يريد .

لأنهم تآزرعني ، فأخذت القصة من يده فصرخت بها عنة فانكسرت ، فتأثر منها القوم والجوهر والديناير، ثم إن موسى أمر تلك المراكب ومن نجوا من التوتية ، فأدخلهم دار الصناعة جونس ، ثم لما كانت سنة خمس وعشرين أمر الناس بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه ، فرغب الناس وتساخوا ، ثم حين قلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب حتى إذا ركبوا في الفلك ، ولم يبق إلا أن يرفع هو ، دعا برمح ففقد لهب الله بن موسى بن نصير ، وولاه عليهم وأمره ، ثم أمره أن يرفع من ساعته ، ولما أراد موسى بما أشار من سيره ، أن يركب أهل الجبل والتكاية والشرف ، فسميت غزوة الأشراف ، ثم سار عبد الله بن موسى في مراكبه ، وكانت تلك أول غزوة غزيت في بحر أفريقية . قاله : فأصاب في غزوته تلك صقلية ، فافتتح مدينة فيها ، فأصاب ما لا يدرى ، فبلغ سهم الرجل مئة دينار ذهباً ، وكان للسلمون مائتين الألف إلى الثلص مئة ، ثم انصرف قافلاً سالماً . فأتت موسى وفاة عبد العزيز مروان ، واستخلف الوليد بن عبد الملك سنة ست وعشرين ، فبعث إليه بالبيعة ، وبعث عبد الله بن موسى ، وما ألاء الله على يده ، ثم إن موسى بعث زهرة بن أبي مدرك إلى قبائل من البربر ، فلم يلق حرباً منهم ورغبوا في الصلح ، فوجه رهوسهم إلى موسى ، فأعطاهم الأمان ، وقبض رهونهم ، وعقد لياش ابن أخيل على مراكب أهل أفريقية ، ففتحا في البحر ، وأصاب مدينة يقال لها سرقوسة ، ثم قفل في سنة ست وعشرين ، ثم إن عبد الله بن مرة قام بطالمة أهل مصر على موسى في سنة تسع وعشرين ففقد له موسى على بحر أفريقية ، فأصاب سردانية ، والفتح مداتها ، فبلغ سببها ثلاثة آلاف رأس ، سوى الذهب والفضة والحلث وغيره .

غزوة السوس الأقصى

قال : وذكروا أن موسى وجه مروان ابنه إلى السوس الأقصى ، وملك السوس يومئذ مزدانة الأسواري ، فسار في خمسة آلاف من أهل الديوان ^(١) فلما اجتمعوا ، ورأى مروان أن الناس قد تسبخوا إلى قتال العدو ، وأن في يده الجني القناة ^(٢) ، وفي يده اليسرى الررس ، وإنه ليشير بيده إلى الناس أن كما أتم . فلما التقى مروان ومزدانة ، اقتتل الناس إذ ذاك قتالاً خديداً ، ثم انهزم مزدانة ومنح الله مروان أكتافهم ، قتلوا قتلة المناء ، فكانت تلك الغزوة

(١) للراد بأهل الديوان : الجنود للتيديون في ديوان الدولة أنهم جنود وهذا عدا للتطوعين من السليدين .

(٢) القناة : الرمح .

استكمال أهل السوس^(١) على أيدي مروان ، فبلغ السبى أربعين ألفاً ، وعقد موسى على بحر
أفريقية حتى نزل بمبوعة فالتصها .

قدوم الفتوحات على الوليد بن عبد الملك

قال : وذكروا أن خادماً للوليد بن عبد الملك بن مروان أخبرهم قال : إني قهرت من
الوليد بن عبد الملك ، وبين يديه طفت من ذهب ، وهو يتوضأ منه ، إذ أتى رسول من قبل
قتيبة بن مسلم من خراسان بفتح من فتوحاتها ، فأعلمته قال : خذ الكتاب منه ، فأخذه قراءه
فما أتى على آخره ، حتى أتى رسول آخر من قبل موسى بن نصير ، بفتح السوس من قبل مروان
ابن موسى ، فأعلمته . قال : هاته ، قراءه ، فحمد الله ، وخر ساجداً لله حامداً ثم التفت إلى
قال : أمسك الباب لا يدخل أحد . قال : وكان عنده ابن له يحبو بين يديه . فلما خر الوليد
ساجداً له ما كرا ، جاء الصبي إلى الطشت فاخطرب فيه وصاح ، لما التفت إليه . قال : وصرت
لا أستطيع أن أخفيه لما أشرق به من إسالك الباب ، وأطال السجود حتى خفي صوت الصبي ، ثم
رفع رأسه فصاح بي ، فدخلت وأخذت الصبي ، وإنه لما به روح .

فتح قلعة أرساف

قال : ثم إن صاحب قلعة أرساف ، أغل على بعض سواحل أفريقية ، فقال منهم ، وبلغ
موسى خبره ، فخرج إليه بنفسه فلم يدركه ، فاعتد ذلك على موسى . قال : قتلى الله إن لم أقتله
وأنا مقيم هنا . قال : فأقام موسى ما أقام ، ثم إنه دعا رجلاً من أصحابه فقال له : إني موجهك
في أمر وليس عليك فيه بأس ولك عندى فيه حسن الثواب ، خذ هذين الأذنين فسر فيهما
بمن مملك ، حتى تأتى موضع كذا وكذا ، في مكان كذا ، فإني تجد كنيسة ، وتجد الروم قد
جاءوها ليعيدهم ، فإذا كان الليل فادن من ساحلها ، وضع إحدى هذين الأذنين^(٢) بما فيها ثم
انصرف إلى بالأذن الأخرى ، وبث منه موسى قبة من الخبز والوشى ، ومن طرائف أرض

(١) المراد بالسوس هذه بلد بالقرب تسمى السوس الأقصى ، وهى خير سوسة التى هى
بلد بالقرب أيضا وتقع بين الجزيرة والقيروان .

(٢) ثنية أذن ، العروة التى يعسك منها الفرج ونحوه والمراد أنه بث مسخرجين أو نحوهما
لكل منهما أذن وفيهما الهدايا والكتب .

العرب حيثاً مليحاً ، وكتب كتاباً بلرومية جواباً لكتاب ، كأنه كان كتب به إلى موسى
يسأله الأمان ، على أن يدلّه على عورة الروم ، وكتاب فيه أمان من موسى مطبوع ، فسار حتى
اتهى إلى الموضع الذى وصف له موسى ، فترك الأذن بما فيها ، وانصرف راجعاً فى الأذن
الأخرى حتى قدم على موسى ، وأن الروم لما عثروا على أذن موسى استنكروها ، فارتفع أمرها
إلى بطريق تلك الناحية ، فأخذ ما فيها . فلما رأى ما فيها من الكتب والمديّة هاب ذلك ،
فبعث بها كما هى إلى الملك الأعظم . فلما أفضت إليه ، وقرأ الكتب تحقّق ذلك عنده ، فبعث
إلى أرساف رجلاً وملكه عليها ، وأمر أن يضرب عنق صاحبها الذى أغار على سواحل إفريقية ،
فعل ، فقتله الله بحجة موسى .

فتح الأندلس

قال : وذكروا أن موسى وجه طارقاً مولاه إلى طنجة وما هناك ، فالتفت مدائن البربر
وقلاعها ، ثم كتب إلى موسى : إني قد أصبحت ستّ سدن ، فكتب إليه موسى . أنعمها سبما ،
ثم سر بها إلى شاطئ البحر ، واستمد لشعباً ، واطلب قبلك رجلاً يعرف شهور السريانيين ،
فإذا كان يوم أحد وعشرين من شهر أذار بالسرياني ، فاشحن على بركة الله ونصره فى ذلك
اليوم ، فإن لم يكن عندك من يعرف شهور السريان ، فشهور النجم ، فإنها موافقة لشهور
السريان ، وهو شهر يقال له بالأعجمية مارس ، فإذا كان يوم أحد وعشرين منه ، فاشحن
على بركة الله كما أمرتك إن شاء الله ، فإذا أجريت فسر حتى يقاتك جبل أحمر ، وتخرج منه
عين شرقية ، إلى جانبها صنم فيه تمثال ثور ، فاكسر ذلك التمثال ، وانظر فيمن ممك إلى رجل
طويل أحمر ، ببليه قبّيل^(١) ، ويده شلل ، فاعقده على مقدمتك ، ثم أقم مكانك حتى يشاك
إن شاء الله . فلما انتهى الكتاب إلى طارق كتب إلى موسى : إني منته إلى ما أمر الأمير ووصف ،
غير أنى لم أجد صفة الرجل الذى أمرتنى به إلا فى عسى ، فسار طارق فى ألف رجل وسبع مئة ،
وذلك فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين ، وقد كان للدرىق ملك الأندلس ، قد غزا عدواً يقال له
البشكنس ، واستخلف ملكاً من ملوكهم يقال له تدمير . فلما بلغ تدمير مكان طارق ، ومن معه
من المسلمين . كتب إلى الدرّيق : إنه قد وقع بأرضنا قوم لا تدرى أمن السماء نزلوا أم من الأرض
نبحوا . فلما بلغ الدرّيق ذلك أقبل راجعاً إلى طارق فى سبعين ألف عتّان ، ومعه السجل تحمّل

(١) القبل : له معان كثيرة وهو على العموم يدور على قرب سواد العين من يابضها فهو
هبة الحول فى العين .

الأموال والخرف ، وهو على سرير بين دابنين ، وعليه قبة مكاة طالوت والياقوت والبرجد ، ومعه الحبال ، ولا يشك في أسرهم ؛ فلما بلغ طارق دنوة منهم ، قام في أصعابه ، حمد الله ، ثم حضّ الناس على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، وبسط لهم في آلمهم . ثم قال : أيها الناس ، أين للشر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، طيس ثم والله إلا الصدق والصبر ، فهما لا يخلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضرّ معهما قلة ، ولا تنفع مع الحور والكسل والفشل والاختلاف والسبب كثرة . أيها الناس ، ما فعلت من شيء فاقموا مثله ، إن حملت فاحسوا ، وإن وقتت فقفوا ، ثم كونوا كهشة رجل واحد في القتال ، ألا وإن حامد إلى طائفتهم ، بحيث لا تنبيه حتى أخاطبه أو أقتل دنوة ، فإن قلت فلا تنهوا ولا تحزنوا ، ولا تنازعوا ففشلوا ، وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم ، فتبددوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدين ، ولا تمطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من الهانة والقلة ، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن فعلوا ، والله معكم ومعيدكم ، تبوءوا بالخسران اللين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين . وما أنا ذا حامل حق أغشاه ، فاحسوا بمحملتي ، فحمل وحملوا . فلما غشيهم اقتتلوا قتالا شديدا ، ثم إن الطاغية قتل ، واتهم جميع العدو ، فاحتز طارق رأس لدرى ، وبث به إلى موسى بن نصير ، وبث به موسى مع ابنه ، وجهزه معه رجلا من أهل أفرقية ، فقدم به على الوليد بن عبد الملك ، ففرض له في الشرف ، وأجاز كل من كان معه ، وردّه إلى أبيه موسى ، وأن للمسلمين قد أسابوا بما كان مع لدرى ما لا يدرى ما هو ولا ما قيمته . قال : وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأم قد تدعت علينا من كل ناحية ، فالقوت القوت ، فلما أتاه الكتاب نادى في الناس وعسكر ، وذلك في صفر سنة ثلاث وتسعين ، وكان أحب الخروج إليه يوم الخميس أول النهار ، فاستخلف عبد الله بن موسى على أفرقية وطينة والسوس ، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان ، بأمره بالسير ، فصار مروان بينه وبينه ، حتى أجاز إلى طارق ، قبل دخوله أبيه موسى ، وخرج موسى بن نصير والناس معه حتى أتى المهاز ، فأجاز بين زحف معه في جموعه ، وعلى مقدمته طارق مولاه فوجد الجميع قد شردت إليه من كل مكان ، فصار حتى افتتح قرطبة وما يليها ، من حصونها وقلعها ومداتها ، قتل الناس يومئذ غلوا لم يسمع بمثله^(١) ، ولم يدم من التلول يومئذ إلا أبو عبد الرحمن الجبلى . ثم إن موسى سار لا يرفع له شيء إلا هذه ، يفتح له اللذان بيننا وفملا ، حتى انتهى إلى مدينة

(١) التلول : هو أن يجتاز الحارب شيئا من التينة لقسه ولا يضمه مع باقي التنام ليقيم بين الحاربيين .

للؤلؤ ، وهي طليطة ، فوجد فيها بيتا يقال له بيت اللؤلؤ ، وجد فيه أربعة وعشرين تاجا ، تاج كل ملك ولي الأندلس ، كان كلا هؤلاء ملك جمل تاجه في ذلك البيت ، وكتب على التاج اسم صاحبه ، وابن كم هو ، ويوم مات ، ويوم ولي ، وجد في ذلك البيت أيضا مائة عليها اسم سليمان بن داود عليه السلام ، ومائة من جرح ، فهدم موسى إلى التيجان والآنية والولائد ، قطع عليها الأغصية ، وجعل عليها الأماناء ليس منها شيء يدري ما قيمته . فأما الذهب والفضة وللتاج ، فلم يكن يحسبه أحد .

اتهام الوليد موسى بالغش

قال : وذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما بلغه سير موسى بن نصير إلى الأندلس ووصفت له ، عثر أنه يريد أن يطلع ، ويقيم فيها ، ويبتاع بها ، وقيل ذلك له ، وأبطلت كتب موسى عليه ، لاهتفاله بها هناك من الصلوة ، وتوطئه لفتح البلاد . فأمر الوليد القاضي أن يدعو على موسى إذا قضى صلاته ، وأن موسى لما دخل طليطة ، بث على بن ربح يشتريها ، وأوفد معه وفدا ، فسار حتى قدم دمشق صلاة العصر ، فدخل للسجد فألقى القاضي يدعو على موسى . فقال : أيها الناس ، الله الله في موسى ، والسمعاء عليه ، والله ما نزع يدا من طاعة ، ولا فارق جماعة ، وإنه لفي طاعة أمير المؤمنين ، والديب عن حرمان المسلمين ، والجهاد للفرسين ، وإنى لأحدثكم عهدا به ، وما قدمت الآن إلا من عنده ، وإن عندي خبره ، وما ألام الله على يده لأمير المؤمنين ، وما أمدت به للمسلمين ، ما تقر به أعينكم ، ويسر به خليفتكم .

دخول وفد موسى على الوليد بن عبد الملك

قال : وذكروا أن الوليد لما بلغه خبر هذا للتكلم الوافد من عند موسى ، أرسل إليه ، فأدخل عليه ، ثم قال له : ما وراءك ؟ فقال : كل ما تحب يا أمير المؤمنين ، تركت موسى ابن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في سر من وجوه من معه ، بفتح من قنوصه ، فدفعت إليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الوليد . فلما أتى على آخره خر ساجدا ؛ فلما رفع رأسه أتاه فتح آخر ، غفر أيضا ساجدا ، ثم رفع رأسه ، فأتاه آخر بفتح آخر ، وخر ساجدا ، حتى ظننت أنه لا يرفع رأسه .

ذكر ما وجد موسى في البيت الذي وجد فيه للمائدة

مع صور العرب

قال : وذكروا أن هرم بن عياض جدهم عن رجل من أهل العلم ، أنه كان مع موسى بالأندلس حين فتح البيت الذي كانت فيه للمائدة ، التي ذكروا أنها كانت لسليمان بن داود عليه السلام . قال : كان بيتا عليه أربعة وعشرون قفلا ، كان كلما تولى ملك ، جبل عليه قفلا اقتداء منه بفعل من كان قبله ، حتى إذا كانت ولاية لدرىم القرطبي ، الذي انتصت الأندلس على يده وإلى ملكه قال : والله لا أموت بغير هذا البيت ، ولأفصحته حتى أعلم ما فيه ، فاجتمعت إليه النصرانية والأساقفة والشماسة ، وكل منهم معظّم له . فقالوا له : ما تريد بفتح هذا البيت ؟ فقال : والله لا أموت بغيره ، ولأعلن ما فيه . فقالوا : أصلحك الله ، إنه لا خير في مخالفة السلف الصالح ، وترك الاقتداء بالأولية ، فلتدع عن كان قبلك ، وضع عليه قفلا كما صنع غيرك ، ولا يملك الحرم على ما لم يحلهم عليه ، فإنهم أولى بالصواب منا ومنك ، فأبى إلا أفصحته . فقالوا له : انظر ما ظننت أن فيه من اللال والجواهر ، وما خطر على قلبك ، فإننا نندفعه إليك ، ولا نحدث علينا حدثا لم يحدث فيه من كان قبلك من ملوكنا ، فإنهم كانوا أهل معرفة وعلم . فأبى إلا أقصه ، ففتحه ، فوجد فيه تصاور العرب ، ووجد كتابا فيه : إذا فتح هذا البيت دخل هؤلاء الذين هبّاتهم هكذا ، هذه البلاد فليسكوها . فكان دخول المسلمين من العرب إليه في ذلك العام .

ذكر ما أفاء الله عليهم

قال : وذكروا عن الوليد بن سعد أن موسى لما دخل الأندلس ، ضربوا الأوتاد لحيلوم في جدار كنيسة من كتابتها ، فخلعت الأوتاد فلم تلج^(١) فنظروا فإذا بصفائح الذهب والفضة خلف بلاط الرخام . قال : وذكروا أن رجلا كان مع موسى ببعض غزواته بالأندلس ، وأنه رأى رجلين يحملان طنفسة^(٢) مرسوجة بالذهب والفضة والجواهر والياقوت ؛ فلما اقتضهما أنزلاها ، ثم حملا عليها الفأس قطعاهما نصليين ، فأخذتا نصفا وتركنا الآخر . قال : فقد رأيت الناس يمرّون بينا وبعدها ، ما يلتفتون إليها استثناء منها بما هو أغنى منها وأرضع . قال : وأقبل رجل

(١) لم تلج : لم تدخل في الأرض .

(٢) الطنفسة : البساط العظيم أو السجادة القيمة .

إلى موسى فقال : ابست معي أدلكم على كنز ، فبست معه موسى وجالا ، فقال الذي دلهم : انزعوا هاهنا ، فزعوا ، فقال عليهم من الزرجد والياقوت ملأ بوا مثله قط ، فلما رأوه جتوا وقالوا : لا يصدقنا موسى ، أرسلوا إليه . فأرسلوا حتى جاء ونظر . قال : وكانت العنفة قد نظمت بفضبان الذهب والفضة للسلسلة بالآواذ والياقوت والزبرجد . قال : وكان البربريان ربنا وجداهما فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بالأس فيضربا وسطها ، ويأخذها منها ما أمكنهما ، اشتغالا بغير ذلك كما هو أنس منه .

قال الليث : وبلغني أن رجلا غلّ في غزوة عطاء بن نافع حمل ما غل حق حمله في مؤزفت^(١) بين كتفيه وصدرة ، فحضره الموت ، فجعل يسيح : للزفت المزفت .

وحدثنا ابن أبي ليلى التميمي ، عن حميد ، عن أبيه أنه قال : لقد كانت الدابة تطلع في بعض غزوات موسى ، فنظر في حافرها فيوجد فيه مسامير الذهب والفضة . قال : وكتب موسى حين انتزع الأندلس إلى أمير المؤمنين : إنها ليست كاللؤلؤ يا أمير المؤمنين ، ولكنه الحضر . وأخبرني عن عبد الحميد ابن حميد ، عن أبيه أنه قال : قدمت الأندلس امرأة عطارة فخرجت بخمس مئة رأس ، فأما الذهب والفضة والآنية والجواهر فذلك لا يحاط بهله .

قال : وحدثني ياسين بن رجاء ، أنه قدم عليهم رجل من أهل المدينة شيخ ، فجعل يحدثنا عن الأندلس ، وعن دخوله موسى إليها ، قلنا له : فكيف علت هذا ؟ قال : إني والله من سيبه ، ولأخبركم بحبيب ، والله ما اشتراي الذي اشتراي إلا بقرصة من قلل لطيف موسى بن نصير . قلنا له : ما أقدمك ؟ فقال : أبي كان من وجوه الأندلس . فلما مع بموسى بن نصير عمد إلى عين ماله من الذهب والفضة والجواهر ، وغير ذلك ، فدفعه في موضع قد عرفته ، فتقدمت أنا للخروج إلى ذلك الموضع لاستخراجه . قلنا له ، وكيف لك منذ فارقت ؟ قال : سبعون سنة . قلنا له : أفسسته ؟ قال : نعم ، فلم ندر بعد ما فعل .

غزوة موسى بن نصير البشكنس والأفرنج

قال : وذكروا أن موسى خرج من طليطلة بالجمع غلّا يفتح الدائن جميعا ، حتى دانت له الأندلس ، وجاءه وجوه جليقية ، فطلبوا الصلح فصالحهم ، وغزا البشكنس فدخل في بلادهم حتى أتى قوما كاليهاتم ، ثم مال إلى أفرنجية ، حتى انتهى إلى سرقسطة ففتحها ، وفتح ما دونها

(١) المزفت : حق أو نحوه مظف بالزفت حتى لا ينظر إليه أحد وحتى لا يفتح إلا بصوبة .

من البلاد إلى الأندلس . قال : فأصاب فيها ما لا يدري ما هو ، ثم سار حتى جاوزها بشهرين ليلة ، وبين سرقسطة وقرطبة شهر أو أرجون يوما .

قال : وذكروا أن عبد الله بن النيرة بن أبي بردة ، قال : كنت بمن غزا مع موسى الأندلس حتى بلغنا سرقسطة ، وكانت من أقصى ما بلغنا مع موسى إلا بسيراً من ورائها ، فأتيينا مدينة على بحر ، ولها أربعة أبواب . قال : فبينما نحن محاصروها إذ أقبل عياش بن أخيل ، صاحب سرقسطة موسى ، فقال أيها الأمير ، إنا قد فرقتنا الجيش أربعة على نواحي المدينة ، وقد بقي الباب الأقصى ، وعليه رتبة . قال له موسى بن نصير : دح ذلك الباب فإننا سنظفر فيه . قال : ثم إن موسى التفت إلى فقال لي : كم معك من الزاد ؟ قلت : ما بقي مني غير تليس ^(١) ، قال : فأنت لم يبق معك غير تليس ، وأنت من أمراء الجيش ، فكيف خيرك ! اللهم أخرجهم من ذلك الباب . قال للنيرة : فأصبحنا من تلك الليلة وقد خرجوا من ذلك الباب ، فدخلها موسى منه ، ووجه ابنه مروان في طلبهم فأدركهم ، فأسرع القتل فيهم ، وأصابوا بما كان معهم ، وبما في المدينة حينئذ عظيماً . قال : وذكروا أن جعفر بن الأحرار ، قال : كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى ، فحاصرنا حسناً من حصونها عظيماً ، بضاً وحشرين ليلة ، ثم لم يقدروا عليه . فلما طال ذلك عليه نادى فينا ، أن أصبحوا على تعبته ، وفتنا أنه قد بلغه مائدة من العدو ، وقد دنت منا ، وأنه يريد التحول عنهم ، فأصبحنا على تعبته ، فقام فحمد الله ، ثم قال : أيها الناس ، إني متقدم أمام الصلوف ، فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت ، فكبروا واحملوا . فقال الناس : سبحان الله ، أترى قد حمله أم عذب عنه رأيه ، يأمرنا بحمل على الحجارة وما لا سيل إليه ! قال : فتقدم بين يدي الصلوف حيث يراه الناس ، ثم وقع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره ، فاستعدنا ، ثم إن موسى كبر ، وكبر الناس ، وحمل وحمل الناس ، فاهتدت ناحية الحصن التي علينا ، فدخل الناس منها ، وما راعى إلا أنجيل المسلمين تخرج فيها ، وقصها الله علينا ، فأصبنا من السي والجواهر ما لا يحصى .

قال : وحدثني مولاته لعيد الله بن موسى ، وكانت من أهل الصدق والصلاح ، أن موسى حاصر حصنها الذي كانت من أهله ، وكان تلقاه حسن آخر . قالت : فأقام لنا محاصراً حيناً ، ومعه أهله وولده ، وكان لا ينزول إليهم لما يرجو في ذلك من الثواب . قالت : ثم إن أهل الحصن خرجوا إلى موسى فقاتلوه قتالاً شديداً ، ففتح الله عليه . قالت : فلما رأى ذلك أهل

(١) التليس يتقدم الاسم : الكيس الكبير أو الشوال الكبير .

الحسن الآخر ، نزلوا على حكمه ، ففتحهما موسى في يوم واحد . فلما كان في اليوم الثاني ، أتى حسناً ثالثاً ، فالتقى الناس فالتقوا قتالا شديداً أيضاً ، حتى جال السلون جولة واحدة . قال : فأمر موسى بسراده فكشط^(١) عن نسائه وبناته حتى برزن . قال : فلقد كسرت بين يديه من أحماد السيوف ما لا يحصى ، وحمل السلون ، واحتدم القتال ، ثم إن الله فتح عليه ونصره ، وجعل الساقية له .

وقال عبد الرحمن بن سلام : كنت فيمن غرام مع موسى في غزواته كلها . فلم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

وقال ابن سحر : لما قدم موسى الأندلس قال أسقف من أساقفتها . إنا لنجندك في كتب الحدثنان ، عن دانيال . جعلتك صياداً بصيد بفيكتين ، وجعل لك في البر ، ورجل في البحر ، تضربهما هنا وهناك فتصيد . قال : فسرّ بذلك موسى وأحبيه .

وقال عبد الحميد بن حيد ، عن أبيه : إن موسى لما غل وجاوز سرقسطة ، اختد ذلك على الناس وقالوا : أين تذهب بنا ؟ سبنا ما في أيدينا ، وكان موسى قال : حين دخل أفريقيا ، وذكر عقبة بن نافع : لقد كان غرر بنفسه حين غل في بلاد السود ، والسود عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ فسمعه حبيش الشيباني قال : فلما بلغ موسى ذلك لليلخ ، قام حبيش فأخذ ببناته . ثم قال أيها الأمير إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرر بنفسه وعين معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم ، أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ، أو تلتبس أكثر وأعظم بما آتاك الله عز وجل ، وأعرض بما فتح الله عليك ، ودع لك ، إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم وأحبوا البعة . قال : فضحك موسى ثم قال : أرهفك الله ، وكثر في المسلمين مثلك . ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس فقال موسى يومئذ : أما والله لو اتقادوا إلى لقدتهم إلى رومية ، ثم يلتمها الله على يدي إن شاء الله .

خروج موسى بن نصير من الأندلس

قال : وذكرنا أن عبد الرحمن بن سلام أخبرهم ، وكان مع موسى بن نصير بالأندلس .

(١) السراشق : القبة التي كانت مضروبة على نسائه وبناته وكشط أزيج وطوي ، وهذا تحميم للرجال ونفسه لأن المحارب إذا رأى نساءه وبناته أمامه خاف عليهن فحارب أشجع ما يكون .

قال : ألام موسى بنية سته تلك ، وأشهرها من سنة أربع وتسعين ، ثم خرج وانقاد إلى الوليد بن عبد الملك ، وكان ما ألام بها موسى عشرين شهرا ، واستخلف عبد العزيز بن موسى ، فجار موسى البحر إلى الأندلس ، ففزا بالناس حتى بلغوا أربونة ، ومعه أبناء للوليد من الإفريقية ، وبانيبيان وبالبالة والآنية والذهب والفضة ، والوصفاء والوصائف ، وما لا يحصى من الجواهر والطرائف ، وخرج معه بوجوه الناس . قال : وذكروا عن حفة المائدة عن عبد الحميد أنه قال كانت مائدة خوان ، ليست لها أرجل ، فاهدتها منها ، وكانت من ذهب وفضة خليطين ، فهي تتلون سفرة ويصان ، مطوقة بثلاثة أطواق ، طوق لؤلؤ ، وطوق باقوت ، وطوق من زمرد قال قلت : لما عظمها ؟ قال : كنا بموضع والناس ممسكون ؟ إذ قلت بئله لرجل من موالى موسى يقال له صالح أبو ربيعة ، على رمة^(١) ، فكردّها في السكر ، فقام الناس إليه بأعمدة الأخبية ، وجال في السكر جولة ، فتطلع موسى قال : ما هذا ؟ وتطلع الجرابى فإذا هو بالبل يكرد الرمة ، وقد أدلى^(٢) ، فنار موسى وقال : احموا عليه المائدة ، فلم يبلغ بها إلا رمة^(٣) حتى تفتحت قوائمها لكثرة قتلها على هذا البهل القوى .

قدوم موسى أفريقية

قال : وذكروا أن يزيد بن مسلم مولى موسى ، أخبرهم أنه لما جاز موسى الحصن أمرهم بصناعة السجل^(٤) ، فعملت له ثلاثون ومئة بحجة ، ثم حمل عليها الذهب والفضة والجواهر ، وأصناف الوثى الأندلسي ، حتى أتى أفريقية . فلما قدمها بقي بها سنة أربع وتسعين ، ثم قتل ، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية وطمجة والسوس ، وخرج معه ولده مروان بن موسى ، وعبد الأعلى بن موسى وعبد الملك بن موسى ، وخرج معه مئة رجل من أشرف الناس ، من قرشي والأنصار وسائر العرب ومواليها ، منهم عياض بن عتبة ، وعبد الجبار بن أبي سلمة

(١) الرمة : الفرس أو البقرة تتخذ للبل ، وكردّها طاردها وجرى وراءها يريد أن يقع عليها .

(٢) أدلى : انتصب ذكره متذليا .

(٣) الرمة : هي انتحال الأندلس أي لم يبلغ بها إلا خطوة ، وتفتحت قوائمها استرخت أعصابها ولانت من ثقل المائدة .

(٤) السجل : أى المجلات وهي العريات .

ابن عبد الرحمن بن عوف ، ولقنيرة بن أبي بردة ، وزرعة بن أبي مدرك ، وسليمان بن نجدة ووجوه مع وجوه الناس وأخرج معه من وجوه البربر مئة رجل فيهم بنوكيلة ، وبنو قصوة ، وبنو ملوك البربر ، وملك السوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورقة ، وخرج بشر بن ملكا من ملوك جزائر الروم ، وخرج معه مئة من ملوك الأندلس ، ومن الإفريقيين ، ومن القرطبيين وغيرهم ، وخرج معه أيضاً بأصناف ما في كل بلد من بزها^١ ودوابها وريقها وطرائفها وما لا يحصى ، فأقبل يجر الدنيا وراءه جرّاً لم يسمع بمثله ، ولا يتل ما قدم به .

قلوم موسى إلى مصر

قال : وذكرنا أن يزيد بن سعيد بن مسلم أخبرهم قال : لما أتى موسى مصر ، وانتهى ذلك إلى الوليد بن عبد الملك ، كتب إلى قرعة بن شريك ، أن ادفع إلى موسى من بيت مال مصر ما أراد ، فأقبل موسى حتى إذا كان في بعض الطريق ، لقيه خبر موت قرعة بن شريك ، ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين ، فدخل للمسجد فجلس عند باب الصوال ، وكان قرعة قد استخف بن رفاة على الجند حتى توفي ، فلما سمع بموسى خرج يبادرا حتى لحقه حين استوى على دابته فلقبه فسلم عليه ، فقال له موسى من أنت يا بن أخي ؟ فانتسب له . فقال : مرحباً وأهلاً ، فسار معه حتى نزل منية حمرو بن مروان ، فسكر بها موسى ، فكلما حينئذ فزع في المال الذي كان استخرجه من سليمان بن مالك اللهمري ، وذلك بعد مهلك سليمان . فقال : هو لك . قال : فأمر بدفع عشرة آلاف دينار إلى ولد سليمان بن مالك . قال : فأقام موسى ثلاثة أيام ، تأتبه أهل مصر في كل يوم ، فلم يبق شريف إلا وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً ، وأهدى لولده عبد العزيز ابن مروان فأكثر لهم ، وجاءهم بنفسه فلم عليهم ، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين ، فلقاه آل روح ابن زنباع ، فنزل بهم ، فبأنى أنهم تحروا له خمسين جزورا ، وأقام عندهم يومين ، وسلف بعض أهله وصغار ولده عندهم ، وأجاز آل مروان وآل روح بن زنباع مجاوز من الوصائف ، وغير ذلك من الطرف .

قلوم موسى على الوليد ورحمها الله تعالى

قال : وذكرنا أن محمد بن سليمان وغيره من مشايخ أهل مصر ، أخبرهم أن موسى لما قدم على الوليد ، وكان قنومه عليه وهو في آخر شكايته التي توفي فيها ، وقد كان سليمان

(١) البز : الثياب اللسوجة من القطن ونحوه .

ابن عبدالله بث إلى موسى من قبله في الطريق قبل قدومه على الوليد ، يأمره بالبطء^(١) في مسيره ، والا يسجل ، فلما أتى موسى بالكتاب من سليمان وقرأه ، قال : خنت والله وضربت وما وفيت ، والله لا رجعت ولا تأخرت ولا عجلت ولكني أسير بحسري ، فلما وافيت حياً لم أعطف عنه ، وإن عجلت منيته فأمره إلى الله . فرجع الرسول إلى سليمان فأعلمه فقال سليمان لئن ظنر بحسري لصلبته ، أو ليأتين علي نفسه^(٢) . قال : فلما قدم موسى على الوليد وكان الوليد لا يلغه قدوم موسى واقترابه منه ، وجه إليه كتاباً يأمره بالسيعة في مسيره ، خوفاً أن تسجل به منيته قبل قدوم موسى عليه ، وأعلمه أن يراه وإن يحرم سليمان ما جاء به من الجواهر والطرائف التي لا قيمة لها ، فلم يكن لموسى شيء يشغله حين أنام كتاب الوليد ، فأقبل حتى دخل عليه ، وقدم تلك الطرائف من الخز والياقوت والبرجود ، والوصفاء والوصائف والورثى ، ومائة سليمان بن داود عليه السلام ، ومائة ثانية من جزع ملون^(٣) والتيجان . قال : قبض الوليد الجميع وأمر بالمائة فسكرت ، وعهد إلى الآخر ما فيها ، والتيجان والجزع ، فجعله في بيت الله الحرم ، وفرق غير ذلك ، ولم يلبث الوليد أن مات رحمه الله .

خلافة سليمان بن عبدالله وماصنع بموسى بن نصير

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن سلام أخبرهم أن سليمان بن عبدالله لما أفضت الخلافة إليه ، بث إلى موسى ، فأقبحه ، فصنع بلسانه ، وكان فيما قال له يومئذ : أمي اجترأت ، وأمرى خالتي ، والله لأقلن عددك ، ولأفرقن جمك ، ولأبدعن مالك ، ولأشعن منك ما كلن يرفعه غيري ممن كنت تحبني أماني الثرور ، وتعده من آل أبي سفيان ، وآل مروان ، فقال له موسى : والله يا أمير المؤمنين ما متل علي بذنب ، سوى أني وفيت للخطاء قبلك ، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه ، فأما ما ذكر أمير المؤمنين : من أنه يقل عددي ، ويترقي جمعي ويبدد مالي ، ويعرض حالي ، فذاك يد الله ، وإلى الله ، وهو الذي يتولى النعمة على الإنسان إلى ، وبه أستعين ، ويبدد الله عز وجل أمير المؤمنين ويصمه أن يجري على يده شيئاً من المكروه لم يستحقه ، ولم يلته ذنب اجترعته . فأمر به سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه . قال : وكانت بموسى نسمة^(٤) ، فلما أصابه حر الشمس ، وأنبه الوقوف ،

(١) التهمل وعدم الإسراع .

(٢) ليأتين على نفسه : يزهد في نفسه أي يتفكه .

(٣) النسمة : الوباء وهو مرض معروف من أمراض الصدر .

حاجت عليه . قال : وجلت قرب العرق تصب منه ، فإزال كنتك حتى سقط ، وعمر بن عبد العزيز حاضر ، إلى أن نظر سليمان إلى موسى ، وقد وقع مفضياً عليه . قال عمر بن عبد العزيز ما مر بي يوم كان أعظم عندي ، ولا كنت فيه أكره من ذلك اليوم ، لا رأيت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بدائنه في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه وهذا يفعل به . قال : فالتفت إلى سليمان فقال يا أبا حصص ، ما أظن إلا أنسى قد خرجت من بيني . قال عمر : فاضمت ذلك منه فقلت يا أمير المؤمنين شيخ كبير بلن^(١) ، وبه نسمة قد أهلكته ، وقد آمنت على ما فيه من السلامة لك من بينك ، وهو موسى البعيد الآخر في سبيل الله ، العظيم القناء عن المسلمين قال عمر : وأدى مني من الكلام فيه ما كنت أعلم من بينه وحته عليه ، غشيت إن ابتدأه أن يلح عليه ، وهو لوح . قال . فلما قال لي ما قال آخر ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت أن الله قد أحسن إليه ، وأن سليمان قد ندّم فيه . قال سليمان : من يشمه ؟ فقال يزيد بن المهلب أنا أضمه يا أمير المؤمنين . قال : وكانت الحال بين يزيد وموسى لطيفة خاصة . قال سليمان : فضمه إليك يا يزيد ، ولا تصبّق عليه . قال : فأنصرف به يزيد ، وقد قدم إليه دابة ابنه عله ، فركبها موسى ، فأقام أياماً . قال : ثم إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح ، حتى اتخذا منه موسى بثلاثة آلاف ألف دينار .

حيلة موالى موسى بن نصير

قال : وذكروا عن بعض البصريين ، أن رجلاً منهم أخبرهم أن يزيد قال لموسى ذات ليلة وقد سهر سهرأ طويلاً : يا أبا عبد الرحمن ، كم تمدّ مواليك وأهل بيتك ؟ فقال : كثير . قال يكونون ألقا ؟ قال له موسى : نعم وألقا وألقا حتى ينقطع الناس ، لقد خافتم المولى ما أظن أن أحداً لا يخلف مثلهم . قال له يزيد : إنك لعل مثل ما وصفت ، وتمطى يديك ؟ ألا آلت بدار عزك ، وموضع سلطانك ، وبشت بما قدمت به ، فلن أعطيت الرضا أعطيت الطاعة ، وإلا كنت على التخيير من أمرك ؟ فقال موسى : والله لو أردت ذلك ما تناولوا طرفاً من أطرافي إلى أن تقوم الساعة ، ولكن آثرت حق الله ، ولم أر الخروج من الطاعة والجماعة . قال : ثم خرج يزيد من عنده ، فظفر إليهم موسى ، قال لمن عنده : والله إنني رأيت خالدة تفرّ تو ليأتين عليها .

(١) البادن والبدن : ضمهم الجسم (تخمين) .

ذكر مارآه موسى بالقرب من الجباب

قال : وذكروا عن محمد بن سليمان ، عن مشايخ أهل مصر ، قال : لما بعث موسى رحمه الله بالحنس الذي أقام الله عليه ، وكان مئة ألف رأس ، فزولوا الإسكندرية ، ونزل بعضهم كنيسة فيها ، فسميت كنيسة الرقيق إلى اليوم ، وزولوا موضعاً بالفسطاط فقصوا فيه ، فسمى سوق البربر إلى اليوم ، قال محمد بن سليمان ، ومحمد بن عبد الملك : إن موسى اتخذ لنفسه داراً وسكناً حتى كان من أمر سليمان ما قد ذكر ، وهو الذي أخرجه وأهله من القرب .

قال : وحدثننا بعض أهل أفرقية أن موسى ركب يوماً حتى خرج من القبروان ، فوقف قريباً من أفرقية على رأس أميال ، فأخذ يده تراباً فشمه من ثم ، ثم أمر بحفر بئر وأبني داراً ومنية^(١) وأخذ فيها خيلاً فسميت بئر منية الحبل ، فليس يعلم بالقرب بئر أعذب منها .

وحدثنا الكري أبو بكر عبد الوهاب بن عبد التفار شيخ من مشايخ تونس قال : إن موسى انتهى إلى صنم يشير بأصبعه إلى خلفه ثم تقدم إلى صنم أمام الصنم الأول ، فإذا هو يشير بأصبعه إلى السماء ، ثم تقدم فإذا يصنع على نهر ماء جبر ، يشير بأصبعه تحت قدميه ، فلما انتهى موسى إلى الصنم الثالث . قال موسى : احفروا ، فإذا يحدث^(٢) يختوم الرأس ، قد أخرج ، فأمر به . موسى فكسر ، غرقت ربح شديدة . فقال موسى للحيث : أندرون ما هذا! قالوا : لا والله أيها الأمير ما ندري . قال : ذلك شيطان من الشياطين التي سبحانه نبي الله سليمان بن داود .

قال : وحدثننا بعض مشايخ أهل القرب أن موسى أرسل ناساً فمراكب فامرهم أن يسيروا حتى ينتهوا إلى صنم يشير بأصبعه أمامه في جزيرة في البحر ، ثم يسيروا حتى يأتوا صنماً آخر في جزيرة يشير بأصبعه أمامه ثم يسير إلى اليمين والأيام ومجد في المير حتى يأتوا صنماً آخر في جزيرة في البحر ، فيها أناس لا يعرف كلامهم . قال : فإذا بلغت ذلك فارجعوا ، وذلك في أقصى القرب ليس وراءه أحد من الناس إلا البحر المحيط ، وهو أقصى القرب في البر والبحر .

قال : وحدثننا بعض المشايخ من أهل القرب أن موسى بلغ نهرأ من أقصى القرب ، فإذا عليه في الشق الأيمن أصنام ذكرور ، وفي الأيسر أصنام إنث ، وأن موسى لما انتهى إلى ذلك

(١) للنية : الضاحية أو القرية الصغيرة .
(٢) الحدث : شيء كالإريق قد أغلقت فوهته وختمت .

للوضع خاف الناس فيه ، فلما رأى ذلك منهم رجح بالناس ، ثم مضى في وجهه ذلك حتى انتهى إلى أرض تيمد بأهلها ، فخرج الناس وخافوا فرجح بهم .

قالوا : وحدثنا عبد الله بن قيس ، قال : بلغني أن موسى لما جاوز الأنديلس أتى موشياً ، فإذا فيه قباب من نحاس ، فأمر بقية منها فكسرت ، فخرج منها شيطان مبع ومضى ، فعرف موسى أنه شيطان من الشياطين التي سجنها سليمان بن داود ، فأمر موسى بالقباب فزكت على حالها ، وسار بالناس قديماً .

قال : وحدثنا حمارة بن راشد ، قال : بلغنا أن موسى كان يسير في بعض غزواته وهو بأقصى للرب ، إذ غشى الناس ظلمة عدينة ، فصب الناس منها وخافوا ، وسار بهم موسى في ذلك ، إذ هم على مدينة عليها حصن من نحاس ، فلما ألقاها أقام عليها ، وطاف بها ، فلم يقد على دخولها ، فأمر بلبل ورميح ، وندب الناس فجعل يقول : من يصد هذه ، وله خمس مئة دينار ؟ فصد رجل ، فلما استوى على سورها تردى فيها ، ثم ندب الناس موسى ثانية ، وقال : من يصد وله ألف دينار ؟ فصد آخر ، فقتل به مثل ذلك ، ثم ندب الناس ثالثة : قال : من يصد وله ألف وخمس مئة دينار ، فصد رجل ثالث ، فأصابه ما أصاب صاحبيه ، فسلم الناس موسى فقالوا : هذا أمر عظيم أصيب إخواننا ، وغررت بهم حتى هلكوا . فقال لهم : هل رسلكم بأيكم الأمر على ما يحبون إن شاء الله ، ثم أمر موسى بالتنجيق ، فوسنت على حصن المدينة ، ثم أمر أن يرمى الحصن ، فلما علم من في الحصن ما عمل موسى ، حضروا وصاحوا . وقالوا : يا أيها الملك ، لينا بيتك ، ولا نحن ممن تريد ، نحن قوم من الجن ، فانصرف عنا ، فقال لهم موسى : أين أصحابي ، وما فعلوا ؟ قالوا : هم عندنا على حالهم . فقال : أخرجوهم إلينا . قالوا : نعم . فأخرج الثلاثة الكفر ، فسألم موسى عن أمرهم وما صنع بهم . فقالوا : ما حدثنا ما كنا فيه ، وما أصابتنا هوكة حتى أخرجنا إليك . فقال موسى : الحمد لله كثيراً ، ثم تقدم بالناس سائراً يفتح كل ما مر به .

ثم رجع إلى حديث سليمان بن عبد الملك .

تولية سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة

وما أشار به موسى عليه

قال : وذكروا أن سعيد بن عبد الله أخبرهم ، قال : إن سليمان بن عبد الملك بث أخاه

مسلمة إلى أرض الروم ، ووجه معه خمس مئة وثلاثين ألف رجل ، وخمس مئة رجل من قد ضمه الديولان واكتسب في المطاء وهلب في الأرزاق ، ثم دعا سليمان بموسى ، بعد أن رضى عنه على يد عمر بن عبد العزيز فقال سليمان له : أشرك على ياموسى ، فلم تزل مباركة القزوة في سبيل الله ، بيد الأكر ، طويل الجهاد . فقال له موسى : أرى يا أمير المؤمنين أن توجهه بمن معه ، فلا يمر بحصن إلا صير عليه عشرة آلاف رجل حتى يفرق نصف جيشه ، ثم يضى بالباقي من جيشه ، حتى يأتى القسطنطينية ، فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين . قال : فدعا سليمان مسلمة فأمره بذلك من مشورة موسى وأوعز إليه فلما علم مسلمة بالمشورة فكأنه كره ذلك ، وكان في مسلمة بض الإيابة ، ثم رجع إلى قول موسى فبا صنع بأرض الروم ، حين ظفر يطريق ليس فرقه إلا ملك الروم : فقال البطريق لسلطة : أتى على نفسى وأهل ومالى وولدى ، وأنا أتيتك بالملك ، فأمنه ، ومضى البطريق إلى الملك الأعظم ، فأعلمه بما فعل مسلمة ، وما ظفر به منه ، ومن حصون الروم ، فلما رأى ذلك ملك الروم ، أعظم ذلك وسقط في يده . فقال البطريق له عند ذلك : مالى عليك إن صرفت مسلمة عنك وجميع من معه ؟ فقال الملك : أجل تابعى على رأسك ، وأتفضل مكانى . فقال البطريق : أنا أكفيك ذلك . فخرج البطريق إلى مسلمة ، قال : آخرى ثلاثا حتى أتيتك بالملك ، فبث البطريق إلى جميع الحصون ، فأمرهم بالقتل إلى الجبال ، وحمل ما قدروا عليه من الطعام ، وأمر بإحراق الزرع ، وغير ذلك مما يؤكل ويتنعم به ، مما كان خلفه مسلمة وجنده ، وما بين المسلمين وملك الروم ، فلما فعلوا ما أمروا به ، وعلم البطريق أنه أحكم أمره ، بث إلى مسلمة فقال له لو كنت امرأة لعلت بك كما يفعل الرجل بأمراته . قال : فضيظ مسلمة وآلى ألا يرجح حتى يظفر بملك الروم .

سؤال سليمان موسى عن الغرب

قال : وذكرنا أن محمد بن سليمان ، أخبرهم أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى : من خلفت على الأندلس ؟ قال له : عبد العزيز بن موسى . قال : ومن خلفت على أترقية وطنية والسوس ؟ قال : عبد الله ابنى . فقال له سليمان : لقد أجيت يا موسى ، فقال موسى : ومن أنجب مؤيد أمير المؤمنين ، إن ابنى مروان أتى بملك الأندلس ، وابنى عبد الله أتى بملك سيورقوصقية وسردانية ، وإن ابنى مروان أتى بملك السوس الأصمى فهم مترقون في الأمصار ، وغيرهم يسيرون ليأتون من الحبى بما لا يحصى ، فمن أنجب منى يا أمير المؤمنين ؟ قال : فضنب سليمان ، قال ولا أمير

للتؤمنين ليس بأجيب منك ؟ فقال موسى : شأن أمير المؤمنين شأن ليس فوته شأن ، وكل شأن وإن عظم دونه ، لأنه به ومنه ، وطى يديه وأمره .

قالوا : وحدنا عبد الله بن شريح ، قال : يلقى أن موسى لا نزل الحيرة عند قدومه من للثرب أتاه رجل من بني أمية ، فقال له : يا موسى ، أنت ملك للثرب ، وأعلم الناس تخرج إلى الوليد ، وتعلم من سليمان ؟ فقال له موسى : يا بن أخي ، حسبك من قريش ، ثم من بني أمية ما تعلم ، ألا ترى يا بن أخي أن الصبي يأخذ العظم فيخذه^(١) بجمل ، ثم ينصب ويبيع طريحا ، ويضع فيه حبة بر أو ذرة ، فينصب للبهدهد العالم بما تحت الأرض ، فيستتر^(٢) ، ثم تدفنه للقدور إلى الوقوع فيه ، فاحذر يا بن أخي أن تراك الشام أو تراها . فخرج موسى إلى الوليد بدمشق ، فأت الوليد ، واستخلف سليمان أخاه ، فلقى منه موسى ما ذكرنا ، وخرج القرشي إلى الشام ، فضربت عنقه .

ذكر قدوم موسى على الوليد

قال : وذكروا أن موسى لما قدم على الوليد ، وذلك يوم الجمعة ، في حين جلوس الوليد ابن عبد الملك على المنبر ، وكان موسى قال لبعض من وفد معه ، بأن يلبس كل رجل من الأسرى تاجا ، ويأب ملك ذلك التاج ، ثم يدخلوا معه المسجد . قال : فألبس ثلاثين رجلا ثلاثين تاجا ، وهياهم هيئة الملوك ، وأمر بأبناء ملوك البربر فهبثوا وأمر بأبناء ملوك الجزائر والروم فهبثوا كذلك ، ولبسوا التيجان ، وأمر بأبناء ملوك الألبان^(٣) ، فهبثوا مثل ذلك وأمر بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزرجد والجزع والوطاء^(٤) والكساء المنسوج بالذهب والفضة ، المحرش^(٥) باللؤلؤ والياقوت والزرجد ، فوقف الجميع بباب الوليد ، وأبناء ملوك أفرنجية وأقبل موسى بالدين البسهم التيجان ، حتى دخل مسجد دمشق ، والوليد على المنبر ، يحمد الله وهو موهون^(٦) ، قد أثرت فيه الملة ، وأتته المرض وإنما كان متحملا

(١) يسفله : يثله ويلويه .

(٢) يستتر : يهرب .

(٣) الألبان : الألبان : وهم ملوك الأندلس .

(٤) الوطاء : القرش اللين الثمين .

(٥) المحرش : للوضوع عليه اللؤلؤ وغيره بارزا نفس اليد خشوته .

(٦) موهون : ضيف .

لأجل قدوم موسى ومن معه . فلما رآهم بهت إليهم ، وقال الناس : موسى ؟ موسى ، ثم أقبل
 حتى سلم على الوليد ، ووقف الثلاثة بالتبجاف ، عن عين التبر وشاله ثم إن الوليد أخذ في
 حمد الله تعالى والثناء عليه ، والشكر لما أيدته الله ونصره ، فتكلم بكلام لم يسمع بمثله ،
 وأطال حتى فأت وقت الجمعة ، ثم صلى بالناس فلما فرغ جلس ، ثم دعا موسى ، فصب عليه
 الوليد الخلع ثلاث مرات ، وأجازته بخمسين ألف دينار ، وفرض لولده جيماً في الشرف ،
 وفرض لخمس مئة من مواليه ، ثم أدخل عليه موسى مملوكاً البربر ، ومملوكاً الروم ، ومملوكاً
 الأهلبان ، ومملوكاً أفرنجية ، ثم أدخل عليه رهوس أهل البلاد ممن كان معه من قريش
 والعرب ، فأحسن جوائزهم ، وفرض لهم في الشرف ، ثم أقام موسى عند الوليد أربعين يوماً ،
 ثم إن الوليد هلك .

ذكر اختلاف الناقليين في صنع سليمان بموسى

قالوا : لما استخلف سليمان بعد أخيه الوليد ، فكان أحق الناس على الحليج وموسى بن
 نصير ، وكان يحلف لأن ظفر بهما ليصلبتهما ، وكان حقه عليهما لأمر يطول ذكره . قال :
 فأرسل سليمان إلى عمر بن عبد العزيز فأثابه ، فقال : إني صائب غداً موسى بن نصير ، فبعث
 عمر إلى موسى فأثابه . فقال له يا بن نصير ، إني أحبك لأربع . الواحدة : بعد أن ترك في سبيل
 الله ، وجهادك لعدو الله . والثانية : حبك لآل محمد صلى الله عليه وسلم . والثالثة : حبك
 عياض بن حبة لما تعلم من حسن رأي فيه ، وكان عياض من عباد الله الصالحين ، والرابعة :
 أن لا يبي عندك بداً وصليمة ، وأما أحب أن تمّ يده وصلبته حيث كانت ، وقد سمعت أمير
 المؤمنين يذكر أنه صالبك غداً ، فأحدث عهدك^(١) ، وانظر فيما أنت فيه ناظر من أمرك .
 فقال له موسى : قد فعلت ، وأسندت ذلك إليك . فقال له عمر : لو قبلت ذلك من أحد قبلت
 منك ، ولكن أسند إلى من أحببت . فاضرف ، فلما أصبح اغتسل وتحنط وراح ، ولم
 يشك في الصلب . فلما انتصف النهار ، واشتد الحر ، وذلك في حارة الصيف : دعا سليمان
 موسى : فأدخل عليه متبياً ، وكان بادئاً جسيماً ، به نسمة لا تزال تعرض له^(٢) . فلما وقف بين
 يديه : شتمه وخوفه وتوعده ، فقال له موسى : أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلأني ، ولا قدر

(١) أحدث عهدك : أكتب وصيتك حتى إذا مت كنت قد ربيت أمورك على ما تحب .

(٢) البادن : السمين كبير الجسم . والنسمة : البربر وقد مر ذكرها .

جزائي ، إني لعبد الأثر في سبيل الله العظيم التَّناء عن المسلمين ، مع قُدْمة (١) آتائي مع
 آتائك ، ونصيحتي لهم . قال : فيقول له سليمان : كذبت ، قطنى الله إن لم آتأك . فما أكثر
 على موسى قال له : أما والله إن في بطن الأرض أحبة لى عن على ظهرها . فقال سليمان :
 ومن أولئك واستطير (٢) . قال له موسى : مروان ، وعبد الملك والوليد أخوك ، وعبد
 العزيز عمك . قال : فكاد سليمان ينكسر . ثم يقول : قطنى الله إن لم آتأك . فيقول له
 موسى : ما أنت بفاعل يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : ولم ؟ لا أم لك . فيقول له موسى : إني
 لأرجو ألا يكرم موسى بهوان أمير المؤمنين وموسى حينئذ قائم في الشمس ، قد ارتفع نفسه ،
 وعظم يُهْره (٣) ، ثم التفت سليمان إلى عمر بن عبد العزيز ، فقال : ما أرى يميني إلا قد
 برئت يا عمر (٤) . قال عمر : فاختصمتا منه ، ولم يبال أن يموت بإحياء وجل من المسلمين .
 فقلت : أجل يا أمير المؤمنين ، امرؤ كبرت سنه ، وكثر لجه ، وبه نسمة وبهر ومقم . لما
 أراه إلا ميتا . قال : ثم التفت سليمان إلى جلسائه فقال : من يأخذ هذا الشيخ ، فيستخرج منه
 هذه الأموال ؟ فقال يزيد بن المهلب : أنا يا أمير المؤمنين قال : فخنه ولا تمسه ، وضع المذاب
 على أبيه مروان ، وعبد الأعلى ، فخرج به يزيد فحمله على دابة ابنه ، ثم انصرف به إلى
 منزله ، فأكرمه وبره . وقال له : أطلع امرئى ، وأجب أمير المؤمنين إلى مقاضاته عن نفسك
 وعن ابليك ، وحلفى كل ما قاضيته عليه . قال له موسى : أما إذا كنت أنت صاحب هذا
 الشأن ، فأنا غير غيرك فيا ضمنت لأمر المؤمنين ، وإيم الله لو أمر سواك بي ، وأمره بالبسط
 على ، لكان أحب لى أن ألقى الله عز وجل ، وأترب لى من أن يأخذوا منى ديناراً
 واحداً ، ولكن أذا يا ابنى عن أنتسكا وعن أيبكا ، فقالا : نعم ، فعاد يزيد بن المهلب إلى
 سليمان ، فأعلمه بذلك ، وبرئنا موسى بمقاضاته ، فأدخه سليمان عليه . فقال موسى : أرايت لو
 لم أقاضك ما كنت فاعلا فقال سليمان : أضع المذاب عليك وعلى ابليك حتى أبلغ ما أريد ،
 أو آتى على أنتسك . فقال موسى : الآن طابت نفسك يا أمير المؤمنين فأعطى أربع خصال ،
 ولك ما دعوتني إليه من هذا المال . قال : وما هن ؟ قال : لا تحزل عبد الله بن موسى عن
 أفرقية وجميع عمله ستين ، وأن كل ما جاء عبد الله بأفرقية ، وعبد العزيز بالأندلس ،

(١) القدمة : الساجه أى مع ساجة آتائي مع آتائك من حيث قيام آتائي بأعمال جليلة
 لإيتائك .

(٢) استطير : فخر وخلف .

(٣) بهره : اقطاع نفسه من الإعياء والتعب .

(٤) برئت : أى عففت يميني وكان قد حلف ليصلبه .

فهو لى قيا قاضيت عليه أمير المؤمنين ، وأن تدفع إلى طارقاً مولاي ، وأكون أملاً به عيناً
وبعاه . فقال له سليمان : أما ما سألت من إقرار عبد العزيز وعبد الله على مكاتهما فذلك لك .
وأما ما سألت من دفع طارق إليك فتكون أملاً عيناً به وبعاه ، فليس هذا جزاء أهل النصيحة
لأمير المؤمنين ، فليست بجاعل ، ولا عزلاً بينك وبين عقوبته ، ولا اخذ ماله ، فقاضاه موسى
على مال ، فأجبه لى ذلك ، وخلق سيده .

نسخة القضية

هذا ما قاضى عليه عبد الله سليمان أمير المؤمنين موسى بن نصير ، قاضاه على أربعة آلاف ألف
دينار ، وثلاثين ألف دينار ، وخمسين ديناراً ذهباً طيبة وازنة يؤدبها لى أمير المؤمنين ، وقد
قبض منها أمير المؤمنين مئة ألف ، وبقي على موسى سائر ذلك ، أجله أمير المؤمنين إلى سير
رسول أمير المؤمنين إلى ابنى موسى الذى بالأندلس ، والذى بأفريقية ، يمكث شهراً
بالأندلس ، وليس له أن يمكث وراء ذلك يوماً واحداً ، حتى يقتل راجعاً بالمال ، إلى
ما كان من أفريقية وما دونها ، وليس لموسى أن يشكر بشئ مما كان عليه من العمل ،
منذ استخلف الله أمير المؤمنين من ذمة أو فيء أو أمانة ، فهو لأمر المؤمنين بأخذه ويقتضيه ،
ولا يحسبه موسى من خرامته ، فإن أدّى موسى الذى سمى أمير المؤمنين فى كتابه هذا من
اللال ، إلى ما قد سمى أمير المؤمنين من الأجل ، فقد برى موسى وبشوه وأهله ومواليه ،
وليست عليهم جمة ولا طلبية فى اللال ولا فى العمل ، يُتَسَرَّونَ حيث شاموا ، وما كان قبض
موسى أو بنوه من ممال موسى إلى قدوم رسول أمير المؤمنين أفريقية ، فهو من الذى على
موسى من اللال ، يحسب له من الذى عليه ، ما لم يقبض قبل وصول رسول أمير المؤمنين ،
فليس منه فى شئ ، وقد خلق أمير المؤمنين بين موسى وبين أهله ومواليه ، ليس له ظم
أحد منهم ، غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقاً مولاه ، ولا شيئاً من الذى قد أله
عليه أول يوم .

شهد أيوب ابن أمير المؤمنين ، وداود بن أمير المؤمنين ، وعمر بن عبد العزيز ،
وعبد العزيز بن الوليد ، وسعيد بن خالد ، وميسرة بن سلامة ، وخالد بن الزيان ، وعمر
ابن عبد الله ، وعيسى بن سعيد ، وعبد الله بن سعيد . وكتبه جعفر بن عثمان فى جمادى
سنة تسع وتسعين .

فما تهاشيا أمر سليمان يزيد بن مهلب بتخليفة موسى وإبليه ، والكف عنه ، فأطاعه

يزيد بن الهلب بمئة ألف دينار ، فأهدى إليه موسى حقاً فيه ثلاث خرزات ، فبعت بهن إلى ابن الهلب قنومهن ، فتولين ثلاث مئة ألف دينار . فقال ابن الهلب لموسى : أئندى لم قلت لأمير المؤمنين أنا أسخه ؟ قال : لا ، قال : خفت أن يحبه قبل من لا يرى فيه ما أنا عليه لك ، وكانت لك يد عند الهلب رحمه الله . فأجبت أن أجزيك بها عنه ، وبالله لو لم تفعل وأبيت عن اللقضاء ما عاكتك عندي شوكة حتى لا يبق لآل الهلب مال ولا ثوب . قال : فجزاه موسى خيراً .

ذكر يد موسى إلى الهلب

قال : وذكروا أن خبراً أخبرهم من شيخ الشام من أدرك القوم وصحبهم قال : كانت اليد التي أسداها موسى إلى الهلب ، أن عبد الملك بن مروان لما ولي العراق بشراً أخاه ، جعل منه موسى بن قيس وزيراً ومديراً لأمره ، وقد كانت الأزارقة أفسدت ما هناك ، فأمر عبد الملك بشر بن مروان أن يولى الهلب قتالهم ، وكان بشر للهلب مسيئاً ؛ فلما قدم بشر العراق ، وعلم الهلب برأيه ، أعزله بشراً . فلم يأت ، فولى بشر بن مروان قتال الأزارقة ، الوليد بن خالد ، فانهزم واقتضح ، ثم ولى بشر رجلاً آخر ، فلم يسع شيئاً ، فكتب عبد الملك إلى بشر أخيه ، يند رأيه فيما صنع ، ويوبخه لما خالف أمره ، فصمم بشر على رأيه ؛ فلما استنظف أمر الأزارقة ، استشار بشر بن مروان أسماء بن خارجة ، وعكرمة بن ربي ، وموسى بن نصير في أمر الهلب . فأما عكرمة وأسماء فوافقا هواه فيه ، وأما موسى فقال له : إن أمير المؤمنين لا يهتمك على الحصية ، وليس مثل الهلب في فضله وشره ، وقدره في قومه ومعرفته ، أفصيت أو جفوت ، فإن كان يملك أمر يقال إنه أتاه ، فكشده عنه ، حتى تعلم عذره فيه أو ذنبه ، فلم يزل موسى يردد أمر الهلب على بشر ، ويسطفه عليه ، بسد أن كان مم بقتله إن ظفر به ، حتى أرسل إليه بشر فجاءه الهلب فتصل إليه الهلب ، فقبل منه بشر ، وولاه ما كان يلي ، فبعت إليه موسى بخمسين فرساً وبمئة بئر . وقال له : استعن بها على حربك ، ثم لم يزل موسى قائماً بأمره عند بشر ، حتى هلك بشر .

قالوا : وأخبرنا محمد بن عبد الملك أن الهلب في الأيام التي كان يخاف فيها بشر بن مروان على نفسه ، خرج إلى مال له ، فكان فيه وحده ، فأق رجل إلى بشر وعنده موسى ، فقال له : إن كان لك أيها الأمير بالهلب حاجة فابست خيلاً إلى موضع كذا وكذا ، فإنه فيه في دار وحده ، وليس معه فيه رجل من قومه . فبعت بشر خيلاً ، قال : فنهض من مجلسه موسى ، فوجه إليه غلاماً له ، ثم قال له : أنت حر لوجه الله ، إن أنت سبقت هذه الجليل حتى تنتهي

إلى موضع كذا وكذا ، فتأتى الهلب فتقول له : إن موسى يقول لك : النجاة بنفسك ، غرغ غلام موسى حتى انتهى إلى الهلب فأعلمه ، فاستوى على فرسه فذهب ، وأنت الخيل فلم تجد أحداً هناك ، فانصرفوا راجعين إلى بشر فأعدوه بذلك .

ذكر قتل عبد العزيز بن موسى بالأندلس

قال : وذكروا أن محمد بن عبد الملك أخبرهم قال : أتاه موسى بن نصير مع سليمان ابن عبد الملك يطلب رضاه ، حتى رضى عنه ، وابنه عبد الله بن موسى على أفرجة وطنجة والسوس ، وابنه عبد العزيز على الأندلس كما هو ، فلما بلغ عبد العزيز القدي نزل سليمان بأبيه موسى تكلم بكلام خفيف حملته عليه حية لما صنع بأبيه على حسن بلاله ، فميت إلى سليمان ، غلاف سليمان أن يطلع ، فكتب إلى حبيب بن أبي عبيدة ، وابن وعة القيمي ، وسعد بن عثمان ابن ياسر ، وعمرو بن زياد اليصبي ، وعمرو بن كثير ، وعمرو بن شرحبيل ، كتب إلى كل رجل منهم كتاباً يطلبه بالذي يلته عن عبد العزيز بن موسى ، وما تم به من الخلع ، وأنه قد كتب إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إلى عبد العزيز ، وأعلمه إنما دعاه إلى ذلك القدي أحب من مكافئتك ، لأنه يإزاء الصدوق ، وأعطاهم اليهود ، أن من قتل منهم فهو أمير مكانه . وكتب إلى عبد الله بن موسى : إنى نظرت فإذا عبد العزيز يإزاء عدو يحتاج فيه إلى الفناء والبلاء . فسأل أمير المؤمنين فأخبر أن معك رجلا ، منهم فلان وفلان ، فأشخاصهم إلى عبد العزيز بن موسى ، وكتب سليمان إلى عبد العزيز : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين علم ما أنت بسبيكه من الصدوق ، وحاجتك إلى الرجال أهل النكابة والفناء ، فذكر له أن بأفرجة رجلا منهم ، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك ، فولم أطرافك وتورك ، واجهلم أهل خاصتك . وكتب إليهم سليمان : إنى قد بثت لكم بكتاب إلى أهل الأندلس بالسمع والطاعة لكم ، والتدبر في قتلهم ، فإذا ولاكم أطرافه فأقروا عهدى على من قبلكم من المسلمين ، ثم ارجوا إليه حتى يقتلوه . فلما قدم الكتاب على عبد الله بن موسى بأفرجة ، أخصى القسوم ، غرغوا حتى قدموا على عبد العزيز بالأندلس بكتاب سليمان في إظهارهم وأكرامهم ، فترجم عبد العزيز وأكرمهم وحياهم ، وقال لهم . اختاروا أى نواحي وتودى هدم ، فضرىوا الرأى فقالوا : إنكم إن قتلتم ما أنتم فاعلون ، ثم رجس إليهم من أطرافه ، لم نأمن أن يعل مع عظيم الناس ، فإن في يديه الأموال والقوة ، من مواليه وغيرهم ولكن أعمالوا رأيكم في الفتك به . قالوا : فإن هاهنا رجلا إن دخل معنا استقام لنا الأمر ، ووصلنا إلى ما أردنا ، وهو أيوب بن حبيب بن أخت موسى . قال : فلقوه ودعوه إلى أنه

إن قتل فهو مكانه ، قبل وبايموه على ذلك ، ثم إتهم أمثوا عبد الله بن عبد الرحمن النافقي ، وكان سيد أهل الأندلس صلاحاً وقضلاً فأعلموه ، ثم أقرهوه كتاب سليمان . فقال لهم : قد علم يد موسى عند جميعكم ، صيركم وكيركم ، وإنما بلغ أمير المؤمنين أمر كذب عليه فيه ، والرجل لم ينزع يداً من الطاعة ، ولم يخالف فيستوجب القتل وأنتم ترون وأمير المؤمنين لا يرى ، فأطيعوني ودموا هذا الأمر ، فأبوا ، ومضوا على رأيهم ، فأجموا على قتلهم ، فوقعوا له . فلما خرج لصلاة الصبح ، ودخل القبلة وأحرم ، وقرأ بآم القرآن الكريم ، واستفتح (إذا وقعت الواقعة) ضربه حبيب بنت أبي عبيدة ضربة ، فذهلى ولم يصنع شيئاً ، قطع عبد العزيز الصلاة وخرج ، وتبعوه فقتله ابن وعلة القيس ، وأصبح الناس ، فأعظموا ذلك ، فأخرجوا كتاب سليمان بذلك ، فلم يقبله أهل الأندلس ، وولوا عليهم عبد الله بن عبد الرحمن النافقي ، ووفد حبيب بن أبي عبيدة برأس عبد العزيز ابن موسى ورحمهما الله .

قدوم رأس عبد العزيز بن موسى على سليمان

قال : وذكروا أن سليمان لما ظن أن القوم قد دخلوا الأندلس ، وفضلوا ما كتب به إليهم ، عزل عبد الله بن موسى عن أفرقية وطنجة والسوس ، في آخر سنة ثمان وتسعين في ذي الحجة ، وأقبل هؤلاء حتى قدموا على سليمان ، وموسى بن نصير لا يشعر بقتل عبد العزيز ابنه . فلما دخلوا على سليمان ، ووضع الرأس بين يديه ، بث إلى موسى ، فأناه ، فلما جلس وراء القوم . قال له سليمان : أنصرف هذا الرأس يا موسى ! فقال : نعم هذا رأس عبد العزيز بن موسى ، فقام الوفد فشكلوا بما تسلموا به . ثم إن موسى قام لحمد الله ، ثم قال : وهذا رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمة الله تعالى عليه ، فسلم الله ما علمته تهاجر إلا صوتاً ، وليه إلا قواماً ، شديد الحب لله ولرسوله ، بيد الأثر في سبيله ، حسن الطاعة لأمر المؤمنين ، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين ، فإن يك عبد العزيز قضى نحبه ، فضر الله له ذنبه ، فوالله ما كان بالحيلة شحيحاً ، ولا من لوث هائباً ، وليرى على عبد الملك وعبد العزيز والوليد أن يسرعوه هذا للصرع ، ويعلموا به ما أراكم تعمل ، ولهم كان أعظم رغبة فيه ، وأعلم نصيحة أبيه ، أن يسمعوا فيه كاذبات الأكابر ، ويعلموا به هذه الأفاعيل . فرد سليمان عليه قال : بل ابنك اللزق من الدين ، والشاق عصا المسلمين ، الناظر لأمر المؤمنين ، فهلا أبا الشيخ الحرف . فقال موسى : والله ما من من خرفة

ولا أنا من الحقّ بذي جف^(١) ولن تردّ محاولة السلام مواضع الحمام^(٢) هوأنا أقول كما قال
العبد الصالح^(٣) . (ضبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) قال : ثم قال موسى : أفتأخذ
في رأسه يا أمير المؤمنين ؟ واغروقت عيناه وقال له سليمان : نعم ، فخذ ، فقام موسى
فأخذه ، وجهه في طرف لحيته الذي كان عليه ، ثم أدير في السباطين^(٤) ، فوقع الطرف
الآخر عن منكبيه ، وهو يجره لا يحفل به ولا يرفعه . فقال له خالد بن الريان : ارفع
ثوبك يا ابن نصر ، فالتفت موسى وقال : ما أنت وذلك يا خالد . قال سليمان : دعه ،
حسبه ما قلنا به : فلما توارى موسى قال سليمان : دعه إن في الشيخ لبقية جد . ثم إن
موسى التفت إلى حبيب بن أبي عبيدة فسلمه بكلام غليظ حتى ذكر أمراً خيافاً من نسيبه
فأخذه ثم إن سليمان كشف عن أمر عبد العزيز ، فألقى ذلك باطلا ، وأن عبد العزيز
لم يزل صحيح الطاعة ، مستقيم الطريقة ، فلما تحقق عند سليمان باطل ما رافع إليه عن
عبد العزيز ندب ، وأمر بالوفد فأخرجوا ، ولم ينظر في شيء من حوائجهم ، وأهدر عن
موسى بقية القضية ، التي كان سليمان قاضاه عليها ، وكان سليمان قد آلى قبل خلافته ، لأن
ظفر بالحجاج بن يوسف وموسى بن نصير ليزولهما ، ثم لا يلبث معه من أمور الناس شيئاً .
فلما رضى عن موسى جعل يقول : ما ندمت على شيء ندامتي ، أن لا كنت خلواً من
اليمين على موسى في أن لا أوله شيئاً ، ما مثل موسى استخفى عنه .

قال : وإن موسى دخل على سليمان في آخر يوم من شعبان عند الغرب ، وهو
مستشف على سطح وعنده الناس . فلما رآه سليمان قال : عندكم والله من إن سألتموه عن
الهلل ليخبرنكم أنه قد رآه وقد غمّ الهلال يومئذ على سليمان والناس . فلما دنا موسى وسلم
قال له سليمان أرايت الهلال بعد يا موسى ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ها هو ذلك ، وأشار
بأصبعه إلى ناحية ، وهو مقبل على سليمان بوجهه ، فرمى الناس بأبصارهم حيث أشار موسى ،
فأبصروا الهلال فلما جلس موسى قال إني والله لست بأحدكم بصراً ، ولكني أعلمكم
بطلانه ومناسقه^(٥) . وقال : فخرج فلقبه يزيد بن الهلب ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ،

(١) الجف : البعد

(٢) الحمام بكسر الحاء : اللوت .

(٣) العبد الصالح : يتقرباً بـ يوسف عليهما السلام قالما بدأنا خبره أخوة يوسف بما حدث ليوسف

(٤) السباطان : الثوبان اللذين تحت القمص .

(٥) مناسقة : طرفة ومساواته .

بيناً أنت أدهى الناس وأعلمهم ، أقبلت تسوق نفسك حتى تضعها في يد سليمان : قال له موسى : أما علمت يا أبا خاله ، أن المدهد يبتدى إلى الماء ويرفه من الأرض القضاء ومن الحزونة والسهل ، ويصر القريب منه والبعد ، ثم ينصب له الصبي القبع بالهودة وما أشبهها ، فلا يصر ذلك حتى يقع فيه فيؤخذ ؟ وذلك أنه لا حذر ينجي من قدر ، ولا رأى ولا حصر ، وكذلك كنت وسليمان بن عبد الملك .

قال : وذكروا أن سليمان خرج يوماً إلى بعض أمواله منزهاً فخرج معه موسى بن نصير ، فمرضت عليهم غم حلب ، نحو من ألف رأس ، فأعجب سليمان ما رأى منها ، والتفت إلى موسى ، فقال له : هل رأيت مثلاً قط ؟ قال : نعم ، إن لأدنى موالى لأصنافاً كثيرة ، فالتفت إليه سليمان ، وقال له : أدنى مواليك ؟ قال : نعم فردّها سليمان كالنصب عليه . قال موسى : نعم يا أمير المؤمنين ، وما هذا فيما آفاه الله عز وجل على يدى ، لقد كانت الألف تباع بشرة دراهم أو دونها ، ولقد كانت في بعض الموالين وما لها قيمة ، ولا يلتفت إليها أحد يا أمير المؤمنين ، وفيه ذلك مما آفاه الله عليهم ، ولقد رأيت السلج العتل^(١) ، والوصيف الفاره^(٢) ، والجارية الحسان ، وإن أكثر ما تبلغ خمسين درهماً ، لكثرة ذلك من صنوفه كلها . ولقد رأيت الهود^(٣) من الإبل ، لا تبلغ قيمته عشرين درهماً ، أكثر يا أمير المؤمنين ما أعلنتك فيما تسمع ؟ قال سليمان : لا ، وحمد الله .

قال : وذكروا أن موسى دخل على سليمان يوماً وعنده الناس ، فلما رآه سليمان قال : ذهب سلطان الشيخ ، وأجصره موسى حين تكلم ، فلم يفهم ما قال فلما سلم قال : يا أمير المؤمنين رأيتك لما نظرتني داخلًا تسكمت بكلام غثتلك عنتني به . قال : نعم . قلت : ذهب سلطان الشيخ . قال له موسى : أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ لقد آثر الله به في دينه أثرًا حسنًا ، ولقد كنت طول الجهاد في الله حريصًا على إظهار دين الله ، حتى أظهره الله ، وكنت بمن أتم الله به موعدة نبيه ، ولئن أدبر منك ، لقد كان مع آياتك ناصر الصن ، ميمون الطائر ،

-
- (١) السلج : الرجل الكافر من الأعاجم ، والعتل : الجاني التليظ القوى : يريد من العبيد الذين أسروهم جيش موسى وكانوا يباعون في هذا الزمان .
(٢) الوصيف : الخادم ، والفره : الحاذق الماهر القوى .
(٣) الهود : من الثلاثة إلى العشرة من الجمال وقيل إلى ثلاثين .

فقال سليمان : هو ذاك . فقال موسى : وهو ذاك ، فلم يزل يرددّها سليمان ، ويردّها موسى حتى سكّت سليمان .

سؤال سليمان بن عبد الملك موسى عن أخباره وأفعاله

قال : وذكروا أن سليمان قال لموسى : ما الذى كنت تفزع إليه فى مكان حربك من أمور عدوك ؟ قال : التوكل ، والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين . قال له سليمان : هل كنت تتعج فى الحصون والحدائق ، أو كنت تخدق حولك ؟ قال : كل هذا لم أفعله . قال : لما كنت تعمل ؟ قال : كنت أنزل السهل ، وأستثمر الخوف والصبر ، وأحصن بالسيف والنفر ، وأستعين بالله ، وأرغب إليه فى النصر . قال له سليمان : فمن كان من العرب فرسانك ؟ قال حمير . قال : فأى الخيل رأيت فى تلك البلاد أصبر ؟ قال فخرها . قال : فأى الأمم كانوا أعداء قتالا ؟ قال : إنيهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم . قال له : أخبرنى عن الروم . قال : أسود فى حصونهم ، عقاب على^(١) خيولهم ، نساء فى مواكبتهم^(٢) إن راوا فرصة اقترصوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال^(٣) ، ترقل فى أجيال ، لا يرون حاراً فى هزيمة تكون لهم منجاة . قال : فأخبرنى عن البربر . قال : هم يا أمير المؤمنين أشبه الصيم بالعرب : لقاء ونجدة ، وصبراً وفروسية ، وسباحة وبداية ، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدر . قال : فأخبرنى عن الأشبان . قال : ملوك مترفون ، وفرسان لا يجنون . قال : فأخبرنى عن الإفريج . قال : هناك يا أمير المؤمنين المدد والمدة ، والجلد والشدة وبين ذلك أمم كثيرة ، ومنهم العزيز ، ومنهم الدليل ، وكلا قد لقيت بشكلك ، فمنهم للسلع ، ومنهم المطارب للقهور ، والمزير البذوخ^(٤) . قال : فأخبرنى كيف كانت الحرب بينك وبينهم ، أكانت عقاباً^(٥) ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، ما هزمت لى راية قط ، ولا غصت لى جمع ، ولا نكبت المسلمون معى نكبة ، منذ اقتضمت

(١) العقاب : جمع عقاب وهو طائر سريع الطيران يريد أنهم سرّبو الجرى على خيولهم كأنهم يطرون كالعقبات .

(٢) يجمعون كالنساء .

(٣) الأوعال جمع وعل وهو تيس الجبل ، وترقل : تسرع ، والأجيال : الجبال ، والراد أنهم سرّبو الحرب إذا خافوا قروا سراها .

(٤) البذوخ : للتكبر .

(٥) أى كانت معاقبة تقتصر وتهزم .

الأريين ، إلى أن شارفت الثمانين . قال : فضحك سليمان وقال : فأين الربة التي حملتها يوم مرج راحط^(١) مع الضحاك ؟ قال : تلك يا أمير المؤمنين زيرية ، وإنا عنيت الروائية . فقال : صدقت ، وأصعبه قوله .

وذكروا أن محمد بن عبد الملك حدثهم عن ريان بن عبد العزيز بن مروان قال : إنا جلوس عند سليمان وهو على سطح فسبح ، والناس يدخلون حتى دخل موسى من الباب ، فحرك بنا سقف السطح من شدّة وطئه ، فلم ثم جلس ، فذكر سليمان بيت الذهب الذي فيه تقيّة بن مسلم ، فجعل يردّد فيه . فقال له موسى : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ بيت لا يكون فيه حشرة آلاف دينار ، والله لقد بشت إلى أخيك الوليد بنور من زبرد أخضر ، يسبّ فيه البين فيخسر وإنه لن أدنى ما بشت به إليه . وقد أميت كذا وكذا ، وأصاب السلون كذا وكذا ، وجعل يحدث سليمان بالسباب . قال ريان : حتى والله أبته . ولم يزل موسى ياب سليمان عظيم اللزّة عنده . فلما كانت سنة ثمان وتسعين تجهز سليمان للحجّ ، وأمر موسى بالخصوس والحجّ معه ، فذكر له أنه ضيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقوره^(٢) جهازاً ، وبمحمرة من جبره وجائزة ، لحجّ سليمان ، وحجّ معه موسى ؛ فينما هو يسير يوماً إذ دعا موسى ، فناداه خالد بن الريان ، وكان موسى يسير رجلاً ، فلم يلتفت موسى إلى نداءه ، ثم دعا به ، فناداه خالد أيضاً ، فلم يلتفت إليه . فقال له الرجل : غفر الله لك ، ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟ إني أخافه وأخاف أن يخضب . فقال موسى : ذلك لو كان عبد الملك أو الوليد . فأما هذا فإنه يرصيه ما يرضى الصبي ، ويسخطه ما يسخطه ، وسترى ذلك . ثم تقدم موسى حتى لحق ولحق بسليمان . قال له : أين كنت يا بن نصير ؟ قال له : يا أمير المؤمنين أين دوابنا من دوابك ؟ إني لندّ دعائي أمير المؤمنين لنّي كذا ، حتى لحقت أمير المؤمنين ، فضحك سليمان وأمر له بدواب من مراكبه ، فسار به وحده ، ثم انصرف عنه ، فلحق الرجل به . قال له موسى : كيف رأيت ؟ قال : أنت كنت به أعلم ، فسار سليمان حتى نزل المدينة في دفر يزيد بن رومان .

(١) مرج راحط : موضع بالشام كانت فيه موقعة بين أتباع عبد الله بن الزبير وأتباع الأمويين مزّم فيها الزبيريون ، وكان الضحاك بن قيس قائد الزبيريين فيها وكان موسى بن نصير تحت قيادة الضحاك ؛ يقول سليمان لموسى فكيف تقول لم تهزم لك ربة وقد هزمت في موقعة مرج راحط ؟ فقال له إنما كنت يومها مع الزبيريين لأمع الأمويين .

(٢) موقوره : محمّة .

قال : خدني بعض أهل المدينة ، أن موسى قال يوماً لبعض من يقب له ليجوزني إلى يومين رجل قد بلغ ذكره للشرق والغرب ، فلم نظن إلا أنه من الحليفة ، فلما كان اليوم الثاني ، لم أصر وأنا في مسجد الرسول ، حتى سمعت الناس يقولون : مات موسى بن نصير ، فلذا هو ، وصلي سليمان عليه ، ودفن رحمه الله .

وذكروا أن عبد الله بن سخر أخبرهم قال : بينا موسى يسير يوماً على دابة له ، وكان طويلاً جسيماً ، فرآه رجلان من قريش : وقد تملت وجهه وأصمته ، وما لا يعرفانه . فقالا أدبر والله الشيخ ، فسمعا موسى ، فقال لهما : من أنتما ؟ فاستبأه . قال : أما والله إن أسيكاً لما إله الله على يدى هذا الشيخ : فأهدىنا إلى أبيوكا . ، فقالا له ؟ ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : موسى بن نصير ، فقالا ، فرحباً وأهلاً ، صدقت وبررت ، والله ما عرفناك : قال : لا عليكما ، قد والله أدبر عنى وبقي منى .

وذكروا أن إبراهيم بن سليمان أخبرهم عن حدثه عن موسى ، أن الناس تسفلوا بأفريقية علماً ، فخرج موسى بالناس فاستسقى ، فأمر رجلاً قص طي الناس وروقتهم ، فجعل يذكر ، ثم إنه انتهى في البقاء للوليد بن عبد الملك فأكثر . فأرسل إليه موسى : إننا لم نأت ههنا للعداء للوليد ، فأقبل على ما له جثا فعدنا ، فلم يثبت ، ورجا أن يبلغ الوليد ، فأمر به نسج ، حتى خرج من الناس ، ثم قام موسى ودعا بالناس ، لما يرحنا حتى انصبت السماء بمثل القرب ، فأخى موسى بداية من دوابه . فقال : والله لأركبت ، ولكن أخوض الطين ، وانصرف ماشياً ، ومضى الناس ، فسمعت يومئذ يردد في دعائه : اللهم الشهادة في سبيلك ، أو موتاً في مدينة رسولك .

قال فذكروا أن عرفة بن عكرمة حدثهم عن مشايخ من مراد عن رجل منهم كان مع موسى بالأندلس قال : كنت أبصر من مجرى الشمس والقمر شيئاً ، فوقع في عند موسى ، وقبل له عنده علم ، فوالله ما حضرت حتى أتيت فأخذت ، فأدخلت عليه ، فلذا بين يديه صفور مذبوب ، مشقوق البطن قال لي : أدخل يدك فانظر . قلت : أصح الله الأمير : طلعت امرأته ألبنة إن كان يعلم قليلاً أو كثيراً ، إلا ما يعلم الناس من مجرى الشمس والقمر . قال : فأمرني ففعلت ، ثم دعا برجل من الأماجم ، قال : أدخل يدك ، فانظر ماذا ترى ، وكان من الأسارى ، فأدخل يده في جوف الصفور ، فخرس طويلاً ، ثم قلبه ، ثم قال للرجل انظر : إنه ليس يموت ها هنا ، ولكنه يموت بالشرق في بلاد العرب ، فنظر إليه موسى ، ثم قال له : فانظرك الله ما أعطاك ، قال : ثم أمر به فقتل ، ثم دعاني ، فأخذ عليّ الأيمان أن لا أنسك به ما جرى ،

(١) يعني فلذا الذي عنده موسى بالرجل الذي بلغ ذكره للشرق والغرب هو نفسه .

فعلت . وكان دخول موسى القرب سنة تسع وسبعين ، في جمادى الأولى ، وكان يومئذ ابن ستين سنة ، فأقام بأفريقية ستة عشرة سنة ، وقفل منها سنة خمس وتسعين ، ومات سنة ثمان وتسعين ، وولى عبد الله بن موسى بأفريقية وطنجة والسوس ، بعد موسى أبيه ستين ، وكان عزله عنها في ذي الحجة ، سنة سبع وتسعين ، وقيل سنة تسع وتسعين .

ذكر ولادة الأندلس بعد موسى بن نصير

قال : وذكروا أن عبد العزيز بن موسى ولى الأندلس بعد أبيه سنة ، ثم قتل ، وولى بعده أيوب بن حبيب سنة أشهر ، ثم الحارث بن عبد الرحمن ثلاث سنين ونصفا ، ثم عنبسة ستين وتسعة أشهر ، ثم يحيى بن مسلمة سنة وثلاثة أشهر ، ثم الميثم بن عبيد سنة وعشرين ، ثم عبد الرحمن ابن عبد الله التافى أربع سنين ، ثم عبد الملك بن قطن الفهري أيضاً سنة ، ثم بلج بن بشر القشيري سنة أشهر ، ثم ثلبة بن سلامة الجذابي خمسة أشهر ، ثم أبو الخطار بن ضرار الكاهي ثلاث سنين ، ثم ثوبان بن مسلمة سنة وعشرين .

فما وهن سلطان بني أمية بالشرق ، ولوا على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن القرشي الأهري ، من خيرة عهد من الحليفة ، فملك الأندلس عشرين سنين ، إلى أن دخل عليه عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان .

ذكر حج سليمان مع عمر بن عبد العزيز

وذكروا أن عبيد الله بن عبد المؤمن أخبرهم عن رجاء بن حيوة : أنه لما حج سليمان بن عبد الملك ، ومعه عمر بن عبد العزيز ، وذلك في سنة ثمان وتسعين فلما انتهى إلى عقبة صلمان ، نظر سليمان إلى السرايا ، قد ضربت له ما بين الأحمر وأخضر وأصفر ، وكان يوسف بن عمر قد حمل له باليمن ثلاثة سرايا ، فكانت تضرب له ، وكان الذي منها لئاس من خمر أخضر ، والذي يليه من خمر أصفر ، ثم الذي يكون هو فيه من وشى أحمر ، هبر من لمبرات^(١) اليمن ، مزور بالذهب والفضة^(٢) ، وفي داخله فسطاط^(٣) ، فيه أربعة أفرشة من

(١) المبرات : نوع من برود اليمن أى من ثياب اليمن جميل الشكل.

(٢) مزور بالذهب والفضة : أى جعلت التوابيد التي نصب عليها من الذهب والفضة .

(٣) الفسطاط : الحليمة .

خز^(١) آخر ، مراقبتها من وثن^(٢) اسفر ، وضربت حبيب نساءه من وراء قسطاطه ، وحبر بليه وكتابه وحشمه قرب ذلك . فلما استوى سليمان في قبة العتبة ، ونظر إلى ما نصب له . قال : يا عمر ، كيف ترى ها هنا ؟ قال : أرى دنيا عريضة ، يأكل بعضها بعضاً ، أنت للثول عنها ، ولأأخذ بها ، فيبئها مما كذلك ، إذ طار غراب من سراقق سليمان ، في منقاره كسرة ، فصاح التراب . فقال سليمان : ما يقول هذا التراب يا عمر ؟ قال عمر : ما أدرى ، ولكن إن عشت أخبرتك بلم . قال سليمان : أخبرني . فقال عمر : هذا غراب طار من سراقق بكسرة ، هو يأكلها ، وأنت للأخذ بها ، وللثول عنها من أين دخلت ، وأين خرجت ؟ قال سليمان : إنك لتجىء بالسجاب يا أبا حصص . فقال عمر : أفلا أخبرك بأعجب من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : أخبرني . قال من عرف الله تعالى كيف يصاه ، ومن عرف الشيطان كيف يطبعه ، ومن أيقن بالوث كيف يجنيه اليبس ويسوخ له الطعام ، ومن أيقن بالثر كيف يمشك ، أقاتل سليمان : ننتص علينا ما نحن فيه يا أبا حصص ، ومن يطبق ما تطبق أنت يا عمر ؟ أنت والله للوفى للطبع .

ما قال طاووس الجاني لسليمان بمكة

قالوا : إن إبراهيم بن مسلم أخبرهم عن رجاء بن حيوة ، أنه نظر إلى طاووس الجاني صلى في المسجد الحرام ، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام . فقال : إنى رأيت طاووس في المسجد ، فهل لك أن ترسل إليه ؟ قال : فأرسل إليه سليمان . فلما أتاه قال رجاء لسليمان : يا أمير المؤمنين ، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذى يتكلم . فلما قصد طاووس سكنت طويلاً . ثم قال : ما أول شيء خلق ؟ قلنا : لا ندري . فقال أول شيء خلق : القلم . ثم قال : أندرون ما أول شيء كتب ؟ قلنا : لا ، قال : فلأن أول ما كتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم كتب القدر خيرته وشره إلى يوم القيامة . ثم قال : أندرون من أينض الخلق إلى الله ؟ قلنا : لا ، قال : إن أينض الخلق إلى الله تعالى عبد أمره الله في سلطانه ، فسل فيه بمصاحبه ، ثم نهض . قال رجاء : فأظلم على البيت ، فلما زلت خائفاً عليه حتى توارى ، فرأيت سليمان يحك رأسه يده ، حتى خفيت أن تخرج أطفاله لهم رأسه .

(١) الخز : الخور .

(٢) الوثن : للتقوى من الثياب أو القماش الزر كس .

ما قال أبو حازم سليمان

قالوا : وإن يحيى بن النخعي أخبر عن عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبي حازم ، قال : لما حجّ سليمان ، ودخل المدينة زائراً لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه ابن شهاب الزهري ورجاء بن حيوة ، فأقام بها ثلاثة أيام ، فقال : أما هاهنا رجل من أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قيل له : بل هاهنا رجل يقال له أبو حازم ، فبعث إليه ، فجاءه ، وهو أقور^(١) أعرج ، فدخل عليه ، فوقف منتظراً للإذن . فلما طال عليه الإذن : وضع عصيته ثم جلس . فلما نظر إليه سليمان : لاذرته عينه . فقال له يا أبا حازم . ما هذا الجفاء الذي ظهر منك ، وأنت توصف برؤية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع فضل ودين تذكر به ؟ فقال أبو حازم : وأيّ جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أثنى وجوه أهل المدينة وعلمائها وخيارها ، وأنت ممدود فيهم ولم تأتني . فقال أبو حازم : أهيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها . قال سليمان : صدق الشيخ ، فقال يا أبا حازم : ما لنا نكسر لثقتك ؟ فقال أبو حازم : لأنكم أخبرتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم ، فأنتم تكروهون الثقة من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت يا أبا حازم . فكيف التقدم على الآخرة ؟ قال : نعم ، أما الحسن فإنه يقدم على الآخرة كالتائب يقدم على أهله من سفر بعيد . وأما قدم للسوء فكالمعيد الآبق ، يؤخذ فيشد كفافه ، فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ ، فإن هاء عفا ، وإن هاء عكّب . فبقي سليمان بكاء شديداً ، وبكى من حوله . ثم قال : ليت همرى ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال : اعرض نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أصيب تلك العرة في كتاب الله ، قال عند قوله تعالى : (إن الأبرار لفي نعم ، وإن الفجار لفي جحيم) . قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين ، قال سليمان : يا أبا حازم من عقل الناس ؟ قال أبو حازم : أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمهما الناس . قال سليمان : فمن أحق الناس ؟ فقال : من حطّ في هوى رجل وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان : فما أسمع الدعاء ؟ قال أبو حازم : دعاء الحبّتين^(٢) الحاتمتين . فقال سليمان : فما أذكر الصدقة عند الله ؟ قال : جهد المقل^(٣) قال : فما تقول فيما اجتنبنا به ؟ قال : أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه أصليكم الله ،

(١) أقور : أعور .

(٢) الحبّتين : الحاتمتين لله التوكلين عليه .

(٣) أي صدقة الرجل الذي ليس بنبي ويصدق بما يسمح به دخله .

قال سليمان : نصيحة تلقيا . فقال : ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين ، ولا اجتباع من المسلمين ؟ فسكت فيه السماء الحرام ، وقطعت به الأرحام ، وعطلت به الحدود ، ونكتت به اليهود ، وكل ذلك على تنفيذ الطينة (١) ، والجمع لتلغ الدنيا المشقة ، ثم لم يلبثوا أن ارتحوا عنها ، فبالت شعري ما تقولون ؟ وماذا يقال لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بش ما قلت يا أمور (٢) ، أمير المؤمنين يستقبل بهذا ؟ قال أبو حازم : اسكت يا كذاب ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون ، إن الله قد أخذ على السماء لبيته للناس ولا يكتونه : أى لا يبدونه وراء ظهورهم . قال سليمان : يا أبا حازم : كيف لنا أن نصلح ما فسد منا ؟ فقال : للأخذ في ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين ، فاستوى سليمان جالسا من استكاته . فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأخذ المال من حله ، وتضعه في أهله ، وتكف الألف عما نيت ، وتضيق فيها أمرت به . قال سليمان : ومن يطيق ذلك ؟ فقال أبو حازم : من هرب من النار إلى الجنة ، وبذ سوء العادة إلى خير البادة . فقال سليمان : اصبر يا أبا حازم ، وتوجه معنا تصب منا وتصب منك . قال أبو حازم : أعود بالله من ذلك ، قال سليمان : ولم يا أبا حازم ؟ قال : أخاف أن أركن إلى الدين ظلموا ، فيضي الله ضعف الحياة ، وضعف للماة . فقال سليمان : فزورنا . قال أبو حازم : إنا عهدنا للولك يأتون العلماء ، ولم يكن العلماء يأتون للولك ، فصار في ذلك صلاح الفريقين ، ثم صرنا الآن في زمان صار العلماء يأتون للولك ، وللولك تصد عن العلماء ، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعا . قال سليمان : فأوصنا يا أبا حازم وأوجز . قال : اتق الله ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك من حيث أمرك . قال سليمان : ادع لنا بخير . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك غلب على الخير بناصيته . قال سليمان : زدني . قال : قد أوجزت ، فإن كنت وليه فاضبط ، وإن كنت عدوه فاضبط ، فإن رحمت في الدنيا مباحة ، ولا يكبها في الآخرة إلا لمن اتقى في الدنيا ، فلا تقع في قوس رمي بلا وتر . قال سليمان : هات يا غلام ألف دينار ، فأثله بها ، فقال خذها يا أبا حازم . فقال : لا حاجة لي بها ، لأنى غيرى في هذا المال سواء ، فإن سويت بيننا وعدلت أخذت ، وإلا فلا ، لأنى أخاف أن يكون مخا لما سمت من كلامي . وإن موسى بن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون ورد ماء مدين ،

(١) الطينة : الطبيعة الإنسانية والحلقة البشرية التي تحب السلطان وتمشق السيطرة .

(٢) أى يا أمور كما سبق .

ووجد عليه الجاريتين تنودان (١) . فقال : مالكما ميعين ؟ قالتا : لا ، فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل . قال ربّ إني لما أنزلت إلی من خير فقير ، ولم يسأل الله أجراً . فلما أبعيل الجارستان الانصراف (٢) ، أنكر ذلك أبوهما . فقال لهما : ما أبعيلكما اليوم ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً قوياً سقى لنا . قال : ما سمعته يقول ؟ قالتا : تولى إلى الظل وهو يقول ربّ إني لما أنزلت إلی من خير فقير . فقال يبين لهذا أن يكون جامعاً . تنطابق إحداكما له ، فنقول له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فأنت إحداها نعتي على استعفاء . أي على إجلال له : قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فجزع موسى من ذلك ، وكان طريداً في البياض والصحارى . فقال لهما : قولی لأبيك إن الذي سقى يقول : لا أقبل أجراً على معروف اصطنته ، فأصرفت إلى أبيها فأخبرته . فقال : انهي فتقولی له : أنت بالجوار بين قبول ما عرض عليك إلى وبين تركه ، فأقبل ، فإنه يحب أن يراك ، واسمع منك ، فأقبل والجارية بين يديه ، فهبت الريح فوصلتها له ، وكانت ذات خلق كامل . فقال لهما : كوني ورائي ، وارضي صمت الطريق . فلما بلغ الباب قال : استأذني لنا ، فدخلت على أبيها ، فضالت : إنه مع قوته لأمين . فقال حبيب : وبم علت ذلك ؟ فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها . فقال : أدخله فدخل ، فإذا حبيب قد وضع الطعام ؛ فلما سلم وحجب به وقال أصب من طعامنا يا فقير . فقال موسى : أعود بالله . قال حبيب : لم ؟ قال : لأنني من بيت قوم لا يبيع ديننا بعلم الأرض ذهباً . قال حبيب : لا والله ما طعامي لما تظن ، ولكنه عادي وعادة آبائي : تهرى الضيف ، ونطعم الطعام ، تجلس موسى فأكل . وهذه الفتاتير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمناً لما سمعت من كلامي ، فإن أكل للينة والله في حال الضرورة ، أحبّ إليّ من أن أخضعها . فأعجب سليمان بأمره إعجاباً جديداً . فقال بعش جلسائه : يا أمير المؤمنين ، إن الناس كلهم مثله . قال : لا . قال الزهري : إنه لجاري منذ ثلاثين سنة ، ما كلمته قط . فقال أبو حازم : صدقت ، لأنك نسيت الله ونسيتي ، ولو ذكرت الله لذكرتي . قال الزهري : أفتشتني ؟ قال له سليمان : بل أنت عتمت نفسك ، أو ما علمت أن الجار على الجار حقاً . قال أبو حازم : إن بني إسرائيل

(١) تنودان: ثمنان غنهما من السقي حق يستحق الناس وهذا إشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص عن موسى عليه السلام (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يستقون ووجد من دونهم إمرايين تنودان).
(٢) أي لما انصرفا بسرعة عن عاتهما.

لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء ، وكانت العلماء تفرّج بينهم من الأمراء ، فلما رأى قوم من أراذل الناس تعلموا العلم ، وأتوا به الأمراء ، استنبت الأمراء عن العلماء ، واجتمع القوم على اللصية ، فسقطوا وهلكوا ، ولو كان علماءنا هؤلاء يسونون عليهم ، لكانت الأمراء تهابهم ، وتمنّهم . فقال الزهري : كأنك إياي تريد ، وبني تفرّج ؟ قال : هو ما سمع . قال سليمان : يا أبا حازم عظمي وأوجز . قال : حلال الدنيا حساب ، وحرمانها عذاب ، وإلى الله الباب فابق عذابك أودع . قال : قد أوجزت ، فأخبرني ما مأكلك ؟ قال : الثقة بدينه ، وللتوكل على كرمه ، وحسن التظنّ به ، والصبر إلى أمله ، واليأس مما في أيدي الناس . قال يا أبا حازم : لرفع إلينا حوائجك ؟ قال : ورفعتها إلى من لا تغفل عنه ، لما أعطاني منها قبلت ، وما أمسك عن رضيت ، نعم أني قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يشول إلى عشرين : أحدها لي ، والآخر لغيري . فلأما ما كان لي ، فهو احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أو أنه وحينه الذي قد قدر لي . وأما الذي لغيري : فذلك لا أطعم فيه ، فكأمنني رزقي غيري ، كذلك منع غيري رزقي ، فلام أقل قسسى في الإقبال والإدبار ؟ قال سليمان : لا بد أن ترفع إلينا حاجة تأمر بقضائها . قال : فقصها ؟ قال : نعم ، قال : فلا تعطني هبة حتى أسألك ، ولا ترسل إليّ حتى آتيك ، وإن مرضت فلا تعدي ، وإن مت فلا تعبدني . قال سليمان : أيت يا أبا حازم أيت^(١) ، قال : أتأذن لي أصلحك الله في القيام ، فإني شيخ قد زَمِنْتُ^(٢) . قال سليمان : يا أبا حازم : مسألة ما تقول فيها ؟ قال : إن كان عندي حلم أخبرتك به ، وإلا فهذا الذي عن يسارك . يزعم أنه ليس شيء يسأل عنه إلا وعنده له علم ، يريد محمد الزهري ، فقال له الزهري : عاهد بالله من شرك أبها لله . قال : أما من شرّي فستعفى ، وأما من لساني فلا . قال سليمان : ما تقول في سلام الأئمة من صلاتهم : أواحدة أم اثنتان ؟ فإن العلماء لدينا قد اختلطوا علينا في ذلك أخذ الاختلاف ؟ قال : على الخير سقطت ، أربيك في هذا بخير هاف .

حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه سعد ، أنه شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم في الصلاة عن يمينه ، حتى يُرى يابض خده الأيمن ، ثم يسلم عن يساره ، حتى يرى يابض خده الأيسر ، سلاماً يجهر به . قال عامر : وكان أبي يعمل ذلك .

(١) أيت : يريد استنصت عن طلب شيء منه أنقصه لك .

(٢) زمنت : حلفت وعجزت .

وأخبرني سهل بن سعد الساعدي : أنه رأى عمر بن الخطاب وابن عمر يسلان من الصلاة كذلك . فقال الزهري : أعلم ما تحدث به أيها الرجل ، فإن الحديث عن رسول الله صعب شديد إلا بالتبني واليقين . قال أبو حازم : قد علمته ورويته قبل أن تطلع أضراسك في رأسك . فالتفت الزهري إلى سليمان قال : أصلحك الله . إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، فضحك أبو حازم . ثم قال : يا زهري ، أحطت بحديث رسول الله كله؟ قال : لا . قال : ثلاثة أرباعه؟ قال : لا ، قال : فكله؟ قال : أرائي ذلك قد رويت وبلغني . فقال أبو حازم : فهذا من التثنية التي لم يملك ، وبقي عليك سمعه . فقال سليمان : ما ظلمك من حاجتك ، ثم قام مأذونا له . فأتبه سليمان بصره ، ينظر إليه ، ويصيح به . ثم التفت إلى جلسائه فقال : ما كنت أظن بقي في الدنيا مثل هذا . قال : ثم انصرف سليمان من الحج قافلا إلى الشام .

وذكروا أن غلاماً لسليمان نازعوا غلاماً لعمرو بن عبدالمزني ، فمدى غلمان عمرو على غلمان سليمان ، فرفع ذلك إلى سليمان ، وأغرى بصره . فقال له سليمان : ألا تصف غلماناً ، وهو كالنضب مما قبل بهم ؟ فقال عمر : ما علمت هذا قبل هذا الوقت ، وما سمعت هذا إلا في مقامى هذا . فقال سليمان : كذبت قد علمته . فقال عمر : كذبت والله ما كذبت ولا تصدقت كذباً منذ شدت مئزري على نفسي ، وإن في الأرض عن مجلسك لسمعة ثم خرج عمر ، فجهز وهو يريد مصر ليكتبها ، فبلغ ذلك سليمان ، فقدم على ما كان من قوله ، وأرسل إليه أن لا يرجع ، وأمر رجلاً يقول له : لا تعاقب أمير المؤمنين على قوله ، ولا تذكر له هذا ، فترك عمر الخروج وجلس ، وأقبل الاختلاف إلى سليمان .

ذكر وفاة سليمان واستخلافه عمر بن عبد المزني

قال : وذكروا أن خلفه بن أبي عمران أخبرهم ، وكان قد أدرك القوم . قال : مرض سليمان مرضه الذي مات فيه ، وذلك في شهر صفر سنة تسع وتسعين ، فدخل عليه عمر بن عبد المزني عائداً ، فدعا سليمان بين له مناراً ، فقدم السيوف ، فرفعوا في الأرض . فقال سليمان : قد أفلح من كان له بنون كبار . فقال عمر : ليس هكذا قال الله . فقال سليمان : وكيف قال الله ؟ فقال عمر : قال الله تعالى (قد أفلح من تزكى) وذكر اسم ربه فضلي ، قال سليمان : إني أريد أن أعهد إليك ، وأوليك أمور الناس يمدى . فقال عمر : لا حاجة لي بذلك . فقال سليمان : ولم ذلك ؟ فقال : لأنني لأريد أخذ أموالهم ، فإذا لم أردأخذ أموالهم ، فما الذي يدعونى إلى ضرب ظهورهم ؟ فقال سليمان : لابد من هذا . فقال عمر : ولم ذلك ؟ ولك في واه عبدللك

سعة ، فأعفى من هذا سيف الله عنك . قال له سليمان : والله لا أوليا غيرك بدى . قال عمر : وما الذى يدعوك إلى هذا ؟ قال سليمان : إني رأيت في منامى قاتلا يقول لى : إن عمر بن عبد المزمز لك جنة ووقاية وجسر تتخطاه . فأولت ذلك - إن شاء الله - أن أوليك الأمر من بدى ، فلكون توليت لك جنة من النار ، وجسراً أركبه ، لأجوعليه من عذاب يوم القيامة ثم ليؤبد بدلك ، فإنه أرحم ولد عبد الملك . قال عمر : إن هذا الأمر لا يسنى بينى وبين الله عز وجل ، أن أقسم على أمة محمد ، وفيهم خير منى . قال سليمان : أما فى آل أمية وعبد حمس فلا أعلم خيراً منك . قال عمر : ، إن لم يكن فى آل أمية وعبد حمس خير منى بقولك ، ففى آل عبد مناف وآل هاشم من هو خير منى . قال سليمان : لا ، قال عمر : ففى آل تميم وعدى خير منى ، ومله الأرض مثلى . قال سليمان : إنما تريد القاسم وسالما ؟ قال : نعم ، لإيها أردت . قال سليمان : رجلان صالحان ذكرت ، ولكنهما ليسا لللك ، ولا لللك لهما ، ولا من معدن لللك هما ، مع أنه ليس بزمان خلافة ، ولا أعلم بملك فيها مثل القاسم وسالم ، إنما هو زمان ملك وسيف وإنما هى ذئاب تصدو ليست على غنم تؤمن : قال عمر : الله اللعين ، الصلح لئن أراده . فسكت سليمان ، وطمأن أن عمر رضى بما قال له ، ثم دعا سليمان بصحيفة ثم كتب وبده ترصص من شدة الغلة ، لا يعلم أحد بما يخط ، فكتب عهد عمر ، ثم من بدى عمر ليزيد ، ثم ختم عليه بيده ، متعاملاً لذلك ، وعمر لا يشك أن الأمر فيه قد صار لغيره ، ثم دعا سليمان رجاء بن حيوة ، فقال له : خذ هذا الكتاب فإنه عهدى ، فاجمع إليك قريشاً ، وأمرأه الأجناد ، وأعلمهم أنه عهدى ، وأن من كان اسمه فى كتابى هذا فهو الخليفة بدى ، فمن نزح عن ذلك وأباه ، فالسيف السيف ، والقتل القتل ، ثم رفع سليمان يديه إلى السماء فقال : اللهم إن ذنوبى قد عظمت وجلت ، وهى شيرة يسيرة فى جنب عفوك ، فاعف عني يا من لا تنصره الذنوب ، ولا تنقصه الثفرة ، لعف عني ما بينى وبينك من الذنوب ، واحمل عني ما بينى وبين خلقك . وأرضهم بما حدثت ، يا أرحم الراحمين . اللهم إن كنت تعلم منى وتطلع من ضميرى ، أنى إنما أردت بهدى هذا وتوليقي من وليت فيه وجهك وروحك فأعفنى وارحمنى . ثم غطخل لسانه . فلم يبق على الكلام من قتل الغلة ، ثم سكت وأغشى عليه . قال رجاء : غرقت وعمر منى . فقلت له : ما أراك إلا صاحب الأمر ، قال عمر : ما أحسب ذلك . فقلت : ومن عسى أن يكون فى آل مروان من يريد سليمان توليته غيرك ؟ قال عمر : ما أراه عهد إلا لأحد الرجلين : القاسم أو سالم . قال رجاء : فقلت له أصبحت ذلك منه ؟ قال عمر ما سمعته ، ولكن دار بينى وبينه كلام آتياً قبل دخلتك ، لا أشك أنه أراد أحدهما . قال رجاء : فقلت والله هذا الاختلاف فى أمة محمد ، والفتن الظاهرة القاسمة للظهور ، للفنية للأفئس . قال عمر :

ولم ذلك ؟ فقال رجاء : لأن قريشاً ونحوها لا ترضى بهذا ، ولا يصير إليه ، ولا آل أمية
وعبد حمص حيث كانت من الأرض . فقال عمر : إن الأمر لله من قبل ومن بعد ، يؤتى الملك
من يشاء . فقال رجاء : فخرجت إلى الناس وأعلمتهم بهد أمير المؤمنين . قالوا جميعاً وطاعة ،
ثم أعلمتهم بأنبأه ورغبته إلى الله ، وما قال ، فلم يشك الناس أن عمر بن عبد العزيز
صاحبهم ، فأرادوا أن يسلموا عليه بالخلافة ، وذلك لما أيقنوا بهلاك سليمان . فقلت لهم : لا تسلموا
فإن عمر قال لي أرى سليمان ما أراد إلا القاسم أو سائلاً ، وهذا أظن مني بهذا الأمر لأنه كان
حاضراً ، وسليمان يكتب العهد بيده ، فنج الناس من ذلك واختلوا . فقلت فرقة : سمينا
وأطعنا ، لمن استخلف علينا ، كان من كان . وقالت فرقة : لا ، والله لا نقر بهذا ، ولا نطيعه
ولا يستخلف علينا إلا مرواني ، ولا تبقى منا عين تطرف في الدنيا . فقال رجاء لعمر : كيف
ترى قولي ، والله لئن كان هذا إنه لهو البلاء اللين ، وإنها الفتنة قد فتح بابها . فقال عمر :
أرجو الله أن يخلقه إن شاء الله . قال رجاء : فقلت لعمر : ما نحن صانعون إن كان هذا ؟ فقال
عمر : لا أدري ما أقول في موقفى هذا . قال رجاء : ولم ؟ فقال عمر : لأنى والله ما وقفت
موقفاً قط ، لا رأى لي فيه ولا بصيرة ، إلا موقفى هذا ، فإني قد أجدتى قد ذهب روعى (١) ،
وقد تد رأتى ، ولا أدري ما أستقبل من أمرى ، ولا ما أستدبر ، ولو استطلعت الفرار للفررت
من موضعى هذا ، حيث لا أحرك ولا أرى : قال رجاء : فلما قالونى بهذا علمت أنه الذى قال
من فقدته لأبيه وبصيرته . قال رجاء : فقلت له يا أبا حفص ، فأين نحن من المذبح إلى الله ،
والرغبة في الصلاح علينا وعلى المسلمين ، ويمزم لنا على ما فيه الخير والخير ؟ فقال عمر :
بلى والله هذا الملبأ وهذا الحصن الحصين والملك الشديد . قال رجاء : فبتنا ليلتنا لا نألوأ على
أنفسنا في الدماء ، والاستخارة لله . فلما أصبحنا قلت لعمر : ما ترى يا أبا حفص ؟ فقال : أرى
أن اسمع وأطع لمن في هذا الكتاب فإن كان أحد الرجلين قلم سميت له وأطعت ، ورددت
من أدبر عنه بمن أقبل عليه حتى أموت . قال فبينما هما كذلك إذ أقبل وصيف يسمى إليهما
يقول : قد قضى أمير المؤمنين نحبه ، فخرجاً ، فإذا بالعويل والنوح ، فرجأ إلى المسجد فوجد
فراقصهما ، والناس يسلمون على عمر بالخلافة وهو يقول : لست به ، حتى دخل المسجد ،
وقد اجتمع الناس ، وهم مستعدون للفتنة والقتال ، إن خالف العهد ما يريدون . فقام رجاء
إلى جانب المنبر : فحمد الله ، وحسب الناس على الطاعة ، ووزم الجماعة ، وأعلمهم بما في الفرقة

(١) الزوع : بضم الزاء القلب أى ذهب عقل وضاعت فطنتى .

(٢) الخير : الاختيار .

والاختلاف ، من ذهاب الدين والدنيا ، ثم أخرج العهد ، ففضه بحضر منهم ، ثم قرأه عليهم .
فلذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ،
وخليفة المسلمين عهد أنه يشهد الله بالربوبية والوحدانية ، وأن عمداً عبده ورسوله ، به إلى
عصبي عباده بشيراً ، وإلى مذهبهم نذيراً ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق مخلوقتان ، خلق
الجنة رحمة لمن أطاعه ، والنار عذاباً لمن عصاه ، وأوجب المفلح عفا عنه ، وأن إبليس
في النار ، وأن سليمان مفر على نفسه بما يمل الله من ذنوبه ، موجب على نفسه استحقاق
ما خلق من النعمة راجع لما وعد من الرحمة والنفرة ، وأن المقادير كلها خيرها وشرها من الله ،
وأنه هو الهادي وهو الفائز ، لم يستطع أحد أن يخلق الله لرحمته غواية ، ولأن خلق لذابه
هداية ، وأن الفتنة في القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذي أرسل إلى أمته حق يقين ، لا منجى
لن يخرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة . وسليمان يسأل الله بوسع فضله وعظم منته ،
الاثبات على الحق عند تلك المسألة ، والنجاة من أحوال تلك الفتنة ، وأن البرهان حق يقين ،
يضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه
فأولئك هم الخاسرون ، وأن حوض عهد صلى الله عليه وسلم يوم الحضر والموقف حق ، عدد
آيته كنجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ أبداً . وسليمان يسأل الله برحمته أن لا يرد عنه
عطشان . وأن أبا بكر وعمر خير هذه الأمة ، بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، والله يعلم بعدها
حيث الخير ، وفيمن الخير من هذه الأمة ، وأن هذه الشهادة المذكورة في عهده هذا ، يملها
من سره وإعلانه ، وعقد ضميره ، وأن بها عبديه في سالف أيامه ، وماضي عمره ، وعليها
أناه يقين ربه ، وموفاه أجله ، وعليها يمتد بعد الموت إن شاء الله ، وأن سليمان كانت له بين
هذه الشهادة بلأيا وسيئات ، لم يكن لها محبس ، ولادونها مقصراً^(١) بالقدر السابق والملم الناقد
في حكم الوحي ، فإن يصف ويصلح ، فذلك ما عرف منه قديماً ، ونسب إليه حديثاً ، وتلك الصفة التي
وصف بها نفسه في كتابه الصادق ، وكلامه الناطق ، وإن يبالغ ويتقم فيها تهمت عدا ، وما الله
بظلام للعبيد ، وإن أخرج كل من قرأ هدى ، وسمع مائه من حكمة ، أن ينتهي إليه في أمره
ونبيه ، بأهل العظم ويعتمد على الله عليه وسلم ، وأن يدع الإحن^(٢) ، وأخذ بالكلم ، ويرفع يديه
إلى السماء بالابتغال الصحيح ، والثناء الصريح ، يسأله المفلح عني ، والنفرة لي ، والنجاة من
نزعني ، والمسألة في قبري ، لعل الودود أن يحمل منكم حجاب الصخرة بما على من صفحه يمود

(١) مقصر : يفتح للم وسكون القاف : إنباد واتهاء

(٢) الإحن : الضغائن والاحتقاد

إن شاء الله . وإن وليّ عهدي فيكم ، وصاحب أمري بعد موتي ، في كل من استخلفني الله عليه ، الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ابن عمي لما بلوت من باطن أمره وظاهره ، ورجوت الله بذلك وأردت رضاه ورحمته إن شاء الله ، ثم يزيد بن عبد الملك من بعده ، فإنّي ما رأيت منه إلا خيراً ، ولا اطمئن له على مكروه ، وصغار ولدي وكبارهم إلى عمر ، إذ رجوت ألا يألوهم رشدًا وصلاحاً ، والله خليفتي عليهم ، وهو أرحم الراحمين ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله .

ومن إني عهدي هذا وخالف أمري فالسيف ، ورجوت أن لا يخالفه أحد ، ومن خالفه فهو ضالّ مضلّ يستعذب^(١) فإنّ أعتب ، وإلا فالسيف ، والله للستمان ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان .

أيام عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا عن خالد بن أبي عمران أنه قال : إني لحاضر يوم قرئ عهد سليمان في المسجد بدمشق على الناس ، فما رأيت يوماً أكثر باكياً ولا داعياً له بالرحمة من ذلك اليوم ، فلم يبق محب ولا مبغض ولا خارجي ولا حروري^(٢) إلا أخذ الله له بقاويهم ، وابتهاوا بالله عامه وأخلصوا له بالسؤال بالغلو من الله ، ورضى الناس أجمعون فعله ، قال خالد : ثم بايع الناسوا لعمر في المسجد ليلة ثامة جامعة طيبة بها النفوس ، لا يشوبها غش ، ولا يخالطها دنس ، قال خالد : وسمعت رجاء^(٣) يقول لما تمت البيعة : إني مهما شككت في شيء فإنّي لم أشك يوم البيعة لعمر بالنجاة ، والرحمة لسليمان إن شاء الله ، واستفتح عمر ولايته ببيع أموال سليمان ، ورباعه وكسوته^(٤) ، وجميع ما كان يملكه ، فبلغ ذلك أربعة وعشرين ألف دينار ، فجمع ذلك كله ، وجعله في بيت المال ، ثم دخل على زوجته فاطمة ابنة عبد الملك ، فقال لها : يا فاطمة ، قتلت ليك يا أمير المؤمنين ، فقبل بيك ، وكان لها عبا ، وجبا كلها^(٥) ، ثم استفاق من بكائه ، فقال له

(١) يستعذب : يراجع ويسائب حتى يرجع عما هو فيه

(٢) الحروري : نسبة إلى حرواء بلدة ظهر بها الخوارج أول ما ظهروا كاسحق

(٣) هو رجاء بن حيوة الذي تسلم العهد من سليمان بن عبد الملك وحفظه لحين وفاته

(٤) الرابع : جمع ريج : بضم الراء وفتح الباء وهو الفصيل الذي ينتج في الربيع ، والكسوة الثياب

(٥) الكلف : شدة التعلق والحب .

لها : اخترني ، أو اخترى الثوب الذي عمل لك أبوك ، وكان قد عمل لها أبوها عبد الملك ثوباً منسوجاً بالذهب ، منظوماً بالحرير والياقوت ، أغنى عليه مائة ألف دينار . قال لها : إن اخترتني فإني أخذ الثوب فأجعله في بيت المال ، وإن اخترت الثوب ، فليست لك صاحب . قالت : أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك ، لأحاجة لي بالثوب . قال عمر : وأنا أفضل بك خصة ، أجعل الثوب في آخر بيت المال ، وأعلق ما دونه ، فلن وصلت إليه أعتقه في مصالح المسلمين ، وإنما هو من أموال المسلمين أعتقت فيه ، وإن بقي الثوب ولم أحتج إليه ، فقل أن يأتي بدي من يرد إليك . قالت : أفضل يا أمير المؤمنين ما بدا لك . ثم دخل عليه ابنه ، وعليه قميص تدنع^(١) . قال له عمر : ارفع قميصك يا بني ، فوالله ما كنت قط بأحوج إليه منك اليوم .

ذكر قديم جرير بن الحطائي على عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا عن عبد الأعلى بن أبي المشاور ، أنه أخبرهم قال : قدم جرير عامر أهل العراق وأهل الحجاز على عمر ، أول ما استخلف ، فأطال المقام ببابه ، لا يصل إليه حتى قدم عليه عون بن عبد الله المذلي ، وكان من عباد الناس وخيارهم ، وعليه جبة صوف وعمامة صوف قد أسد لها خلفه ، جلجل ينخلل رقاب الناس من قريش ، بنى أمية وغيرهم ، لا يتبع ولا يجيب هو ومثله من أكابر الناس وخيارهم ، وفضلاء البباد ، وقريش لا يسلون ولا يدخلون فلما خرج عون بن عبد الله ، أتته جرير بن الحطائي وهو يقول

يا أيها الرجل الرخي مسماته هنا زمانك إلى قد مضى زمني
أبلغ خيلتسا إن كنت لائقه أني لدى الباب كالصنود^(٢) في قرني
فأسفل صفادي^(٣) قد طال للتمام به وشطت^(٤) النصار عن أهلي وعن وطني

قال ففهم له عون بن عبد الأعلى أن يخله عليه . فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين ، هذا جرير بن الحطائي بالباب ، يريد الإذن . قال عمر : ما كنت أرى أحداً يجب عني . قال : إنه يريد إذناً خاصاً قال له عمر : الله عن ذكره ، ثم حدثه طويلاً ، ثم قال يا أمير المؤمنين : إن جريراً بالباب : فقال : الله عن ذكره . قال إذا لا أسلم من لسانه . فقال عمر : أما إذ قد بلغ منك خوف لسانه ما أرى فأذن له . فدخل جرير . فلما كان يقدر مع أو رجع^(٥) وعمر

(١) تدنع : تمزق وتقطع

(٢) الصنود : القيد، والقرن : الحبل

(٣) صفادي : قبيضي

(٤) شطت النصار : بدت

(٥) قيد : مقدار ومسافة ، والرمح مقدر طوله متر ونصف ، أي قلما قرب جرير من

الحليفة مقدار متر ونصف أو ثلاثة أمتار

منكس رأسه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، ثم قال إن الخلفاء كانت تصاهديني فيما مضى بجوارز وصلات ، وقد أصبحت إلى ذلك منك محتاجاً . ثم أنشأ يقول :

قد طال قولي إذا ما قمت مبتهلا	يا رب أصلح قوام الدين والبشر
إننا نرجو إذ ما القيت أخلفنا	من الخليفة ما نرجو من للطر
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت	أم قد كفاني ما بُليت من خير
ما زلت بمدك في مم يُؤرتني	قد طال في الحى إصمادى ومنعدرى (١)
لا ينفع الحاضر المجهود بادية	ولا يسود لنا باد على حضر
كم بالجماعة (٢) من غشاء أرملة	ومن يلسم ضيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كان به	مسا من الجن أو مسا من البشر
فلن تدفعهم فن يرجون بمدك	أو متج منها قد أجيبت من ضرر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها	لن حاجة هذا الأرملة الذكر
خليفة الله ما ذا تأمرون بنا	لسنا إليكم ولا في دار ممتنظر
أنت للبارك وللهدى سيرته	تمسى الهوى وتقوم الليل بالسود

قال : فبكى عمر ، وهملت عيناه ، وقال : ارفع حاجتك إلينا يا جري . قال جري : ماعودتي الخلفاء قبلك . قال : وما ذلك ؟ قال : أربعة آلاف دينار ، وتوايها من الخللان والكسوة . قال عمر : أمن أبناء المهاجرين أنت ؟ قال : لا . قال : أفن أبناء الأنصار أنت ؟ قال : لا . قال : أفتير أنت من قراء المسلمين ؟ قال : نعم . قال : فأكتب لك إلى عامل بلخ ، أن يجرى عليك ما يجرى على فقير من قرائهم . قال جري : أنا أرفع من هذه الطبقة يا أمير المؤمنين . قال : فانصرف جري . فقال عمر : ردوه على . فلما رجع قال له عمر : قد بقيت خصة أخرى ، عندي ثقمة وكسوة أعطيك بعضها ، ثم وصله بأربعة دنانير . فقال : وأين تضع منى هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : إنها والله لمن خالص مالى ، ولقد أجهدت لك نفسى . فقال جري : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته . ثم خرج ، فلقية الناس فقالوا له : ماوراءك ؟ قال : جئكم من عند خليفة يعطى الفقراء ، ويمنع الثمراء وإلى عنه لراض :

(١) الإحصاء : الارتجاع ، والتعذر : الهبوط ، والمراد قد طال تردى على الناس من مختلف الطبقات

(٢) الجماعة : البلاد التي ادعى بها مسيلة الكذاب النبوة ، بينها وبين مكة ست عشرة مرحلة من البصرة والكوفة ، والتمشاء ، التبره الرأس من الفقر وهظف الميضي

دخول الخوارج على عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا أن ابن حنظلة أخبرهم قال : بشى وعثون بن عبد الله عمر ابن عبد العزيز إلى خوارج خرجت عليه بالهيرة ، رأسهم رجل من بني شيان يقال له كشوكتب ، وكتب معنا كتاباً إليهم ، فقدمنا عليهم ، فبشوا معنا إليه رجلين أحدهما من العرب ، فأبيناهما عمر ، فدخلنا عليه وتركناهما بالباب . قلنا له : إنا قد بلشنا عنك ، وقد بشوا معنا رجلين هما بالباب . قال : فقتلوهما لا يكون معهما حديد أو شيء ، ففلسنا ، ثم إتنا أدخلناهما عليه . فلما دخلنا قال : السلام عليكم . قال : وعليك السلام . اجلسا . فلما جلسا قال لهما عمر : مالئى أخرجهما علينا ؟ فقال العربى : وكان أحدهما كلاماً ، وأتبعهما عقلاً ، أما إنا لم تنكر عليك عدلك ولا سيرتك ، ولكن بيننا وبينك أمر ، هو الذى يجمع ويفرق بيننا ، فإن أعطيتاه فحن منك وأنت منا ، وإن لم تعطنا فلسنا منك ولست منا . فقال عمر : فما هو ؟ قال : خالفت أهل بيتك ، وسببتهم الظلمة ، وسببت أعمالهم للظالم ، فإن زعمت أنك على الحق وأنهم على الباطل ، فالنهم وتبرأ منهم . فقال عمر : إنكم لم تتركوا الأهل والعشائر وعرضتم للقتال إلا وأنتم فى أنفسكم مميئون ، ولكمكم اختطام وضلتم ، وتركتم الحق . أخبرانى عن الدين : أو احد أو اثنان . قال : لا بل واحد . قال : أفيسمى فى دينك شيء يسير عني ؟ قال : لا . قال : فأخبرانى عن أبى بكر وعمر ماحلما عندكم ؟ قال : أفضل الناس أبى بكر وعمر . قال : ألسنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى ارتدت العرب ، فقاطهم أبى بكر ، فقتل الرجال ، وسبى النساء والحررة ؟ قال : بلى . قال عمر : فلما توفى أبوبكر وقام عمر ، ورد تلك النساء والحرارى إلى عشائرها ، فهل تبرأ عمر من أبى بكر ، ولمنه بخلافه إياه ؟ قال : لا . قال فتولونهما على خلاف سيرتهما . قال : نعم . قال عمر : فما تقولان فى بلال بن مرداس ؟ قال : من خير أسلافنا . قال : أفليس قد علمت أنه لم يزل كافاً عن الدماء والأموال وقد لطمع أصحابه أيديهم فيها ، فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى ، أو لمت إحدىاهما الأخرى ؟ قال : لا . قال : فتولونهما على خلاف سيرتهما . قال : نعم . قال عمر : فأخبرانى عن عبد الله بن وهب حين خرج بأصحابه من البصرة يريدون أصحابهم ، فمروا بجد الله بن حباب فقتلوه ، وبقرؤا بطن جريته ، ثم عدوا على قوم من بني قطيفة ، فقتلوا الرجال ، وأخذوا الأموال وغلوا الأطفال فى المراكب ، ثم قدموا على أصحابهم من السكوة وهم كافرون عن الدماء والفروج والأموال ، هل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى ، أو لمت إحدىاهما الأخرى ، قال : لا . قال : فتولونهما على خلاف سيرتهما . قال : نعم . فقال عمر فهؤلاء الذين اختلطوا بينهم فى السيرة والأحكام لم يبرأ بعضهم من بعض ، ولا لمن بعضهم بعضاً ، وأنتم تسولونهم على خلاف سيرتهم فهل ويسمى فى

دينكم ذلك ، ولا يسعني حين خالفت أهل بيتي في الأحكام والسيرة حتى ألغيتهم وأزبراً منهم ؟ أخبرني عن الأمن : فرض على العباد ؟ قال : نعم . فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : مالي به من عهد منذ زمان . قال عمر : هذا رأس من رموس الكفار ليس لك عهد بلعنه منذ زمان ، وأنا لا يسعني أن الأمن من خالفتهم من أهل بيتي ، أليس أئمة الدين يؤمنون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخلفه ، ويخلفون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمنه ؟ فقال : نبي إلى الله تعالى من هذه الصفة . قال : بلى فأسألكم عن ذلك ، أليس أئمة الدين يؤمنون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج والناس أهل كفر ، فدعاهم أن يقرؤوا بالله ورسوله ، فمن أبى قاتله وخوفه ، ومن أقر بهما آمنه وكف عنه ، وأتم اليوم من مرتبكم بهما قتلتموه ، ومن لم يقر بهما أمتهم وخلفهم سيئه ، قال الربيع : فله ما رأيت كحبيب الله أقرب مأخذاً ، ولا أوضح منهاجاً منك ، أعهده أنك على الحق ، وأنا على الباطل . وقال الآخر : قد قلت قولا حسنا ، وما كنت لأفادت على أصمائي حتى أقام فلحق بأصمابه ، وأقام الآخر عند عمر ، فاجرى عليه السقاء والرزق حتى مات عنده .

وفاة عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن زيد أخبرهم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى ابن أبي زكريا : أما بعد : فإذا نظرت في كتابي فأقسم : قدم عليه فقال : مرحباً بابن أبي زكريا . قال : وبك يا أمير المؤمنين . قال : حليجة لي قبلك . قال : بين الأنف والمين حاجتك يا أمير المؤمنين ، إن قدرت عليها . قال : لست أكلفك إلا ما تقدر عليه . قال : نعم ، قال : أحب أن تأتي على الله ببلغ علمك ، حتى إذا فرغت سألت الله أن يقبض عمر . فقال : إن الله وإنما إليه راجعون ، بشي وأمة عهد أنا ، هذا لا يحل لي . قال : فإني أهنئك عليك بحق الله وبحق رسوله ، وبحق إن كان لي عليك حق إلا ما فعلته ، فبني ثم استرجع ، ثم أقبل يثنى على الله ، وإنه ليسكني حتى إذا فرغ قال : اللهم إن عمر سألني بحقك وبحق رسوله وبحقه على أن أدعوه في قبضه إليك ، فقبض عمر إليك كما سألت ولا يبقني بعده ، وجاء حينئذ يثني لعمر فسقط في حجره ، فقال : وهذا أي ري مني فإني أحبه . قال : لما كانوا إلا كثرزات في خيط فاقطع الخيط ، فأصبح بسننها بالسقوط بضاً (١) .

ذكر رؤيا عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا عن سراحهم مولى عمر قال : أخبرني فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر

(١) الصحيح : صيغة مبالغة أي عاجلاً قوى الحجة

(٢) أي ماتوا متتابعين بعضهم بعد بعض

قالت : كان لعمر بن عبدالعزيز مكان يحلوه فيه ، فأبطأ على ذات ليلة ، فقلت لأبيتي ، فوجدته نائماً ، فنهيت أن أوقظه ، لما لبث إلا قليلاً حتى رفع رأسه فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا فاطمة فقال : فاطمة لقد رأيت رؤيا مراًيت أحسن منها . فقلت : حدثني بها يا أمير المؤمنين . قال : رأيت كأني في أرض خضراء لم أر أحسن منها ، ورأيت في تلك الأرض قصراً من زبرجد ، ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر ، لما لبثت إلا قليلاً حتى خرج للناس . فقال : أين محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب ؟ فقام النبي عليه الصلاة والسلام فدخل القصر ، فقلت سبحان الله ، أنا في جمع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم عليه ، لما لبثت إلا قليلاً حتى خرج للناس فنادى : أين أبو بكر بن أبي قحافة ؟ فقام أبو بكر فدخل ، لما لبثت إلا قليلاً حتى خرج للناس فنادى : أين عمر بن الخطاب ، أين الفاروق ؟ فقام عمر فدخل ، فقلت سبحان الله ، أنا في ملأ فيهم جدي لم أسلم عليه ، لما لبثت إلا يسيراً حتى خرج للناس فقال : أين عثمان بن عفان ؟ فقام عثمان فدخل ، لما لبثت إلا قليلاً حتى خرج للناس فنادى : أين علي بن أبي طالب ؟ فقام فدخل ، فلما صرت في القصر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأيا بكر عن يمينه ، وعمر عن شماله ، وعثمان وعلياً أمامه . فقلت : أين أحمد ؟ لا أحمد إلا إلى جنب عمر . قال : فرأيت نبياً بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر هابياً حسن الوجه حسن الهيئة . فقلت لعمر : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم عليه السلام ، لما لبثت إلا قليلاً حتى خرج عثمان بن عفان وهو يقول : الحمد لله الذي نصرني ربي ، ثم خرج علي وهو يقول : الحمد لله الذي غفر لي ربي ، ثم نودي لي : أين عمر بن العزيز ، فقامت فصرت بين يدي ربي فأسبغت ، ففقد سألني عن التقير والتفليس والقطمير ، حتى خفت أن لا أجبر ، ثم قلت خرجت فقيل لي : أثبت وتمسك على ما أنت عليه ، فبينما أنا سائر ، فإذا بحجرة قد علا عنها الخلائق ، ففرضتها برجلي ، وقلت لمن بي : من هذه الحيفة ؟ فقيل لي : هذه الحيف بن يوسف ، ففرضتها برجلي ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فاجابني : قال : يا أمير المؤمنين والله لقد قتلت بكل قتيل قتله يوسف من نار ، ولقد قتلت بسيد ابن جبرائيل وسبعين قتلة . فقلت : فأخبر أمرك ما هو ؟ قال : أنا ها هنا أنتظر ما ينتظر من وحيد الله ، وآمن برسوله . قالت فاطمة : فلم يبق عمر بعد هذه الرؤيا إلا يسيراً ، حتى مرض مرضه الذي مات فيه ، فدخل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك لتترك ولداً حاله على الناس ، فأوس بهم إلى ، أكلك أمهم ، فإنك لم تعلم شيئاً ، ولم تعلمهم . فقال عمر : يا أبا سعيد ، إن نولني لم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، ثم دعاهم وهم أربعة عشر غلاماً ، فنظر إليهم عمر ، وقد لبسوا الخشن من قبايطي مصر^(١) ،

(١) القبايطي : جمع قبيلة بضم القاف والقبطية ثياب مصرية ملبوسة إلى القبط أهل مصر على غير قياس ، وهي ثياب فيها الخشن والناعم وقد لبس أولاد عمر بن عبد العزيز رحمه الله خشناً

فاغروقت عيناه بالدموع . قال لهم : أوصيكم بتقوى الله العظيم ، ولجل صنيعكم كبيركم ، وليرحم كبيركم صنيعكم ، ثم قال لسلمة : يا أبا سعيد ، إنما ونهى على أحد أمرين : إما عامل بطاعة الله فأن يرضيه الله ، وإما عامل بمصيته فلا أحب أن يسيئه بالمال ، قوموا صمكم الله ووقفكم . ثم دعا رجاء بن حيوة فخلف به . فقال : يارجاء ، إن الموت قد نزل ، وأنا أعهد إليك عهداً لا أعهد به إلى غيرك : إذا أنا مت فكن من يقرئ ، فإذا سويت على اللين^(١) ، فرفع لينة ، ثم أكشف عن وجهي وانظر إليه ، فإني قبرت ثلاثة رجال يدي ، وكشفت عن وجوههم ، فنظرت وجوههم قد اسودت ، وعيونهم قد برزت من وجوههم ، فكشفت عن وجهي يارجاء وانظر إليه ، فإن رأيت شيئاً من هذا ، فاستر عليّ ، ولا تلم به أحداً ؛ وإن رأيت غير ذلك ، فاحمد الله عليه . قال رجاء : ففعلت ذلك ، فلما سويتنا عليه اللين ، رفعت لينة وكشفت وجهه ، فإذا وجهه مثل القمر ليلة البدر ، وإذا على صدره صك فيه خط ليس من كتابة الأميين : بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب بالقلم الجليل ، من الله العزيز العليم ، براءة لسمر بن عبد العزيز من المذاب الأليم .

ما علم به موت عمر ربه الله في الامصار

قال : وذكروا أن رجلاً من أهل المدينة قال : وقد قوم من أهل المدينة إلى الشام ، فزفوا بـرجل في أوائل الشام موسّع عليه ، تروح عليه إبل كثيرة ، وأبقار وأغنام ، فنظروا إلى شيء لا يملونه ، غير ما يعرفون من ضاربة البيض ، إذ أقبل بض رعاته فقال : إن السبع عدا اليوم على غنمي ، فذهب منها بشاة . فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم جعل يأسف أسفاً هديداً فقلنا بضنا لبعض : ما عند هذا خير ، يتأسف ويتوسع من شاة أكلها السبع ، فسكلمه بعض القوم . قال له : إن الله تعالى قد وسع عليك ، فإلهذا التوسع والتأسف ؟ قال : إنه ليس مما ترون ، ولكن أخشى أن يكون عمر بن عبد العزيز قد تولى الليلة ، والله ما تعدى السبع على الشاة إلا لموته ، فأثبتوا ذلك اليوم ، فإذا عمر قد توفى في ذلك اليوم .

وذكروا أنهم سموا رجلاً يحدث ويقول : بينا رجل باليمن فأنهم قام على سطح له ذات ليلة ، إذ تسور عليه كلب ، فسمعه وهو يقول لمرة له : أي جنة ، هل من شيء أصيبه ، فأنى والله أكل ؟ فقالت له المرأة : ما ثم شيء ، لقد غطوا الإناء ، وأكثروا المسحفة . فقال لها : أهل تدنني من يد صبي ، أو قد لم تنسل ، إنهما لترتد لي روصي ؟ قالت المرأة : ما كنت لأخونهم

أمانتي ، فمن أين أقبلت تشكو الكلال والجوع ؟ قال : من الشام ، شهدت وفاة عمر بن عبد العزيز ، وحضرت جنازته . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . نور كان في الدنيا فطمس ، ثم زالت عنه ، وتنتعت وفرت منه ، وهابته خوفاً من أن يسو عليها ، ثم أنسل الكلب ذاهباً ، فلما أصبح الرجل جل يقول للهرة : أي جنة ، جزاك الله هنا خيراً . قال : فاستورت (١) المرأة ، وذهبت فلم ترد بعد ، فكتب ذلك اليوم لجادم موت عمر في ذلك اليوم .

وذكروا أن زياد بن عبد الله أخبرهم قال : كان رجل في بعض كور الشام يسالج أندرا (٢) له مع زوجته ، وكان قد استشهد ابن لهما منذ زمان طويل ، فنظر الرجل إلى فارس مقبل نحوها . فقال الرجل لزوجته : يا فلاة ، هذا والله ابني وابنتك مقبلاً ، فنظرت المرأة فقالت : أخذك الشيطان ؟ إنك مقفون بابنك ، وإنك تقيه به الناس كلهم ، كيف يكون ابنك ، وابنتك استشهد منذ حين ، فاستأذ الرجل بالله من الشيطان الرجيم ، ثم أقبل على أندرا يسالجه ، ودنا منها الفارس ، ثم نظر ثانية ، قال : يا فلاة ، ابني والله وابنتك ، فنظرت ودنا منها الفارس ، فلما وقف عليهما فإذا هو ابنيهما . قال : قسما عليهما وسما عليه . فقالت له : يا بني أما كنت استشهدت منذ حين ؟ قال : نعم . إلا أن عمر بن عبد العزيز توفي الليلة ، فاستأذن الشهاده بهم عز وجل في شعور جنازته ، فأذن لهم ، وكنت فيهم ، فاستأذنت وبقي زيارتك والنظر ، فأذن لي ، ثم ودعاه ، وسما عليه ، ودعا لهما ، ثم ذهب :

ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان

قال : وذكروا أن الأمر صار بعد عمر بن عبد العزيز ، إلى يزيد بن عبد الملك ، بعد سليمان أخيه إليه بذلك ، وإلى عمر ، وكان يزيد قبل ولايته محبوباً في قريش يجعل مأخذة في نفسه ، وهديه وتواضعه وقصده ، وكان الناس لا يشكون إذا صار إليه الأمر ، أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه . فلما صارت إليه الخلافة حال مما كان يظن به ، وصار بسيرة الوليد أخيه ، واحتذى على مثاله ، وأخذ مأخذة ، حتى كأن الوليد لم يمت ، فنظم ذلك على الناس ، وصاروا من ذلك إلى أحوال يطول ذكرها ، حتى هموا بخلعه ، وجاءهم بذلك قوم من أشرف قريش ، وخيار بني أمية ، وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدى عمر ، واطمأنت إلى عهده بالانفجار ، والإنكار لسيرته ، وعاد ذلك من قلوبهم إلى الرضا بأمره ، والتمتع بقصده عليهم ، وتخصيره في إدراك اللطامع ، والمطاميل عليهم ، واتهم منهم ثغر الخلع والخروج ، فأخذهم معه محمد بن

(١) استورت المرأة : أي توحشت ولسرت في أمكنة بعيدة

(٢) الأندرا : البعير : الجرن التي يدرس فيه القمح ونحوه ، وسالجاته يعمالان هيتا فيه لإصلاحه أو نحوه

مروان بن الحُجج ، فأسكنهم السجن عشرين شهراً ، ثم دس لهم السم ، فأتوا جميعاً ، وألقى من سائر قريش ثلاثين رجلاً ، بعد أن أغرمهم مئة ألف ألف وبلغ عقر^(١) أموالهم ورباعهم ، وحمل العذاب عليهم والشكل ، حتى أصارهم عالة يتكفون الناس ، متفرقين في كور الشام ، وآفاق البلاد ، وصلب من الناس جملة من ألف هؤلاء القوم ، وأتهم بمصانئهم ومصاحبتهم ، وكانت ولايته في ربيع الأول سنة إحدى ومئة ، ومات سنة ست ومئة .

ولاية هشام بن عبد الملك

قال : وذكروا أن عبد الملك بن مروان ، بينما هو يوماً في بفس بؤادي الشام يتطوف ، إذ نظر إلى ساع يسمى إليه ، فوقف منتظراً له ، فلما قارب قال له : ما وراءك ؟ فقال : ولدت المفزومية غلاماً ، قال : لما سمعته ؟ قال : هشام . قال : هشام لله رأسها . فقال له قيسة بن ذؤيب : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : أخبرني أبي مروان ، أنه سمع بشرة بنت صلوان تقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : راحة أصصاب معاوية ، ولا راحة لهم بعد معاوية وراحة العرب هشام ، ولا راحة لهم بعد هشام :

وذكروا أن هشاماً سارت إليه الخلافة في سنة ست ومئة ، فكان محمود السيرة ، ميمون النقية ، وكان الناس معه في دعة وسكون وراحة ، لم يخرج عليه خارج ، ولم يحم عليه قائم ، إلا ما كان من قيام زيد بن علي بن الحسين ، في بفس نواحي الكوفة ، فبث إليه ابن هيرة ، وكان حامل الكوفة ، فأخذ زيد ، فألقى به ابن هيرة ، فأمر بقتله دون رأى هشام ، فلما بلغ ذلك هشاماً ، عظم عليه قتله ، وأعظم فحل ابن هيرة ، واجترأه على قتل قرشي دون مشورة حتى جعل يقول : مثل زيد بن علي في شرهه وفضله يقتله ابن هيرة ، وما كان عليه من قيامه ، إن هذا لموالبلاء للين ، وما يزال ابن هيرة مبنضاً لأهل هذا البيت من آل هاشم وآل عبد المطلب ، والله لا زلت لهم محباً حتى أموت ، ثم عزل ابن هيرة عن الكوفة ، وأغرمه ألف ألف ، ولم يل له شيء حتى مات ، وكانت أيام هشام عشرين سنة ، ولى سنة ست ومئة ، وتوفى سنة ست وعشرين ومئة ، بعد أن حج إحدى عشرة حجة ، وهو خليفة .

(١) عقر الأموال : أصولها وعقر الربيع أصولها أيضاً ، والرابع هي الفصالات التي تنتج في الربيع ، وللمنى أنه استولى على كل أموالهم من صامت وناطق

تقوم خالد بن صفوان بن الأهم على هشام

قال : وذكروا أن شبيب بن شبة ، أخبرهم عن خالد بن صفوان بن الأهم ، قال : أوفدني يوسف بن عمر إلى هشام في وفد العراق ، فقدمت عليه ، وقد خرج متديباً^(١) في قرايته وأهله وحشمه ، وحاشيته من أهله إلى بعض بوادي الرصافة^(٢) ، فنزل في قاع صحصح^(٣) أنجب ، في عام قد بكر وصيه^(٤) وقد ألبست الأرض أنوع زهرتها ، وأخرجت ألوان زيتها ، من نور ريشها فهي في أحسن منظر وأجمل غير ، بصيد كأن تراه قطع الكافور ، فلو أن قطعة دينار أقيمت فيه لم تترب^(٥) ، وقد ضرب له سرادقات من حبرات الخمين^(٦) مزودة بالفضة والذهب ، وضرب له فسطاطه في وسطه ، فيه أربعة أفرقة من خز أحمر ، مثلها مراقبها ، وعليه دراعة^(٧) خز أحمر وعمامة مثلها ، وضربت حجر نسائه من وراء سرادقه ، وعنده أشراف فريض ، وقد ضربت حجر بنية وكتابه وحشمه بقرب فسطاطه ، ثم أمر الربيع حاجبه ، فأذن للناس إذا علما ، فدخلوا عليه ، وأخذ الناس مجالسهم ، قال خالد : فأدخلت رأسي من ناحية السباط فأطرق ، ثم رفع رأسه ونظر إلى شبه السنكر ، وكنت قد حليت عنده بيلاعة ، وفهم وحكمة . فقلت : أقر الله نعمته عليك يا أمير المؤمنين وكرامته ، وسوغك شكره يا أمير المؤمنين . ومد لك في الزيد فيها بفضل ، ثم وصلها بعد بطول العمر ، وتناجى الكرمة الباقية التي لا انقطاع لها ، ولا تغاد لك منها ، حق يكون آجل ذلك خيراً من عاجله ، وآخره أفضل من أوله ، وعاقبته خيراً من ابتدائه ، وجعل ما قبله من هذا الأمر رشداً ، وعاقبته تنول إلى أحد ودرك الرضا ، وأخلص لك ذلك بالقوى ، وكثره لك بالنقاء ، ولا كدر عليك منك ماصداً ولا خالط

(١) متديباً : أي مجيئاً لمن ندبه وطلب منه الخروج لزيارة بعض بوادي الرصافة

(٢) الرصافة : بضم الراء بلد بالشام ومكة ينداد ، وبلد بالبصرة وبلد بالاندلس والرايد

هنا البلد التي بالشام

(٣) الصحصح : للمستوى من الأرض ، والأفصح : الواسع

(٤) الوصى : مطر أول الربيع

(٥) لم يصبا التراب لأنه غير موجود بسبب وجود الثبات وذهاب التراب بسبب للطر

(٦) سبق شرحها قريباً وكذلك ما بعدها عندهج الوليد بن عبد الملك وإقامة السرادقات له

(٧) البراعة : الثوب

سروره أذى ، فقد أصبحت للمسلمين ثقة وسترأ ، يزعون إليك في أمورهم ويصدقونك في حوائجهم ، وما أجد يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك شيئا ، أبلغ في حقك وتوقير جلسك ، إذ من الله عليّ بما سئلتك ، والنظر إلى وجهك مني ، وما أجد فيها أظهر ذلك إلا في هذا أكرهك نعم الله التي أنعم بها عليك ، وأحسن فيها إليك ، وأنتبهك إلى شكرها ، ثم إنى لا أجد شيئا هو أبلغ في ذلك ، ولا أجمع من ذكر حديث لك خلا من الملوك ، كان في سالف الأمم ، فإن أذن أمير المؤمنين أكرمه الله حديثه . قال : وكان هشام متكئا ، فاستوى جالسا وقال : هات يا بن الأهم ، قال : قلت يا أمير المؤمنين ، إن ملكا كان فيها خلا من الملوك ، مجتمعاً له فيها فتاء السن واعتدال الطباع ، وتعام الجلال ، وكثرة اللال ، وتعمكين لللك ، وكان له ذلك إلى البطر والرح داعيا ، وعلى التملة والذهول معينا ، فخرج منتزها إلى بعض منازل . فحمد جوسقا (١) له ، فأشرف على أرض ، قد أخضلها ريح عامه (٢) ، كان شجها بامك هذا يا أمير المؤمنين ، في خببه وععبه ، وكثرة زهره ، وحسن منظره ، فخطر فرج إب بهره كليلاً عن بلوغ أقصى أمواله من الشياخ والإبل والخيل والنعم . فقال لفر من ناديه . لمن هذا ؟ قيل له : لك ، فأعيبته نفسه ، وما بسط له من ذلك ، حتى أظهر فرجه وزهوه ، ثم قال لجلسائه : هل رأيتم مثل ما أنا فيه ، أم هل أوتي أحد مثل ما أوتيت ؟ وكان عنده رجل من بقاء حملة الحبسة والمسلم ، ولغى على أدب الحق ومنهاج الصدق في الضمير والمقاة ، وقد قيل : إن الله الجليل ، لم يخل الأرض منذ هبط آدم ، من قائم يقوم بحجة الله فيها ، وكان ذلك الرجل بمن يسامره . قال : أيها الملك ، قد سألت عن أمر أخأذن لي بالجواب فيه ؟ قال : نعم . قال : أرايتك هذا الذي أعصيك مما عليه اطلع نظرك ، واستطال ملكك وسلطانك ، أئني لم يزل لك ولم يزل هناك ، أم شيء كان تبرك ، فزال عنه إليك ، ثم هو سائر إلى غيرك كما صار إليك ؟ قال الملك : بل كما ظننت ومثلت . قال : فإن أراك أعبيت بما بيني ، وزهدت فيما بيني ، وسرت بقليل ، وحابه غداً طويل . قال : وبمك فكيف للطلب ، وأين للهرب ، وما الحيلة في المخسر ؟ قال : إحدى خصلتين ، إما أن تقم في ملكك ، تفعل فيه بطاعة ربك على ما سرتك وساءك وأمتك ، وإما أن تضع تاجك ونجماك (٣) ، وتذكر ذنوبك ، وتلحق في الخلاء بمن يفر لك ، فتب فيه ربك ، حتى يوافيك أجلك ، وتتقضى مدتك ، وأنت حامل لربك فيما يطيق . قال : فإذا فعلت ذلك فإلى ؟ فقال : ملك خالف لا يبق ، ونعم لا يقضى ، ويزيد وكرامة ، وصحة لا تستقيم أبداً ، وسرور لا ينصرم ،

(١) الجوسق : القصر

(٢) أخضلها : بلها بالطر

(٣) التاجاد جمع نجد وهو ما نجد به البيت من فرش وبسط ونحوها

وعباب لا يشوبه هرم ، وقرار لا يخاطله هم . قال الملك : سأنتظر إلى نسي في الاختيار لها بما ذكرت لي ، فإذا كان وقت السحر ، ففرع على بابي لتعرف رأيي ، فإني غتار إحدى التولتين ، فإن ألفت في ملكي ، واخترت ما أنا فيه ، كنت وزيراً لا نصي ، وإن خلوت كنت رفيقاً لا نجى . فلما كان السحر . فرع عليه بابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، ولبس أطواره (١) ، فلحقا بالليل ، فلم يزالا يبذلان الله فيه ، حتى بلغ أجلهما ، وانقضى عمرهما . فبكى هشام حتى بلغ لحته ، ثم نكس رأسه طويلاً ، ثم أمر بنزع أبيته وانتقاله ، وأقبلت العامة من اللواتي على ابن الأهم . فقالوا له : ما أردت لأمر المؤمنين ، أفدت عليه قدته ، وقصت عليه شجوته ، وقد حرمتنا ما أمتنا فيه . قال : إليكم عني ، فإني عاهدت الله ربى ، أن لا أخون بملك إلا ذكرته الله ، ونهيت ورعده . ثم رجع خالد إلى فسطاطه ، كئيباً حزيباً . مخوفاً يظن أنه قد هلك ، وكان للريبع صديقاً . فبينما هو كذلك ، إذ أتاه رسول الريبع . فقال : يا معلون ، يقول لك أخوك الريبع : من كان في حاجة الله ، كان الله في حاجته . إنك لما وليت من عند أمير المؤمنين جل يقول : لله در ابن الأهم ، أى رجل دنيا وأخرى، مره يا ريبع ، فليرجع حوائجها ، ولغد إلينا بها تقضها له . فقال الريبع : فغد علينا بوجهائك رحمتك الله ، واحمد على ما صنع ، وأذهب من عناقك . فغدا عليه نحوائح قضيت . وذكروا أنه لم يكن في بني أمية ملك أعظم من هشام ، ولا أعظم قدراً ، ولا أهل مصوباً منه ، دانت له البلاد ، وملك جميع البباد ، وأديت له الجزية من جميع الجهات ، من الروم والفرس والترك والإفرنج والفرنج والسند والمند ، وكان قريباً من الضعفاء ، منها بإصلاح الأدواء ، لم يجترأ أحد منه على ظلامة ، ولم يسلك أحد منه إلا سبيل الاستقامة ، وكان له موضع بالرضا أقيع من الأرض ، يبرز فيه ، فضرِبَ له به السرايات ، فيكون فيه ستين ليلة ، يبرز الناس ، مباحاً للخلق ، لا يقع أيامه تلك إلا برد للظالم ، والأخذ على يد الظالم من جميع الناس ، وأطراف البلاد ، ويسل إلى مخاطبته بذلك للوضع ، راعي السوم (٢) ، والأمة السوداء ، فمن دونهما ، قد وكل رجلاً أدباً حلالاً ، يذناء الضعفاء والنساء يتأني منه ، وأمرهم بقتضاء أهل القوة والكفاية عنه ، حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره ، فبارفع إليه ، لا يضم إليه رجل يريد الوصول إليه ، فينظروا أوضع منه إلا أدنوا الأوضع وأجدوا الأرفع ، حتى ينظر في شأنه ، ويسرق أمره ، وينفذ فيه ما أمر ، ولا يرفع إليه ضيف ، ولا امرأة أمراً ، وظلامة على غرض (٣) من الناس مرتفع القدر ، ولا مستخف به إلا أمر بالقضاء بينه ، وأغداه بطلبه ، لا يقبل لهم حجة ، ولا يسمع لهم بينة ، حتى لربما تمز به المرأة والرجل

(٢) السوم : الإيق الرائعة

(١) الأطوار : الثياب البالية

(٣) التطريف : السيد الشريف

أو عابر سبيل ، لا حاجة له فها مرت به . فيقال له : ما حاجتك ، وما قصتك ، وما ظلامتك ؟ فيقول : إنما سلكت أريد موضع كذا ، أروم بك كذا ، فيقول له : لعلك ظلمتك أحد من آل الخليفة تهاب أمره ، وتتوقع سطوته ، ففلك الذي منكم عن رفع ظلامتك إلى أمير المؤمنين ، فيقول : لا ، والله لا أبى إلا ما كنت . فيقال له : اذهب بسلام ، حتى أربما أتت عليه ثارات من الليل ، وساعات من النهار لا ينظر في شيء ، ولا يأخيه أحد في خصومة لاستثناء الناس عن المطالب ، وتصفنا من للظلم ، ووقاية من سطوته ، ونحوها من حقوته ، وقد وسع العياد أمنه ، وأشهرم عدله ، وصارت البلاد للثانية الفاسمة ، كندر واحدة ، ترجع إلى حاكم قاض ، يربيه الناس في اللوائح الثانية عنه كما يربيه من مده ، وقد وضع العيون والجواسيس من خيار الناس ، وفضلاء البلاد ، في سائر الأمصار والبلدان ، يحصون أسواق الولاء والاحمال ، ويحفظون عمال الأخيار والأشرار ، قد صار هؤلاء أعتابا يتلقبون ، يهبط قوم بأخبار ما بلوا في للصر الذي كانوا فيه ، وقيل آخرون يدخلون مسترقين ، ويخرجون متفرقين ، لا يعلم منهم واحد ، ولا يرى لهم ماهر ، فلا خبر يكون ، ولا قصة تحدث ، من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به في الشام ، وينظر فيه هشام ، وقد قصر نفسه على هذه الحال ، وحبيت إليه هذه الأنفال ، فكانت أيامه عند الناس أحمد أيام مرت بهم ، وأعفاها وأرجأها ، قد ليس جلاب الهية على أهل النود والكيد ، وارتدى برداء التواضع إلى أهل الخشوع والسكون ، وكان قد حجب إليه الكفار من الدنيا ، والاستمتاع بالكساء ، لم يلبس ثوباً قط يوماً ، فساد إليه ، حتى لقد كان كساء ظهره ، وثياب مهبته ، لا يستقل بها ، ولا يحملها إلا سبعة مثقبي ، من أجده ما يكون من الإبل ، وأعظم ما يعمل عليه من الجمال ، وكان مع ذلك يظفها ، وطالت أيامه ، واستبطأ صاحب العهد بموته ، فتأواه وعاداه ، وانفصل عن للوضع الذي كان به هو والوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، فمات هشام والوليد غائب ، فأتاه موته ، فأمر بتقل الخزان ، فلم يجدوا لهشام ما يكفونونه به ، واستؤذن الوليد في إقباله ، فلم يدفن هشام حتى قسم الوليد ، وذلك في ثلاثة أيام .

بلد القتن والدولة العباسية

قال : وذكروا أن المهتم بن عدى أخبرهم ، قال : اختلفت روايات القوم الذين عنهم حملنا وروينا ذكر العولة ، فحملنا عنهم ما اختلفوا فيه وألفناه ، فكان أول ما اختلفت فيه الرواية ، ولم تلاءم الحكاية ، أشياء سنذكرها في موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله ، وانقسمنا على مائتها ، وقيدنا بعض ألقابها لطول أخبارها ، واجتبنا الجزل السمين من اللفظ ، ورددنا حزنه لئلا نرثر فائدته ، وقله عائدته ، وقد انحصرتنا وأعبتنا إذ لم نترك من المائتين التقدمة شيئاً ، والله الموفق للصواب .

فكان مما ألفناه بدءاً من ذكر الدولة ، وما أخبرنا عن المهيم بن عدي ، عن الرجال الذين حدثوه . قالوا : لما سلم الحسن بن عليّ الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، قامت الشيعة من أهل المدينة ، وأهل مكة ، وأهل الكوفة ، واليمن ، وأهل البصرة ، وأرض خراسان ، في ستر وكتمان ؛ فاجتمعوا إلى محمد بن عليّ ، وهو محمد بن الحنفية ، فبايعوه على طلب الخلافة إن أمكنه ذلك ، وعرضوا عليه قبض زكاتهم ، ليعقوبها يوم الوديع على فرسته ، فبايعوا على من الثقة على مجاهدته ، وقبلها ، وولى على شيعة كل بلد رجلاً منهم ، وأمره باستدعاء من قبله منهم ، في سرّ وتوصية إليهم ، ألا يوحوا بكتوبهم ، إلا لمن يوثق به ، حتى يرى التقسيم موضعاً . فأقام محمد بن الحنفية : إمام الشيعة فاجتمعوا لزكاتهم ، حتى مات . فلما حضرته الوفاة ، ولى عبد الله ابنه من بعده ، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وأعلم الشيعة بتوليته إياه ، فأقام عبد الله بن محمد بن عليّ ، وهو أمير الشيعة ، فبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك ، في أوّل خلافته ، أن الشيعة قد بايعت عبد الله بن محمد بن عليّ ، بعد أبيه ، قبضت إليه ، وقد أعدّ له في أنواء الطرق رجلاً ، معهم أشرية مسمومة ، وأمرهم إذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب . فلما دخل على سليمان ، أجلسه إلى جانبه . ثم قال له : بلغني أن الشيعة بايعتك على هذا الأمر ، فيصعب عليك ؟ قال : بئسك الباطل ، وما زال لنا أعداء يلغون الأمانة قبلك عنا مثل ما بئسك ، ليُشترى بنا ، فيدفع الله عنا كيد من ناوانا ، وأنا بما يلزم من مؤثني أشغل مني بطلب هذا الأمر ، ثم خرج من عنده في وقت شديد الحرّ ، فكان لا يمرّ بموضع إلا قام إليه الرجل بعد الرجل ، يقول له : هل لك في شربة سويق القوز ، وسويق كذا وكذا يا ابن بنت رسول الله ، ونفسه موجسة منهم ، فيقول : برك الله لكم ، حتى إذا خرج إلى آخر الطريق ، خرج إليه رجل من خياله ، ويده من (١) ، فقال له : هل لك في شربة من لبن يا ابن بنت رسول الله ؟ فوقع في نفسه أن اللبّن كما لا يسمّ ، فشرب منه ثم مضى ، فلم يشبه أن وجد لسمّ حساً (٢) ، فاستلّ على الطريق إلى الحمية (٣) ، وبها جماعة آل عباس ، وقال لمن معه : إن متّ فني أهلك ، ثم توجه فزل على محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس فأخبره الخبر ؛ وقال له : إليك الأمر ، والطلب لخلافة بني فؤاد ، وأشهد له من الشيعة رجلاً ، ثم مات . فأقام محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ، ودعوة الشيعة له حتى مات ، فلما حضرته الوفاة ، ولى محمد بن إبراهيم الأمر ، فأقام وهو أمير الشيعة ، وصاحب الدعوة بعد أبيه .

(١) السمّ ضمّ العين : القندس العظيم مثل الكوز الكبير عندنا

(٢) أي أحسن يسرّان السمّ في جسمه

(٣) الحمية : بضم الحاء وفتح الميم وسكون الهمزة بفتح ضمنية بالبقاء بالضم

دخول محمد بن علي على هشام

قال : وذكروا أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس دخل ، وهو شيخ كبير قد خشي بصره على هشام بن عبد الملك ، متوكفاً على ولديه أبي العباس وأبي جعفر ، فلم . ثم قال له هشام : ما حاجتك ؟ ولم يأذن له في الجلوس ، فذكر قرابته وحاجة به ، ثم استجده . فقال هشام : ما هذا الذي يلقى عنكم يا بني العباس ، ثم يأتي أحدكم وهو يرى أنه أحق بما في أيدينا منا ، والله لا أعطيتك شيئاً . فخرج محمد بن علي ، فقال هشام كالمستهزئ : إن هذا الشيخ ليري أن الأمر سيكون لولديه هذين ، أو لأحدهما ، فرجع محمد نحوه فقال : أما والله إنني أرى ذلك على رغيم من رغيم . فضحك هشام وقال : أغضبنا الشيخ ، ثم مضى محمد بن علي .

ولاية الوليد بن يزيد وقتن النولة

قال : وذكروا أن الوليد بن يزيد لما تولى الأمر بعد هشام ، أساء السيرة ، واتسعى على أهله وجماعة قريش ، وأحدث الأحداث العظيمة ، وسفك الدماء وأباح الحرم ، وكانت ولايته في سنة ست وعشرين ومئة . فلما استولى على الأمر بسط إلى أشراف الأجناد ، قدسوا عليه وقدم خاله فيمى قدم ، فلم يأذن لواحد منهم ، وكان مشتتاً بيهود ولعبه ، ومرض خاله ، فاستؤذن له في الانصراف فأذن له ، فأنصرف إلى دمشق ، فأقام بها شهراً . ثم كتب إليه الوليد : إن أمير المؤمنين قد علم الحسين ألف الف التي تعلم ، فأقدم بها على أمير المؤمنين مع رسوله ، فقد أمره أن لا يبعثك عن جهازك ، فبث خاله إلى عدة من قهاته ، فيهم عمارة بن أبي كلثوم ، فأفترام كتاب الوليد وقال : أهيروا عليّ برأيكم . فقالوا : إن الوليد ليس بأماون ، فلما رأى أن تدخل مدينة دمشق ، فتأخذ بيوت الأموال ، وتدعو إلى من أحببت ، والناس قومك ، ولن يختلف منا عليك اثنان . فقال لهم : وماذا ؟ قالوا : تأخذ بيوت الأموال ، وتجمع إليك قومك حتى توثق لنفسك . قال : وماذا ؟ قالوا : تنواري . فقال : أما قولكم أن أدعوا إليّ من أحببت ، فإني أكره أن تكون الفرقة على يدي ، وأما قولكم أن أخذ بيوت الأموال حتى أوثق نفسي ، فأنتم لا تأمنوني عليها ولا ذنب لي ، فكيف لي ترجون وفاء بما يطعن . وقد قلت ما فعلت ، وأما قولكم في التنواري ، فوالله ما قسّمت رأسي خوفاً من أحد قط ، فالآن وقد بلغت من السن ما بلغت ؟ ، ولكن أمضي ، وأستعين بالله تعالى .

قتل خالد بن عبد الله القسري

قال : وذكروا أن خالد بن عبد الله القسري ، شخص إلى الوليد بن يزيد حتى قدم على مصكره ، فلم يبع به الوليد ولم يكلمه ، وهو يختلف إليه غدوة وعشية ، حتى قدم برأس يحيى بن زيد بن علي بن الحسين من خراسان ، فجمع الناس الإذن ، فحضر الأشراف ، وجلس الوليد ، وجاء خالد إلى الحاجب فقال : إن حالي كاتري ، لا أقدر على لكى ، وإنما أحمل في الكرسي . قال الحاجب : ما يدخل أحد على أمير المؤمنين على هذه الحال ، ثم أذن له فجلس على كرسى ، ثم دخل على الوليد وهو جالس في سريره ، ولما تقدموا وضوءة . فلما دخل عليه قال له الوليد : أين ولدك يزيد بن خالد . فقال : قد أصابه من هشام ظفر ، غل سبيله ، ثم طلب فهرب ، فكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه الله . فقال له الوليد : لكنك خلفته طلباً للفتنة . فقال خالد : قد علم أمير المؤمنين أنا أهل بيت طاعة أنا وأبي وجدى . فقال له الوليد : لتأتيني بانيك أو لأزهرقن نكسك ، فقال له خالد : هذا الذي تدور عليه ، وهو الذي تريد ؟ والله لو كان ابني تحت قدمي ما رفضتهما لك ، فاصنع ما بدا لك . فأمر الوليد شبلان صاحب حرمه بالتبسط^(١) عليه والأخذ به ، وقال له : أسمعني صوته ؟ فذهب به خيلان إلى رحله ، فحذبه بالسلاسل والحديد ، فلم يشكلم بكلمة ، فخرج خيلان إلى الوليد فقال له : والله لا أعذب إنساناً لا يشكلم . فقال له : كفت عنه واحتجبه ، فقل ، فقام يوسف بن عمر فقال : أنا أعتريه بخمسين ألف ألف ، فأرسل الوليد إلى خالد أن يوسف بن عمر قد سأل أن يشتريك بخمسين ألف ألف ، فإن ضمنتها لأمرير المؤمنين ، وإلا دفعتك إليه . قال خالد : ما عهدنا العرب تباع ، فدفعه إلى يوسف بن عمر ، فترجع ثيابه ، وألبسه عيابة وألحله^(٢) أخرى ، وحمله على محمل ليس تحته وطاء^(٣) ، فبسط^(٤) عليه وعذبه ، وخالفه لا يكلمه بكلمة ، ثم لم يرحل ، حتى إذا كان ببعض الطريق عذبه يوماً ، ثم وضع للفسرة^(٥) على صدره ، فقتله في الليل ، فدفن في الحيرة ، وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين ومئة .

-
- (١) البسط عليه : التسلط عليه وعمل بما يشاء ويؤذيه
 (٢) ألحله أخرى : جعل البياضة الأخرى ملصقة له كالشال الذي يوضع على الرقبة
 (٣) أركبه دابة بدون سرج ولا برذعة ولا شيء يفصل بين جسم الدابة وجسمه
 (٤) بسط عليه : تسلط عليه وحمل به ما يحلو له من الأذى
 (٥) للفسرة : بكسر اللهم وسكون الفاء : حبر ثقيل أو آلة ثقيلة تكسرها الحجارة وتهرس

وثوب أهل دمشق على الوليد بن يزيد وقتله

قال : وذكروا أن يزيد بن خالد دنا في أهله ، وتحمل في معارفه ، فاجتمع أمرهم على الوليد بن يزيد ، فينابهم يديرون أمرهم ، إذ انطلق سلع إلى الوليد قال له : أدلك على يزيد بن خالد . قال : نعم . فبث الوليد مولى له ، وأمره أن يكمن النهار ، ويسير الليل ، حتى أتى دمشق ليلاً ، ويزيد مخفى بعمشق ، في منزل رجل عند باب السوق ، فالتصم عليه للنزل فأخذه ، وخص به من ساعته حتى قسم على الوليد ، فأمر بالبحث به إلى يوسف بن عمر بالعراق ، قال له يزيد : يا أمير المؤمنين ، أنا أدفع لك الخمين ألف ألف التي طلبت من خالد في ثلاث سنين ، على أن تكتب إلى الآفاق ، بأمان من كانت لي عنده ودعة ، وأمان فيه ضمي وموالي ، فقبل منه الوليد ذلك ، فأمر بالكتب إلى العراق والحجاز وكور الشام في ذلك ، واحتبس يزيد عنده ، وجعل عليه القيود والحرس ، ثم ارتحل الوليد ومعه خدمته وشرطته ، وتواعد أهل البين أن يثوروا إذا صاحوا الصمعة^(١) في المسجد ، وكانت العلامة بينهم أن يثمنس أحدهم صاحبه . فلما تفرق أهل المسجد ، خرجوا ، فاستخرجوا يزيد بن الوليد من منزله ، ثم أتوا به التنصر ، وعلى دمشق يومئذ رجل من بني الحجاج ، وكان قد خرج من الطاعون ، واستخاف رجلاً من قيس ، فدخلوا عليه ، فأوثقوه ككتافاً ، وأوثقوا كل من خانوا خلافه ، فقتل رجل حتى أتى الوليد بن يزيد ، فأخبره الخبر ، فلما أصبحوا غدوا إلى الوليد ، فبث الوليد في طلب يزيد بن خالد ، وهو عنده في الحديد . فقال له : إن قومك قد خرجوا بين يدي الوليد ، فلرددهم من أمير المؤمنين ، ولك الله أن أوليك العراق ، وأدفع إليك يوسف تقتله بأيك ، فقال له يزيد ابن خالد : وتوفقي يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، فتوفق له وحلف ، قال : فأرسلني إليهم حتى أردم عنك . فقال له الوليد : بل أكتب إليهم . قال : إن كتابي لا ينفي شيئاً ، وقد علموا أني في يدك ، وآتي سأكتب بما تريد ، فأمر بإطلاقه من الحديد ، وردّه إلى حبسه ، وأمر الحرس يحفظون به ، ثم ارتحل الوليد بيزيد بن خالد معه ، فلما كان القبر : صبحته أوائل الحيل ، خيل أهل البين ، فأرسل الوليد إلى يزيد بن خالد . فقال له يزيد : خلّ عنّي حتى أردم عنك ، فينابهم على ذلك ، إذ التقى القوم ، فشدت اليمنة ، وقد طلعت الشمس ، واختلط الناس وكثر القتل ، وتخلص يزيد بن خالد من الحرس ، فأثوه يردون من براذين الوليد ، وآتي بسيف قصفه ، ثم نادى متأديه : من جاء برأس الوليد ، فله مئة ألف دينار ، ونودي في المسكر : من دخل رحله فهو آمن . فنادى الوليد : يا أهل الشام ، المأحسن إليكم ،

(١) الصمعة : بفتح السين والتاء : العشاء

ألم أفضل كذا ، فمدد إسماعيل . فقال عبد السلام : بل قد فعلت ، ولكنك عمدت إلى شيخنا وسيدنا خالد بن عبد الله قد عزله الخليفة فملك ، وأخذ أمواله ، ثم خلى عنه ، فدفعته إلى يوسف بن عمر بالبحر فأذرعته^(١) ، ثم حمله على محمل بلا وطاء ، ثم انطلق به فمذبه ، حتى قتل شرًّا قتل يكون . فقال لهم الوليد : فاحضروني في قبضى هذا ، وولوا من شئتم ، فانصرفوا إلى قومهم ، فأعلمهم بما رضى من الخلع . فقالوا : لا إلا رأسه ، فقتل القوم إلى القصر ، واتى يزيد بن خالد إلى الباب ، وعليه سلسلة ، فأمر بها فكسرت ، وكسر الباب ، وخرج الوليد يسعى ، حتى دخل بيتا من بيوت القصر ، ودخل عليه نحو من ثلاثين رجلا ، وهو قائم يده السيف ، منكسا رأسه لا ينظر إليهم ، وهو يذب^(٢) عن نفسه ، فضربه رجل ، ضربة ، ثم صرعه^(٣) ، ثم أكب^(٤) عليه فأحترق رأسه ، فخرج به وانصرف الناس إلى دمشق فبايع الناس يزيد بن الوليد بن عبد الملك . وذلك في لى الحجة من سبع وعشرين ومئة ، فكان خليفة ستة أشهر ، ثم مات في جمادى الأولى . ثم ولى إبراهيم بن الوليد فبوج له في جمادى الأولى ، فملك ثلاثة أشهر ، ثم خلع وهرب .

ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

قال : وذكروا أنه لما خلع إبراهيم بن الوليد ، خرج مروان بن محمد في صفر ، سنة سبع وعشرين ومئة ، ومعه أهل الجزيرة ، وأهل حمص ، فدنا إلى نفسه بالبيعة ، ووعده الناس خيرا فرضى به أكثر الناس لشجاعة كانت فيه ، وسخاء يوصف به ، فملك الشام ، واستقل له الأمر ، وظل شأنه ، واستقل سلطانه ، وبايع له أهل العراق والحجاز ، وهابه الناس وخافوه ، واستعمل المال في الآفاق والأمصار ، وكانت الشيعة تتكاتب على السكتان لملك ، وتلاقى على السر . قال : فلما كانت سنة ثمان وعشرين ومائة اجتمعت الشيعة .

خروج أبي مسلم الخراساني

قال : وذكروا أن الشيعة لما اجتمعت ، وظل أمرهم بخراسان ، قدم منهم سليمان ابن سكين ، وقحلبة بن هيب ، فلقوا إبراهيم بمكة . فقالوا : قد قمنا بحال . قال : ولم هو ؟ قالوا عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم وعسك ومتلح . قال : ادفعوه إلى عروة

(١) أذرعته : ألبسه الدرع وهو القميص فقط

(٢) يذب : يدافع

(٣) صرعه : طرحه على الأرض

(٤) أكب عليه : انحنى عليه

مولى محمد بن حنّ ، فسلموا ، فكان يحيى بن محمد يتبعهم ويسألهم ، فيقول : ما صنعتكم
وفى أئمة شيء جئت ؟ فلا يجيبونه ، فذكروا ذلك لإبراهيم . فقال احذروه ، فإنه قليل القتل ،
ضيف الراى . فجاء إلى إبراهيم فقال له : إن حنّ ديناً ، والله لأن لم تعطني قضاء ديني ،
لأكرهنّ أمرك إلى عبد العزيز بن عمر ، ومم يومئذ على الموسم ، فأعطاه خمسة آلاف درهم ،
وقدموا بأبي مسلم معهم ، وقد خرج أصحابه من السجن ، فأعلموا إبراهيم أنه مولاه . فقال
لسليمان : قد ربيتا (١) أمركم ، فأنت على الناس ، فالخرج إلى خراسان ، وقد كان أبو مسلم
قدم على إبراهيم قبل أن ينصرف أصحابه ، فرأى عقله وظرفه . فكتب إلى أصحابه : إني قد
أمرته على خراسان ، وما غلب عليها ، فأناهم فلم يقبلوا قوله ، وخرجوا من قابل ، فالتقوا
بمكة ، فأعلمهم أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه . قال إبراهيم : إنه قد أجمع رأيي على هذا ،
فاحموا له وأطيعوا . ثم قال لأبي مسلم : يا أبا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ
وصيقي ، انظر هذا الحنّ من البين فأكرههم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر
هذا الحنّ من ربيعة ، فإتهم معهم ، وانظر هذا الحنّ من مضر ، فإتهم العدو القريب
الدار ، فاقبل من شككت في أمره ، ومن وقع في عسك منه تهمة . فقال : أيها الإمام ،
فإن وقع في أنفسنا من رجل هو على غير ذلك ، أحبسه حتى تسليته ؟ قال : لا ، السيف
السيف ، لا حتى العدو بطرف (٢) . ثم قال للصبي : من أطاعني فليطع هذا ، يعني أبا مسلم ،
ومن عصاه فقد عصاني . ثم قال له : إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عروة
فانسل ، وأيا غلام يبلغ خمسة أشبار ، فإتهمه فاقطه ، ولا تخالف هذا الشيخ ، يعني سليمان بن
كثير ، ولا تصه ، ففحصوا إلى خراسان ، ووقعت الصبية بخراسان ، بين نصر بن سيار ،
وكان حامل مروان عليها ، وبين الكرماني . فدخل على نصر بن سيار فقال له : إن مروان
ابن محمد قد خلف ما نحن به الناس : وقد كان رجلي وأمل ، وما أرى أمره إلا وقد
انقض ، واجترأت عليه الخوارج ، وانقضت عليه البلاد ، وخرج عليه ثابت بن نهم ، ورأى
الاختلاف بقلته أم عليه ، فلو اجتمعت كلمتك مع الكرماني فإني خائف أن يبركك هذا
الخللاف فيما نكره وأنت هيخ العرب وسيدها ، وأرى والله في هذه الكور شيئاً ، وأسمع
أموراً أخاف أن تنهب ، أو تنهل منها القول . قال نصر بن سيار : والله ما أنهم عقلت
ولا ليحكك ، ولكن اكفف عن هذا القول ، فلا يسمعن منك ، فالتصم ما بين الرجلين ،
وهاجت الحرب وهتاتوا ، وجلس رجل الصبية تجتمع في الكور الألف والألفان ، فيجتمعون

(١) ربا أمركم : زاد وارتفع شأنكم

(٢) للفرط : للظفر

في الساجد ، ويصلون ، أي يضارعون بينهم ، فبلغ ذلك نصراً ، فقامت لذلك ، وخلف إثر وجه الهم من عظامهم أن يتجاوزوا إلى الكرماني ، فلما استحل أمر القوم ، وقام بأمرم أبو مسلم الحراسي ، ثم اجتمعوا وأظهروا أمرهم . كتب نصر بن سيار إلى مروان ابن محمد :

أرى خلل الرماد^(١) وميض نار
فإن النار بالسودين تذكى
أقول من الصعب : ليت شعري
فان كانوا لحينهم نيلما
يوهك أن يكون له ضرام^(٢)
وإن الحرب أوتلها الكلام
أخطأ أمية أم نيلام
قل قوموا قد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى
على الإسلام والعرب السلام

فكتب إليه مروان : إن الشاهد يرى ما لا يرى القاب . فقال نصر لما قرأ الكتاب : أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده ، وجعل أبو مسلم يكتب الكتاب ، ثم يقول فرسل : مروا بها على الجانية ، فإهم يرضون لكم ، وبأحسنون كتبكم ، فإذا رأوا فيها آتى رأيت للضربة لا ولاء لهم ، ولا خير فيهم ، فلا تتق بهم ، ولا تطعن إليهم ، فإن أرجو أن يريك الله في الجانية ما تحب ، ورسول رسولا آخر يتل ذلك على الجانية . فيقول : مر على الضربة ، فكان الفريقان جميعاً معه ، وجعل يكتب إلى نصر بن سيار ، وإلى الكرماني : أن الإمام قد أوصاني بك ، ولست أعود رأيك فيكم ، لجعل نصر يقول : يا عباد الله ، هذه والله الذلة ، رجل بين أظهرنا يكتب إلينا يتل هذا ، لا قدر له على ضر ولا نفع ، فلما بين القوم أن لا يصير لهم كتب أبو مسلم إلى أصحابه في الكور ، أن أظهروا أمرهم ، فكان أول الناس من سدد^(٣) أسيد بن عبد الله ، فتأذى : يا محمد ، يسنصور ، فسود معه السك ، ومقاتل بن حك ، وعمر بن غزوان ، وأقبل أبو مسلم حتى نزل المختدين فهاه الفريقان جميعاً . فقال : لست أعرض لواحد منكم ، إنما ندمو إلى آل محمد ، فمن تبعنا فهو منا ، ومن عصانا فله حسيه . فلما جعل أصحابه يكترون عنده . وهو يطعم الفريقين جميعاً في نفسه . كتب نصر بن سيار : إلى مروان بن محمد ، يذكر استلاء أمر أبي مسلم ، وطمع بحاله وخروجه ، وكثرة جيشه ، وأنه قد خلف

(١) خلل الرماد : التراب وخلفه بين جباهه ، ونحته ، ووميض النار لحامها

(٢) ضرام : لشتعال

(٣) يفتح السين وتشديد الواو اتخذ شعار السواد ، وهو ليس الأسود وكان شعار الدولة

البابية ليس الأسود

أن يستولى على خراسان ، وأنه يذهب إلى إبراهيم بن محمد ، فأبى مروان الكتاب ، وقد أتاه رسول أبي مسلم بجواب إبراهيم ، فأخذ جواب إبراهيم ، وفيه لمن إبراهيم لأبي مسلم ، حين ظهر بالرجلين ، ألا يدع بخراسان عرباً إلا قتله ، فانطلق الرسول بالكتاب إلى مروان ، فوضعه في يده . فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية ، وهو على دمشق : أن أكتب إلى عاملك بالبلقاء ، فليأخذ إبراهيم بن محمد قتيضته وثاقا ، ثم يبعث به إليك ، ثم وجه به إلى ، فأبى إليه وهو جالس في مسجد القرية ، فأخذ إلى دمشق ، ودخل على مروان ، فأبىه وهتمه ، فاشتد لسان إبراهيم عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، ما أظن ما يروى الناس عنك إلا حقا في بعض بني هاشم . فقال : أدركك الله بأعمالك ، انذهب به ، فإن الله لا يأخذ عبداً عند أول ذنب ، انذهب به إلى السجن . فقال أبو عبيدة : فكنت آتبه في السجن ، ومعه عبد الله بن عبد العزيز ، فوالله إن ذات ليلة في سقاية السجن ، بين النائم واليطمان ، إذ مولى مروان قد استفتح ، ومعه عهرون رجلا من موالى مروان ، من الأعاجم ، ومعه صاحب السجن ، ففتح لهم فدخلوا ، وأصبنا فلذا عبد الله بن عمر ، وإبراهيم بن محمد ميتان ، فانكسر لذلك أبو مسلم بخراسان ، إذا بلغه موت إبراهيم ، وانكسرت الشيعة ، واستولى أمر الكرماني ، فما رأى أبو مسلم ذلك قال له : إنا معك ، ثم داوت الأحوال بين نصر والكرماني ، حتى غدر نصر بالكرماني فقتله وصلبه ، فخاف نصر على نفسه من أبي مسلم .

ذكر ما أمال أصحاب الكرماني إلى أبي مسلم

قال : وذكروا أن أبا مسلم كتب إلى نصر : إنه قد جاءنا من الإمام كتاب فسلم نصره عليك ، فإن فيه بعض ما تحب ، فدخل عليه رجل فقال : إن السلا يأترون بك لقتلوك ، فخرج إلى لك من الناسحين . فقال نصر : ادخل فالبس ثيابي ، فدخل بستانا له ، وقد هتم إلى صاحب دوابه ، فأراه بدواب ، فركب وهرب ، معه داود بن أبي داود ، وهرب معه بنوه ، وهرق أصحابه ، وجاء القوم إلى أبي مسلم فأعطوه أنه قد خرج ، ولا يدرون أين توجه ، فاستولى أبو مسلم على خراسان ، فاستعمل عليها عماله ، ثم وجه أبا عون في ثلاثين ألفا إلى مروان ، فما بلغ مروان الخبر خرج حتى أتى حران ، فتدخل ببيته وبناته وأهله ، وقد كان يتصب قبل ، لجأ أهل الدين وأهل الشام وضريحهم ، وقتل ثابت بن نعيم ، والسمط بن ثابت ، وهم مدائن الشام ، ونحسول إلى الجزيرة . قال اسماعيل بن عبد الله القسري : حدثني مروان فقال : يا أبا هاشم وما كان يكتفي قبليها ، قد ترى مدخل من الأمر وانت اللوثوق به ، ولا عجباً بعد يؤس ، ما الرأي ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين على ما أجمعت ؟ قال : على أن أرملح ببوله

وعيال وأموالي ، ومن تبعني من الناس حتى أقطع للهرب ، ثم أميل إلى مدينة من مدائن الروم ، فأنزلها ، وأكتب صاحب الروم ، وأستوثق منه ، لما يزال يأتيني الخائف والهرب حتى يثب أمرى . قال إسماعيل : وذلك والله الرأي . فلما رأيت ما أجمع عليه ، ورأيت سوء آثاره في قومي ، وبلائه القبيح عندهم ، قلت له : أعيذك الله يا أمير المؤمنين من هذا الرأي ، أن تحكم فيك أهل الشرك ، وفي بناتك وحرمك ، وهم الروم لا وفاء لهم ، ولا تدرى ما تأتي به الأيام ، فإن أنت حدث عليك حادث بالروم ، ولا يحدث إلا خير ، منع أهلك من بعدك ، ولكن أقطع الفرات ، ثم استدع الشام جنداً جنداً ، فزناك في كنف وجماعة وعزة ، ولك في كل جند صادم يسيرون معك ، حتى تأتي مصر ، فثما أكثر أرض الله مالا ورجالا ، ثم الشام أمامك ، وأفرقيهم خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى أفرجة . قال : صدقت ، ثم استخار الله وقطع الفرات ، لم يكور من كور الشام ، فوثبوا عليه ، فأخذوا مؤخر عسكره فأتوه ، ثم مرّ بحمص فصنعوا له مثل ذلك ، ثم مرّ بأهل دمشق فوثبوا عليه ، ووثب به الوليد بن معاوية ، وكان عامل مروان على حمص ، ثم مضى إلى الأردن ، فوثب به هاشم بن عمر ، ثم مرّ بفسطاط فوثب به الحكم ، ثم مضى إلى حمص فاتبعه الحجاج بن زمل السككي . قيل له : أكلبه وقد عرفت بشه قومك ؟ فقال : وحكم إنّه أكرمني لكل هذا اليوم لأخذ له ، وبه أيضاً أبو سلة الحلال ومثله بن سلامة ، وكان عامله على الأردن ، وبه أيضاً الرّحس قال : إني لأسير مع مروان حيث جزنا فلسطين . قال : بأرماس^(١) انمرجت حتى قيس اعرج الرأس مائتين منهم أحد ، وذلك أنا وضنا الأمر في شسير موضعه ، وأخرجناه من قوم أيدنا بهم ، وخصنا به قوماً ، والله ما رأينا لهم وفاء ولا شكراً .

تولية أبي مسلم قسطنطين بن شبيب قتل مروان

قال : وذكروا أن المهدي بن عيسى أخبرهم عن رجال أدركوا الفوة وصحبوا أهلها . قالوا : لما استولى أبو مسلم على خراسان ، وولى قسطنطين الطائي قتل مروان بن محمد ، وبث معه ثلاثين ألفاً من رجال اليمن وأهل النخبة ، وفرسان خراسان ، وخرج مروان وهو يريد أبا مسلم بخراسان ، ومعه مئة ألف فارس سوى أسلحة الخيالة ، فمهرّب من بين يديه أبو العباس ، وأبو جعفر ، وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس ، فلمعوا بالكوفة ، فبث أبو العباس إلى أبي سلة الحلال ، وأمه حصن بن سليمان ، وكان والياً لإبراهيم بن محمد على

(١) الرماحس بضم الراء وكسر الميم : الشجاع المجترى .

البيعة بالكوفة فأمره إن بلغه أمر فيه قوة لأبي مسلم بخراسان أن يظهر أمره بالكوفة ، ويدعو إليه ، ويناهض صاحب الكوفة ، ففصل ذلك أبو سلمة ، فلما غلظ أمر أبي مسلم بخراسان ، ولستولى عليها ، وبث البيهقي إلى مروان أظهر أمره بالكوفة ، وطرده عامل الكوفة ، فخرج هارباً .

ذكر البيعة لأبي العباس بالكوفة

قال : وذكروا أن أبا مسلم لما بلغه أن أبا سلمة قد أظهر أمره بالكوفة ، ودعا إلى محمد ، وجه رجلاً من قواده إلى الكوفة في ألفي فارس ، وأمره أن يسرع السير حتى يأتيها ، فأقبل ذلك القائد حتى دخل الكوفة ، فلقى خلافاً أسود لأبي العباس ، فقال له : أين مولاي ؟ قال : هو في دار هاتنا . قال : داني عليه ، فذه إلى الدار ، فاستفتح الباب ، ثم دخل عليه ، فلم عليه بالخلافة ، وكان أبو سلمة يريد صرف الخلافة إلى ولده عليّ بن أبي طالب ، وكان ينهى أبا العباس عن الخروج ، ويقول له : إن الأمر لم يمت ، وإن موالى بني أمية قاتمون بالحرب ، والأمر أهدأ مما كان . فقال أبو العباس : إن أبا سلمة منعني عن الخروج حتى يولى المسأل ، ويعمل الخارج . فقال القائد : لمن الله أبا سلمة ، والله لا أجلس حتى يخرج إلى الناس ، فخرج له مع رجالة إلى المسجد ، ونودي الصلاة جامعة ؛ فصد أبو العباس للنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم ذكر بني أمية وسوء آثارهم ، وذكر العدل ففسد عليه ، ووعد الناس خيراً ، ورجا لهم الإصلاح وكسمة الفتي على وجهه ، ثم دخل الإمارة ، وجلس الناس ؛ فلما بلغ أبا سلمة خروجه أمه يستند إليه ، قبل ذلك منه ، وأراه الكفاية منه ، والحاجة به ، وقد كان علم أبو العباس الذي أراد أبو سلمة من صرف الخلافة إلى ولده عليّ بن أبي طالب .

حرب مروان بن محمد وقتله

قال : وذكروا أن قسطنطين بن هبيب ، لما انتهى إلى بعض كور الشام ، التقى بمروان قتاله ، فانهزم مروان ، فأقيم قسطنطين في طلب مروان فرسه في الفرات ، فحمله الماء ، فمات فيه ، وقد أصاب أهل عسكر قسطنطين من أموال مروان ، وأمتعة حركه ما لا يحصى كثرة ، فتناول القواد حديد بن قسطنطين ، وعبر الفرات حتى آوى الشام ، فقتل له ؛ إن مروان ترك الطريق إلى دمشق وذهب صالح بن عبد الله بن عباس ، وكان بناحية من الشام ، وقد اجتمع إليه الناس لما علموا من قرابته لأمر المؤمنين ؛ فلما اجتمع مع حميد بن قسطنطين سلم إليه الأمر ؛ وقال الناس : إله خرج بإظهار الدعوة لأبي العباس من غير أمره ، فلما سلم الأمر إلى صالح بن عليّ ، أمه

كتاب أبي مسلم ، أن يرجع ابن قعدة يفيض عساكره إلى العراق ، فيكون فيها حتى يأتيه أمره ،
فأتى صالح بن علي كتابه بأنه قد صير إليه الشام ، وما وراءها إلى التبر ، وأمره فيه يشه
الجيش في طلب مروان ، فولى صالح بن علي رجلاً من الأزد ، يقال له أبو عون على مصر ،
وأمره بطلب مروان في أرض التبر ، وجيشه في عشرين ألفاً ، وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك
قد نافر مروان بن محمد ، ولله مراراً قبل أن يشتد أمر أبي مسلم ، فصار إليه في أربعة آلاف ،
وذلك بعد خروج قعدة من عند أبي مسلم ، فزل به سليمان ، وكانت بينه وبين أبي الباس مودة
قديمة ، فباجع أبو مسلم على طاعة أبي الباس ، فصر به أبو مسلم وشيخته ، ثم سيره في طلب قعدة
محمداً له ، وقد قاتل مروان قعدة قبل قدم سليمان يومين ، فلما نظر مروان إلى دخول سليمان
ابن هشام في عسكر قعدة ، وكثرة من جاء معه انهزم ، فلقى سليمان مع حميد بن قعدة في
طلبه ، ولم يكن مروان انهزم عنه غلبة ، ولكنه كان ينظر في كتب الحدائق ، فوجد فيها أن
طاعة للسوءة (١) لا تجاوز الثراب (٢) ، فقال ذلك لوزرائه . قتل له : إن مصر زاباً آخر .
قال : فإلها نذهب إذا ، والراب الذي أراد عليه هو بأرض التبر ، فأقبل مروان وهو يريد
مصر ، فالتفت الحيل ، فانهزمت خيل أبي عون ، وأسر جماعتهم وصاحبهم ، فأتى مروان
بالأسارى ، فقال مروان لجماعته : شدوا أيديكم بالأسي ، قد أجتنا الليل ، وبات مسروراً .
فلما أصبح جمل يفي أصحابه لقاء القوم ، فأقبل سليمان بن هشام ، وأبو عون وكان مروان
قد أركض جبال الجسر ، وتوسط أصحابه فيها هناك وهم آمنون . قال أبو عون للقبض (٣) : هل
لهذا التبر من غصاة ، فقالوا له : ما علنا ذلك ، ولا بلنا أن أحداً خاضه قط ، قطع مما قصد
وأراد . فكتب إلى صالح بن علي بذلك ، ورسأله أن يبعث إليه بمراكب ساحل البحر عاجلاً ،
فبينما هو في ذلك ، إذ أتاه رجل من القبط فقال له : إن أبي كان يقرأ الكتاب ، وكان يحدثنا
بأمور تكون بعده ، ويصف لنا موضعاً يحمله الله لكم تخوض فيه الحيل عند تلك الأمور ، وقد
اختبرت ذلك الليلة ، فسر بذلك أبو عون ، ثم بعث معه الحيل إلى ذلك الموضع ، بعد أن وصله
ووعده خيراً وكان مروان ينظر إلى الرمايات السود بانجية مصر ، ونظر إلى الحيل تدنو التبر ،
ولا يشك أنهم لا يجدون سبيلاً إلى عبوره ، فلم ينشب أهل عسكر مروان أن تنظروا إلى خيل
أبي عون قد جلوزت النيل ، فبأ مروان أصحابه وأهل بيته ، ثم خطبهم وحضهم على الصبر .

(١) السوءة : الباسيون لأن شعارهم كان لباس الأسود

(٢) الثراب : نهر بالموصل ونهر ياربل ونهر بين سوريا وواسط ، ولكنهم يطلقون الثراب

هنا على مطلق التبر ، بدليل قولهم إن مصر زاباً آخر وليس بمصر غير النيل

(٣) القبط : أهل مصر الأصليون .

وقال لهم : إن الجزع لا يزيد في الأجل ، وإن الصبر لا ينقص الأجل وأقبل القوم فالتفتوا من وقت صلاة المسح إلى أن مالت الشمس ، فأصيب عبد الله وعهد ابنا مروان وبنو أبيه أكثرهم ، وولد عبد العزيز ، وصابر القوم ، فلما لم يبق حوله إلا القدر الثلاثين ، حمل على القوم فأكردهم (١) ورجع ، فجعل أصحابه يفترون عنه . فلما رأى ذلك نزل عن فرسه وأنشأ يقول متمنلا :

خلفت الحيلة وهول للمات وكلاً أراه وخياً ويلاً
فلئن كان لابد من ميتة فسرى إلى اللوت سراً جيلاً

فوثب رجل إلى فرسه فأخذه . قال له مروان : أكرمه فإنه أشقر مروان . ثم كسر غده سبله ، وقتل قتلاً عديداً ، ثم أصيب ، فنزل أبو عون ، فأمر بضرب غبابة ، وأمر سليمان ابن هشام بطلب للثومين ، حتى أصيب عامتهم واستأسر منهم من استأسر ، وكان فيمن أسر منهم عبد الحميد كاهن ، وحكم للسكنى مؤذنه ، فاستبقاها أبو عون ، وبث بهما إلى صالح بن طي ، ثم أمر أبو عون بطلب جنة مروان على شاطئ النيل . فلما كان من القدر : ركب أبو عون وسليمان ابن هشام لينظرا مروان ، فظفرا إليه ، ثم تحوّل أبو عون إلى سليمان . قال : الحمد لله الذي شفى صدره قبل اللوت من مروان ، فهل لك يا أبا أيوب أن تذهب إلى أمير المؤمنين بكتابي وبما حيا الله على يدك وهذا به صدرك ، فيعمل بك خيراً ، ويعرف من قرابتك ونصحتك ما أنت أهله ؟ فرضى بذلك سليمان ، فكتب وصار . فلما قسم سليمان بن هشام على أبي العباس أمير المؤمنين ، رحب به وقرّبه واستلطفه ، وأزله بعض دور الكوفة ، وفعل به ما لم يفعل بأحد سواه ، من البر والإكرام ، وكان سليمان يختلف إلى مائة أبي العباس في كل يوم ، فيشددى معه ، ويتشكى ، وكان كأحد وزائه وفوتهم ، وكان يجلس أبا جعفر عن يمينه ، وسليمان عن يساره .

قفل أبي سلمة اللؤلؤ

قال : وذكروا أن أبا العباس لما تمت له الأمور واستوثقت ، استشار وزراءه في قفل أبي سلمة ، فأدار القوم الرأي فيه ، وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين ، وكان يقيم عنده في كل ليلة إلى حين من الليل ، فإذا أراد الخروج والرجوع إلى منزله ، قربت إليه دابته إلى المجلس ، فيركب منه دون غيره ، ثم يخرج إلى داره . قالوا له : إنك إن فعلته ارتاب أبو مسلم ، ولم تأمن أن يحدث لك حدثاً ، ولكن الرأي أن تكتب إليه باليد بآباك

(١) أكردهم : طردهم وجعلهم يمدون أملهم

منه ، والذي يريد من فسخ ما أنت فيه ، فكتب إلى أبي مسلم بذلك ، وكان أبو العباس وأبو جعفر لا يسميان عبد الرحمن (بني أبا مسلم إلا حمًا) . فلما قدم الكتاب إلى أبي مسلم ، كتب إلى أبي العباس : إن كان رايك منه ريب فاضرب عنقه . فلما أتاه الكتاب قال له وزرأه : إنك لا تأمن من أن يكون ذلك غدراً من أبي مسلم ، وأن يكون إنما يريد أن يجد السبيل إلى ما تخوف منه ، ولكن اكتب إليه أن يمش إليك رجل من قواده يضرب عنقه . فكتب إليه بذلك ، وذكر في كتابه : إنى لا أقتم ولا أؤخر إلا براك . فبث إليه رجل يقال له حمران الضبي . فلما قدم على أبي العباس أمر ذلك الضبي أن يقد له في الظلة ، في داخل الإمارة بالكوفة ، فلذا خرج ضربه بالسيف برأسه ، فقتله ، ثم أمر بصلبه . فلما أصبح الناس إذا هم بأي سلة مصلوباً على دار الإمارة .

قتل رجال بني أمية بالشام

قال : وذكروا أن أبا العباس دلى صه عبد الله بن علي ، الذي يقال له السباع : الشام ، وأمره أن يسكن فلسطين ، وأن يمتد السيرة نحوها ، وهناك بما أصاب من أموال بني أمية ، وكتب إلى صالح بن علي أن يلحق بمصر واليا عليها ، فقدم السباع فلسطين ، وتقدم صالح إلى مصر ، فأنتها بد قتل مروان يومين ، وأن السباع بث إلى بني أمية ، وأظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاد بهم ، وأمره بجلتهم ، ولحقهم في ديواته ، ورد أموالهم عليهم ، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ، ثلاثة وعشرون رجلاً ، وكان فيهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وأبان بن معاوية بن هشام ، وعبد الرحمن بن معاوية ، وغيرهم من صناديد بني أمية . فلما عبد الرحمن بن معاوية ، فلقه رجل كان صنع يداً ، وأسده خيراً ، وأولاه جيلاً . فقال له : أظني اليوم في كفة ، ثم اعصني إلى يوم القيامة . فقال له عبد الرحمن : وما أطيبك في اليوم ؟ فقال له الرجل : أدرك موضع سلطانك ، وقاعدتك للتراب ، التجاء التجاء ، فإن هذا غدراً من السباع ، ويريد قتل من بقي من بني أمية . فقال له عبد الرحمن : ويحك إنه كتاب أبي العباس ، قدم عليه ، يأمره في بسلتنا ، ورد أموالنا إلينا ، ولحقنا بالطلاء الكامل ، والرزق الوفير . فقال له الرجل : ويحك أنتظر ؟ والله لا يستقر ملك بني العباس ، ولا يسترون على سلطان ، ومنكم عين تطرف . فقال له عبد الرحمن : فما أنا بالذي يطبق في هذا . قال الرجل : أفأذن لي أن أنظر إلى ما تحت ظهره مكشوفاً ؟ فقال له : وما تريد بهذا ؟ فقال له : أنت والله صاحب الأمر بالاندلس ، فكشف لي ، فكشف عبد الرحمن عن ظهره ، فنظر الرجل فلذا العلامة

التي كانت في ظهره قد وجدت في كتب الحدائق (١) ، وكانت العلامة خلا أسود عظيم مرتباً على الظهر هابطاً ، فلما نظر إليه الرجل قال له : النجاء النجاء ، والحرب الحرب ، فإنك والله صاحب الأمر ، فأخرج فلما ملك ، ومالي لك ، ولي عشرون ألف دينار معسورة ، كنت أعدتها لهذا الوقت . فقال له عبد الرحمن : وعمن أخذت هذا العلم ؟ فقال الرجل : من عمك مسلمة بن عبد الملك . فقال له عبد الرحمن : ذكرت والله طالما بهذا الأمر ، أما لئن قلت ذلك لقد وقفت بين يديه وأنا غلام ، يوم توفي أبي معاوية ، وهشام يومئذ خليفة ، فكشفت عن ظهرى ، فظهر إلى ما نظرت إليه . فقال لهشام جدى وهو يركب : هذا اليتيم يا أمير المؤمنين صاحب ملك المغرب . فقال له هشام : وما الذى أبكاك يا أبا سعيد ؟ لهذا تبكى ؟ فقال : أبكى والله على نساء بنى أمية وصبيانهم ، كأني بهم والله قد أبداوا بعد أساورة الذهب والفضة الأغلال والحديد ، وبعد الطبيب واللعن البقل والمقار ، وبعد المزّ القلّ والصنار . فقال هشام : أحان زوال ملك بنى أمية يا أبا سعيد ؟ فقال مسلمة : إى والله حان ، وإن هذا التلام يسمر منهم ، ثم يصير إلى المغرب فيملكها . فقال له الرجل : فاقبض منى هذا المال ، وأخرج بمن تقب به من علمائك . فقال عبد الرحمن : والله إن هذا الوقت ما يوثق فيه بأحد ، فولى ذاهبا ، وخرج لا يدرى متى يخرج ، فلقى بالمغرب ، وأقبل القوم من بنى أمية ، وقد أعدت لهم السلاح مجلسا فيه أضافهم من الرجال ، ومعهم السيوف والأجرزة (٢) ، فأخرجهم عليهم ، وقتلهم وأخذ أموالهم ، واستغنى (٣) عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وكان عبد الواحد قد بذّ العابدين في زمانه ، وسبق المهتدين في عصره ، فركب السلاح إلى أموال عبد الواحد ، وكان عبد الواحد قد اتخذ أموالا معصية ، تطرد فيها اللبائى والعيون ، فأمره السلاح أن يصيرها إليه ، فأبى عليه ، واختفى منه ، فأخذ رجلا من أهله ، فتواعدهم السلاح ، وأمر بحبسهم حتى دلوه عليه . فلما قبضه أمر بقتله ، ثم استقصى ماله ، فبلغ ذلك أبا العباس أمير المؤمنين ، وكان أبو العباس يبرقة قبل ذلك ، وكان عبد الواحد أفضل قرشى كان في زمانه عبادة وفضلا . فقال أبو العباس : رسم الله عبد الواحد ، ما كان والله بمن يقتل لثلاثة (٤) ، ولا بمن يشار إليه بباحثه ، وما تقتله إلا أمواله ، ولولا أن السلاح همى ، وضمائه ورعاية حقه على واجب ، لأقدت منه (٥) ، ولكن

(١) كتب الحدائق : كتب التتبع والإخبار بالسبق .

(٢) الأجرزة : جمع جرز : بضم الجيم وسكون الراء وهو عمود الحديد .

(٣) استغنى عبد الواحد : تركه فلم يقتله .

(٤) الثلاثة : للهامة ، والقتل غدرا وهو للراد هنا .

(٥) لأقدت منه : لأخذت منه القود وهو القصاص أى قتلته قصاصا بقتله عبد الواحد .

الله طالبه ، وقد كنت أعرف عبد الواحد بـ"أقنيا" ، صولنا قوتلما . ثم كتب إلى عمه الصلاح
ألا يقتل أحداً من بني أمية ، حتى يعلم به أمير المؤمنين ، فكان هذا أول ما قام أبو العباس على
عمه الصلاح .

ذكر قتل سليمان بن هشام

قال : وذكروا أن عيسى بن عبد البر أخيراً قال : كان سليمان بن هشام أكرم الناس
على أبي العباس أمير المؤمنين ، لحسن بلائه مع قسطنطين ، وقيامه معه على مروان ابن عمه ، وكان
هو الذي تولى كبره^(١) ، وقتل على يديه ، فكان ذلك أخس الناس بأبي العباس ، فبينما هما
يوماً وقد تضاخكا وتداعبا ، إذ أتى رجل من موالى أبي العباس يقال له سيف ، فناول
أبا العباس كتاباً فيه :

أصبح لكك ثابت الأساس	بالبائيل ^(٢) من بني العباس
طلبوا وثر ^(٣) هاشم ففكوا	يسد ميل من الزمان وإس ^(٤)
لا تقبلن عبد فمس ^(٥) عشارا	واقطنن كل عجلة وغراس
دُلُّمنا أظهر التودد منها	وبها منكم كمز اللواس ^(٦)
ولقد غافنى وغلظ سوائى	قربهم من منابر وكراس
وإذ كرن مقتل الحسين وزيدا	وقتيلا بجانب للهراس ^(٧)

فقرأها أبو العباس ، ثم قال له : نعم ، ونمنا حين وكسرامة ، سننظر في حلجك ، ثم
ناول الكتاب أبا جعفر ، ثم سلم سليمان بن هشام ، ثم قام وخرج ، فتطلع رجل من موالى
بني أمية . كانت له خاصة وخدمة في بني العباس ، صرف بعض ما في الكتاب ؛ فلما خرج من
عند أمير المؤمنين مرّ بسليمان بن هشام في فرقة له بالكوفة فسلم ، ثم قال لسليمان : من عندك

(١) تولى كبره : تحمل أمانة الكبير .

(٢) البائيل : جمع باول وهو السيد الشريف .

(٣) الوثر : الثأر وغلوها : أرضوا قوسها .

(٤) ياس : هو العباس وعدم الأذل أى بعد أن كانوا بالعين من الأخذ بأمر .

(٥) عبد فمس : هى قبيلة بني أمية .

(٦) اللواس : جمع موسى وهى الشجرة التى يخلق بها الشعر .

(٧) للهراس موضع بالبلعة .

يا أبا أيوب ، فقال له : ما عندى غير ولى . فقال له : إن للأبى عورن بك ليتنوك ، فخرج إلى لك من الناصحين . فخرج سليمان من ليته هارباً ، فلحق يمشى الجزيرة وكتب إلى مواليه وصانعه ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فبث إليه أبو العباس بشأ قاتله ، فانهزم ذلك البعث ، ثم بث إليه بشأ آخر ، فهزمه أيضاً . قال : فقتل سليمان عن ذلك للوضع إلى غيره ، ثم بث إليه بشأ آخر ، فأسر سليمان وولده ، فأنى بهما أسيرين إلى أبى العباس ، فأمر ، فقطعت لها خشبتان ، رقتا إليهما ، فأمر يضرب رقابهما ، وصلبهما . فقال سليمان لولده : لقدم يا بنى على مصيقتى بك ، فتقهقر التلام ، ثم تقدم قتل ، ثم قتل سليمان ، وصلب على باب دار الإمارة بالكوفة .

خروج السفاح على أبى العباس وخلمه

قال : وذكروا أن المهدي بن عدى أخبرهم قال : لما ولى السفاح الشام ، واستصلى أموال بنى أمية لنفسه ، أصيبت نفسه ، وحسد ابن أخيه على الخلافة فأظهر الطعن على أبى العباس ، والتقص له . فلما بلغ ذلك أبى العباس ، كتب إليه ياتيه على ما كان منه ، فزاده ذلك حسداً وحسداً ، فإياه ، فحبس الخراج ، ودعا إلى نفسه ، وخلع طاعته ، ثم قرب موالى بنى أمية وأطمعهم ، وسد ثورم^(١) ، وأبدى المزم ، وأظهره على محاربة أبى العباس ، فلما انتهت أخباره إلى أبى العباس ، كتب إلى أبى مسلم يستنبيه وذكر عظيم يده عنده ، ويسأله القدوم عليه لأمر السفاح ، فقدم أبو مسلم ، فأقام عنده أياماً ، ثم خرج إلى السفاح ومعه أجناده وقواده ، فلقى السفاح على الفرات فهزمه ، ولصباح عسكره ، وأخذ أسيراً ، فقدم به على أبى العباس . فلما قدم إليه ، وأدخل عليه قال : يا عمى أحسنأ وولينا حسدت وبنت ، وقد رأيت تدعلأ عليك ، وصلا لرحمك ، أن أحبسك حبساً رقيقاً ، حتى تؤدب نفسك ، ويسدو نملك ، ثم أمر فبنى له بيت . جعل أساسه قطع للبح ، فحبسه فيه . فلما كان بعد أيام أرسل لئاء حول البيت ، فذاب للبح ، وسقط البيت عليه ، فأت فيه ، ورد أبو مسلم إلى عمله بخراسان ، فأقام فيها بقية عامه ، ثم أخرج أبو العباس أبا جعفر والياً على اللوسم ، وخرج أبو مسلم أيضاً حاجباً من خراسان .

اختلاف أبى مسلم على أبى العباس

قال : وذكروا أن أبى العباس وجه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبى مسلم ، وكان فيهم الحجاج بن أرطاة الفقيه ، والحمز بن الفضل الماشى ، وعبيد الله بن الحسين ، فلما توجه

(١) سد ثورم ، دافع عنهم ولم يترك أبا جعفر مفتوحة لإحراجهم.

أبو جعفر إلى أبي مسلم بخراسان ، وقدم عليه ، استخف به بعض الاستخفاف ، ولم يزد الإجلال له ، وجعل ينظم في كلامه وصفه الخليفة ، ولم يزل أبو مسلم يتخوف أن يصنع به مثل ما صنع بأبي سلمة الخلال ، وكان لا يظهر ذلك لأحد . فلما قدم أبو جعفر عليه ، ومعه الثلاثون رجلاً ، وفيهم عبد الله بن الحسين ، قام إليه سليمان بن كثير . فقال : يا هذا إنا كنا نرجو أن يتم أمركم ، فلذا هتتم فقدموا إلى ما تريدون . فظن أنه دسيس من أبي مسلم ، غاف ذلك ، فبلغ أبا مسلم أن سليمان بن كثير سامر عبد الله بن الحسين بن علي . فقال لسليمان : بشئ أنك سامرت هذا الفقي . قال : أجل ، له قرابة وحق علينا وحرمة ، فسكت . فأتى عبد الله ابن الحسين أبا مسلم فذكر له ذلك ، ووطن أنه إن لم يفعل اغتاله أبو مسلم . فبث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير ، فقال له : أتعلم قول الإمام : من اتهمته فاقته . قال نعم . قال : الإمام . قد اتهمتك فقال : ناهدتك الله ، قال : لا تتأخذني وأنت منظر على غفوه فأمر فضربت عنقه ، وكتب أبو مسلم إلى محمد بن الأشعث ، أن يأخذ عمال أبي سلمة ، فيضرب أذنابهم ، واستعمل أبو العباس عيسى بن علي على فارس ، فأخذ محمد منهم بقتله . قيل لعمد : إن هذا لا يسوغ لك . قال : أمرني أبو مسلم أن لا أقدم على أحد إلا ضربت عنقه . فقال : ما كان أبو مسلم ليفعل شيئاً إلا بأمر الإمام . فلما قدم أبو جعفر من عند أبي مسلم قال لأبي العباس : لست بخليفة ، ولا أمرك بشئ ، إن لم تقتل أبا مسلم . فقال أبو العباس : وكيف ذلك ؟ قال : لا والله ما يبأ بنا ، ولا يصنع إلا ما يريد . فقال له أبو العباس : اسكت واكنمها .

قتال ابن هيرة وأخذه

قال : وذكروا أن أبا العباس وجه أبا جعفر إلى مدينة واسط ، فقدم على الحسين ابن قميطة وهو على الناس ؛ وكتب أبو العباس إلى الحسين بن قميطة : إن السكر عسكرك ، والقوله قوله ، فلن أحييت أن يكون أخى حاضراً ، فأحسن موازرتك^(١) ومكافئته . وكتب إلى أبي نصر مالك بن الميثم بتل ذلك ، وذكروا أن ابن هيرة كان قد نصب الجسور بين اللديتين ، وقالت الجانية الذين مع ابن هيرة : لا والله لا قتال على دعوة بني أمية أبداً ، لسوء رأيهم فينا ، وبضهم لنا ؛ وقالت القيسية : لا والله لا قتال حتى يقتال الجانية ، فلم يكن يقاتل مع ابن هيرة إلا صاليك الناس ، وأهل السقاء . وكان كثيراً ما يتنقل ويقول :

(١) موازرة : مؤازرة وممازرة من الموازاة وهي للممازاة .

الثوب إن أتبع فيه البلى أعيأ على ذى الحيلة الصانع
كننا رقعها إذا مزقت فانسح الحرق على الرقع

وكان من رأى ابن هيرة أن لا يعطى طاعة لبنى العباس ، وكان رآه أن يدعو إلى محمد
ابن عبد الله بن الحسين ، فاطلع على ذلك أبو العباس ، وخاف أن يثور الجانية مع ابن هيرة
في ذلك . فكتبهم أبو جعفر ، وقال في كتابه لهم : السلطان سلطانكم ، والدولة دولتكم ،
وكتب إلى زياد بن صالح الحارثي بذلك وكان عامل ابن هيرة في المدينة ، مكان عامله قبل
ذلك على الكوفة ، فأجيب زياد بن صالح ، وذلك لا يخاف أن يدخل المدينة فيقتل بها . فلما
كان متيب الشمس قاموا إليه . فلما سلى القرب ، ركب فطاف في مساحله (١) وأبوابه ، فرجع
عنه ، فحشى ، ثم سلى . فأقبل على بن المهيم فقال : والله ما أخلف غصة أعظم ولا أمم إلى
منك ، لأنك مع هؤلاء ، ولست أدري ما يكون بعد اليوم ، وأرى الأمر قد استحب هؤلاء
القوم في الشرق والغرب ، ولكن إن بقيت أبا العباس أعلته من أمرك مثل الذي أعلته
من أمري . قال : ما أخاف تقصيرك ، ثم قال : لست أثق بولده ولا بغيره ، تثق بك فيما أريد
أن أوطئه ، فأخذ مفاتيح هذه المدينة ، حتى أصبح فأتى بها ابن هيرة . فقلت : انظر
ما صنعت في خروجك ، أثق بالقوم ؟ قال : نعم ، قد جرى بيني وبينهم ما أثق به ، وأتاني
كتاب أبي العباس بكل ما أحب ، وكتاب أبي جعفر . فقلت : يا أبا الربيع ، أخاف أن لا يوفى
لك . فلما أدم (٢) الليل وانصف قام فسل ركعت ، ثم أمر غلمانه فغفلوا متاعه على أربعة
بغال ، ثم أخرج أربعة غلمان له ، وابنه ثابت على بردون له ، ثم خرج وأغلق الباب . فلما
اتمى الخبر إلى ابن هيرة بكى وقال : ما يوثق بأحد بعد زياد بن صالح ، بعد إشارتي إليه ،
وأكرهى وتفضيلي له ، وما صنعت به . قلت : هو هناك ، والله خير لك منه ها هنا . قال :
ورمى ذلك ؟ قلت : نعم . قال : ثم مشى الكتب والرسل بينهم أي بين أبي جعفر وابن هيرة
حتى صار أمرهم إلى أن بلغاه ، ونهض ابن هيرة إليهم ، وتغلى بما يده لهم .

كتاب الأمان

قال : وذكروا أن رجلا من قيس يقال له أبو بكر بن مصعب الثقلي ، سعى في كتاب
الصلح والأمان عند أبي جعفر ، حتى تم له ، فأتى ابن هيرة ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم ،

(١) للسلخ : جمع سلخة بفتح السين واللام وسكون السين : الثمر وهو المكان الذي يكون
عليه الحراس خوف دخول الأعداء .

(٢) أدم الليل : اهدأ سواده وإظلامه

هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر ، ولي أمر المسلمين ، يزيد بن هيرة
ومن معه من أهل الشام والعراق ، وغيرهم في مدينة واسط^(١) وأرضها ، من المسلمين
والمسلمين ، ومن معهم من وزراءهم : إني أمتك بأمان الله الذي لا إله إلا هو ، الذي يسلم
سراير العباد وضمائر قلوبهم ، ويعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور ، وإليه الأمر كله ،
أماناً صادقاً لا يشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم وذرائعكم وأموالكم ، وأعطيت
يزيد بن عمر بن هيرة ، ومن أمته في أعلى كتابي هذا بالوفاء ، بما جلت لهم من عهد الله
وميثاقه ، الذي واثق به الأمم للامانة من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره عهداً خالصاً مؤكداً ،
وفضة الله ، وفضة محمد ومن مضي من خلفائه الصالحين ، وأسلانه الطيبين التي لا يسع العباد
نقضها ، ولا تمطيل شيء منها ، ولا الاحتشار بها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال ،
فأبين أن يحمليها ، وأخفقن منها ، تعظيماً لها ، وبها حققت المعاد ، وفضة روح الله وكلمته
عيسى بن مريم ، وفضة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وفضة جبريل وميكائيل
وإسرائيل ، وأعطينك ما جبت لك من هذه اليهود وللواتيق ، ولبن مملوك من المسلمين ، وأهل
الهمة بعد استبأرى فبا جبت لك منه عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وأمر
بإفادته لكم ، ورضى به ، وجهه لكم وعلى نفسه ، وتسليم ذلك من قبله من وزراءه وقواده ،
وأناصر الحق من شيعته ، من أهل خراسان ، فأنت وهم آمنون بأمان الله ، ليس عليك حد ،
ولا تؤاخذ بذنوب آئيتهم ، وكنت عليه في خلاف أو منالوة ، أو قتل أو زلة ، أو جرم
أو جنابة ، أو سفك دماء خطأ أو عمداً ، أو أمر سلف منك أو منهم ، صغيراً أو كبيراً في سر
أو علانية ، ولا تناقض عليك ما جبت لك من أمانى هذا ، ولم أخذك فيه ، ولا ناكث عنه ،
وأذنت لك في اللقاع في المدينة الصربية إلى الأجل الذي سألت ، ثم اسلك حيث بدا لك من
الأرض آمناً مطمئناً ، مكواه^(٢) أنت ومن سألته أن يؤذن له في السير معك . ومن يملك ،
وأهل يملك . وأحسن مع رجل على ما سألت من دوابهم وسلاحهم ، ولباس اليافض لا يخافون
غدرًا ، ولا إخغار^(٣) بك حيث أحببت ، من بر أو بحر ، وانزل حيث شئت من الأرض إلى
أن تنتهي إلى منزلك من أرض الشام ، فأنت آمن بأمان الله ، بمن مررت بهم من عمارنا

(١) واسط : بلد بالعراق .

(٢) مكواه : مرجاً ملحوظاً بطاية الله ورعايتنا .

(٣) الإخغار : نقض العهد وعدم الوفاء به .

ومساحنا^(١) ومراسدنا ، ليس عليك شيء تكرهه في سرّ ولا علانية ، ولك الله الذي لا إله إلا هو ، لا ينالك من أمر تكرهه في ساعة من ساعات الليل والنهار ، ولا أدخل لك في أمانه الذي ذكرت لك غشاً ولا خديعة ولا مكرًا . ولا يكون مني في ذلك دسيس بشيء مما تخافه على نفسك ؟ ولا خديعة في مشرب ، ولا مطعم ولا لباس ، ولا أضمر لك عليه نفسي إلى ارتحالك من مدينة واسط إلى دخولك على عسكري ، واقتدروا الروح إذا بدا لك ، والتمخول أي ساعات من ساعات الليل والنهار أحببت ، فاطمئن إلى ما جعلت لك من الأمان ، واليهود وللواثق ، وثق بالله وبأمر المؤمنين فيما سلم منه ، ورضى به ، وجعلته لك ولن يملك على نفسي ، ولك على الوفاء بهذه اليهود وللواثق والقيم ، أعدت ما أخذ الله وحرّمه . وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه جعله كتاباً مبيناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونوراً وحجة على العباد ، حتى ألقى الله وأنا عليه ، وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ، ومن قرأ عليه كتابي هذا من المسلمين والمجاهدين بقبول هذه اليهود وللواثق ، وإقرارى بها على نفسي وتوكيئى فيها ، وعلى تسلمى لك ما سألت ولا ينادر^(٢) منها شيء ، ولا ينكث عليك فيها ، وأدخلت في أمانك هذا جميع من يقبل من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن لأمر المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل السنة ، وجعلت لك أن لا ترى مني اهتباطاً ولا عجانة ولا ازورار^(٣) ، ولا شيئاً تكرهه في دخولك على إلى مفارقتك لأي ، ولا ينال أحداً منك امرّ يكرهه ، وأذنت لك ولهم في السير والقيام ، وجعلت لهم أماناً صحيحاً ، وعهداً وثيقاً ، وإن عبد الله بن محمد إن نقض ما جعل لك في أمانك هذا ، فكنت أو غدر بك أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على خلافه أحداً من المخلوقين في سرّ أو علانية ، أو أضمر لك في نفسه غير ما أظهر لك ، أو أدخل عليك شيئاً في أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين أو التماس الخديعة والسكر بك ، وإدخال للكره عليك ، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به ، فلا قبل الله منه صريحاً ولا عدلاً^(٤) ، وهو يرى من محمد بن علي وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويترأ من طاعته ، وعليه ثلاثون سبحة يمشيها من موضعه الذي هو به من مدينة واسط إلى بيت الله

(١) المساح : التتور كما سبق

(٢) لا ينادر منها شيء : لا يترك منها شيء وإنما تسلم إليك كلمة

(٣) الأزورار : البعد والجفاء

(٤) صرفاً ولا عدلاً : أي لا يقبل الله منه شيئاً مطلقاً من عمله

الحرام الذي بمكة حافياً راجلاً وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حبة بשרاء أو حبة
أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع
أو دابة أو غير ذلك ، فهو صدقة على الساكنين ، وهو يكثر بالله ويكتابه للنزل على نبيه ،
والله عليه بما وكذا^(١) ، وجعل على نفسه في هذه الأيمان ربيع وكليل ، وكنى بالله شهيداً .
قالوا : وكان من رأى أبي جعفر الوفاء لابن هيرة وأصحابه .

قُتِلَ ابْنُ هِيرَةَ عَلَى أَبِي الْعَبَّاسِ

قال : وذكروا أن ابن هيرة وأصحابه لما جاهدوا الكتاب بالأمان ، ترددوا فيه أربعين
يوماً يتدبرونه ، ويستغيثون الله في الخروج إليهم ، ثم هزم الله له في التقدم على أبي العباس
وأبي جعفر ، وكان أبو مسلم كثيراً ما كتب لأبي العباس إنه قد طرقت سبل يُلْقَى فيه حجارة
إلا أضرت ذلك بأهله ، ولا والله يصلح طريق فيه ابن هيرة وأصحابه ، وكان أبو الجهم بن
عطية عين أبي مسلم على أبي العباس فكان يكتب إليه بالأخبار ، وكان أبو العباس لا يقطع
أمراً دون رأى أبي مسلم ، وقد كان ابن هيرة في تلك الأربعين ليلة جمع لذلك الكتاب
عن يبر السلام والفته طرفي النهار ، فيتردّدون فيه ، حتى بلغوا فيه النجاة التي يريدون ، ثم
خرج ابن هيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاث مئة . فلما قدم أراد أن يدخل دار الإمارة على
دائمه . فقام الأذن فقال : مرحباً بك أبا خالد ، انزل راشداً ، وقد طاف باللهار يومئذ نحو من
عشرة آلاف رجل من أهل خراسان ، متكئين في السلاح ، أعينهم زهو من تحت للثاغر^(٢) ،
على عواقهم السيوف مشهورة ، وعمد الحديد بأيديهم . فأبى ابن هيرة بوسادة ، فطرحته ،
فجلس عليها ، ثم دعا الحاجب بالقواد ، فدخلوا على أبي جعفر ، ثم خرج سلام بن سلام فقال :
ادخل يا أبا خالد . قال : ومن ممى ؟ قال : إنما استأذنت لك ، فدخل ، فوضعت له وسادة
فجلس ، فحدثه أبو جعفر طويلاً ثم نهض فركب ، فأتبعه أبو جعفر بصره حتى انصرف .

قُتِلَ ابْنُ هِيرَةَ

قال : وذكروا أن أبا العباس كتب إلى أبي جعفر : أن اقل ابن هيرة ، فزاده أبو جعفر
بالكتاب . فكتب إليه أبو العباس : والله لثقتنه أو لأبائن إليك من يخرج من عندك ويؤتلى

(١) وكذا : أكد وثبت .

(٢) الثاغر : جمع منفر بكسر الميم وسكون التاء ، وهو زرد من الحديد يملج على هيئة
حقائق يلبسه الحارب تحت القلنسوة على رأسه ووجهه .

ذلك عليك . وكان ابن هيرة إذا ركب إلى أي جفر ، ركب في ثلاث مئة فارس ، وخمس مئة راجل ، قدم يزيد بن حاتم على أي جفر ، قال : أصح الله الأمير ، ما ذهب من سلطان ابن هيرة شيء ، بأتينا فيضع^(١) به الفسكر . فقال أبو جفر : يا سلام قل لابن هيرة لا يركب في مثل تلك الجماعة ، وليأتينا في حاشيته . قال عدئ : فأصبحنا ، فخرج ابن هيرة أيضا في مثل تلك الجماعة الذين كانوا يركبون معه ، فخرج إليه سلام فقال : يقول لك الأمير ما هذه الجماعة ؟ لا تسيرن إلا في حاشيتك ، فخير وجه ابن هيرة . فلما أصبح أي في نحو من ثلاثين رجلا قال له سلام : كأنك إنما تأتينا مباهايا . فقال ابن هيرة : إن أحببتم أن تثنى إليكم فلنا . فقال سلام : ما نريد بذلك استخفافاً بك ، ولكن أهل السكر إذا رأوا جماعة من معك غمهم ذلك ، فكان هذا من الأمير نظراً لك ، فكث طويلا جالسا في الرواق . فقيل له : إن الأمير يحثهم ، فانصرفوا ، فلم يزل يركب يوما ويقم آخر ، لا يجيء إلا في رجلين أو غلامه ، وقد ختموا على الخزائن ويوث الأموال ، وجعل القواد يدخلون على أبي جفر فيقولون : ما تنتظر به ؟ فيقول : ما أريد إلا الوفاء له حتى إذا اجتمع أمرهم على قتله ، بهت إلى الحسين بن قسطلبة فأثاه . فقال : لو سرت إلى هذا الرجل فأرحتنا منه . فقال : لا نريد ذلك ، ولكن ابث إليه رجلا من قومه من مضر حتى يقتله ، فتفرق كلهم عند ذلك ، فدعا حازم بن خرزعة ، والمهشم بن هبة . قال لم أبو جفر : اتنوا إلى ابن هيرة فجددوا على بيوت المال الحثم ، وعلى الخزائن ، وبث معهما من اللضرية والقيسية أن يحضروا الإذن ، وأربعونا من الرجل ، ففعلوا ، ثم دخلوا رجة القصر في مئة رجل ، فأرسلوا إلى ابن هيرة : إنا نريد حمل ما بقي في الخزائن . فقال : ادخلوا ، فدخلوا الخزائن فطافوا بها ساعة ، وجعلوا يظفون عند كل باب عدة حتى دخلوا عليه . فقالوا : أرسل معنا من يد لنا على المواضع وبيوت الأموال . قال : يا عثمان أرسل معهم من يريدون ، فطاف حازم وأصحابه في القصر ساعة ، وابن هيرة عليه قبض له مصرى ، وملائة موزدة ، وهو مسند ظهره إلى حائط المسجد في رجة القصر ، ومعه ابن داود ، وحاجبه ، وكاتبه حمير بن أيوب ، وعدة من مواله وبلية ، وفي حجر ابن هيرة ولد صغير . فلما توثقوا من كل شيء أتبعوا نحوه ، فلما رأهم قد أقبلوا إليه قال : والله إن في وجوه القصور لفسرا . فلما دنوا منه قام أبو عثمان فقال : ما وراءكم ؟ فضحه المهشم بالسيف ، فأصاب جيل فاقه ، فصرعه ، وقام ابنه داود قتال ، ففترقوا عليه قتله ومواله ، ثم مضوا نحوه ابن هيرة غرا ساجدا ، وقال :

(١) يضع به الفسكر : يصف ويكسر قلبه .

وبحکم انحاء عن هذا الصواب لا يرى مصرعى . قال : فغضب حتى مات ساجداً ، ثم أخذوا رموسهم فأثروا بها أبا جعفر ، ونادى للنادى يولسط : أمن الأمير خلق الله جيباً إلا الحكم بن بشر ، وعمرو بن ذر . قال : فضاحت حتى والله الأرض بما رحبت حتى خرجته على دابح مالى رهيب^(١) إلا آية الكرسي أنلوها ، والله ما عرض لي أحد حتى تواريت ، ثم أزل خالفها حتى استأمن لي زياد بن عبد الله ابن الباس فأمنته ، وهرب الحكم بن عبد الله بن بشر إلى عسكره ، وضاحت بخالفه بن مسلمة الأرض حتى أتى أبا جعفر ، فلستأذن عليه فأمنته . وبلغ ذلك أبا الباس . فكتب إلى أبي جعفر : والله لو كانت له ألف عس لأبیت عليها ، اضرب عنقه ، فهرب أبو خلافة الفزاري ، وهشام بن هيرة ، وصفوان بن يزيد ، فلقبهم سعد بن شعيب قتلهم ، وقبض على أصصاب ابن هيرة ، قتل من وجوههم نحواً من خمسين ، ثم أثن الناس جيباً ، ونادى منادى أبا جعفر : من أراد أن يقيم ظيقر بالباية^(٢) ، ومن أحب أن يشخص فليشخص ، وهرب القمقلع بن ضرار وحيد وعدة ، حتى أتوا زياد بن عبد الله ، فلستأمن لهم ، فأثنوا جيباً ، وقوى ملك بني الباس ، واستقرت قواعد . فلما قتل ابن هيرة ، ونودي في أهل الشام : الحقوا هاكم ، فلاحاجة لنا بكم ، فسار أهل الشام حتى قدموا الكوفة ، منهم من قدم ، ومنهم من أخذ على عين التمر^(٣) ، ومنهم من أخذ على طريق الدائن^(٤) ، ثم لحقوا بالشام على طريق القرات . واستعمل أبو جعفر على واسط ومن فيها الميثم بن زياد ، وخلف معه خيلاً ، ثم انصرف أبو جعفر إلى أبي الباس ، وهو يومئذ بالهيرة^(٥) ، ثم وجه دلود بن علي إلى الحجاز ، قتل من ظفر به من بني أمية وغيرهم ، توجه إلى الثقي بن زياد بن عمر بن هيرة بالبيعة ، فقتله وأصحابه ، ثم تبعهم محمد بن حمارة ، وكان على الطائف قتلهم ، ونحوه أبو الباس من الهيرة إلى الأنبار^(٦) ، فأمر أبو الباس برأس ابن هيرة فوضع بالهيرة على خشبة ، ومعه غيره من محال مروان ، وجاء رفع رأس مروان بن محمد ، وعن يمينه رأس ثعلبة بن سلامة ، ورأس حبان بن أبي هيب عن يساره ، وانقطعت شجرة بني أمية ، وطلبوا تحت كل حبتور ومدثر .

-
- (١) الجبير والمجيمرى : بكسر الماء وتشديد الجيم : السادة الدابة واللقى مالى عمل دائم إلا تلاوة آية الكرسي باستمرار .
 (٢) البايعة : قرية بمشق .
 (٣) عين التمر : موضع قرب الكوفة .
 (٤) للدائن : بلد صغيرة قرب بغداد .
 (٥) الهيرة : بلد قرب الكوفة .
 (٦) الأنبار : بلد بالعراق .

اختلاف أبي مسلم على أبي العباس

قال : وذكر أولئك أن أبا مسلم كتب إلى أبي العباس يستأذنه في القدوم عليه فقدم عليه : فقتله الناس جميعاً ، ومنه القواد والجماعة ، والخل والنجاب ، ثم استأذن أبا العباس في الحج ، فقال : لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على اللوم . واستعمل أبا جعفر على اللوم ، فقال أبو جعفر لأبي العباس : أخطى واقتل أبا مسلم ، فوافقه إن في رأسه لندرة . فقال له : أي أخى ، قد عرفت بلائه . وما كان منه . قال أبو جعفر : هو أخطأ بذلك ، والله لو بشت سننورا مكانه لبلغ ما بلغ في ميسل الدولة . قال أبو العباس : كيف قتله ؟ قال : إذا دخل عليك خادته ، فإذا أقبل عليك دخلت فأبيت من خلفه ، فضربت ضربة آتى منها على نفسه . فقال أبو العباس : أي أخى ، فكيف تصنع بأصحابه الذين يؤثرونه على أنفسهم ودينهم ؟ قال : يقول ذلك إلى خير ، وإلى ما تريد . قال : يا أخى ، إنى أريد أن تكف عن هذا . فقال أبو جعفر : أخاف إن لم تنه^(١) . قال أبو العباس : فدونك يا أخى . قال : وكان مع أبي مسلم من أهل خراسان عشرة آلاف ، قد قدم بهم ، يأخذون المطاء عند غرة كل شهر ، أو فر ما يكون من الأرزاق سوى الأطاجم . فلما دخل أبو مسلم على أبي العباس ، دعا أبو العباس شخصاً له . قال : اذهب فاعرف ما يصنع أبو جعفر ، فأنا فوجده عتقياً بيسله . فقال أبو جعفر : اجالس أمير المؤمنين ، فقال الوصيف : قد تهيأ للجلوس ، ثم رجع الوصيف فذكر ذلك لأبي العباس ، فردّه أيضاً إلى أبي جعفر ، وقال : قل له : عزمت عليك أن لا تنفذ الأمر الذى عزمت عليه ، فكف عن ذلك . فسار إلى مكة حاجباً وللموسم . وخرج أبو مسلم ، فكان إذا كتب إلى أبي جعفر يبدأ بنفسه ، ثم يكتب إليه : لا يهولتك ما فى صدر الكتاب ، فإني لك بميث نحب ، ولكنى أحب أن يعلم أهل خراسان أن لى منزلة عند أمير المؤمنين .

كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر وقدم أن يبلغ ويخالف

قال : وذكروا أن أبا مسلم لما رجع من عند أبي العباس ، وقد قيل له بالعراق إن القوم أرادوك ، لولا توصلوا بمن ملك من أهل خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق كتب إلى أبي جعفر : أما بعد ، فإني كنت أخذت أخاك إماماً ودليلاً على ما أترض الله على خلقه ، وكان فى محله من العلم ، وقرابته من رسول الله ﷺ بحيث كان ، فقمضى

(١) أى أخاف إن لم تسبق بقتله أن يقتلك هو ، أو أن يهلكك .

بالهتة ، واستجملني بالقرآن ، غفره عن مواسمه ، طمعا في قليل قد نناه الله إلى خلقه ،
فمثل في الصلاة في صورة المدي ، فكان كالأدى دلي يزور ، حتى وكرت (١) أهل الدين
والدنيا في دينهم ، واستحلفت بما كان من ذلك من الله النعمة ، وركبت النصية في طاعتكم ،
وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم من كان يجهلكم ، وأوطأت غيركم المشواء (٢) بالنظم
والمدون ، حتى بلغت في مشيئة الله ما أحبته . ثم إن الله بعثه وكرمه أتاح لي الحسنه ،
وتداركني بالرحمة ، واستغفني بالثوبة ، فإن ينفر قديعاً عرف بذلك ، وإن يصابف بها
قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد .

فكتب إليه أبو جسر : يا عم ، أروم ما رمت ، وأزول حيث زلت ، ليس لي دوقك
مرحى ، ولا عنك مقصّر (٣) ، الرأي ما رأيته ، إن كنت أنكرت من سيرته هيبة ،
فأنت اللوفق للسوب ، والسلام بالرشاد ، أنا من لا يعرف غيرك ، ولم يقبل إلا في
فضلك ، فأنا غير كافر بنمتك ، ولا منكسر لإحسانك لا تحمل على إسر غيري ،
ولا تكسح ما جناه سواي ، إن أمرني أشخص إليك ، والحق بجراسان فلت . الأمر
أمرك . والسلطان سلطانك ، والسلام .

موت أبي العباس واستخلاف أبي جسر

قال : وذكروا أن أبا جسر لما انقضى الموسم ، وانصرف راجعاً : جاءه موت أبي العباس
وكان بينه وبين أبي مسلم مرحلة . فكتب إلى أبي مسلم : إنه قد حدث حدث ليس مثلك غالب
عنه ، فالجبل السجبل . قال إسحاق بن مسلم : قتلت لأبي جسر وأنا أسايره ، ونحن مقبلون
من مكة : أبها الرجل ، لأمك لك ، ولا سلطان مع هذا العبد . فقال أبو جسر : ظهر غشك ،
وبدا منك ما كنت تكتم ، بأبي مسلم يفعل هذا ؟ قلت : نعم ، فإني أخلف عليك منه يوم سوء
فقال : كذبت . قال إسحاق : فسكت ثم لقيته بعد ذلك من اللد ، ولا والله ما عرفتها فيه ،
وعادوني بمثل كلامه الأول ، قتلته له : أكثر أو أقل ، إن لم تهنه والله يقتلك . قال : فهل
خاورت في هذا أحدا ؟ قلت : لا ، قال : اسكت ، فسكت . فقدم الكوفة ، فإذا عيسى بن
موسى قد سبقه إلى الأنبار ، وغلب على المدينة والحزائن ، وبيوت الأموال والداوين ، وخلق

(١) وكرت أهل الدين والدنيا : أصبت منهم شيئاً يطلبون مني .

(٢) أوطأت غيركم المشواء : الظلمة : أي جعلت غيركم في ظلم وهم لا يدري الخرج منه .

(٣) المقصر : القصور : أي لا أستطيع أن أبعد عنك ولا أبتع عليك .

عبد الله ، وتوَّجَّعَ عليُّ بنُ جعفر ، ودعا أهل خراسان فألحقهم باليمن ، وجعل لهم الجبال (١) الجليَّة ، والمطايا الجزية ؛ فلما قدم أبو جعفر ، سلم الأمر ليعسى بن موسى ، وتوَّجَّعَ عبد الله ابن عليٍّ على أهل خراسان بالشام ، فقتلهم ودعا إلى نفسه ، وأتاه أبو ظالم عبد الحميد بن رضى . فقال : إن أردت أن يسلوك الأمر فاقبل أهل خراسان ، وابدأ بى . فلما قدم أبو جعفر من مكة قال لأبي مسلم : إنما هو اتفاق ، والأمر أمرك ، فامض إلى عبد الله بن عليٍّ وأهل الشام . فلما سار إليه أبو مسلم ، سار معه القواد وغيرهم ، فلقى عبد الله بن عليٍّ وأهل الشام فهزموهم ، وأسر عبد الله بن عليٍّ ، وبث به إلى أبي جعفر ، فاستكر أبو جعفر قصود أبي مسلم عنه ، فبث إليه قطين بن موسى ورجلا معه على القبض (٢) . فقال أبو مسلم : لا يوثق بى بهذا ونحوه فوثب وشتم ، وقال قولاً قبيحاً . فقال له قطين بن موسى : جعلت فداك ، لا تدخل النمل على نفسك ، إن أحببت رجعت إلى أمير المؤمنين ؛ فإنه إن علم أن هذا يشق عليك لم يدخل عليك مكروها . ثم قدم أبو جعفر من الأنبار حتى قدم للدائن ، وخرج أبو مسلم فأخذ طريق خراسان عائلاً لأبي جعفر . فكتب إليه أبو جعفر : قد أردت هذا كرتك فى أشياء لم تحملها الكتب ، فأقبل فإن مقامك عندنا قليل . فلم يلتفت أبو مسلم إلى كتابه . فبث إليه أبو جعفر : جرير ابن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي ، وكان أبو مسلم يعرفه . فقال له : أيا الأمير ، ضربت الناس عن حرض لأهل هذا البيت ، ثم تتصرف على مثل هذه الحال ، إن الأمر عند أمير المؤمنين لم يبلغ ما تكره ، ولا أرى أن تتصرف على هذه الحال ، فيقول أبو مسلم : ويحك إنى ذلكيت يثرو (٣) ، وأخاف صدوقه (٤) .

قتل أبي مسلم

قال : وذكروا أن جرراً لم يزل بأبي مسلم حتى أقبل به ، وكان أبو مسلم يقول : والله لأظنن فى الزوم ، فأقبل متصرفاً ؛ فلما قدم على أبي جعفر وهو يومئذ بالرومية من الدائن ، أمر الناس بقتلونه ، وأذن له فدخل على دابته ، ورجب به وعاتقه ، وأجلسه معه على السرير ،

-
- (١) الجبال : جمع جبله وهى ما يجبل من اللال فى نظير عمل يقوم به الإنسان .
 (٢) أى قبض الثنايم .
 (٣) دليت يثرو : خلعت فى الأمر .
 (٤) عدوه : بفتح العين وسكون الدال اعتداه على .

وقال له : كدت أن تخرج ولم أفض إليك ما تريد . فقال : قد أتيت بأمر اللؤميين ، فلأمرن بأمره . قال : انصرف إلى منزلك ، وضع ثيابك وادخل الحمام ، لينهب عنك كلال السفر ، وجعل أبو جعفر ينتظر به الفرصة ، فأقام أياماً يأتي أبا جعفر كل يوم ، فيهره من الإكرام ما لم يره قبل ذلك ، حتى إذا مضت له أيام أقبل على التهنئة . فأتى أبو مسلم إلى عيسى بن موسى ، فقال : اركب معي إلى أمير اللؤميين ، فإني قد أردت عتابه بمحضرك . فقال عيسى : أنت في ذمتي ، فأقبل أبو مسلم ، قيل له : ادخل . فلما صار إلى الرقاق الداخل ، قيل له إن أمير اللؤميين يتوسأ ، فلو جلست ؟ فجلس ، وأبطأ عيسى بن موسى عليه ، وقد هيا له أبو جعفر عثمان بن نبيك ، وهو على حرسه في عدة ، فمهم شبيب بن رباح ، وأبو حنيفة حرب بن قيس ، فقدم أبو جعفر إلى عثمان فقال له : إذا عاتبت فملاصوني فلا تخرجوا . وجعل عثمان وأصحابه في ستر خلف أبي مسلم في قطعة من الحيرة ، وقد قال أبو جعفر لعثمان بن نبيك : إذا صفقت يدي فدونك يا عثمان . فقيل لأبي مسلم : أن قد جلس أمير اللؤميين ، فقام ليدخل ، فقيل له : انزع سيفك فقال : ما كان صنع بي هذا . فقيل : وما عليك ؟ فزع سيفه ، وعليه قباء أسود ، ونمته جة خبز ، فدخل فسلم ، وجلس على وسادة ليس في المجلس غيرها ، وخلف ظهره القوم خلف ستر . فقال أبو مسلم : صنع بي يا أمير اللؤميين ما لم صنع بأحد ، نزع سبي من متقي . قال : ومن فعل ذلك قبسه الله ؟ ثم أقبل ياتيه ، فسلت وقملت : فقال : يا أمير اللؤميين ، لا يقال مثل هذا لي على حسن بلائي ، وما كان معي ؟ فقال له أبو جعفر : يا ابن الحبيشة ، والله لو كانت أمة أو امرأة مكانك لبنت ما بلغت في دولتنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتلاً . ألت الكاتب إلى تبدأ بنفسك ، والكاتب إلى تخطب أمنة ابنة علي بن عيسى ، وتزعم أنك أبو مسلم بن سليل بن عبد الله بن العباس ، فعدارتقت ، لا أم لك ، مرتقي صبا . قال : وأبو جعفر ترعد يده ؟ فلما رأى أبو مسلم غضبه قال : يا أمير اللؤميين ، لا تدخل على نفسك هذا التهم من أجل ، فإن قدرى أصغر مما بلغ منك هذا . فصفق أبو جعفر يده ، فخرج عثمان بن نبيك ، فضربه ضربة خفيفة ، فأومأ أبو مسلم إلى رجل إلى جعفر فيقاله ويقول : أشدك الله يا أمير اللؤميين ، استبقني لأعدائك ، فدفعه برجله وضربه شبيب على جل العاتق^(١) ، فأمرعت فيه ، فقال أبو مسلم : واتساء : ألا قوت ؟ ألا منيت ؟ واصلح أبو جعفر : أضرب لا أم لك ، فاعتوره القوم بأسيافهم فقتلوه ، فأمر به أبو جعفر ، فكفن بمسح^(٢) ،

(١) العاتق : الكتف ، وجهه عظمة الترقوة وهي الواصة من رأس الضد إلى أعلى القصبة الحوائية
(٢) المسح : ثوب خشن .

ثم وضع في ناحية ، ثم قيل : إن عيسى بن موسى بالبواب ، فقال : أدخلوه . فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ، فأين أبو مسلم ؟ قال : كان ها هنا أتينا فخرج . فقال عيسى : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ومناصحته ، ورأى إرهابهم الإمام فيه . قال له أبو جعفر : يا أنول^(١) والله ما أعرف عدوا أعدى لك منه : ها هو ذا في البساط . فقال عيسى إنا لله وإنا إليه راجعون ، فأقبل إسحاق صاحب شرطته قال : إنا كان أبو مسلم عبد أمير المؤمنين وأمير المؤمنين أعلم بما صنع . فأمر أبو جعفر رأسه ، فطرح إلى من بالبواب من قواد أبي مسلم ، فجالوا جولة ، وهما أن يسطوا مسوغم على الناس ، ثم ردّهم عن ذلك انقطاعهم من بلادهم وتركهم وإحاطة المدوّ بهم ، فبعضهم اتكأ على سيده فأت ، وبعضهم ناصب وأراد القتال . فلما نظر أبو جعفر إلى ذلك ، أمر بالمطاء لأصحاب أبي مسلم ، وأجزل السلات للقواد والرؤساء منهم ، ثم عهد إليهم أن من أحبّ منكم أن يكون منا ها هنا ، فأمر بإحاطته في الديوان ، في ألف من المطاء ، ومن أحبّ أن يلحق بخراسان كتبناه في خمس مئة ترد عليه في كل عام وهو قاعد في بيته . قال : فكأنها نار طلعت . فقالوا : رسينا يا أمير المؤمنين كل ما فعلت ، فأنت للوفى . فثم من رضى بالتمام معه ، ومنهم من لحق بخراسان .

ثورة عيسى بن زيد بن علي بن الحسين

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما قتل أبا مسلم ، واستولى على ملك العراقين^(٢) والشام ، والحجاز ، وخراسان ، ومصر ، واليمن ، فأمر عليه عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، فقال له فيا بين الكوفة وبغداد ، ولقيته في جموع كثيرة ، نحواً من عشرين ومئة ألف ، فأقلم أياً ما قتاله في كل يوم ، حتى تمّ أبو جعفر بالمرجة ، وركب فرسه ليهرب ، ثم جعل يشجع أصحابه ، ويدمهم بالطالبا الواسعة ، والصلات الجزيلة ، فقاتلوا ؛ ثم إن أبا جعفر غلبته عيناه وهو على فرسه ، فرأى في نومه أنه يعتدي به ورجليه على الأرض . فاستيقظ ودعا عبداً كان معه ، فأخبره بما رأى . فقال له : أبحر يا أمير المؤمنين فإن سلطانك ثابت ، وسيلك بيدك جماعة موت وذلك ، وهذا الرجل منهزم ، فما كان بأسرع من أن نظر إلى عيسى ابن زيد منهزماً .

(١) الأنول : الأسحق .

(٢) العراقين ثنية عراق : وهما عراقان أحدهما من عبّادان إلى الموصل ، والثاني من القادسية إلى حيوان ويطلق العراقان على البصرة والكوفة .

هروب مالك بن الحنيم

وذكروا أن مالك بن الحنيم خرج هارباً حتى أتى همدان ، وعليها يومئذ زهير بن التركي مولى خزاعة ، فكتب إليه أبو جعفر : إن الله مهرق دمك إن فاكك مالك ، فجاء زهير بن التركي إلى مالك بن الحنيم ، فقال له : جعلت فداك ، قد أعددت لك طعاماً ، فلو أكرمتني بدخولك منزلي . فقال له : نعم ؛ وكان قد هيا له زهير أربعين رجلاً ، فلما دخل مالك قال لزهير : عجل طعامك ، وقد توفيت زهير من الباب ، وهياً أصحابه ، فخرج عليه الأبرصون ، فشدوه وثاقاً ، ثم وضوا القيود في رجله ، ثم قال : أبا نصر ، جعلت فداك ، والله ما عرفت هذه الدعوة حتى أدخلتني فيها ودعوتني إليها ، فما الذي يخرجك منها ، والله ما أخطيك حتى تزور أبا جعفر ، فيمت به إليه ، ففاته أبو جعفر ، وولاه للوصل .

قال الحنيم : وكان يقال : إن عبد الله بن مروان كان أحزم بنى أمية ، وإن أبا جعفر كان أحزم بنى العباس ، وأهدم بأساً ، وأتواهم قلياً ، ألا ترى أن عبد الله قتل عمرو بن سعيد في داخل قصره ، وأبوابة منقطة ، وأبو جعفر قتل أبا مسلم في داخل سرادقه ، وليس بينه وبين أهل خراسان إلا خرقه ؟ وقال الحنيم : ذكر ابن عباس أن أبا جعفر قال لحاجبه عيسى بن روضة تقدم إلى كل من دخل أن لا يذكر أبا مسلم في شيء من كلامه . قال ابن عباس فغتمت لذلك ، فوكلت له خلف ستر ، ومرّ راكباً مع هشام بن عمرو وعبد الله ، فلما طلع عمر بن عبد الرحمن صاحب شرطة بيده الحربة ركبت . قال أبو الجراح مالك أفضلت : أسلم على أمير المؤمنين . قال : دونك فدنوت والهر بيني وبينه . قلت : يا أمير المؤمنين هنيئاً لك وفاة أعدت كل قائم . فقال بيده^(١) على فيه ولم يلتفت كالكاره لما سمع ، وأقبل على صاحبه . قال ابن عباس : وكان هذا في سنة خمس وأربعين ومئة ، ثم انصرف أبو جعفر إلى الحيرة ، ومعه عمه عبد الله بن علي في غير وثاق ، وعليه الأكراس ، وقد هيا له أبو جعفر بيتاً ، فخبه فيه ، فلما قدم به قيل : إنه سمه . قال الحنيم : بل كان أساس البيت الذي خبسه فيه من لبن ، والحيرة كثيرة السواقي ، نذية الأرض . فيقال : إنه أمر من الليل يمدول ، فسرّح حول البيت فتهدم عليه فمات . قال ابن عباس : أقبل رجل من همدان إلى أبي جعفر في وفد من العرب فدخلوا عليه ، فلما خرجوا واثقوا بصره ، قال للآخر : علي بالحمداني ، فلما مثل بين يديه قال له : يا أخا همدان ، أخبرني عن خليفة اسمه علي ع^(٢) قتل ثلاثة ، أسماؤهم علي ع^(٣) . فقال الحمداني : نعم يا أمير المؤمنين

(١) قال بيده : أشار بيده على فيه ، أي وضع يده على فيه .

(٢) أي أول اسمه علي .

عبد الملك ابن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق ، اسمه على عين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن عبد الأشعث ، وأنت يا أمير المؤمنين اسمك على عين ، وقتلت عبد الرحمن بن مسلم أبا مسلم ، أول اسمه على عين ، وعبد الجبار الحولاني ، وسقط البيت على عمك عبد الله . فقال : وما يدخل سقوط البيت على عمي لا أم لك . ثم استعمل أبو جعفر على خراسان أسيد ابن عبد الله الخزاعي ، وأمره بتطلب عمال أبي مسلم ، ثم عفا عنهم ، ثم عزل الخزاعي وولى أبا عون عبد الملك بن يزيد ، ثم ولى بعد أبي عون حميد بن قحطبة ، ثم ولى للسير بن زهير حتى مات أبو جعفر للنصور .

قصة سابور ملك فارس

قال : وذكرنا أن أبا جعفر دعا إسحاق بن مسلم الثقفي ، فقال له : حدثني عن الملك الذي كنت حدثتني عنه بخرمان . فقال : نعم أكرمك الله ، أخبرني أبي عن حصين بن النضر : أن ملكاً من ملوك فارس يقال له سابور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد أخذ أدياً من آداب الملوك ، وشاب ذلك بفهم في الدين ، فانتصف من أهلها فعلاً ولساناً^(١) ، فوجهه سابور داعية إلى أهل خراسان ، وكانوا قوماً يظلمون الدنيا جهالة بالدين ، واستكانة لحب الدنيا ، وذلا لجبارتها ، فجمعهم على كلمة من الهدى يكيد بها مطالب الدنيا ، وأمرهم بقتل ملوكهم ، ونحوه^(٢) ، وكان يقال : لكل ذليل دولة ، ولكل ضيف صولة . فلما استوثقت له البلاد ، جعل إليه سابور أمرهم ، وأحال عليه طاعتهم ، فساس قوماً لا يرامونه إلى ما سبق إليه قبلهم ، فلم ينتصف سابور من طاعتهم ، واستأثرت أهوائهم ، مع حالاً يأمن من زوال القلوب ، وغدوات الوزراء ، فاحتال على قطع رجائه عن قلوبهم ، فصمم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفرساتهم ، فقتله ، فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم ، فوقف بهم بين الفرقة ونخطف الأعداء ، ونأى^(٣) الرجة واليأس من صاحبهم ، فرأوا أن يستنموا الدعوة بطاعة مسابور ، ويتوضوه^(٤) من الفتنة ، فلكمهم ثمانين عاماً .

فأطرق أبو جعفر ملياً ، ثم قاله متشكلاً :

لدى الحلم قبل اليوم ما تفرح الصا
وما عُلِمَ الإنسان إلا لبعلا

(١) اللسن : بفتح السين : البلاغة وحسن للتعلق.

(٢) نحو له لإيهم : لاستخدامه لهم وجعلهم خوفاً خدماً .

(٣) نأى الرجة : بعد مسافة الرجوع إلى أوطانهم .

(٤) يتوضوه : أى يصلوه عوضاً وبدلاً من الفتنة أى قتلهم بقتلهم واستبدالهم .

خروج شريك بن عون على أبي جعفر وخلافه

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما استقامت له الأمور ، واستولى على الملك ، خرج عليه شريك بن عون الممداني وقال : ما على هذا يايتك ، ولا ياينا آل محمد على أن تسفك الدماء وأن يسموا بغير الحق ، غالف أبا جعفر ، وتبعه أكثر من ثلاثين ألفا ، فوجه إليه أبو جعفر زياد بن صالح الحزاعي ، قتاله شهورا ، ونهى أبو جعفر أن يسي أحد منهم ، أو يقتل أحد من رجالهم ، لأنه كان فيهم قوم أخيار ورجال أشراف ، وكان خروجهم ديانة وإنكارا للدماء ، ولعمل بغير الحق ، ففعلك لم يقتلوا . وكتب إليهم : وإن عدتم عدنا ، وجبنا جهنم للكافرين حصيرا ، وقد عفونا عنكم مرتكهم هذه ، فآله الله على دعائكم احتضوها .

اجتماع شبيب بن شيبه مع أبي جعفر قبل ولايته وبدعا

قال : وذكروا أن شبيب بن شيبه قال : حببت عام هلك هشام بن عبد الملك ، فبينما أنا مرجع^(١) ناحية المسجد ، إذ طلع عليّ من بعض أبوابه فتى أسمر ، رقيق السمرة ، موثر^(٢) اللحية ، خفيف اللحية ، رطب الجبهة ، كأن عيبيه لسانان ناطقان ، عليه أبهة الأملاك ، في زى اللستاك ، قبله القلوب ، وتبعه العيون ، يرف الصفوف في تواضعه ، والفرق في صورته ، واللب في مشيته فما ملكك نفس أن نهضت في أثره ساللا عن خبره ، فتحرمت بالطواف . فلما قضى طوافه قصد للقام ليركع ، وأنا أرمأه يصري ، ثم نهض متصفا ، فكان عينا أصابته ، فكبا كبوة دبت منها أميحه ، فدنوت منه متوجبا لما ناله ، متصلا به ، أمسح عن وجهه غفر التراب ، فلا يتجع عليّ ، ثم شققت حاشية ثوبي ، فصبت على رجله ، فلم ينكر ذلك ، ثم نهض متوكئا عليّ ، واخذت له حتى آتى بناء بأعلى مكة ، فابتدره خلامان ، تكاد صدورهما تفرج من هيئته ، ففتحاه له الباب ، فدخل واجتذبتني ، فدخلت بدخوله ، غلطي يدي ، وأقبل عليّ القبة فضلى ركنين ، ثم استوى في صدر مجلسه ، حمد الله وصل على نبيه ، ثم قال : لم يخف عليّ مكانك منذ اليوم ، فمن تكون ؟ قلت : شبيب بن شيبه التيمي . قال : الأحمسي ؟ قلت : نعم . فرحب وقرّب ، ووصف قومي بأبين وصف ، وأفصح لسان . قلت : أصلحك الله ، أحب للعرفه ، وأجبل عن السألة . فبسم وقال : بلطف أهل العراق : أنا عبد الله بن محمد بن عليّ بن عباس ، قلت : بأبي أنت وأمي ، ما أشبهك بنسبك ، وأذلك علي

(١) مرجع : مستريح ، ومرجع دأبني .

(٢) اللمة : الشعر الذي على أعل القفا ، وتوفير اللمة كثرة شعرها .

سلفك : وقد سبق إلى قلب من محبتك ما لا أظنه يوصف لك . قال : فاحمد الله يا أخا نعيم ،
فلما قوم يسعد بحبنا من يحبنا ، ويعتق يخلصنا من يخلصنا ، ولئن وصل الإيمان إلى قلب أحدكم
حتى يحب الله ورسوله ، وبهما ضمتنا عن جزائه قومي الله على أذاته . قلت له : أنت توصف
بالعلم ، وأنا من حلت ، وأيام اللوم ضيقة ، وشغل أهله كثير ، وفي نفس أشياء أحب
أن أسأل عنها ، أفتأذن فيها جعلت فداك ؟ قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو
أن تكون لرسول موحدا ، ولأمانة وإعيا ، فإن كنت على ما رجوت ، فهاهنا على بركة الله .
قد تمت إليه من وثائق الإيمان ما سكن إليه ، فلا قول الله - قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل
الله شهيد بيني وبينكم - ثم قال : سل . قلت : ما ترى في من على اللوم ؟ وكان عليه يوسف
ابن محمد الثقفي ، خال الوليد بن يزيد ، فتنفس الصعداء ، ثم قال : عن الصلاة خلفه سألت ،
أم استنكرت أن يتأمر على آل الرسول من ليس منهم ؟ قلت : عن كلا الأمرين أسأل . قال :
إن هذا عند الله عظيم ، أما الصلاة ، ففرض الله على عباده ، فإذا فرضه عليك في كل وقت ،
غدا الذي نديك لحج بيتك ومجاهدة عدوك ، وحضور جماعته وأعياده ، لم يغبرك في كتابه أنه
لا يقبل منك نسكا إلا مع أكل للؤمنين إيمانا رحمة لك ، ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر
عليك ، فأصبح يسمح لك . ثم كررت عليه السؤال ، لما احتجت إلى أن أسأل عن أمر
دعني أحدا بعده . ثم قلت له : يزعم أهل العلم بالكتاب أنها ستكون لكم دولة لا شك فيها ،
تطلع مطلع الشمس ، وتظهر بظهورها ، فأسأل الله خيرها ، وتوذي به من شرها . قال :
غذا يحفظ لسانك ويحك منها إن أدركتها . قلت : أو يتخلف عنها أحد من العرب وأتم
سادتها ؟ قال : نعم قوم يأبون إلا الوفاء لمن أسخطهم ونأى إلا طلبا لحقنا ، فنصر ويخذلون ،
كما نصر أولنا بأوتهم ، وخذلنا لما لفتنا من خذل منهم ، فاسترجعت . قال : هو أن عليك
الأمر ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وليس ما يكون منهم
بما جاز لنا عن صلة أرحامهم ، وحفظ أعتابهم قلت : كيف تسلم لهم قلوبكم ، وقد ظنواكم مع
عدوك ؟ فقال : نحن قوم حبيب إلينا الوفاء وإن كان علينا ، وبغض إلينا النذر وإن كان لنا ،
وإنما يشد عنا منهم الأمل ، فأما أنصار دولتنا ، وتعباء شيمتنا ، وأمرء جيوشنا فهم وموالهم
معنا ، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحتا للمحسن عن السيئ ، ووهيب للرجل قومه ومن
اتصل بأسبابه ، فنهب للثائرة ، ونحمد الفتنة ، وتطمئن القلوب . قلت : إنه يتصل
بكم من أخلص لكم المحبة . فقال : قد روي أن البلاد أسرع إلى محبتنا من الماء إلى قراره .

قلت : لم أرد هذا . قال : فما الذي تريد ؟ قلت توهمون بالولي وتحفظون^(١) العدو . فقال : من يسعد بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم منا من الأعداء أقل ، إنما نحن بشر ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما استترت عنا الأمور ، فتوقع بمن لا تريد ، وإن لنا لإحساننا بمازى الله به مداواة ماتكلم^(٢) ورتق ماتكلم^(٣) فلستغفر الله بما علم ، وما أنكر من ألا يكون الأمر على ما بلشك ، ومع الولي التمرز والإدلال ، والفتنة والاسترسال ، ومع العدو التحرز والتذلل والاحتياال ، وإنك لستول يا أخا بني نعيم . قلت : إني أخاف ألا أراك بعد اليوم . قال : لكن أرجو أن أراك وتراني قريباً إن شاء الله . قلت . عجل الله ذلك ، ووهب لي السلامة منكم ، فإني محبكم . فقبس وقال : لا بأس عليك ما أعانك الله من ثلاثة . قلت : وما هي ؟ قال : قدح في الدين ، وهتك للولك ، وتهمة في حرمة ، واحتفظ عني ما أقول لك : اصدق وإن ضرك الصدق ، واضع وإن بعدك النصع ، ولا تخاطبن^(٤) لنا عدواً وإن أخطبناه فإنه عدول ، ولا تمخذلن^(٥) ولياً وإن أخصياه وأصبحنا بترك الماكرة ، وتواضع إذا رفضوك ، وسيل^(٦) إذا تعطوك ، ولا تستخف فيمتنوك ، ولا تنقبض فيحشموك ، ولا تخطب الأعمال^(٧) ، ولا تترضى للأموال ، وأنا رابع من عشيق هذه ، فهل من حاجة ؟ فنهض لوداعه فودعته ، ثم قلت : أوقت^(٨) لظهور الأمر ؟ ومتى ؟ قال الله الوقت والنذر ، فخرجت من عنده ، فلذا مولى له يعني ، فأثاني بكسوة من كسوته . وقال لي : بأمرك أبو جعفر أن تصل في هذه ، ثم افترقنا ، فوالله ما رأيت إلا حرسين^(٩) قابضان علي يدلفاتني إلى يميني في جماعة من قومي لئلا يهجم . فلما نظر إلي : أجهتي : وقال للحرسين : خليا عمن سمعت مودته ، وتقدمت قبل اليوم حرمة ، وأخذت يده ، فأكبر الناس ذلك من قوله . ثم قال لي : أين كنت ألام أبي العباس أخى ؟ فذهبت اعتذر . فقال : أمسك ، فإن لكل شيء وقتاً لا يدوه ، ولن يلوته إن شاء الله حظ مودتك ، وحق مشايكتك ، واشتر مني رزقاً يسبك ، أو خُطّة^(١٠) ترضك ، أو عملاً يُشفيك .

(١) يحفظون العدو : يحملونه إذا حظوة وجاء .

(٢) تكلم : تبحر لأن الكلام الجرح .

(٣) تلم : تفتق وتغرق .

(٤) تخطب الأعمال : تطلب لوظائف التمسك .

(٥) حرسين : شرطيان .

(٦) الحطة : الطريقة .

قلت : أنا لوميتك حافظ . قال : وأنا لما أحفظ ، إني إنما نيتك أن تحبب الأعمال ولم أتبعك عن قولها إن عرضت عليك . قلت : الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحب إلي . قال : وذلك أحب إلي لك ، وهو أجم قلبك وأودع لك ، وأعني إن شاء الله ، فهل زدت أحداً في عيالك بعد . وقد كان سألني عنهم فسيبت من حفظه . قلت : زدت الفرس والخدم . قال : قد ألحقنا عيالك ببياننا ، ونحملك بخادمتنا : ولو لم يسعى حملت لك على بيت لئال ، فهل تحملك مثنا دينار لكل غرة^(١) أو تزيدك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إن شطرها ليحسني الصاميين . قال : فإنها لك في كل غرة فاقبضها من حامل في أي بلد أحببت ، وإن شئت فقد ضمنتك إلى للهدى ، فإنه أفرغ لك منى ، وأرسته لك إن شاء الله .

حج أبي جعفر ولقائه مالك بن أنس وما قال له

ذكروا أن أبا جعفر أمير المؤمنين لما استقامت له الأمور ، واستولى على السلطان خرج حاجاً إلى مكة ، وذلك في سنة ثمان وأربعين ومئة . فلما كان بمنى ، أتاه الناس يسألون عليه ، ويحشونه بما أنعم الله عليه ، وجاءه رجال الحجاز من قريش وغيرهم ، وقفها بهم وعلمائهم ، بمن صاحبه وجامعه على طلب العلم ومذاكرة الفقه ورواية الحديث . فكان فيمن دخل عليه منهم : مالك بن أنس . فقال له أبو جعفر : يا أبا عبد الله إني رأيت رؤيا . فقال مالك : يوفق الله أمير المؤمنين إلى الصواب من الرأي ، ويظهر الإرشاد من القول ، ويصير على خير الفعل ، فما رأى أمير المؤمنين ؟ فقال أبو جعفر : رأيت أني أجلسك في هذا البيت ، فتشكون من عمار بيت الله الحرام ، وأهل الناس على علك ، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدكم ، ويرسلون إليك رسلهم في ألبم حجهم ، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحق ، إن شاء الله ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، وأنت أعلمهم . فقال مالك : أمير المؤمنين أعلى عينا ، وأرهد رأيا ، وأعلم بما يأتي وما يندر ، وإن أذن لي أقول قلت ، فقال أبو جعفر : نعم ، فحقيق أنت أن يسمع منك ، ويسعد عن رأيك . فقال مالك : يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولا تمدوا فيه طورهم ، ورأيت أني خاطرت بقولي لأتيم أهل ناحية ، وأما أهل مكة فليس بها أحد ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، كما قاله الأمير ، وإن لكل قوم سلفاً وأئمة . فإن رأى أمير المؤمنين أعز الله نصره إقرارهم على حاكم فليعلم . فقال أبو جعفر : أما أهل العراق فلا يقبل أمير المؤمنين منهم صرفاً ولا عدلاً ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، وقد علمنا أنك إنما أردت خلاص نفسك ونجاتها . فقال مالك : أجل يا أمير المؤمنين ، فأعني يصف الله عنك . فقال أبو جعفر قد أعلمك أمير المؤمنين ، وأيم الله ما أجد بعد أمير المؤمنين أعلم منك ولا أفتح .

دخول سفيان الثوري وسليان الخواص على أبي جعفر

وما قال له

قال : وذكروا أنه لما كان أبو جعفر بنى في العام الذي حجّ فيه سفيان الثوري وسليان الخواص ، قال أحدهما لصاحبه : ألا ندخل على هذا الطاغى الذي كان يزاحنا بالأمس في مجالس العلم عند منصور والزهري ، فنسلكه ، ونأمره بحقّ ، وتنهاه عن باطل ، قلل أن يقع كلامنا منه موقفاً يرفع الله به السليين ، ويأجرنا عليه . فقال سليان الخواص : إني لأخشى أن يأتي علينا منه يوم سوء . فقال الثوري : ما أخاف ذلك ، فإن هئت لدخول ، وإن شئت دخلت . فدخل سليان الخواص ، فأمره ونهاه ، ووعظه وذكره الله ، وما هو صائر إليه ، ومسئول عنه . فقال له أبو جعفر : أنت مقتول ، ما تقول في كذا وكذا ، لشيء سأله عنه من باب العلم ؟ فأجابه ، فلما خرج قال سفيان الثوري : ماذا صنعت ؟ قال : أمرت ونهيت ، ووعظت وذكرت فرمناً كان في رقابنا أدبناه مع أنه لا يقبل ، وسألني عن مسألة فأجبت . قال سفيان : ما صنعت شيئاً ، فدخل سفيان الثوري فأمره ونهاه . فقال له : ها هنا أبا عبد الله إلى ، ادن . قال : إني لا أحمأ ما لا أمالك ولا علك . قال أبو جعفر : يا غلام أدرج البساط ، وفرغ الوطاء ، فقدم سفيان نصار بين يديه وقعد ، ليس بينه وبين الأرض شيء ، وهو يقول : — منها خلقناكم ، ومنها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى — ، فدمعت عيناً أبي جعفر . ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن ، فوعظ وأمر ونهى وذكر ، وأغلظ في قوله . فقال له الحاجب : أيها الرجل ، أنت مقتول : فقال سفيان : وإن كنت مقتولاً طالساعة ، فسأله أبو جعفر عن مسألة فأجابه ، ثم قال سفيان : لما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ، ومال أمة محمد بنير إخوانهم ، وقد قال عمر في حجة حبيبا ، وقد ألقى ستة عشر ديناراً هو ومن معه : ما أرانا إلا وقد أجبنا بيت المال . وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار ، وأنت حاضر ذلك ، وأول كاتب كتبه في المجلس عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عاتمة ، عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رب متخوئتر في مال الله ومال رسول الله فيما شأبت نفسه له النار غدا » فقال له أبو عبيدة الكاتب : أمير المؤمنين يُستقبل بثل هذا ؟ فقال لسفيان : اسكت ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وحلمان فرعون . ثم خرج سفيان ، فقال أبو عبيدة الكاتب : ألا تأمر بقتل هذا الرجل ؟ فوالله

ما أعلم أحداً أحقّ بالقتل منه . قال أبو جعفر : اسكت يا أنسوك^(١) ، فوالله ما بقي على الأرض أحد اليوم يُستَمَيَا منه غير هذا ، ومالك بن أنس .

دخول ابن أبي ذؤيب ومالك بن أنس وابن سميان

على أبي جعفر

قال : وذكروا عن مالك بن أنس قال : لما ولي أبو جعفر الخلافة ، واثى إليه اللاعنون^(٢) للشاءون بالبيعة عسى بسلام كان قد حفظ على^(٣) ، فأثنى رسوله ليلا ونحن بنى ، قال : أجب أمير المؤمنين ، وذلك بعد مفارقتي له ، وخروجي عنه ، فلم أملكته للقتل ، ففرغت من عهدي^(٤) ، واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كني وتحنطت ، ثم نهضت فدخلت عليه في السراقد ، وهو قاعد على فراش قد نظم بالدر الأبيض ، والياقوت الأحمر ، والزمرد الأخضر ، حتى له أنه كان من فرش هشام بن عبد الملك كان قد أهداه إليه صاحب القسطنطينية ، لا يعلم عنه ، ولا يدري ما قيمته ، والشمع يحترق بين يديه ، وابن أبي ذؤيب وابن سميان قاعدان بين يديه ، وهو ينظر في صيغة في يده . فلما صرت بين يديه سلّمت ، فرفع رأسه ، فنظر إلى ، وتبسم تبسم للفتب ، ثم رى بالصيغة ، وأشار لي إلى موضع عن يمينه أقعد فيه . فلما قعدت وأخذت بمعدى ، وسكن روعي ، رفعت رأسي أنظر تلقائي ، فإذا أنا بواقف عليه درع ، ويده سيف قد شهره ، بلمع له ما حوله ، فالتفت عن يميني ، فإذا أنا بواقف بيده جرز^(٥) من حديد ، ثم التفت عن يساري فإذا أنا بواقف عليه درع ، ويده سيف قد شهره ، وهم أجمعون قد أصغوا إليه ، ورمقوه بأبصارهم خوفاً من أن يأمر في أحد أمرأ فيجده ظافلاً . ثم التفت إلينا وقال : أما بعد مشر الفقهاء ، فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشني صدره ، وضاق به ذرعه وكنتم أحقّ الناس بالكف من السلك ، والأخذ بما يشبهكم ، وأولى الناس بالروم الطاعة ، وللناصحة في السر والعلانية لمن استخلفه الله عليكم . قال مالك : قتل يا أمير المؤمنين ، قال الله تعالى : — يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيبوا على ما قلتم نادمين فقال أبو جعفر : على ذلكم أي الرجال أنا عندكم ؟ أمن أئمة العدل ، أم من أئمة الجور ؟ فقال مالك : قتل يا أمير المؤمنين ، أنا متوسل إليك بالله تعالى ، وإن شفع إليك بمحمد صلى الله عليه وسلم

(١) الأنوك : الأحق كما سبق .

(٢) اللاعنون : الملعونون للناقضون .

(٣) الهد : الوصية : أي أوصيت بما أريد وينت ما على ومالي .

(٤) الجز من الحديد : العمود من الحديد .

وبرأتك منه ، إلا ما أعفيتني من الكلام في هذا . قال : قد أعفاك أمير المؤمنين . ثم التفت إلى ابن سمان فقال له : أياها القاضي ناشدتك الله تعالى ، أي الرجال أنا عندك ؟ فقال ابن سمان : أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين ، نَحَجَّ بيت الله الحرام ، وتجاهد الدنو ، وتؤمن السبل ، ويؤمن الضيف بك أن يأكله القوى ، وبك قوام الدين ، فأنت خير الرجال ، وأعدل الأئمة . ثم التفت إلى ابن أبي ذؤيب فقال له : ناشدتك الله : أي الرجال أنا عندك ؟ قال : أنت والله عندي شر الرجال ، استأثرت بحال الله ورسوله ، وسهم ذوى القربى واليتامى وللأساكين ، وأهلك الضيف ، وأتعبت القوى ، وأمسكت أموالهم ، فإحبتك غداً بين يدي الله ؟ فقال له أبو جعفر : وبمك : ما تقول ؟ أنقل ؟ انظر ما أمامك . قال : نعم ، قد رأيت أسيافاً ، وإنا هو الموت ، ولا بدّ منه ، عاجله خير من آجله . ثم خرخرا وجلس . قال : إني لأجد رائحة الحنوط عليك . قلت : أجل : لما نُسِىَ إليك عنى ما نُسِىَ ، وجاءني رسولك في الليل ، فظننته القتل ، فاختلعت وتطيبت ، ولبست ثياب كهن . فقال أبو جعفر : سبحان الله ما كنت لأتلىم^(١) الإسلام ، وأسئ في حقّه ، أو ما ترائى أسئ في أوّد^(٢) الإسلام ، وإهزاز الدين ، عائذاً بالله مما قلت يا أبا عبد الله ، انصرف إلى مصرك ولداً مهدياً ، وإن أسبغت ما عندنا ، فمن بمن لا يؤثر عليك أحداً ، ولا يسد بك خلوقاً . قلت : إن يجبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعة : وإن يجبرني أمير المؤمنين اخترت العافية . فقال : ما كنت لأجبرك ، ولا أكرهك ، اقلب معافى مكلوذ^(٣) . قال : فبت ليلى ، فلما أصبحت أمر أبو جعفر بصبر دنائير ، في كل صرّة خمسة آلاف دينار ، ثم دعا رجلاً من شرطته . فقال له : خبض هذا المال ، واتفق لكل رجل منهم صرّة ، أما مالك بن أنس إن أخذها فبسيه ، وإن ردّها لا جناح عليه فيما فعل ، وإن أخذها ابن أبي ذؤيب فأنتي برأسه ، وإن ردّها عليك فبسيه ، لا جناح عليه ، وإن يكن ابن سمان ردّها فأنتي برأسه ، وإن أخذها فهي عافيتة .

فنبض بها إلى القوم ، فأما ابن سمان فأخذها فلم ؟ وأما ابن أبي ذؤيب فردّها فلم ، وأما أنا فكنت والله محتاجاً إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجّهاً إلى العراق .

-
- (١) أنزل الإسلام : أكره وأجل فيه ثما أي كسراً أو شرخاً .
 (٢) الأود : المرج : أي أسئ في حقهم أوّد وإصلاح إهوجاجه .
 (٣) مكلوذ : ملحوظاً مرصاً .

كتاب عبيد الله الممرى إلى أبي جعفر

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما قفل من حجة سنة ثمان وأربعين ومئة ، سأل عن عبيد الله بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو الفقيه المعروف بالممرى . فقيل له : إنه لم يهج العالم يا أمير المؤمنين ، ولوحج لكان أول داخل عليك ، فلا تقبل عليه أحداً يا أمير المؤمنين ، ولا يطلع فيه عندك إلا باطلاً أو كذاباً ، فإنه من علمت . فقال أبو جعفر : والله ما تخلف عن الحج في عامه هذا إلا علما منه بأنى حاج ، فذلك تخلف ، ولا والله ما زاده ذلك عندي إلا شرفاً ورفعةً ، وإن من التوفيق له والإجلال بحال لا إخال أحداً من الناس بفلك ، لشرفه في قرين ، وعظيم منزلته من هذا الأمر ، والموضع الذى جعله الله فيه ، والمكان الذى أنزله به . فلما قدم أبو جعفر بغداد ، ورد عليه كتاب عبيد الله الممرى ، فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين ، من عبيد الله بن عمر . سلام الله عليك ، ورحمة الله التى اتست فوسمت من شاء . أما بعد : فإني عهدتك ، وأمر نفسك لك مهم ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها (١) وأسودها وأبيضها ، وشرعها ، ووضيئها ، يجلس بين يديك المدون والمصدق ، والشريف والوضيع ، ولكل حصته من العدل ، ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإنى أحذرك يوماً تنفى فيه الوجوه والقلوب ، وتقطع فيه الحسبة ، لك قد قهرهم بجهروته ، وأنهم بسلطانه والحلق داخرون (٢) له ، يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه . وإننا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها ، أن يكون إخوان الملاينة أعداء السرية ، وإنى أعود بالله أن تنزل كتابي سوء المنزل ، فإني إنما كتبت به نصيحة ، والسلام .

فأجابه أبو جعفر المنصور

من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين ، إلى عبيد الله بن عمر بن حفص :

سلام عليك ، أما بعد ، فإنك كتبت إلى تذكر أنك عهدتني وأمر نفسي لي مهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة بأسرها ، وكتبت تذكر أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع في

(١) الأحمر : الفرس ، والأسود : العرب ، والأبيض : الروم ، يريد أنك توليت أمر الأمة بما فيها جميع الأجناس .

(٢) داخرون له : أدلاء له ، صغار أمام كبيرائه .

آخر زماها، أن يكون إخوان العلانية ، أعداء السرية ، ولست إن شاء الله من أولئك ، وليس هذا زمان ذلك ، إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة ، والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض ، صلاح دنياهم أحب إليهم من صلاح دينهم . وكتبت تحذرنى ما حذرت به الأمم من قبل ، وقد ما كان يقال : اختلاف الليل والنهار يفر بان كل بيد ، ويؤيلان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار . وكتبت تنمؤ بالله أن تنزل كتابك سوء النزل ، وانك إنما كتبت به نصيحة فصدقت وبررت ، فلا تنع الكتب إلى . فإنه لا غنى في عن ذلك ، والسلام .

اجتماع أبي جعفر مع عبد الله بن مرزوق

قال : وذكروا أن أبا جعفر للصور أمير المؤمنين لما حج ودخل في الطواف بالبيت الحرام ، أمر الناس فشحوا عن البيت ، ثم طاف أسبوعه ، فوثب إليه عبد الله بن مرزوق ؟ وقال : من جراك على هذا ؟ فليته بردائه وهزه . ثم قال له : من جعلك أحق بهذا البيت من الناس ؟ تحول بينه وبينهم ، وتنجيتهم منه ؟ فنظر أبو جعفر وجهه ، فرفه . فقال عبد الله بن مرزوق : قال : نعم . فقال : من جراك على هذا ؟ ومن أقدمك عليه ؟ فقال عبد الله بن مرزوق : وما تصنع في ؟ يدك ضر أو نفع ؟ والله ما أخاف ضرك ، ولا أرجو نفعك حتى يكون الله عز وجل يأذن لك فيه ، ويلهمك إلى فضله . فقال له أبو جعفر : إنك أحقت بنفسك وأهلكها . فقال عبد الله بن مرزوق : اللهم ! إن كان يد أبي جعفر ضررى فلا تنع من الضر هيتا إلا أنزلته على ، وإن كان يده منفعى فاقطع عني كل منعة منه ، أنت يارب يدك كل شيء ، ومليك كل شيء ، فأمر به أبو جعفر لحمل إلى بغداد فسجنه بها . وكان يسجنه بالتيار ، ويصت إليه بالليل بيت عنده ويسامره ، يبيت نهاره أجمع بالسجن ، ثم يسامره بالليل ليظهر للناس أنه سجين أول من اعترض عليه ، فلا يجترى الجاهل فيقول : قد وسع عفو أمير المؤمنين فلانا ، أفلا يسمنى ؟ فكان دأبه هذا معه زمانا طويلا حتى نسي أمره ، واقطع خبره ، ثم خلق سيده ، فطبق بمكة ، فلم يزل بها حتى مات أبو جعفر ، وورث ابنه للهندي . فهاجج للهندي ، فعل مثل ذلك ، فعلم به عبد الله بن مرزوق مثل ذلك أيضا ، فأراد قتله . فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه قد فعل هذا بأبيك ، فكان من صليبه أن حمله إلى بغداد ، فسجنه بالتيار ، وسامره بالليل ، وأنت أحق من أخذ بهديه ، واحتذى على مثاله ، وورث أكراماته ، فحمله للهندي معه ، فثابت يتنداد ، رحمه الله .

ذكر ما نال مالك بن أنس من جعفر بن سليمان

قال : وذكروا أنه حاج بالدينة هيج في ابتداء إمام أبي جعفر ، فبعث إليها أبو جعفر ابن عمه جعفر بن سليمان بن العباس ، ليكنن هيجها وقتها ، ويمجد يمة أهلها قدمها وهو يتوقد ناراً على أهل الخلاف لهم ، فأظهر التلظة والشدّة ، وسطاً ^(١) بكل من ألد في سلطانهم ، وأغار إلى للنازعة لهم ، وأخذ الناس باليعة ، وكان مالك بن أنس رحمه الله لم يزل صغيراً وكبيراً محسداً ^(٢) ، وكذلك كل من عظمت نعمة الله عليه في عمله أو عمله ، أو فهمه أو ورعه ، فكيف بمن جمع الله ذلك فيه . ولم يزل منذ نشأ كذلك قد منحه الله تعالى العلم والعمل ، والفهم والقلب والتبسل ، ووصل له ذلك بالدين والفصل ، عرف منه ذلك صغيراً ، وظهر فيه كبيراً ، واستلب الرأية بمن كان قد سبقه إليها ، بظهور نعمة الله عليه ، وسموها به على كل سام ، فاستسمى ذلك منهم الحسد له ، وألجأهم ذلك إلى البني عليه ، فدرسوا إلى جعفر بن سليمان من قال له : إن مالكا يحق الناس بأن أيمان البيعة لا تحل ، ولا تلزمهم لخلافك ، واستكراهك لإمام عليها ، وزعموا أنه يبقى بذلك أهل للدينة أجمعين ، لحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رفس عن أمق الخطأ واللسان وما أكرهوا عليه » فظلم ذلك على جعفر واعتد عليه وخلف أن ينحل عليه ما أريم من يمة أهل للدينة ، وم أن يدر ^(٣) فيه بما طافه الله منه ، وأهم على المسلمين يقامه . قيل له : لا يدر فيه يادة ، فإنه من أكرم الناس على أمير المؤمنين ، وأكرم عنده ، ولا بأس عليك منه ، فلا تحدث شيئاً إلا بأمر أمير المؤمنين ، أو يستحق ذلك عندنا بأمر لا يخفى على أهل للدينة . فدى إليه جعفر بن سليمان بض من لم يكن مالك يخفى أن يؤتى من قبله ، ومن مأمته يؤتى الحذر ^(٤) ، فسأله عن الأيمان في البيعة فأخاه مالك بذلك طمانينة إليه ، وحسبة فيه . فلم يشر مالك إلا ورسول جعفر بن سليمان بأبيه ، فأثوا به إليه متهلك الحرية ، مزال الحمية ^(٥) ، فأمر به فضرِب سبعين سوطاً : فلما سكن الميج بالدينة لأوتحت له البيعة ، بلغ بمالك ألم الضرب حتى أضعفه .

(١) سطا بكل من ألد : تسلط عليهم وعذبهم ، وسقى ألد في سلطانهم ، لم يترف به .

(٢) كثير الحساد .

(٣) يدر فيه : يؤقيه .

(٤) هذا مثل عربى معناه أن الشخص كثير الحذر والاحتياط يؤتى من الجهة التي يأمن منها ولا يخافها .

(٥) مزال الحمية : قد أزيلت هيته ولم يحامل بمقتضى ماله من وقار واحترام .

إنكار أبي جعفر للتصور لضرب مالك

قال : وذكروا أنه لما بلغ أبا جعفر ضرب مالك بن أنس ، وما نزل به جعفر بن سليمان أعظم ذلك إعظاماً هديداً ، وأنكره ولم يرشه ، وكتب بزل جعفر بن سليمان عن المدينة ، وأمر أن يؤتى به إلى بغداد على قَتَب (١) . وولى على المدينة رجلاً من قرشي من بني هزوم ، وكان يوصف بدين وعقل وحزم وذكاء ، وذلك في شهر رمضان ، من سنة إحدى وستين ومائة . وكتب أبو جعفر إلى مالك بن أنس ، ليستقدمه إلى نفسه يشداده ، فأبى مالك ، وكتب إلى أبي جعفر يستعفيه من ذلك ، ويشتد له يعض السفر إليه . فكتب أبو جعفر إليه : أن وافني بالموسم العام القابل إن شاء الله ، فأتني خارج إلى الموسم .

دخول مالك على أبي جعفر عني

قال وذكروا : أن مالكا حج سنة ثلاث وستين ومائة ، ثم ولى أبا جعفر عني أيام منى ، فذكروا أن مطرفاً أخبرهم ، وكان من كبار أصحاب مالك . قال : قال لي مالك : لما صرت عني أجمعت السراقات ، فأذنت بنفسى ، فأذن لي ، ثم خرج إلى الآذن من عنده فأدخلني . قلت للآذن : إذا انتهيت بي إلى القبة التي يكون فيها أمير المؤمنين فأعلمني ، فربى من سرادق إلى سرادق ، ومن قبة إلى أخرى ، في كل ما أصناف من الرجال بأيديهم السيوف للشهورة ، والأجيزة (٢) للرفوعة ، حتى قال لي الآذن : هو في تلك القبة ، ثم تركي الآذن وتأخر عني ، فخشيت حتى انتهيت إلى القبة التي هو فيها فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذي يكون فيه إلى البساط الذي دونه ، وإذا هو قد لبس ثياباً قصدة (٣) ، لاثنية ثياب منه ، تواشياً لهنولى عليه ، وليس معه في القبة إلا قائم على رأسه سيف صليبي (٤) ؛ فلما دنوت منه ، ورحب بي وقرب . ثم قال : هاهنا لي ، فأوميت للجولس . فقال : هاهنا ، فسلم يدي يديني حتى أجلسني إليه ، ولصقت ركبتي بركبته . ثم كان أول ما تكلم به أن قال : والله الذي لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما أمرت بالذي كان ، ولا علمته قبل أن يكون ، ولا رضيته إذ بلنتي (يعني الضرب) . قال

(١) القتب : بفتح القاف والتاء : البرذعة الصغيرة على قدر سنام البحر وهي مينة غير كريمة .

(٢) الأجيزة : جمع جزز يضم الجيم وهو عمود الحديد .

(٣) قصدة : غير غلظة ولا غالية الثمن

(٤) السيف الصليبي : للحد المقطع أو القتل .

مالك : فحدثني الله تعالى على كل حال ، وصليت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نزّهته عن الأمر بذلك ، والرضا به . ثم قال : يا أبا عبدالله ، لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنّي إن خالكت أماناً لم من عذاب الله وسطوته ، ولقد دفع الله بك عنهم وقعة عظيمة ، فلو أنهم ما علمت أسرع الناس إلى اللعن ، وأضعفهم عنها ، قاتلهم الله آفة يؤفكون ، وقد أمرت أن يؤتى بدو الله من المدينة على قَتَب ، وأمرت بضيق مجلسه ، والبالغة في إسنائه ، ولابد أن أنزل به من العقوبة أضاف ما نالك منه . قلت له : عافى الله أمير المؤمنين ، وأكرمه مثواه ، قد عفوت عنه ، قرأته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم منك . قال أبو جعفر : وأنت ضفي الله عنك ووصلك . قال مالك : ثم فالتحى فيمن مضى من السلف والماء ، فوجدته أعلم الناس بالناس ، ثم فالتحى في السلم والفقّه ، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه ، وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظاً لما روى ، وإمياً لما سمع ، ثم قال لي : يا أبا عبد الله ضع هذا السلم ودوته ، وحدثني منه كتباً ، وتجنّب شدائد عبدالله بن عمر ورُخص عبدالله بن عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واتخذ إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابّة رضي الله عنهم ، لتحمل الناس إن شاء الله على علك وكتبتك ، وثبتها في الأعمار ، ونهت إليهم أن لا يحالفوها ، ولا يقضوا بسواها ، قلت له : أصليح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون في عملهم رأينا . قال أبو جعفر : يحملون عليه ، ونضرب عليه هاماتهم بالسيف ، ونقطع على ظهورهم بالسياط ، فصجل بذلك وضعا ، فسأيتك محمد للهدى إبنى العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ، ليسمعا منك ، فيجرك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله . قال مالك : فبينا نحن قصود إذ طلع بنى له منبر من قبة ، بظهر القبة التي كنا فيها . فلما نظر إلى الصبي فزع ، ثم تضرع فلم يقدم . قال له أبو جعفر : قدم يا حيي ، إنما هو أبو عبد الله قتيبه أهل الحجاز ، ثم التفت إلى فقال : يا أبا عبد الله ، أهدى لِمَ فزع الصبي ولم يقدم ؟ قلت : لا . قال : والله استنكر قرب مجلسك مني إذ لم ير به أحداً غيرك قط ، فذلك تهرق . قال مالك : ثم أمر لي بألف دينار حيناً ذهباً ، وكسوة عظيمة ، وأمر لابني بألف دينار ، ثم استأذنته فأذن لي ، فمضت فودعني ودعا لي ، ثم مشيت متطلقاً ، فالتحى الحصى بالكسوة فوضعتها على منكبي ، وكذلك يملكون بن كسوة ، وإن عظم قدوره ، فيخرج بالكسوة على الناس فيجعلها ، ثم يسلمها إلى غلامه ، فلما وضع الحصى الكسوة على منكبي انحنيت عنها بتكبي ، كراهة احتالها ، وبرؤا من ذلك ، فناداه أبو جعفر : بلّثتها رجلاً أبي عبد الله .

ما قال أبو جعفر لمبد العزيز بن أبي داود

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما دخل في الطواف بالبيت لني عبد العزيز بن أبي داود في الطواف ، فقبض على يده ، ثم قال له : أتعرفني ؟ قال : لا . إلا أن قبضتك قبضة جبار . فقال له : أنا أبو جعفر أمير المؤمنين ، فسألني من حوائجك ما شئت أفضها . قال : أسألك رب هذا البيت أن لا ترسل إليّ بشيء حتى آتيك طوعاً . فقال له أبو جعفر : ذلك لك ، فأقبل يعني بعينه في طوافه ، وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً . فتأفف بقره ، وهزل عليه كلامه . فقال : أسألك بحرمة هذا البيت ألا تحتني ، فتحنى عنه أبو جعفر وخلق سيده . وكان عبد العزيز بن أبي داود هذا لا يرضع رأسه إلى السماء ، تحملاً له ، فأقام كذلك أربعين سنة .

قدوم المهدي إلى المدينة

قال : وذكروا أن مالك بن أنس لما أخذ في تدوين كتبه ، ووضع عليه قدم عليه للمهدي بن أبي جعفر ، فسأله عما صنع فيها أمره به أبو جعفر ، فأثابه بالكتب وهي كتب للوسطاء ، فأمر المهدي بالتساخها ، وقرئت على مالك . فلما أتم قراءتها : أمر له بأربعة آلاف دينار ، ولايته بألف دينار .

موت أبي جعفر للنصور واستخلاف المهدي

قال : وذكروا أنه لما كانت سنة ست وستين ومائة قدم أبو جعفر مكة ، فلما نفى حجه احتضر ثلاثة أيام ، ثم توفي في اليوم الرابع ، وولى ابنه محمد المهدي وكان معه يومئذ بمكة وأخوه جعفر يزيداد ، وكان قد عهد إليه أبو جعفر . فلما نقل المهدي إلى بغداد أتاه رجل فقال له : أدرك أخاك جعفر ، فإنه قد تمّ بنازعتك ، وهو يريد بملكك ، فأخذ في السير ، ومعه الجنود والأموال ، وسناديد الرجال من العراق ، ورجال العرب ، ووجوه قرش . فلما قدم العراق اعتذر إليه جعفر بما رفع إليه عنه ، وحلف له أنه ما نوى ولا أراد منازعته ، ولا أشار إلى خلافه ، ولا همّ به ، فقبل منه المهدي ذلك ، وعلمه عنه ، وكان كرعاً سعيّاً حليماً ، فلما كان سنة سبع وستين ومائة قدم حاجاً ، فدخل المدينة زائراً لقبر النبي ﷺ ، فدخل عليه مالك ، فحسه على الإحسان إلى أهل المدينة ، وحدثه بفضله وفضل أهلها ، وقول رسول الله ﷺ فيها : أمرت بقبرية تأكل القرى ، يقولون يثرب (وهي المدينة) تنفي الناس كما ينفي الكبر خبث الحديد ، ثم قال يا أمير المؤمنين : أغليس هؤلاء أهلنا أن يمانوا على الصبر عليها

وحلى جوار رسول الله ﷺ : فقال للهدى : بلى والله يا أبا عبد الله ، حق لا أجد إلا مثل هذا ، ومد يده ليأخذ من الأرض شيئاً فلم يجده . ثم قال صدقت فيهم وبررت ، وحضفت على الرشد ، فأنت أهل أن يطاع أمرك ، ويسمع قولك ، فأمر له بخمسة آيات مال ، والبيت عندهم خمسمائة ألف ، وأمر مالكا أن يختار من تلامذته رجلاً يثق بهم ، ويعتمد عليهم ، يقسمونها على أهل المدينة ، ويؤثرون أهل بيت رسول الله ﷺ ، وأهل بيت أبي بكر وعمر وعثمان ، ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار ، ثم الذين اتبعوه بإحسان ، ففعل فأغنى أهل المدينة ما هم في ذلك .

ذكر استخلاف هارون الرشيد

قال : وذكروا أنه لما كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة توفي للهدى ، وذلك أنه خرج يوماً إلى بعض المنازل ، ومعه أهله وبعض بنيه ، وكان قد ذكر أن يستخلف ابنه عبد الله بن جده ، ثم غفل عن ذلك وتركه ، فحمل عبد الله الحرص والطيش إلى أن دسّ على أبيه بعض الجوارى للتمكّنات منه بسببه ، وبذلك لها على ذلك الأموال ، ومناها أمانى التروير . ففأبته ، ووصل إليه السب ، عرف للهدى أنه قد قتل ، فدعا كاتبه فقال له : عجل واكتب عهد هارون الرشيد ، وخذيمة الجند ، وأمراء الأجناد ، واكتب بذلك إلى ولاية الأمصار ، وكان الرشيد أصغر بنيه ، وكان ابن أمة ، لا يطعم في خلافة ، ولا يظن بها ، فأدخله على نفسه . وهو يجود بها ، والرشيد لا يعلم أنه مستخلف . فقال له المهدي : أي بني ، والله ما أردت استخلافك ، ولا هممت به لحداثة سنك ، وقد كان قال لي جدك أبو جعفر ، وأنت يومئذ قد ترعرعت في أول رؤية رأك : إن ابني هذا الأعين^(١) سبيل هذا الأمر ، ويسير فيه سيرة صالحه ، قتل : يا أبت ، أظن ذلك ؟ قال : ما هو بالظن ، ولكنه اليقين ، ويكون ملكاً بشعاً . وخضرت سنة ، وفتنه الحسنى الريح (٢) ، فاندفع الرشيد باكياً فقال له : ما لي بك يا أبت ؟ قال : يا أبت ، إنك والله نيت لي نفسي ، وعرفتني مع أموت ، ومع أموت ؟ قال : هو ذلك ، فحشرت ، واجتهدت وجده ، وخذ بالحزم والكرم ، ودع الإحن ، وانظر أخاك عبد الله فلا يناله منك مكروه ، فقد عفوت عنه . فقال الرشيد : يا أبت ، وتطو عنه ، وقد أتى ما ذكرت ،

(١) الأعين : شديد سواد العين واسمها

(٢) الحسنى الريح : بكسر الراء وسكون الباء هي التي تأتي للريش يوماً وتسكت يومين ثم تأتي في اليوم الرابع .

وصنع ما وصفت ؟ قال يا بني : وما علي أن أعفو عن أكرمى الله على يديه ، وأرجو أن
ينفرد بي بصلحته في إن شاء الله . عليك يا بني بتقوى الله العظيم وطاعته ، فامنعها بضاعة يأتيك
الربح من غير تجارة ، وأوصيك بإخوتك خيراً ، وأهل بيت رسول الله ﷺ ، أقبل
حسناتهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، واغفر لآلئهم ، وأوصيك بأهل الحرمين خيراً ، فقد علمت
من هم ، وأبناء من هم ، أبجلهم السلاء ، وأحسن لهم الجزاء ، يكافئك الله في الآخرة
والأولى .

ثم توفي المهدي من يومه ذلك ، واستخلف الرشيد ، وخرج إلى الناس يباهيهم بوجه ساطع
ولسان ساطع (١) ، فباهوه بغداد ، وذلك يوم الخميس من المحرم سنة ثلاث وسبعين ومائة ،
وتمت له البيعة يوم الجمعة في المسجد الجامع ، فلم يختلف عليه أحد . ولا كره خلافه مخلوق ،
فأحسن السيرة ، وأحكم أمر الرعيّة ، وكان أوحداً أهل بيته ، ولم يشبهه أحد من الخلفاء
من أهله ، رحمه الله .

قلوب هارون الرشيد للدينة

قال : وذكروا أنه لما كانت سنة أربع وسبعين ومائة ، خرج هارون حاجاً إلى مكة ،
فقدم للدينة زائراً قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، فبعث إلى مالك بن أنس ، فأثابه ، فسمع
منه كتابه للوطاء ، وحضر ذلك يومئذ فقهاء الحجاز والوراق والشام واليمن ، ولم يختلف
منهم أحد إلا حضر ذلك الموسم مع الرشيد ومع وصفاً من مالك موطأ الذي وضع ، وكان
قارئه يومئذ حبيب كاتب الرشيد . فلما أتم قراءته قال هارون لفقهاء الحجاز والوراق : هل
أنكرتم شيئاً من هذا العلم ؟ قالوا : ما أنكرنا شيئاً إلا ما ذكر من أمر العلماء ،
والندبة في القتل ، فإين هذا من أنكر ما يكون من العلم وأجله ، يقول الرجل :
قتلني فلان فيقتل منه ، ويحلف أوليائه على القتال خسين بينا ، ثم يقتل ، ولعل أولياءه
لم يحضروا ، ولم يكونوا بمصر ، فيعرض بهم الخنث في الإيمان ، فيقبل قول رجل على
غيره ، وهو لا يقبل في ربح دائق (٢) يدعيه إلا بيعة تقوم ، إن هذا لمو الضلال . وقد
قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه ابن عباس حيث قال : « لو سيطر

(١) اللسان السلط : الطويل ، وللإيراد بذلك القصاحة .

(٢) الدائق : يفتح التثنية : سدس الدرهم .

الناس يدعواهم، لادعى ناس دماء أقوام وأموالهم، ولكن اليانة على من ادعى والعين على من أنكر». قال الرشيد: وحيكم، إن في كتاب الله ما يصدق ذلك، ولا إخال أبا عبد الله أخذ من كتاب الله فاستتبوه. فأرسل إليه فأقبل. قال هارون: يا أبا عبد الله، إن أصحابنا هؤلاء لم يختلف منهم اثنان في الإنكار عليك فبا وضعت في مؤطتكت من التذمية^(١). وتصديق قول من ادعى، وأنت وهم تزعمون بطل دعوى من ادعى على رجل دافعا لإيانية قوم له، فأخبر القوم، وأوضح لهم حجتك في ذلك وأنا معك عليهم، فإني لا أعلم بد أمير المؤمنين أحدا أعلم منك، قال مالك: يا أمير المؤمنين، إن بما يصدق القسامة ما في كتاب الله من القتل، والأخذ بالعم الذي كان في بني إسرائيل. قال الله عز وجل: «اضربوه بعضها» فذبح البقرة، ثم ضربوه بضو من أعضائها، لحق القتل، ثم تكلم. قال: فلان قتلى، قتله موسى ابن عمران عليه السلام بقوله ذلك، وهو حكم التوراة، فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلوا، فالذين أسلوا: محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد حكم بالتوراة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الرجوم اليهودي الذي زنى، فرجحه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر أنس بن مالك رضى الله عنه. أن يهوديا لقي جارية من جوارى الأنصار في بعض أقباب^(٢) للدينة، وعليها أوضاع^(٣) من ذهب وورق، فأخذ الأوضاح منها، وشدخ رأسها بين حجرين، فأوردت الجارية وبها رمق، فاتهم بها اليهود، فأنى بهم، فمضوا عليها رجلا رجلا وهي لا تكلم، حتى أتى صاحبها الذي تطلبها فرفقه. فقيل لها: هذا الذي قتلك؟ فأومأت برأسها أن نعم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فشدخ رأسه بين حجرين، فهذا يا أمير المؤمنين حكم النساء، والقسامة فيها سنة قائمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء، فقموا منه بذلك، وصاروا إلى الرضا بقوله، والتصديق لروايته، والتسليم لتأويل ما تأول من القرآن الكريم. ثم قال له مالك: إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إلى في هذا المجلس كما بعث إلى، وحدثته بما حدثتك به في شأن أهل للدينة، وما يصبرون عليه من البلاء، وهذه الزمان، وغلاء الأسعار، صبرا على ذلك، واختيارا لجوار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال هارون: ذلك هو أبي وأنا ابنه، وسوف أقبل ما فعل، وأمر لأهل المدينة بشرة آيات مال، ضف ما أمر به للهدى، وكان أبي يوسف

(١) التذمية: التسهيل وقبول الحلف بدل اليانة وإلحاق الدم بمن ذكره المتقول.

(٢) الأقباب: جمع نكب وهو المكان للرفع.

(٣) الأوضاح: جمع وضع بفتح الواو والضاد نوع من حل النساء، والورق بكسر الراء: الفضة.

القاضي مع الرشيد يومئذ ، فسأله أن يجمع بينه وبين مالك ، ليحكمه في الحق . فقال الرشيد
لمالك : كله يا أبا عبد الله ، فأخف من ذلك مالك ، وتزّره عنه ، وقال لهارون : ها هنا من
فتيان قريش من تلامذتنا ، من يبلغ حاجة أمير المؤمنين ، ويخصه^(١) فيما يحكم به ، وذهب
إليه ، فسرّ ذلك الرشيد حين أضاف ذلك إلى قريش . قال : من هو ؟ قال : الخيرة بن
عبد الرحمن الخزوي ، فمضى إليه الرشيد فيصمّه بأبي يوسف فقال : كلمني بما بدا لك أجوابك .
فقال أبو يوسف القاضي : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء ، بنى مالكا وأصحابه ، يقضون بغير
ما في كتاب الله ، يقول الله عزّ وجلّ « وأشهدوا ذوي عدل منكم » : وقال : « واستشهدوا
شهيدين من رجالكم » وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد ، ولا نسمح أن الله تعالى ذكر
إلا شاهدين وأربعة شهداء ، ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قضى به ، وإنما يدور
هذا الحديث الذي روى فيه سبيل عن أبي صالح عن أبيه ، ثم نسب سبيل ، فكان يحدث
ويقول : حدثني ربي عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع
الشاهد » فلما نسب سبيل بطل الخبر ، وأثبت أصله ، فلامني لذلك . قال للثيرة : قضى به
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقضى به عليّ بالكوفة ، فقال أبو يوسف : أنا أكلك بالقرآن ،
وأنت تكلمني بأفكار الناس ، أراك تترقى بهذا ، وما قضى به عليّ وغيره ؟ قال للثيرة :
فأنت كافر بيلي قضى باليمين مع الشاهد ، أو مؤمن به ؟ فسكت أبو يوسف خجسته^(٢) للثيرة .
فسرّ بذلك الرشيد ، وأمر للثيرة بألف دينار . ثم أرسل الرشيد إلى مالك فقال : ما تقول
في هذا الخبر ، فإني أريد أن أترع ما زاد فيه معاوية بن أبي سفيان وأردّه إلى الثلاث درجات ،
التي كانت عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال له مالك : لا تصل يا أمير المؤمنين ، فإني
هو من عود ضيف قد تحرّمت للسامير ، فإن نقضت حكمك ، وذهب أكثره ، ومع هذا إنه
يا أمير المؤمنين لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن يقتل عن المدينة ، يأتي بذلك أحد
فيقول أو يقال له : يئسني لنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معك حيث كنت ، فإني
للنبر للخليفة ، فيقتل كما تقتل من المدينة كل ما كان بها من آثار رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وما أعلم أنه ترك له عليه الصلاة والسلام بها خل ولا حرم ولا فراش ولا عصا ولا قدح
ولا شيء مما كان له ها هنا من آثاره إلا وقد انتقل : فأطاعه الرشيد ، وانتهى عن ذلك برأى

(١) يخصه بضم الصاد : يتصر عليه في هذه الخصومة .

(٢) خجسته : التصر عليه في حجه .

مالك بن أنس وكان ذلك رحمة من الله لأهل المدينة ، وتبينا لنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم .

مسير الرشيد إلى الفضل بن عياض

قال : وذكروا أن الرشيد كان كثيراً ما يثلم ، فيحضر مجالس العلماء بالعراق وهو لا يُعرف . وكان قد قسم الأيام والليالي على سبع ليالٍ : ليلة للوزراء ، يذاكرهم أمور الناس ، ويشاورهم في اللهم منها ، وليلة للكتاب يحمل عليهم الدواوين ، ويحاسبهم عما أزم من أموال المسلمين ، ويرتب لهم ما ظهر من صلاح أمور المسلمين ؛ وليلة للقواد ، وأمراء الأجناد يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الأخبار ، ويوقفهم على ما تبين له من صلاح الكور^(١) وسد الثغور ، وليلة للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم ويدرسهم الفقه ، وكان من أعلمهم ، وليلة للقراء والعباد يتصفح وجوههم ، ويحفظ برؤيتهم ، ويستمتع لمواعظهم ، ويرقق قلبه بكلامهم ، وليلة للنساء وأهله ولذاته ، يتلذذ بدنيته ، ويأنس بنسائه ، وليلة يخلو فيها بنفسه ، لا يعلم أحد قُرْب أو بُد ما يصنع ، ولا يشك أحد أنه يخلو فيها بربه ، يسأله خلاص نفسه ، وفكلك رفته : فيبنا هو يوماً في مجلس يمدد بهن السمك ، وقد قصد رؤيته يسمع لموعظته ، ولا يعلم أحد بمكانه ، فسمع بعض أهل المجلس يذكر الفضل بن عياض ، ووصف فضله وعبادته ، وعلمه وروعه ، فاشتبهى النظر إليه ، وتوافت نفسه إلى رؤيته ومهادنته ، فتوجه من العراق إلى الحجاز فاصداً إليه ، ومعه عبد الله بن المبارك فقيه أهل بغداد وعالمهم ، وكان الفضل بن عياض يسكن التبران . فلما قربا من موضعه قال عبد الله بن المبارك : يا أمير المؤمنين إن الفضل إن عرفك وعرف مكانك لم يأذن لك عليه ، ويسر عنك . فقال هارون : تستأذن أنت عليه ، وتخفى مكانك عنه ، حتى يأذن بالخروج فاستأذن عليه ابن المبارك . قال الفضل : من الباب ؟ قال : ابن المبارك . قال : مرحبا يا أخى وصاحبى ، فقال ابن المبارك : ومن معنى يدخل ؟ فقال الفضل : ومن مملك ؟ قال : رجل من قريش . فقال الفضل : لا إذن ، لا حاجة لى برؤيته أحد من قريش . فقال له ابن المبارك : إنه من العلم والمنابة والفقه فيه يمكن ، فقال له الفضل : أو ما علمت أن إبليس أفعه الناس ؟ فقال له ابن المبارك : إنه سيد قريش في زمانه هذا وفوقهم ، وإنما عني أنه فوقهم في الدنيا وسيدهم فقال له الفضل : فإن كان كما تقول فليدخل ، فدخل الرشيد فلم عليه ، ثم جلس بين يديه ، فتحدثوا ساعة . فقال له ابن المبارك : يا أبا الحسن ، أهدى من هذا قال : لأدري . فقال له :

(١) الكور بفتح الواو : القرى والبلاد الصغيرة .

هذا هارون بن محمد الرهيد أمير المؤمنين ، فنظر إليه الفضل بن عياض ساعة ، ثم قال : هذا الوجه الجليل يسأل غدا عن أمة محمد ويؤاخذ بها ، لأن كان المهر والقرآن يسلك مع ما أنت فيه ، إن هذا هو الفضل اللين ، وكان الرهيد من أجل الناس خلقتا ، وأحسنهم نطقاً ، وأبهرهم لساناً ، وأعذبهم كلاماً ، وأكثرهم علماً وفهماً ، ثم جمل الفضل بن عياض يسطه ويمتدحه حتى بكى هارون بكاء شديداً . قال ابن المبارك : ما رأيت أحداً يبكي بكاء الرهيد يومئذ ، ثم أطلق من بكائه ، فجمل الفضل بذكر مثالبه ، ومثالب أهل بيته ، وردادة سيرتهم ، وخلافهم الحق ، ثم لم يبع شيئاً يبيحه به ، ولا أمراً يلتصقه فيه إلا واستقبله به . قال له الرهيد : يا أبا الحسن ، أما لك ذنوب تخاف أن تهلك بها إن لم يغفرها الله لك : فقال الفضل : بلى . فقال الرهيد : لما جعلك بأحق أن ترجو للنفرة مني ؟ وأنا على دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات ، ومع ذلك فإني والله ما كنت لأخبر^(١) بين شيء وبين الله إلا اخترت الله تعالى على ما سواه ، الله الشاهد على قولي ، وللطالع على نفيك وضميري ، وكفى به هيداً : وأنا مع هذا أليس من الإصلاح بين الناس ، والجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ما لا عليه أنت ، لما جعلك أحق أن ترجو للنفرة مني ؟ فسكت الفضل ساعة ثم قال : ما ظفرك من حجتك^(٢) ، ثم قام هارون للخروج . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا ، فقال الرهيد : أجل إنه ما قلت . فلما قدم الرهيد العراق كان أول ما أجدا فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها ، وإلى أمراء الأجناد ، أما بعد : فانظروا من التزم الأذان عندكم ، فاكتبوه في ألف من السطاح ، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ، ومقاعد الأدب ، فاكتبوه في ألفي دينار من السطاح ، ومن جمع القرآن ، وروى الحديث ، وتفقه في العلم واستبحر ، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من السطاح ، ولكن ذلك بامتثال الرجال السابقين لهذا الأمر ، من السرويين به من علماء عصركم ، وفضلاء مهركم ، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم ، فإن الله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وهم أهل العلم . قال ابن المبارك : لما رأيت حالاً ولا قارعة للقرآن ، ولا سابقاً للحضرات ، ولا حافظاً للبحرمت . بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيام الخلفاء والصحابه أكثر منهم في زمن الرهيد وأيامه ، لقد كان القلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين ، ولقد كان القلام يستبحر في الفقه والعلم ، ويروى الحديث ، ويجمع النوادرين ، وينظر للمطين وهو ابن إحدى عشرة سنة .

(١) الأخير : لا أفاضل بين شيء وبين الله .

(٢) من حجتك : من غلبك بالحجة .

ذكر الحائك للطفل

قال : وذكروا أن الرشيد لا تصرف من الحجاز وصار بالرة^(١) قال لوزير عمرو بن حمدة : ما زلت تكلمني وتستلطني في الرحبي حتى وليته الأهواز ، فقدم في سرّة الدنيا يأكلها خضاً^(٢) وقصياً ، ولم يوجه لي درهماً ، فأخرج إليّ من ساعتك هذه ، حتى تحمل ساحتها ، ثم لا تدع له حرمة إلا انتهكها ، ولا أكرّمة إلا أهنتها . ثم لا تسمع له حجة يرفعها ، ولا تقبل منه كلمة يهبها ، إن اعتذر فلا تقبل له عذراً ، وإن قال فلا تقبل له قولاً ، فترى قائل . وأكذب منظم^(٣) ، فقلت في نفسي : أجد الوزارة أصير مستحقاً على عامل خراج ؟ ولكن لم أجد بداً من طاعة أمير المؤمنين ، إذ كانت ولايته بسببي . فقلت : أخرج يا أمير المؤمنين ؟ قال : فاحلفاً بك لا تلبث في بغداد إلا يوماً ، غفلت له ، ثم انحدرت إلى بغداد ، ثم خرجت ، فلما صرت بين دير هرقل وبين دير الماقول ، إذا رجل يصيح : يا ملاح ، يا ملاح ، رجل منقطع . فقلت للملاح : قرب إلى الشط . فقال : يا سيدي هذا رجل شحاذ وإن قدم ملك أذاك ، قال الوزير : فلم يلتفت إليه وقوله ، وأمرت الثلمان فأدخلوه فقدم ، فلما حضر النداء دعوته ، فكان يأكل كل أكل جائع بهامة ، إلا أنه نظيف الأكل ، فلما رفع الطعام ، أردت أن يقوم ويسل يديه في ناحية ، فلم يفعل ، فتمزقه الثلمان ، فلم يفعل ، ففشاغلت عنه ليقوم ؟ ثم قلت له : يا هذا ما صنعتك ؟ قال لي : حالك ، فقلت في نفسي : هذه شرّ من الأولى . ما اليوم غير نفسي ، إذ لم أقبل محنت نصحتي ، وصرت أواكل الحوكة^(٤) . فقلت : تومنأ يا أخي ، فومنأ ؟ ثم قال لي : جعلت فداك : قد سألتني عن صناعتي ، فما صنعتك أنت ؟ فقلت في نفسي : هذه شرّ من الأولى ، وكرهت أن أذكر الوزارة ، وقلت أقصر على الكتابة . فقلت له : كاتب . فقال : إن الكتابة على خمسة أصناف : كاتب رسائل ، يحتاج أن يعرف الفصل من الوصل ، والسنود وريق الكلام ، والتهاني والتمنازي ، والترهيب والترغيب ، وللقصور وللمدود ، وسجلاً من العرية . وكاتب جندي يحتاج إلى أن يعرف حساب التقدير ، وحيات^(٥) الدواب ، وحق الناس ونوتهم^(٦) . وكاتب قاض ،

(١) الرقة : بلد على الفرات .

(٢) الخضم : الأكل مع ملء الفم ، وأكل الرطب ، والقضم أكل اليابس ، والمراد أنه يأكل خير الأهواز جميعه رطباً ويابساً ولا يترك من خيرها شيئاً للدولة .

(٣) الحوكة : جمع حائك وهو خياط الثياب .

(٤) حيات للدواب : علاماتها .

(٥) نوتهم : جمع نمت وهو الصنف أي أوصافهم .

بحسب أن يكون عالماً بالشروط والأحكام ، طرأ بالتسلخ وللندوخ من القرآن . والحلال .
من الحرام ، والفروع واللوازم . وكاتب شرطه ، يحتاج أن يكون عالماً بالجروح والتقصص
والهيات ، قسماً في أحكام العلماء ، طرأ بدعوى التحدى . وكاتب خراج ، يحتاج أن يعرف
الزروع والساحة وضروب الحساب ، فأبهم أنت أعزك الله ؟ قلت : فوالله ما قضى كلامه حتى صار
أعظم الناس في نفسى وأحبهم إلى ، وصار كلامه عندي أشهى من لواء البارود المذبذب على الظلمآن .
قلت له : أحسبك الله ، تقدم إلى ، وابن منى أكرمك ، وأصدقك القصد الذى يقدمه مثلك ،
قلوا أن من البر ما يكون عتوقاً لأصدقك مقصدى هذا . قال : مقصدى الذى أنا به أولى بى .
قلت : أمتع الله بك ، أنا كاتب رسائل . قال : فأخبرنى لو كان لك صديق تكتب إليه فى
المحبوب والمكروه ، ويكتب إليك فى جميع الأسباب ، فزوجه أمه ، كيف كنت تكتب إليه ؟
تهنه أم تهزبه ؟ قلت : والله ما أدري كيف الوجه فى هذا وهو بالترية أولى منه بالتهنة . قال :
صدقت ، كيف كنت تهزبه ؟ قلت : والله ما أقف على ما تقول . قال : قلت بكاتب رسائل ،
فأبهم أنت ؟ قلت : كاتب خراج . قال : لما تقول أحسبك الله ، وقد ولاك السلطان عملاً فثبتت
عمالك فيه ، فجاء قوم يظلمون من بعض عمالك ، فأردت أن تنظر فى أمرهم ، وتصلهم إذا
كنت نخب العدل ، وتؤثر حسن الأخذوة وطيب الله كرك ، وكان لأحدهم براس ، فأردت صاسته ،
كيف كنت تسمح ؟ قلت : أضرب السطوف فى العمود ، وأنظر إلى مقدار فك . قال : إذا
تظلم الرجل . قلت : فأمسح العمود على حذته . قال : إذا تظلم السلطان . قلت : والله ما أدري .
قال : لست بكاتب خراج ، فأبهم أنت ؟ قلت : كاتب جند . قال : لما تقول فى رجلين اسم كل
واحد منهما أحمد ، أحدهما مقطوع الشفة العليا ، والآخر مقطوع الشفة السفلى ، كيف كنت
تتمهما وتحللهما ؟ قلت : كنت أكتب أحمد الأحم (١) ، وأحمد الأحم . قال : فكيف يكون
هذا ورزق هدامتا درهم ، ورزق ذاك ألف درهم ، فيقبض هذا عطاء ذاك ، وذالك عطاء هذا ،
تظلم صاحب الألف ؟ قلت : والله ما أدري : قال : قلت بكاتب جند ، فأبهم أنت ؟ قلت :
كاتب قاض . قال : لما تقول فى رجل خلف سرية (٢) وزوجة ، وكان للزوجة بنت ، والسرية
ابن ، فلما كان ذلك الليلة التى مات فيها الرجل ، أخفت الحرة ابن السرية فآذنته ، وجعلت ابنتها
مكانه ، فتنازعتا فيه ، فقالت هذه ابنى ، وقالت هذه ابنى ، كيف كنت تحكم بينهما وأنت خليفة

(١) الأحم : هو مشقوق الشفة .

(٢) خلف : ترك بد وفاقه ، والسرية الأمة التى تسمى بها أى جامعها فولدت له ،
والزوجة هى الحرة .

القاضي ؟ قلت : والله ما ادرى . قال : فلست بكاتب قاض ، فأبهم أنت ؟ قلت : كاتب شرطة . قال : فما تقول في رجل وثب على رجل ، فغصه شجرة موضحة^(١) ، فوثب عليه للشجور فغصه شجرة مأومة^(٢) ، كيف كنت تفضي بينهما ؟ قلت : ما أعلم . قال : فلست بكاتب شرطة . قلت : أصلحك الله : قد سألت فسرلى ما ذكرت . فقال : أما الذى تزوجت أمه ، فتكتب إليه : أما جد ، فإن أحكام الله تجري بغير محابة المخلوقين ، والله يختار العباد ، غفار الله لك في قبضها إليه ، فإن القبر أكرم لها والسلام . وأما الراح : فتضرب واحداً وثلاثاً في مساحة المطوف ، فمن ثم ياب . وأما أحد واحد : فتكتب حلية للقطوع الشفة العليا : أحمد الأعم . وللقطوع الشفة السفلى : أحمد الأشرم . وأما للرايان فيوزن ابن هذه وابن هذه ، فأبهما كان أخف ، فعلى صاحبة البيت . وأما صاحب الشجرة : فإن في الموضحة خساً من الإبل ، وفى للأؤومة ثلاثاً وثلاثين وثلاثاً ، فبد صاحب للأؤومة ثمانية وعشرين وثلاثاً . قلت : أصلحك الله ؟ فما أتى بك هاهنا ؟ قال : ابن عمى لى كان عاملاً على ناحية ، فغرجت إليه ، فألفيتهم عزولاً فقطع لى ، فأنا خارج اضطرب فى اللماش . قلت : ألسنت قد ذكرت أنك حائك ؟ فقال : جعلت فداك : إنما أحرك الكلام ، ولست بمالك الثياب . قال : فدعوت للزبن فأخذ من شعره ، وأدخل الحمام وطرح عليه من ثيابه ، فلما صرت إلى الأهواز كتبت فيه الرحى ، فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ورجع معى ، فلما صرت إلى أمير المؤمنين ألفت قد توقد على ناراً ، وامتلاً غيظاً ، وقد حلف بالذى إلى الكعبة أن ينالني منه يوم سوء ، لطول مقامى ، واشتغالى عنه بالرجل ، فلما دخلت عليه قال : ما كان من خبرك فى طريقك ، وما الذى شفقك بعد أمرى لك . أن لا تلبيث ينفد إلا يوماً واحداً ، ويعينك على ذلك ؟ فأخبرته خبرى ، حتى حدثته بحديث الرجل ، وقصص معى ، قال : لقد جئتني بأعظم الفوائد ، فلأى شئ يصلح ومعك ؟ قلت : هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالحق والمسلم ، والحلال والحرام ، والمهندسة والفلسفة ، والحساب والكتابة . فولاه هارون البناء والمرسة^(٣) ، ولهم من الأمور ، وأولاه على عمال الحراج يتقاضاهم وبما سبهم ، فكنت والله ألقاه فى المواصب المنجية ، فينحط عن دابته سائماً ، حتى يقبل على يدي يقبلها ، فأحلف عليه ، فيقول : سبحان الله ، إنما هذه نمتك ، وبك تلها ، ويقول :

(١) موضحة : للموضحة هى التى تظهر العظام بعد شق الجلد والحم .
(٢) المأومة التى بلغت أم الرأس أى غارت حتى وصلت إلى داخل العظم .
(٣) المرسة : إصلاح للباى وترميمها وهى مبيلة .

فلو أن الشكر شخصاً يرى إذا ما تأمله الماهر
لكنه لك حتى تراه فصل أن امرؤ شاعر

قال عمرو بن مسعدة : ثم قال لي هارون : ويحك ، لا أبطلت حلفت بالذي إلى الكعبة
أن ينالك مني يوم سوء ، ولا والله ما هذا جزاؤك لى ؟ لما رأى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ،
أنت أعلى عينا ، وأولى من برّ يمينه . فقال : والله ما أريد ذلك . قلت : فليكثر أمير المؤمنين
عن يمينه ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال : من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر ،
وليأت الذي هو خير . فقال : ويحك : إن السماء لم يروا الكفارة في هذا ، وإنما تأولوا
قوله عليه الصلاة والسلام في الأيمان بالله تعالى ، وقد أجمت على الشيء ، وللغى إلى الكعبة
راجلا . قلت : أفى بك بذلك ؟ وكيف تصل راجلا ؟ قال : لا بد من ذلك . فقال عمرو : يا أمير
للمؤمنين ، فأعمل عامك هذا حتى أسهل لك طريقاً ، وأحدد لك مراحل ، وأوتيت لك
مواثيق يسهل عليك ذلك إن شاء الله . قال : ذلك لك . فأمر عمرو بالأخبار فمرّجت عن
مسيلها ، وبالأكام والجيال فسويت ، وبالحنائق والأودية فردمت ، حتى صار ما بينه وبين
مكة كالراحة للوزونة ، وصارت الأخبار والأودية تسايه على طريقه ، ثم صنع له مراحل ،
قد حدّده عند كل مرحلة حداً ، وأبغى في كل مرحلة دواراً ، وكانت للرحلة يبدأ ، فدها
اثنا عشر ميلاً ، ثم أمر بالمراسل ففرحت بالبسط الرهاوية^(١) ، وضبط له جداراً بالسور ،
ومكها بأكسية الخبز الرفيع الملوّن ، وقد ضرب عند كل فرسخ قبة مزوكة ، قد أنام فيها
الفرش للمهدة ، وقد أحاط بها الظلال الممدودة بالرواقات الكثيفة ، فيها أنواع الطعام والشراب
والأوان القواكه : فلما تمّ صنعه ذلك : وأبم أمره . قال : يا أمير المؤمنين ، قد تمّ ما أردته ،
وكل ما حاولته ، فانهض على اسم الله العظيم ؛ وكانت زينة زوجته التي أغرته عليه ، وحملته
على الجبين لما قبلته ، فخرج الرعيد مدهياً ، ومعه دابّته وزينة ، فكانت للرحلة تفرش ، والسور
تنصب ، والسلمك ترفع ، فيمشي ثلاثة أميال ، ثم ينزل في قبة أمامها رواق^(٢) ، فينال راحته ،
ويصيب ما انتهى من لذة في مأكل ومشرب ، ثم ينهض ثلاثة أخرى ، فينزل على مثل ذلك .
فيذا استكمل مشى أربعة فراسخ ، نزل في قصر قد هيد له ، ودار قد بليت ، فيها حمام طيّب ،
ينال فيها راحته مع أهله ، ويصيب لذة بما شاء وكيف شاء ، ثم يكسر^(٣) فيه يوماً ، ثم يخرج

(١) البسط الرهاوية : نسبة إلى إقليم الرها وهو مشهور بمحوطة البسط .

(٢) الرواق : السرادق أو الخوض القطني بكسائه .

(٣) يكسر فيه يوماً : يجتنب فيه ويقوم .

في اليوم الثاني إلى مثل ذلك . فدشاسيه في طريقه الوزراء والقواد ، وأمرأه الأجناد ،
والعلماء والفقهاء ، والجورد والساكر قد صاروا منه بعزل يحاذونه في طريقه . إذا نزل في
الرواق صار الحسينان حوله ، بحيث يسمون كلامه ، ولا يرون شخصه ، فلا يشتبه شيئاً من
معرفة أخبار الأمصار والبلدان ، إلا وخط فيه كتاباً ، يأمر فيه بإرساله لحيث شاء من
الأماكن ، مسيرة الأيام والليالي ، فيأتيه الجواب من يومه على التجانب من مسيرة ثمانية
أيام ، ويأتيه الجواب من يومه من مسيرة شهر ونحوه على أجنسة الحمام ، يلقى الكتاب في
جناحه فيرتفع في الجو . ارتفاعاً ينسب شخصه عمن في الأرض ، وينقص على وطنه ، وموضع
فراخه ، فإذا نزل لا يستقر نزوله ، حتى يؤخذ الكتاب من جناحه ، فيجواب بما أحب ،
ثم يرسح غيره ، فيرتفع في الجو حتى يوازي وطنه وموضعه من بلد تلك الأماكن التي عليها
طريق أمير المؤمنين ، فيؤخذ الجواب منه ، وقد صار للوكولون بذلك لا يهتمون بشيء ما قلّصوا ،
ولا يتشاورون بشيء ما حصلوا ، فلم يزل كذلك ماشياً ، حتى وصل إلى مكة في ثلاثة أشهر ،
فقصى حبيته ، وشهد مناسكه ومشاعره ، ثم انصرف قافلاً إلى بغداد ، وذلك في آخر
شهر ذي الحجة من سنة ثمانين ومئة . فلما هم بالانصراف ، وذكر القبول إلى العراق ،
رفع إليه أهل مكة كتاباً يسألونه فيه أن يولى عليهم قاضياً عادلاً ، فأدخلهم على نفسه ،
فقال : إن شئتم فاختاروا منكم رجلاً صالحاً أوليه قضاءكم ، وإن أبيتم بعت إليكم من العراق
رجلاً لا ألوكم فيه إلا خيراً ، فخرجوا فاختاروا رجلاً ، فاختلوا فيه ، فاختارت طائفة
منهم رجلاً ، واختارت أخرى رجلاً آخر ، فلما اختلفوا ارتفعوا إلى الرشيد يذكرون
اختلافهم . فقال لهم هارون : أدخلوا على هذين الرجلين الذين اختلفتم فيهما ، فإذا
رجلين ، أحدهما شيخ من قريش ، والآخر غلام حدث من الوالي . فلما نظر إليهما
الرشيد قال للشيخ : ادن مني ، فدنا منه ، فقال له الرشيد : أيها القاضي ، إن بيني
وبين وزيرى هذا خصومة وتنازعاً ، فاقض بيننا بالحق . فقال الشيخ : قضا على
قصصكما ، قصصا عليه ، فقال الشيخ : تقيم البينة يا أمير المؤمنين على ما ذكرته ، أو يحلف
وزيرك هذا . فقال له هارون : إن أخى لا يداينى ما أقول ، ولا ينكر إلا قليلاً مما
أدعى ، فلم يزالا يرددان القول بينهما ويتنازعا ، حتى قضى القاضي لأمير المؤمنين على
الوزير . فقال له : قم ، فقام عنه . ثم دعا بالسلام الحدث ، الذى دعت الطائفة الأخرى ،
فدخل عليه . فقال له : ادن مني ، فدنا منه . فقال له هارون : إن بيني وبين وزيرى
تنازعاً وخصومة ، فاصبح منا قولنا ، ثم اقض بيننا بالحق . قال لها : إن مقدمكما مختلف
ومجلسكما متنازع ، وأخى إذا اختلف مجلسكما أن يختلف قولكما ، فإذا تقاضى مجلس الخصوم
اختلف بينهما القول ، وكان صاحب المجلس الأرفع الحق بمحبته ، وأدخى لحية صاحبه ،

وكان إسماء الحاكم إلى صاحب المجلس الأرفع أكثر ، وإلى أميل .. ولكن هومان من
 جلسكا هذا الحق قد استلبنا فيه فجلسا بين يدي ، ثم أسمع منك قولك ، وأقضى بين رابت
 الحق له ، ثم لا أبالي على من دار منك . فقال الرعيد : صدقت وبررت في قروك ، فقام الرعيد ،
 وقام عمرو بن مسعدة ، حتى صارا بين يديه جالسين . فلما جلسا بين يديه ذهب الرعيد ليحكم .
 فقال له القاضي : لو تركت هذا يتكلم ، فإنه أسن منك . قال الرعيد : إن الحق
 أسن منه . فقال القاضي : بلى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحريصة
 وحبيبة (١) : كبري كبري . يريد ليتكلم حكما ، لأنه أسن منك وأكبر ، فتكلم عمرو
 ابن مسعدة ، ثم تكلم الرعيد ، وتنازعا الحسومة ، وقرأنا الحجة بينهما ، حتى رأى القاضي
 أن الحق لعمرو ، فقصى له به على الرعيد ، فلما قضى عليه قال لها : عودي إلى مجلسك ، فنادا ،
 فسحب الرعيد من فضائه وعده واحتاط وقتة فيه ، فالتفت إلى عمرو وقال : إن هذا الحق
 بضاد القضاة من الذي استقضيتاه . فقال عمرو : بلى والله ، ولكن القوم أحق بغاضيتهم إلا
 أن يأذنوا فيه ، فعاد الرعيد برجال مكة ، فأدخلهم على نفسه ، وأجزل لهم السقاء ، وأحسن
 على قاضيتهم انتاء . ثم قال لهم : هل لكم أن تأذنوا أولي قضاء القضاة ، فيسير إلى العراق يقضى
 بينهم ؟ فقالوا : نعم يا أمير المؤمنين أنت أحق به نزولك على أكتفينا . فأرسل إليه الرعيد فقال :
 إني قد وليتك قضاء القضاة ، فسر إلى العراق لقضى بينهم ، وتولى القضاة في البلدان والأمصار
 من تحت يديك ، وتوليهم إليك ، وعزلم عليك . فقال القاضي : إن يجبرني أمير المؤمنين على
 ذلك فسمعا وطاعة ، وإن يجبرني في نفسي اخترت الساقية ، وجوار هذا البيت الحرام . فقال
 الرعيد : ما ينبغي لي أن أدمع للسلين وفيهم منك ، لأأوليه عليهم ، فغدا في تلك فإني أصبح
 على ظهر إن شاء الله . فخرج الرعيد ومعه الحق حتى قدم العراق ، فقرأ القضاء ، ونزل إليه
 قضاء القضاة ، فلم يزل يما قاضيا حتى توفي ، وذلك بعد ثلاثة أعوام من توليته . فلما توفي الختم
 الرعيد وعق عليه ، فجعل الناس يبرونه فيه علمهم بما بلغته التمه عليه : فسأل عن هان يوليه
 قاضي القضاة في العراق بعد ذلك ، فرفضت إليه تسمية عشرة رجال من خيار الناس وعلمهم
 وأشرافهم ، فلما رفضت إليه التسمية ، أمرهم فأدخلوا عليه رجلا رجلا ، ليترس فهم من
 يوليه القضاء ، ففطر إلى رجل منهم توسم فيه الخير والعلم فأمر به فقدم إليه . فلما صار بين
 يديه ، قال له : ما أسكت ؟ قال : معشوق : قال : كيف أنك ؟ قال : أبو الهوى . قال : فلما قضى خاتمتك ؟ قال :
 دام الحب ، دام وعلى الله التمام . فقال له : ثم لا تلت . ثم دعا بالآخر ، وكان قد ترس فيه ما تفرس
 في صاحبه فقال له : ما قضى خاتمتك ؟ قال : « مالي لا أرى المدد أم كان من القاضين » فقال

له انخرج . ففعل الرشيد يحيى بن خالد بن برمك ، وكان ممن رفع إليه اسماءهم ، فنصفه بهم ، وقال : رضى لى اسماء المجانين . قال له : والله ما فى المرتين اعدل من الرجلين الذين سالت ، ولا افضل منهما . فقال : ويحك انى اخترت منهما جنونا . قال يحيى : إنيهما والله كانا كارهين لما دعوتهما إليه ولما أراد التخلص منك . قال : ويحك : أعدماني ، فطلبنا فلم يوجدنا .

ذكر الأعرابي مع هارون الرشيد

قال : وذكرنا أن أعرابياً قدم على هارون الرشيد مستجدياً ، فأراد المخول عليه ، فلم يمكنه ذلك ، فلما رأى أنه لم يؤخذ له ، أتى عبد الله بن الفضل الحاجب ، فقال له : توصل كتابي هذا إلى أمير المؤمنين ، وكان الرشيد قد عهد إلى حليبه أن لا يهين عنه كتاب أحد قرب أو بعد ، فأعطاه الأعرابي كتاباً فيه أربعة أسطر . السطر الأول فيه : الضرورة والأمل قاداني إليك . والثاني السهم تنج من الصبر . والثالث : الاقلاب عنك بلا فائدة شامة الأعداء . والرابع : فلما « تم » ثمرة أو لما « لا » مرعبة . فلما وصل الكتاب إلى الرشيد قال : هذا رجل قد ساقته الحاجة ، ووصلت إليه العاقبة ، فليدخل ، فدخل فقال له الرشيد : ارفع حاجتك يا أعرابي . فقال الأعرابي : إن مع الحاجة حرمجات . فقال له الرشيد : ارفع حاجتك وحرمجاتك نفس كلها . قال الأعرابي : تأمر لي يا أمير المؤمنين بكلب أعيد به ، فنصحك الرشيد ثم قال له : قد أمرنا لك بكلب يصيد به . قال : تأمر لي يا أمير المؤمنين بداية أركبها : فقال الرشيد : قد أمرنا لك بداية تركبها . قال : تأمر لي يا أمير المؤمنين بسلام يحكم الهداية . فقال له الرشيد : قد أمرنا لك بسلام . قال الأعرابي : تأمر لي يا أمير المؤمنين بحلوة تطبخ لنا السيد ، وتطعمنا منه ، فقال الرشيد : قد أمرنا لك بحاريتين ، جارية تؤنسك وجارية تخدمك . قال الأعرابي : لأبدت هؤلاء من دار يسكنونها . فقال له الرشيد : قد أمرنا لك بدار ، قال الأعرابي : يا أمير المؤمنين يصيرون فيها حالة على الناس ، وعلى كلاله ، لا يد لهم من خينة تقيمهم . قال له الرشيد : قد أقطعتك مئة جريب^(١) هامة ومئة جريب غامرة^(٢) . قال الأعرابي : ما التامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال الرشيد : خير ممنوعة تأمر بجارتها . قال الأعرابي : أنا أقطعتك ألف ألف جريب من أرض أخوالى بنى أسد بالحجاز تأمر بموتها ، فنصحك الرشيد وقال : قد أقطعتكها هامة كلها . ثم قال الرشيد : تحت

(١) الجريب : الوادى والتمرة الآهلة بالسكان .

(٢) غامرة : ممنوعة مجهولة ليس بها سكان .

حويجك كلها يا أعرابي ؟ قال نعم ، وبقيت حاجتي العظمى . فقال له الرهيد : ارفعها ففعل
 فقال أقبل رأسك يا أمير المؤمنين ، فقال له الرهيد : هذا لاسمى إليه . فقال الأعرابي :
 أغضني حقا هو لي ، وقد غضي عما بذلت لي أمير المؤمنين ! فقال الرهيد : هذا الأمر لا يكون
 يا أعرابي ، ولا سبيل إلى مثل هذا . فقال الأعرابي : لابد من أن أسأل إلى حق ، إلا أن
 أغضبه : فقال له الرهيد : يا أعرابي أختري منك هذا الحق الذي وجب لك : فقال له
 الأعرابي : هذا الحق مما لا يشتري ، وهل في الأرض من لئال ما يكون ننا لهذا أو هوذا منه ؟
 لا والذي نفسى بيده ما في الدنيا سفراء ولا يضاء يشتري بها هذا . فقال الرهيد : يهيه بعض
 ما تراه من الثمن ، فإنه لا يكون ولا يتوصل إليه . فقال له الأعرابي : فلماذا قد آبيت فأعطيني
 مما أعطاك الله ، فأمر له بئحة ألف دينار ، فأبى بها إليه . فقال الأعرابي : ما هذه ؟ قيل له :
 هذه مئة ألف دينار تأخذها . فقال الأعرابي : هي للرماء على ، وم أولى بها مني ، فضحك
 الرهيد ، ثم أمر له بئحة ألف أخرى . فقال : ما هذه ؟ قيل له : مئة ألف ثانية ، والأولى
 للرماء ، وهذه لك . فقال الأعرابي : هذه لصفاء أهل ، يسلم بها أمير المؤمنين ،
 فم أوسع على نفسى ؟ فأمر له الرهيد بئحة ألف ثالثة . قيل له : هذه مئة ألف ثالثة ، توسع
 بها على نفسك في ميسنتك ، أرضيت يا أعرابي ؟ قال : نعم رضيت ، فرضى الله عنك يا أمير
 المؤمنين ، وأبى فضالة يقرأ السلام عليك ، وسألك مئة ألف ، يستعين بها في نكاحه ، ويتزين
 بها في دنياه ، وإنه قد جمع القرآن وعرف شرائعه وأحكامه ، وعلم ناسه وملسوخه ، وتفنن
 في ضروب من العلم ، وأحكم أنواع الأدب ، وقد جمع السواوين والكتب ، وتبحر في فهم
 الحديث والآثر ، قد أخذ من كل علم أهذه ومن كل ضرب أمضه إلى لباً لبيب ، وعقل
 رصين ، وعلم ثابت ، ونظر حبيب ، وفضل ودين ، يصوم التهار كله ، ويقوم الليل أكثره ،
 وقد صار في كثير من الأهل والعيال ، وعدد من البين والصبيان . فقال الرهيد : أو لست
 تذكر يا أعرابي أنه يريد الاستعانة على الفسك ، والتوسع في اللامى ، ثم أرادك تصله بكثرة
 النبال ، وهند البين والصبيان ؟ قال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إنه فولد ثلثة نسوة من حرار
 النساء ، وثمة من سرائر الإماء ، وهو ذو خمسة من الولد من كل حرة ، وذو سبع بنات
 من كل أمة ، ويبنى فسكح الرابة الحرة ، استقاماً لما أمر الله به في التنزيل الحكيم ، وألج
 في كتابه الناطق ، بكلامه الصادق . فقال الرهيد : يا أعرابي لقد سألت كثيراً ، فها سألت
 مئة ألف درهم فخطاها : قال الأعرابي : فأعطه يا أمير المؤمنين تسعين ألف دينار ، واحطط
 عنك عشرة آلاف دينار . فقال الرهيد : والله قد سألت كثيراً ، وحططت قليلا . قال
 الأعرابي : إنما سألتك يا أمير المؤمنين على قدرك ، وحططت على قدرى ، فاحتر ما هئت .
 فقال الرهيد : يا أعرابي إنما تريد متاعاً ، لا عقيق اليوم ، فأمر له بئحة ألف دينار فعبأ .

فقال له أمير المؤمنين : أرضيت يا أعرابي ؟ فقال : ما بقي لي شيء يا أمير المؤمنين إلا الحملان والكسوة ، وطرائف الكوفة ، ونحف البصرة ، وجوائز الضيافة وحقها . فقال الرشيد : وما يصلح لك من الحملان يا أعرابي ؟ فقال : أقصد ما يكون دابة الجمال ، وأخرى للحملان وثلاثة للاسترحال ، ولا يجرى مثل ذلك ، ومن الكسوة ما لا يد منه من ثياب اللينة والاستعمال ، وما لا غنى عنه من الوطاء والدثار ، مع رافع الثياب التي تكون الجمال والجماعات والأعياد ، ولا يجرى وبين ابنى مثل ذلك . فدعا الرشيد جعفر بن يحيى وقال : أرحنى من هذا ، وأمر له بما سأل من الحملان ، وما أراد به من ثياب للينة والجمال ، وأغدى عليه من التحف والطرائف ما ترضيه به ، وأخرجته عنى ؟ فخرج جعفر فأمر له بما سأل وأعطاه ما أراد . ثم انصرف الأعرابي راجعاً إلى الحجاز بأموال عظيمة ، لا يوصف أكثرها ، ولا يعرف أقلها ، وكل هذا يقل عندما عرف من جود الرشيد وسخائه ، وجزيل عطائه ،

قتل جعفر بن يحيى بن برمك

قال عمرو بن بحر الجاحظ : حدثني سهل بن هارون ، قال : والله إن كان سجعوا الخطب ، وصبروا القريض لفيلاً على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلام يصور دراً ، ويحبه المنطق السرى جوهراً ، لكان كلامهما ، والمتقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد ، في بديته وتوقيعاته في أسافل كتبه ، صين ، وجعلين أميتين ، ولقد عبرت معهم وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا اتحدت إلا لهم ، وأنهم همض^(١) الأنام ، ولباب الكرام ، وملح الأيام ، عشق منظر ، وجودة تختبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، وزخابة أنس ، واكتال خصال ، حق لو فاضرت الدنيا بقليل أيامهم ، وللأنور من خصالهم كثير أيام من سوام ، من لدن آدم أبهم إلى تنبع الصور ، وانبعث أهل القبور ، حاشا أنبياء الله للمكرمين ، وأهل وصيه المرسلين ، لما باهت إلا بهم ، ولا حولت في الفخر إلا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكرم أعرافهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وسنى إشرافهم ، وشاوة أعراسهم ، وطيب أغراضهم ، واكتال خلال الخير فهم إلى ملء الأرض منهم ، فوجىب محاسن للأمن كالنخلة في البحر ، وكالحردة في المهمة القمر . قال سهل : إنى لحصل أرزاق العامة بين يدي يحيى بن خالد في داخل سرادقه ، وهو مع الرشيد بالرقعة^(٢) ، وهو يستقده جملاً بكفه ، إذ غشيت سائمة ، وأخذته سنة ، فقلبت عيتاه . فقال :

(١) خلاصة الناس .

(٢) الرقعة : بدى على القرات وأخرى غرق بشداد .

ومحك بإسهل ، طرق التوم شفى عفى ، فأظلت وأكث السنة خواطرى ، فما ذاك ؟ قلت : طيف كرم ، إن أقصى أدركك ، وإن غايته غلبك ، وإن قرّبته روتك ، وإن منعه عنتك ، وإن طرده طلبك . فنام أقل من فوق بكية (١) أو نزع دكية (٢) ، ثم اتبته منعوراً ، فقال : بإسهل ، لأمر ما كان ، ذهب والله ملكنا ، وذلّ عزنا ، واضطمت أيام دولتنا . فقلت : وما ذاك أصلح الله الوزير . قال : كان منشداً أنشدنى :

كأن لم يكن بين الحبس إلى الصفا أنيس ولم يسر بكه سامر

فأجبتة عن غير روية ولا إجابة فكر :

بلى نحن كنا أهلها فأبدنا صروف الليالي والجود الموات

فوالله ما زلت أعرفها فيه ، وأراها ظاهرة منه إلى الثالث من يومه ذلك ، فإني لفي مقدى ذلك بين يديه ، أكتب توقيعات في أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه ، فقد كلفني إكمال ما فيها بإقامة الوزن فيها ، إذ وجدت رجلاً ساعياً إليه ، حتى ارتعى مكباً عليه ، فرفع رأسه وقال : مهلاً ومحك : ما أكتم خير ، ولا استر سر . قال له : قل أمر المؤمنين الساعة جفراً . قال : أو فعل ؟ قال : نعم ، فما زاد أن رى بالقلم من يده وقال : هكذا تقوم الساعة بنته . قال سهل : فلو انكلمات السماء على الأرض ما تبعاً منهم الحميم ، أو استبعد عن نسهم القريب ، وجمد ولامد الولي ، واستعبرت لفقدم الدنيا ، فلا لسان ينظر بذكرهم ، ولا طرف تاهر بشير إليهم ، وضم يحيى وبقية ولده الفضل ، وعمداً وخالداً بليه ، وعبد الله ويحيى وخالداً بنى جعفر بن يحيى ، والماضى وزيد ، ومعمرا بن الفضل بن يحيى ، ويحيى وجعفراً وزيداً ، بنى محمد بن يحيى ، وإبراهيم ومالكاً وجعفراً وعمراً بن خالد بن يحيى ، ومن لفّ لفهم ، أو هجس بنفسه أمل فيهم .

قال سهل : وبث إلى الرشيد فوالله لقد أعجلت عن النظر ، فدخلت ولبست ثياب أحزان ، وأعظم رضى إلى الله الإراحة بالسيف ، وإلا نيت كما نمتى جعفر فلما دخلت

(١) البكية كثيرة البكاء ، والوقوف القدر أى نام أقل من مدة بكاء بأكية على من بكه .
(٢) الركية : البئر وزحها استخراج اللآء منها ، والرداءة نام قليلاً .

عليه ، ومثلت بين يديه ، عرف الشعر في تجريض^(١) ريقى ، والتجديد^(٢) في طريقي ، وشخصني إلى السيف للعبور يصري . قال هارون : ليا يا سهل ، من غمط نطق ، واعتدى وسيق ، وجانب موافقتي أعجلته عقوبتي . فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : لئفرخ^(٣) إركوك^(٤) ، وليسكن جأحك ، ولتطب عسك ، ولتطمئن حواسك . فإن الحاجة إليك قربت منك ، وأبقت عليك بما يبسط متبذك ، ويطلق مقولك^(٥) ، فاقصر على الإحارة قبل اللسان ، فإنه الحاكم الفاضل ، والحسام التأسل ، وأشار إلى مصرع جسر وهو يقول :

من لم يؤذبه الجليلُ ففي عقوبته صلاحه

قال سهل : فوالله ما أعلمني أني عيت بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ ، لما عوكت في شكره والثناء عليه ، إلا على تقبيل يديه ، وباطن رجليه . ثم قال لي : اذهب فقد أحطتلك هل يحيى بن خالد ، ووجهتك ما ضمته أبيته ، وحوى سرادقه ، فأقبض الدواوين ، وأحص جباياه ، وجبا جسر لنا مرك يقضه إن شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نشر عن كمن وأخرج من حبس ، فأحصيت جباياه فوجدت عشرين ألف ألف دينار ، ثم ظل لي بعداد راجباً ، وفرق البرد إلى الأمصار قبض أموالهم وغلاتهم ، وأمر بجيفة جسر ، فخصيت مفعه على ثلاثة جنوع ، رأسه في جنح على رأس الجسر مستقبل الفرات ، وبعض جسده في جنح آخر في آخر الجسر الأول وأول الجسر الثاني ، مما يلي بباد ، قال سهل : فلما دنونا من بباد ، طلع الجسر الذي فيه وجه جسر لنا أولاً ، واستقبلنا وجهه ، واستقبلته الشمس ، فوالله لخلتها تطلع من بين حاجبيه ، وأنا عن يمينه ، وعبد للك بن الفضل عن يساره . فلما نظر إليه الرشيد ، كأنه فسق شعره ، وطلى بنور بشره ، وأردت وجهه ، وأغضى بصره قال عبد للك بن الفضل : لقد عظم ذنب لم يسمه عفو أمير المؤمنين . فقال الرشيد ، واغرورقت عيناه حتى لمرنا الجبش في صدره : من رد غير مائه يصدر بمثل دائه ، ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته . على بالتضاحات . قال سهل : فضع عليها حتى احترقت عن آخرها ، وهو يقول : أما والله لن ذهاب أثرك ، لقد بقي خبرك ،

(١) تجريض الریق : ذهاب ماله وجفاف الخلق .

(٢) التجديد : التآيل وعدم الثبات .

(٣) الروج : الخوف وإفراخه : ذهابه ، أي لتهدأ وتطمئن ويذهب خوفك .

(٤) للقول : اللقيد ، أي إني سأعطيك ما منع عنك حتى تكون حرّاً طليقاً في كل ما تشي وتريد .

ولئن حطّ قدرك فقد علا ذكرك . قال سهل : وأمر بضم أموالهم ، فوجد من الثمّنين ألفاً التي كانت مبلغ جبايتهم اتى عشر ألف ألف مكتوباً على يديها مكوك عنومة ، بضميرها وفيمن حوا بها ، فما كان منها حياء على غربة أو استطراف ملحة تصدق بحى بها ، وأثبت ذلك فى ديوانها على تواريخ أيديها ، وساعات أعطيتها ، فكان ديوان إعاقى ، واكتساب قائمة ، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألفوسنة مئة ألف وستين ألفاً إلى سائر ضياعهم وظلالهم ودورهم ورباعهم وريشهم ، والدقيق (١) والجليل من مواعيتهم ، فإنه لا يصف الله ، ولا يعرف أكثره إلا من أحصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال . وأبرزت حرمة إلى دار البانوة ابنة الهوى ، فوالله ما علمته حاش ولا عشن إلا من صدقت من لم يزل متصدقا عليه ، وصار من موحدة الرشيد فيما لم يعلم من ملك قبله على آخر ملكه . وكانت أم جعفر بن يحيى فاطمة بنت محمد بن الحسن بن الحسن بن قسطنطين بن شبيب قد أرضت الرشيد مع جعفر ، وكان ربيّ في حجرها ، وغذى برسلها ، لأن أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهرأ لإكرامها ، والتبرك برأيها ، وكان قد آلى على نفسه ، وهو فى كفالتها أن لا يحجبها ، وأن لا تستفسله لأحد إلا شفعها ، وألت عليه أم جعفر أن لا تدخلت عليه إلا مأذونا لها ، ولا تمشى لأحد لفرش دنيا . قال سهل : فكيف أسير فكنت ، ومهم عنده فحمت ، ومستخفى منه فرجيت . قال : واحتجب الرشيد بعد قدومه ، فطلبت الإذن عليه من دار البانوة ، ومشت بواسطتها إليه ، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاهلة وجهها ، واضعة لثامها ، محتمة فى مشيتها ، حتى صارت يباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الله بن الفضل الحاجب ، فقال غث (٢) أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة قلبشباته الحاسد إلى حين الولد وخفة أم الواحد ، فقال له الرشيد : ويحك يا ابن الفضل : أو ساعية ؟ قال : نعم أملك الله الأمير حافية . فقال : أدخلها يا عبد الله ، فربّ كبد كريم غنيتها ، وكربة فرجتها ، وهورة سترتها . قال سهل : فوالله ما شككت فى شيء قطّ ما شككت يومئذ فى إيجاب طلبها وإسماها بمأجنتها . فلما دخلت ونظر إليها داخلة محتمة فلم يفتيا حتى تلقاها بين عمد المجلس ، فأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ، ثم أجلسها معه . فقالت يا أمير المؤمنين ، أسود على الزمان ، ويجعلونا خوفاً لك الإخوان ، يحرك بنا البهتان ، ويوسوس لك بأذانا الشيطان ، وقد ربيتك

(١) الدقيق: السبير الحقيق ، والجليل الكبير السليم .

(٢) الغث : فى الأصل العاطلة على ولد غيرها ثم أطلق على الرضة لولد غيرها ، أى مرضة أمير المؤمنين بالباب ، ويطلق الغث أيضاً على الرجل زوج الرضة لغير ولدها .

وأخذت برحمتي لك الأمان من دهرى . فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فأيسى من راقته بتركه كنيتهما آخر ما كان أطمعني منه في بره بها أو لا . قالت له : طارك يحبه وأبوك يد أليك ، ولا أرحمه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته له ، وإعفائه عليه ، وحرصه للحف في هأن موسى أخيه . فقال : يا أم الرشيد ، قدر سبق ، وقضاء حم . وغضب من الله نزل . قالت : يا أمير المؤمنين : يسر الله ما يشاء ورثت وعنده أم الكتاب : فقال الرشيد : صدقت ، فهذا كما لا يحوره الله . فقالت : التيب محبوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد يسيراً ثم قال :

وإذا لية أنشبت أطفالها أهيت كل تيمة لا تنع

فقلت بنير روية : ما أنا ليحي بعيمة يا أمير المؤمنين . وقد قيل :

وإذا اخترت إلى الاختار لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله « والكافين التيط ، والعافين من التيس ، والله يحب المحسنين » فأطرق هارون قليلاً ثم قال :

إذا انصرفت نسي عن التهم لم تسكد إليه بوجه آخر العر قبل

فقلت : يا أمير المؤمنين وهو يقول :

سقط في الدنيا إذا ما قطعت بينك فانظر أى كفت تبدل

قال الرشيد : رثيت . فقالت : يا أمير المؤمنين ، فيه لله تعالى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك شيئاً لم يوجد الله ، فأكب الرشيد ملياً ، ثم رفع رأسه وهو يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد . قالت : يا أمير المؤمنين : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، لا عفتنى . قال : وأذكرى يا أم الرشيد أليتك : أن لا هفت لتعرف ذنباً . قال سهل ابن حارون : لما رآه صرح بمنها ، ولأذن من مطلبها ، أخرجت له حقاً من زمره خضراء ، فوضته بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب ، فأخرجت منه خضته (١) وذوابه وتنايله ، قد غمست جميع ذلك في السك . فقالت : يا أمير المؤمنين : استلضع

(١) الآية : الحلف : أى اذكر بينك التى حلفتها لأنى حلفت عندك لتقبلن هفاق .
(٢) خضنة : قطعة اللحم التى قطعت منه عند خاتته ، وذوابه : هره الذى قص عند أول حلقته ، وتنايله : أسنان طفولته التى سقطت منه ، ونيت له غيرها .

إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار مني من كرم جسدك ، وطيب جورحك ، ليحيى
عبدك . فأخذ هارون ذلك قلته ، ثم استبر وبكى بكاء حديداً ، وبكى أهل المجلس ،
ومر البشير إلى يحيى ، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى
جميع ذلك في الحق ، وقال لها : لحسن ما حفظت الوعدة : قالت : وأهل لكافة أنت
يا أمير المؤمنين . فبكى ، وطبع الحق ، ودفعه إليها ، وقال : « إن الله يأمرك أن تؤذوا
الأمانات إلى أهلها » ، قالت : يا أمير المؤمنين وقال عز وجل : « وإذا حكمتم بين الناس
أن تحكموا بالعدل » ، وقال تعالى : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم » ، قال لها : وما ذلك
يا أمّ الرعيد ؟ قالت : ما أقسمت لي يا أمير المؤمنين ، أن لا يحبيك عنى حاجب . قال لها :
يا أمّ الرعيد ، أحب أن تفتري حكمة فيه . قالت : أصلت يا أمير المؤمنين ، وقد فلتت
غير مستقيمة لك ، ولا راحة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك ممن لم يستطعك : قال :
يا أمّ الرعيد ، أملى عليك من الحق مثل الذي لم ؟ قالت : بل يا أمير المؤمنين ، إنك لأعز
عليّ ، وم أحبّ إليّ . قال : إذا قصصني في بيته بغيري . قالت : بل وقد وهنتك وجعلتك
في حل منه ، وقامت عنه ، فبقى الرعيد مبهوتا ، ما يحير لفظه . قال سهل : وخرجت عنه فلم
تد إليه ، ولا والله إن رأيت عنى لينها عبرة ، ولا سميت أدنى لنسباً أته . قال سهل : وكان
الأمين رضيع يحيى بن جسر ، فسمت إليه يحيى بن خالد بذلك ، فوعده استيعاب أمه أيام ،
ثم خلفه الله عنهم ، فكتب إليه يحيى ، وقيل : إنها سليمان الأعمى أخى سلم بن الوليد :

يا ملاذى وصمقى ومهادى	وجيرى من الخطوب القداد
بك قلم الرجاء في كلّ قلب	زاد فيه البلاد كلّ مسراد
إنما أنت نعمة أعقبتنا	أنعم نعمها لكلّ البباد
وعد مولاه أئمة فأبى الله	رّ ما نرين حسنه بانقباد
ما اخلت سحاب البأسى إلا	خلت في كشفها عليك اعتادى
إن تراخت بذلك عن فؤادنا	أكلتى الأيام أكل الجسراد

وبعث بها إليه ، فقبضها الأمين إلى أمه زينة ، فأعطتها الرعيد وهو في موضع لداه ، وفي
إقبال من أرميته ، وتبأت للاستفراع لم ، وهيات جوارها وستياتها ، وأمرتهن بالقيام إليه
مها . فلما فرغ الرعيد من قراءتها لم يقض جوده (١) حتى وقع في أسفلها : عظيم ذنبك أمانات

(١) لم يقض جوده : أى لم يتحرك من مكانه . وأصل الحياة أن يجلس الرجل واضعاً
ركبتيه متوسق الساقين ملتصقين ببطنه ، ولكن الراد هنا لم يتحرك من مكانه .

خواطر الفو عنك . ورمى بها إلى زينة ، فلما رأيت توقيمه علمت أنه لا يرجع عنه . قال : واعتلّ يحيى ، فلما شق دعا برقة فكتب في عنوانها : يتقدّم أمير المؤمنين إجماع الله عهد مولاه يحيى بن خالد ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، قد تقدّم الخصم لموضع الفصل ، وأنت على الأثر ، والله الحكم العدل . فلما ثقل قال للسجّان : هذا عهدى ، توصله إلى أمير المؤمنين ، فإنه أولى نعمى ، وأحقّ من نكذ وصيق فلما مات أوصل السجّان عهد يحيى إلى الرشيد . فلما قرأه استمدّ (١) ، مكتب ، ولا أدرى لمن الرقة . قلت : يا أمير المؤمنين ، ألا أكليك؟ قال : فلا : إني أخاف عادة الراحة أن يقوى سلطان المعزة فيحكّم القفلة ، ويقضى بالبلادة . قال سهل : فوقع فيها : الحكم الذى رشيته به فى الآخرة لك ، هو أعدى الخصوم عليك فى الدنيا ، وهو من لا يقضى حكمه ، ولا يرد قضاؤه ، ثم روى الكتاب إلى يحيى ، فلما رأيته علمت أنه ليحيى ، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه . قال سهل : قلت لبعض من اتقى بولائه ، واعتقد صدق إخائه من خسيان القصر للتخمين عند أمير المؤمنين ، وللتكئين من كلّ ما يكون لديه . ما الذى نرى جعفر بن يحيى وذويه عند أمير المؤمنين ، وما كان من ذنبه الذى لم يسه عفووه ، ولم يأت عليه رضاه ؟ فقال : لم يكن له جرم ، ولا لديه ذنب ، كان والله جعفر على ما عرفته عليه ، ونهيمته عنه من اكتمال خصال الخير ، ونزاهة النفس من كلّ مكروه ومحدور ، إلا أن القضاء السابق ، والقدر النافذ لا بد منه . كان من أكرم الخلق على أمير المؤمنين ، وأقربهم منه ، وكان أعظمهم قدراً وأوجبهم حقاً فلما علم ذلك من حسن رأى أمير المؤمنين فيه وعديد محبته له ، استأذنته أخته ، فاخته بنت للهدى وعقيقته فى إنحاف جعفر ومهاداته ، فأذن لها ، وكانت قد استعدت له بالجوارى الرامات ، والقينات الفاتحات ، فتهدى له كل جمعة بكراً يفتضحها ، إلى ما يصنع له من ألوان الطعام والشراب والفاكهة ، وأنواع الكسوة والطيب ، كلّ ذلك بمعرفة أمير المؤمنين ورأيه ، فاستمرت بذلك زماناً ، ومضت به أعواماً . فلما كانت جمعة من الجمع ، دخل جعفر القصر الذى استعدت به ، ولم يُرِع جعفر إلا بفاخرة ابنة للهدى فى القصر ، كأنها جارية من الجوارى اللاتي كنّ يُهدَيْن له ، فأصاب منها لذته ، وقضى منها حاجته ، ولا علم له بذلك . فلما كان المساء ، وهمّ بالانصراف ، أهلته بنمسا ، وعرفته بأمرها ، وأطلته على شديد هواها ، وإفراط محبتها له ، فارتداد بها كلها ، وبها حبا ، ثم استفاها من الماودة إلى ذلك . واتقبض عما كان ينافه من جواربها ، واعتذر بالبلّة والمرض ، فأعلم جعفر أباه يحيى . فقال له : يا بنيّ أعلم أمير

(١) استمدّ : وضع قلبه فى اللداد وهو الحبر .

للمؤمنين ما كان معجلاً ، وإلا فأذن لي فأعلمه ، فإني أخاف علينا يوم سوء إن تأخر هذا ، وبلغه من غيرنا ، وإعلامك له في هذا الوقت يسقط عنا ذلك الدين ، فهو أحق بالمقوية منك . قال جسر : لا والله لا أعلمته به أبداً ، فأموت على أيسر منه ، وأرجو الله أن لا يظلمه عليه ، فقال له يحيى : لا تلقن هذا بخفى عليه ، فأطعن اليوم وأعلمه . فقال جسر : والله لا أقبل هذا أبداً ولا أنكم به ، وبالله أستعين ، فلم يرجع الرشيد إلا أن رقت إليه جارية من جوارها رقة ، وأعلمت ذلك فيها فاستحق ذلك عند الرشيد باستغناء جسر لما كان من إيمانها ، واعتذاره بالله من غير مرض ينهك ، فخلع عنه الرشيد ، ولم ير لذلك جفوة ، ولا زاد له إلا كرامة ، ولا ديه إلا حرمة ورفعة ، حتى قرب وقت الهلاك ، ودنا مقلب الحلف ، والله أعلم .

قد تم بحون الله تعالى ما به ابتدأنا ، وكل وصف ما قصمنا ، من ألام خلفائنا وخير أئمتنا ، وفقن زمانهم ، وحروب أئمتهم ، واتينا إلى ألام الرشيد ، ووقعنا عند انقضاء دولته . إذ لم يكن في انقضاء أخبار من بعده ، وقل حديث ما دار على أيديهم ، وما كان في زمانهم كبير منعة ، ولا عظيم فائز ، وذلك لما أخفى أمرهم ، وصار ملكهم إلى صية أغمار (١) ، غلب عليهم زنادقة الرقاق ، فصرغهم إلى كل جنون ، وأدخلهم إلى السكر ، فلم يكن لهم بالقاء والسفن حجة ، واشتغلوا بلهوهم ، واستغنوا برأيهم . وكان الرشيد مع عظم ملكه ، وقدر شأنه ، معظماً للغير وأهله ، عباداً لله ورسوله ، ولما دخلت عليه سنة تسعين ومئة أخذته الحمى التي أخبر بها جدّه أبو جسر للتصور ، وهو في الهد صغيراً ، فصرف أنه قد دنا أجله ، وعلان هلاكه ، فاجتمع إليه أطباء الرقاق يبالغونه ، ثم استعان بأطباء الروم والمند ، واستجلبهم من الآفاق ، فلم يرأوا يداوونه حتى مضت له ثلاثة أعوام ، وما أفلت عنه ، ولم يزد العلاج إلا هدة . فلما دخلت سنة أربع وتسعين ومئة أثرت به ، وأنهكت بدته ، ولغت أله ، وتماذى به وجسه ، فذكر اليقظة لآلئه للأمان . فلما سمعت بذلك زيادة ، وكان ابنها منه محمد الأمين ، هبته وتضامت عنه ، وأكرها ذلك وغمها ، حتى ظهر ذلك عليها ، وبدا أثر القم في وجهها ، ودخلت عليه تعابه في ذلك أهدت العاتية ، وتؤاخذ أعنف للواخذة .

(١) أغمار : جمع غير ضمن العين وضما وكسرها : الشاب غير المبرب ، الساذج الذي لم تحمكه التجارب .

فقال لها الرشيد : ويحك ! إنا هي أمة محمد ، ورعاية من استعانى الله تعالى مطوعةً ينبغي وقد ، عرفت ما بين ابني وابنتك ، ليس ابنك يا زينة أهلاً للخلافة ، ولا يصلح للرعاية . قالت : ابني والله خير من ابنك ، وأصلح لما تريد ، ليس يكبر سفيه ، ولا صغير فقيه ، وأسخط من ابنك عشاء وأصبح قلباً . فقال هارون : ويحك ! إن ابنك قد زينه في عينك ما يزين الولد في عين الأبوين ، فأنقذ الله ، فوالله إن ابنك لأحسب إليّ ، إلا أن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً ، ولها مستحقاً ، ونحن مستولون من هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأثام ، فما أفتانا أن تلقى الله بوزرم ، وتقلب إليه بآعما ، فاقصدى حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنتك ، فقدت معه على الثرائس ، فدعا ابنه عبد الله للأمن ، فلما صار ياب المجلس سلم على أبيه بالخلافة ، فأذن له بالجلوس فجلس ، وأمر له فتكلم ، فحمد الله على ما من به عليه من رؤية أبيه ، ورغب إليه في تسجيل الفرج بما به ، ثم استأذن في السنن من أبيه ، فدنا منه ، وجعل ياتم أسافل قصبه ويقلب باطن راحته ، ثم اتقى ساعياً إلى زينة ، فأقبل على تقبيل رأسها ، حواسن ثديها ، ثم انحنى إلى قدمها ، ثم رجع إلى مجلسه . فقال الرشيد : يا بني إني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة ، وأتصدق مقدد الخلافة ، فإني قد رأيته لها أهلاً وبها حقيقاً ، فليست عبد الله للأمن باكياً ، وصالح متعباً يسأل الله العافية من ذلك ، ويرغب إليه أن لا يره قد أبيه . فقال له : يا بني إني أراي لما بي وأنت أحقّ ، وسلم الأمر لله ، وأرض به ، ولما له الحسن عليه ، فلا بد من عهد يكون في يومى هذا . فقال عبد الله للأمن : يا أباؤه ، أخى أحقّ مني وابن سيدى ، ولا إخلال إلا أنه أقوى على هذا الأمر منى ، ثم أذن له فقام خارجاً . ثم دعا هارون ابنه محمد ، فأقبل يجرّ ذيله ، ويتبختر في مشيته ، ففسى داخلًا بطنه قد نسي السلام ، ودخل من الكلام ، نحوه ونجيرا ، وعظما وإعجاباً ، ففسى حتى صار مستويا مع أبيه على الثرائس . فقال هارون : ما تقول أى بنى ، فإني أريد أن أعهد إليك ، فقال : يا أمير المؤمنين ومن أحقّ بملك منى ، وأنا أسنّ وملك ، وابن فرّة عينك . فقال هارون : اخرج يا بنى ، ثم قال لزينة : كيف رأيت ما بين ابني وابنتك ؟ فقالت : ابنك أحقّ بما تريد ، فكتب عهد عبد الله للأمن ، ثم محمد للأمين بعده .

فلما كان سنة خمس وتسعين ومئة ، توفي الرشيد رحمه الله ، وعبد الله للأمن خارج عن العراق ، وكان وجهه أبوه بالجيوش إلى بعض الفرس لثىء بلنه عنهم ، فلما جاءهم محمد الأمين قوم من شرار أهل العراق . فقيل له : معك الأموال والرجال والقصور ، فادفع في بحر أنيك

لأأمون ، فإنك أحقّ بهذا الأمر منه، وأعاتته على ذلك أمه زيدة، فقدم أخوه عبد الله من بغداد،
ومعه الجيوش قد أخذ يستهم ، فنهض إليه الأُميين فصدوا عنه الجيوش ، فلم يرجع ولم يمانح ،
ولم يختلف عليه أحد ، ثم إنه غدر بأخيه الأُميين لما يلته عنه . فنهض لأأمون إلى القصر فدخله ،
فأخذ أخاه وشدّ وثاقه وسجسه ، وأحار إلى أمه لما أعاتته عليه ، فهرب محمد من الحبس ،
فبحث لأأمون في طلبه ، فأخذ وقتل ، والله تعالى أعلم .

ولمّا هنا تمّ الجزء الثاني من الإمعة والسياسة ويتامه يكون الكتاب قد كلّ كله ، نسأل
الله تعالى التّسع به ، والتوفيق إلى إتمام مثله ، إنه سميع الدعاء ، وهو نعم المولى ونعم النصير ،
وكان التّراخي من طبعه في الحظاس من شعبان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق السّابع من نوفمبر
سنة ١٩٦٧ م .

فهرس

الجزء الثاني من الإمامة والسياسة

مقدمة

- ٣ ذكر اختلاف الرواة في وفاة الحرّة وخبر يزيد
- ٤ ولاية الوليد للدينة وخروج الحسين بن علي
- ٥ قال عمرو بن سعيد الحسين وقته
- ٦ قدوم من أسر من آل علي بن يزيد
- ٧ إخراج بني أمية عن المدينة ، وذكر قال أهل الحرّة
- ٩ حرب ابن الزبير رضي الله عنهما
- ١٠ خلاف معاوية بن يزيد
- ١١ غلبة ابن الزبير رضي الله عنهما وظهره
- ١٢ حريق الكعبة — اختلاف أهل الشام على ابن الزبير
- ١٣ يمة أهل الشام مروان بن الحكم — موت مروان بن الحكم
- ١٤ يمة عبد الملك بن مروان وولايته
- ١٥ غلبة ابن الزبير على العراقيين ويسمهم
- ١٦ يمة أهل الكوفة لابن الزبير وخروج ابن زياد عنهما
- ١٩ قال المختار عمرو بن سعد
- ٢٠ قتل مصعب بن الزبير لمختار بن أبي عبيد الله — خلق ابن الزبير
- ٢١ قتل عبد الملك عمرو بن سعيد
- ٢٢ مسير عبد الملك إلى العراق
- ٢٣ قتل مصعب بن الزبير — ذكر حرب ابن الزبير وقته

٢٥	ولاية الحجاج على العراقيين
٢٦	خروج ابن الأعمش على الحجاج
٢٩	حرب الحجاج مع ابن الأعمش وقته
٣٩	أسر عامر بن سعيد الشعبي
٤١	انهزام ابن الأعمش وقيام عبد الرحمن بن عتياف
٤٢	ذكر قتل سعيد بن جبير
٤٤	ذكر ربيعة الوليد وسليمان بن عبد الملك
٤٦	موت عبد الملك وبيعة الوليد
٤٨	تولية موسى بن نصير البصرة
	دخول موسى بن نصير على عبد الملك بن مروان — تولية موسى بن نصير
٤٩	على إفريقية
٥٠	خطبة موسى بن نصير رحمه الله — دخول موسى بن نصير إفريقية
٥١	خطبة موسى بإفريقية
	فتح زهران — قدوم كتاب الفتح على عبد العزيز بن مروان — إنكار عبد الملك
٥٢	تولية موسى بن نصير
٥٣	جوابه — كتاب عبد العزيز بالفتح إلى عبد الملك — جوابه
٥٤	فتح هوارة وزناته وكتامة — فتح صنهاجة
٥٥	فتح سبجوما
٥٦	قدوم الفتح على عبد الملك بن مروان
٥٧	غزوة موسى في البحر
٥٨	غزوة الموسى الأقصى
٥٩	قدوم الفتح على الوليد بن عبد الملك — فتح قلعة أرساف
٦٠	فتح الأندلس

صفحة

- ٦٢ اتهام الوليد موسى بالخلع - دخول وفد موسى على الوليد بن عبد الملك . . .
- ذكر ما وجد موسى في البيت الذي وجد فيه المائدة مع صور العرب - ذكر ملاقاته الله عليهم
- ٦٣ غزوة موسى بن نصير البشكس والإفرنج
- ٦٤ خروج موسى بن نصير من الأندلس - قدوم موسى لإفريقية
- ٦٦ قدوم موسى إلى مصر - قدوم موسى على الوليد رحمهما الله
- ٦٨ خلافة سليمان بن عبد الملك وما صنع بموسى بن نصير
- ٦٩ حدة موالى موسى بن نصير
- ٧٠ ذكر ما رآه موسى بالقرى من السجائب
- ٧١ تولية سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة وما أشار به موسى عليه
- ٧٢ سؤال سليمان موسى عن القرى
- ٧٣ ذكر قدوم موسى على الوليد
- ٧٤ ذكر اختلاف الثاقبين في صنع سليمان بموسى
- ٧٥ نسخة القضية
- ٧٦ ذكر يد موسى إلى اللهيب
- ٧٨ ذكر قتل عبد العزيز بن موسى بالأندلس
- ٧٩ قدوم رأس عبد العزيز بن موسى على سليمان
- ٨٠ سؤال سليمان بن عبد الملك موسى عن أخباره وأهله
- ٨٣ ذكر وفاة الأندلس بعد موسى بن نصير - ذكر حج سليمان مع عمر بن عبد العزيز
- ٨٦ ما قال طابوس الجاني لسليمان بمكة
- ٨٧ ذكر وفاة سليمان واستخلافه عمر بن عبد العزيز
- ٩٢ المم عمر بن عبد العزيز
- ٩٦ ذكر قدوم جرير بن الحنظلي على عمر بن عبد العزيز

٩٩	• • • • •	دخول الحواري على عمر بن عبد العزيز
١٠٠	• • • • •	وفاة عمر بن العزيز
١٠٢	• • • • •	ما علم به موت عمر رحمه الله في الأمصار
١٠٣	• • • • •	ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان
١٠٤	• • • • •	ولاية هشام بن عبد الملك
١٠٥	• • • • •	قدوم خالد بن صنوان بن الأعمى على هشام
١٠٨	• • • • •	بدء الثن والدولة الباسية
١١٠	• • • • •	دخول محمد بن علي على هشام — ولاية الوليد بن يزيد وثن الدولة
١١١	• • • • •	قتل خالد بن عبد الله القسري
١١٢	• • • • •	وثوب أهل دمشق على الوليد بن يزيد وقله
١١٣	• • • • •	ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم — خروج أبي مسلم الخراساني
١١٦	• • • • •	ذكر ما آمل أصحاب الكرماني إلى أبي مسلم
١١٧	• • • • •	تولية أبي مسلم قسطنطين بن عيب قتال مروان
١١٨	• • • • •	ذكر البيعة لأبي العباس بالكوفة — حرب مروان بن محمد وقله
١٢٠	• • • • •	قتل أبي سلمة الحلالي
١٢١	• • • • •	قتل رجاء بن أمية بالشام
١٢٢	• • • • •	ذكر قتل سليمان بن هشام
١٢٤	• • • • •	خروج السجاح على أبي العباس وخلعه — اختلاف أبي مسلم على أبي العباس
١٢٥	• • • • •	قتال ابن هيرة وآخذه
١٢٦	• • • • •	كتاب الأمان
١٢٩	• • • • •	قدوم ابن هيرة على أبي العباس — قتل ابن هيرة
١٣٢	• • • • •	كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر وقد هم أن يقطع ويخالف
١٣٣	• • • • •	موت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر
١٣٤	• • • • •	قتل أبي مسلم

١٣٦	قودة عيسى بن زيد بن علي بن الحسين
١٣٧	هروب مالك بن النخعي
١٣٨	قصة ساوير ملك فارس
	خروج شريك بن عون على أبي جعفر وخلعه — اجتماع شبيب بن شيبة مع أبي
١٣٩	جعفر قبل ولايته وبعدها
١٤٢	حج أبي جعفر وقاتله مالك بن أنس وما قاله
١٤٣	دخول سليمان التوري وسليمان الخواري على أبي جعفر وما قالاه
١٤٤	دخول ابن أبي ذؤيب ومالك بن أنس وابن سنان على أبي جعفر
١٤٦	كتاب عبيد الله العمري إلى أبي جعفر — فأجاب جعفر للتصور
١٤٧	اجتماع أبي جعفر مع عبد الله بن مرزوق
١٤٨	ذكر ماتل مالك بن أنس من جعفر بن سليمان
١٤٩	إنكار أبي جعفر للتصور لضرب مالك — دخول مالك على أبي جعفر يعني
	ما قال أبو جعفر لعبد العزيز بن أبي دواد — قدوم الهندي إلى المدينة — موت
١٥١	أبي جعفر للتصور واستخلاف الهندي
١٥٢	ذكر استخلاف هارون الرشيد
١٥٣	قدوم هارون الرشيد المدينة
١٥٦	مسير الرشيد إلى الفضل بن يحيى
١٥٨	ذكر الحافك التطفل
١٦٤	ذكر الأعرابي مع هارون الرشيد
١٦٦	قتل جعفر بن يحيى بن برمك
١٦٦	وصول طائفة أم جعفر بن يحيى إلى قصر الرشيد ماشية حافية
١٧٢	اصصال طائفة أخت الرشيد بجعفر بن يحيى
	مرض الرشيد بالحمى الربيع الذي كان جسده أبو جعفر أخبره أنه يموت بها —
١٧٣	عزم الرشيد على أخذ البيعة لابنه المأمون — عتاب زبيدة زوجته له على ذلك

صفحة

- وفاة الرشيد والمأمون خارج العراق - اتصال أشترار العراق بالأمين وإينار
صدره على أخيه الأمين ١٧٤
- دخول المأمون قصر الخلافة وحبسه أخيه الأمين - هروب الأمين من السجن
وفاته - تمام الكتاب ١٧٥

